هنري علاق

مذكرات جزائرية



دار القصبة للنشر

مذكرات جزائرية

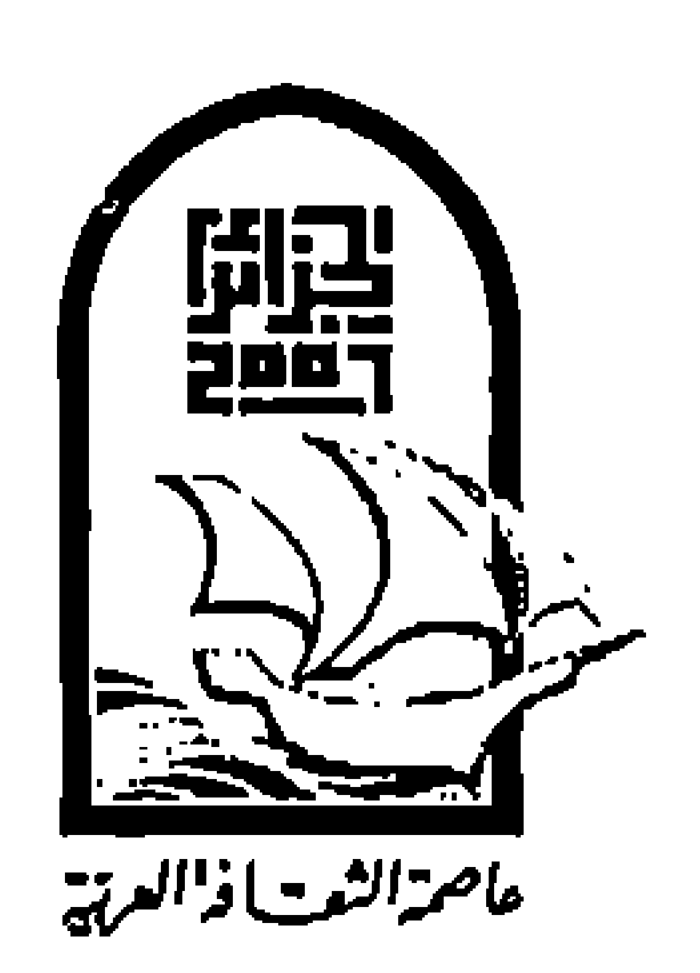
هنري علاق

مذكرات جزائرية

ذكريات الكفاح والآمال

ترجمة : جناح مسعود

عبد السلام عزيزي



دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

العنوان الأصلي للكتاب

Mémoire Algérienne

تدمك : 978 – 9961 – 64 – 664 – 9

الإيداع القانوني 2092 – 2007

مقدمة الطبعة الجزائرية

هل من الضروري وضع مقدمة لكتاب موجه بالخصوص لجميع القراء الجزائريين، تدور قصته عن ذاكرة جزائرية أصلا ؟

ذلك أنهم سيجدون هنا سردا وتأملا لماض يتقاطع مع ماضي العديد من المناضلين الذين انخرطوا منذ شبابهم في المعركة ضد طغيان الاستعمار، أكثر مما سيجدون مقدمة خاصة يمكن أن تبدو غامضة نوعا ما. أقول وأنا أكتب هذه الشهادة أنها ليست مكرسة فقط للجزائريين الذين عاشوا "سنوات الجمر". بل إنها تتوجه لجميع "الرجال ذوي الإرادة الحسنة" الذين يتساءلون في هذه الحقبة المقلقة التي نعيشها حول المستقبل ويرفضون الانحناء أمام الفكر الواحد، وسلطة المال، والقوة العنيفة، والظلامية واللاتسامح، الأنانية والوقاحة، القيم المغالطة المقدمة بخبث كتعاليم نبيلة يحاول سادة العالم اليوم فرضها كقواعد للسلوك العالمي.

أتمنى من كل قلبي أن يتخلص الجزائريون حيث الأغلبية منهم لم يعرفوا الحقبة الاستعمارية والمعارك التحريرية - لم يكونوا قد ولدوا بعد أو كانوا صغارا حتى يفهموا حقيقتها - من هذا التشاؤم المستشري لدى الجميع والمطروح على أساس محصلة لتفكير فلسفي يزعم أنه حديث أو "متعذر

تجاوزه" إلى درجة أن الأمل في "عالم آخر" عالم إنساني، الذي أنعش أجيالا سابقة، يسخر منه اليوم ويقدم على أنه فكر سخي، بل ساذج ومثير للسخرية، بقايا من أزمنة قديمة لا تزال تريك بعد العقول.

وعلى الأقل، سيتسلى علماء السياسة الذين يتصدرون قمة البلاط ممن يستمع إليهم من الأقوياء عندما يتعذر أن يكونوا الناطق الرسمي لهم في انتظار القطيعة مع الأحلام العبثية في "غد رخيم" والقبول بالعيش بدون أوهام في "الواقع" على قساوته، عالم غير عادل ومرعب على حد سواء.

لقد بقيت في الاستماع إلى الشعب الجزائري على مدار عقود طويلة مضت منذ الاستقلال، لذا أدرك جيدا هذه المشاعر الكئيبة، تعتمل في جزء منها لديه، وخاصة بين صغار السن، الذين يتلقون في أغلب الأحيان وبأذن غير صاغية وحتى بسخرية وريبة، الروايات التي يمكن أن يقدمها القدماء عن حياتهم المروعة في ظل إرهاب الاستعمار.

إنه أمر لا يصدق مثلما يبدو، إذ غالبا ما يتم التعبير عن شكوك حول ضرورة أو بالأحرى الفائدة من معركة كلفت الشعب الجزائري غاليا لم تقدم له مثلما يقول نفس الأشخاص، غير الأوهام والفوضى وفقدان الأمل.

إنه النسيان بسرعة لرعب الحياة السابقة، المجاعة المتواترة، الاحتقار، الإهانات العنصرية، التمييز العنصري، الاضطهاد، الاستغلال الذي كان نصيب الجزائريين المستعمرين الذين كان ينكر عليهم حتى وجودهم كشعب.

إنه غض النظر أمام الخطوة العملاقة إلى الأمام التي شكلها انتصاره التاريخي، استعادة الاستقلال، الذي فتح في الأخير أبواب المستقبل.

بمعنى هل أن كل شيء كان وأن كل شيء هو من أجل الأفضل في الجمهورية الجزائرية الفتية اليوم؟ التي أصبح جزء من شبابها حاليا عرضة

للبطالة ومدفوعا إلى الهجرة من أجل العثور ببساطة في مكان آخر على فرصة للعيش في هدوء، ليس من حقه الاحتجاج والتنديد ضد ظلم وضعية ونظام؟

بالتأكيد لا، وليس لهذه الخلاصة أريد أن أنقل قرائي، بل على العكس إلى قناعة أنهم يستطيعون على غرار قراء الأمس من الذين انتفضوا على القلعة الاستعمارية التي كانت تعتبر حصينة بالرغم من الفشل والتراجع والمآسي الدموية التي طبعت المسار أحيانا، للتوصل إلى تغيير الأشياء بنجاح.

وعلى امتداد هذه الصفحات، سيجد القارئ أيضا عددا من الملاحظات النقدية و(النقد الذاتي) التي من شأنها مفاجأته.

بيد أنه بدا لي من الضروري أن لا أخفيها عليه لأنها جوهرية.

إنها جزء من التجربة التي عشتها مع رفاقي وزملائي في المعركة والذين بإمكانهم المساعدة على إدراك مدى تعقيدات الحقبة التي تمت معايشتها.

فالصمت والحقائق المزيفة بخصوص تاريخ الاستعمار وحرب التحرير، ممّا تمّ تغذيته في فرنسا من جهة ومن جهة أخرى في الجزائر لمدة عقود، جعل من الصعب الإدراك الموضوعي لهذه الفترة.

وعليه يجب مراعاة لفائدة الشعبين ولصداقتهما وتضامنهما، نفض الغبار عن هذا الماضي ومواجهة الحقيقة.

كما يجب إبراز الجوانب المجيدة لهذه السنوات والإشادة بها، وبالأخوة المذهلة التي وحدت المحاربين والمناضلين الجزائريين، وبالبطولة الخارقة لشعب بأكمله، وبنسائه المثيرات للإعجاب، اللواتي شكلن جبهة ضد القمع في شوارع المدن وفي الأرياف، في الجبال وفي غرف التعذيب.

وبلا شك، يجب قول كل هذا حتى لا ينسى أحد ثمن الاستقلال المكتسب وحتى لا نترك في الظل الأخطاء المرتكبة.

ليس من أجل إهانة بعض الفاعلين في هذا التاريخ والإشادة بالبعض الآخر، بل كل ذلك فقط من أجل الذين يستخلصون اليوم العبر المفيدة من الأخطاء السابقة.

أليس في هذا وسيلة للتقدم بخطى أكيدة نحو هذه الجزائر الجديدة، نحو هذا العالم المتضامن والأخوي، الخالي من جميع أشكال الاضطهاد والتي تطمح إليه الإنسانية منذ زمن بعيد؟

وإذا كان هذا الكتاب يساهم قدر الإمكان في تحقيق ذلك، فإن نشره في جزائر اليوم لن يكون بدون فائدة على ما أرى.

هنري علاق

من لندن إلى الجزائر

وأخيرا الجزائر ! رصيف يقع أسفل شارع جبهة البحر، تغمره الشمس، حشد من المسافرين ينزل من الباخرة "سيدي براهيم"، تنقض عليه مجموعة من الأطفال بملابس رثة يتنازعون على حمل الأمتعة.

سلسلة لا متناهية من السلالم تختفي لحظة تحت أقبية تنبعث منها رائحة السردين المشوي وشراب الأنيس، قبل الخروج إلى النور بالقرب من منارة ومنحدر يؤدي إلى شوارع المدينة.

وفي المرتفعات، هناك القصبة تسطع بياضا أكثر مما اكتشفتها من البحر، من مؤخرة جسر الباخرة، حيث يتزاحم المسافرون بدون مرقد متى سمح لهم الوقت بمغادرة الرصيف (الحوض) وبعبارة أخرى، مربع الفقراء أو المهاجرين، العائدين إلى قراهم بعد سنوات من المنفى في المناجم أو مصانع فرنسا. إلى جانب هؤلاء قمت بالرحلة انطلاقا من مارسيليا، ساحة كبيرة ذات بياض مبهر، تسحقها الحرارة. كانوا يدعونها وقتها ساحة الحكومة عندما وصلت في أكتوبر 1939 للمرة الأولى.

وقد أصبحت تدعى ساحة الشهداء عند الاستقلال، ويسميها العاصميون بالأحرى بساحة العود "ساحة الحصان" بسبب التمثال الذي ينتصب في وسطها تخليدا لدوق أورليون (Duc d'Orléans) أحد "أبطال الحملة" في أساطير الاستعمار.

والحقيقة، قلة هم الجزائريون الذين يعرفون اسم وتاريخ الفارس موضوع التمثال الذين يمرون أمامه كل يوم. غير أن ما يشعرون به جيدا، هو أن هذا التمثال المصنوع من نحاس المدافع التي أخذت من الجزائريين ونصبت في أسفل القصبة، يوجد هناك للاحتفال بذكرى هزيمة، هزيمة الأسلاف، لقد كان حصان الدوق يتجه علانية نحو الجامع الكبير المجاور، فالغزاة الذين يعلنون أنفسهم ورثة الحملات، عادوا إلى أرض الإسلام بعد قرون من الغياب "للانتقام للمسيحية" لا يستطيعون التعبير بوضوح عن احتقارهم للشعب المهزوم ولمعتقداته.

وفي الجانب الآخر من الساحة، هناك "جامع كتشاوة" القديم يقف شاهدا، إذ بعد طرد المؤمنين بحد السيف، حوّله الجيش الفرنسي إلى كنيسة بمجرد احتلال الجزائر العاصمة.

من ذلك لم أكن أعرف بعد شيئا، كنت أسير في هذه المدينة بلذة، راضيا بلا شك بذكريات وبنزعة رومنطيقية إلى الشرق، وكان يذهلني كل ما ينكشف لي، ألوان السماء المبهرة، الشرفات، شوارع القصبة الضيقة التي تغرقك فجأة في العتمة من انعطافة في ممر لتخرج إلى الشمس، الحرير والأقمشة المطرزة، النحاس، الذهب والفضة المعروضة في دكاكين صغيرة. وعندما يأتي الليل، تتلألأ في الظل الخفيف للشرفات المقوسة وكأنها كنوز في عمق مغارة. حشد ملون صباحا ومساء يضيئه "الحايك"، هذا اللباس الأبيض الذي تلتحف به النساء، والألبسة البيضاء التي يرتديها الرجال والعمامة البيضاء التي يضعونها فوق رؤوسهم، نوطات القيثارة أو زقزقة العصافير الفارة من

بعض النوافذ، الآيات القرآنية المرتلة بصوت الأطفال، وأيضا ضجيج مطارق الإسكافيين والنجارين، وصراخ الباعة المتجولين الذين يطالبون بفتح الطريق لهم، صرير الشواة ورائحة الشواء، معروضات باعة التمر، البطيخ والدلاع، العنب والبرتقال، التين البري، اللبن، الفطائر، الحلويات المعسلة، الزلابية، المقروط، قلب اللوز، البقلاوة التي اكتشفت طعمها وفي نفس الوقت أسماءها، عطر الياسمين، ورد البرتقال، الشاي بالنعناع، التوابل غير المعروفة التي تعبق في الهواء إلى غاية أسماء الشوارع ذات النغمة الغريبة، باب عزون، باب الوادي، نفسية، ميدي، جوبا، سالوت، باربروس، براهيم فاتح، المغاربة، الديفان، ابن سراج، كل شيء وكل كلمة كانت موضوع إعجاب.

إن أكثر ما كان يسرني هو لطافة الناس، استعدادهم للاستماع ومساعدة القادم الجديد الذي كنت أنا.

وكانت لهجتي الباريسية، شعري الأشقر، وبشرتي البيضاء تجعلني مكشوفا للجميع وحتى من طرف أقل الناس فضولا، مثل فرنجاوي.

وبعبارة أخرى مثل "فرنسي من فرنسا" قضى فترة على الأقل قبل أن يستطيع التعرف على المستعمرة. كان يجب عليه أن يكون له إزاء المسلمين حيث لم تكن كلمة "الجزائريين" مستعملة حينها بل "أنديجان والعرب" كجزء من مصطلحات الاستعمار، سلوك مغاير لسلوك أغلب الأوروبيين الذين ولدوا وترعرعوا في عين المكان. ولم أكن أخاطب الجزائريين بصيغة المفرد كما جرت العادة وأقول "السيد" وحتى للأصغر والأكثر فقرا في ملبسه، أما السيدة فقد كانت جد نادرة، كون الجزائريات في تلك الفترة كن غائبات عن الحياة الاجتماعية ولا يراهن الأجانب، فالوحيد الذي تعاملت معه بود وحتى قبل أن أتعرف إليه وكان يبادلني نفس المعاملة، شاب يكسب قوته من مسح الأحذية كنت أصادفه، لم أكن أعثر عليه بالضرورة عند مروري بساحة الحكومة.

لقد كان يبلغ من العمر حوالي عشر سنوات، لا يتنقل بحثا عن الزبائن، كان يجلس تحت أقواس شارع الأميرال بيير (Amiral-Pierre) المحاذي لجبهة البحر، وإن لم يكن هناك، فإنه يتواجد لا محالة بالساحة وحتى جالسا على الأرض أمامه علبته وفرش وعلب تلميع الأحذية، بالقرب من تمثال الحصان.

ومن بين مجموعة أطفال الحي من ذوي الملابس الرثة والأقدام الحافية الذين يحاولون كسب بعض النقود من خلال بيع الجرائد بالمناداة أو مسح الأحذية "أمسح يا سيد مثل مرآة باريس" كان يتميز بشعره الأشقر ووجهه الذي يمتلئ ببقع النمش، وهي حالة تكاد تكون نادرة في الجزائر جعلتهم ينعتونه يدعونه "بالأشقر" التي تنطق "روجي" وهولفظ لطيف.

وكان يبدو في تمام السعادة أن يجد في محيطه رجلا أوروبيا مثله، له نفس لون الشعر وأكثر من ذلك يتحدث إليه بود ولطافة.

كنت أبلغ من العمر ثمانية عشر عاما لكن أبدو دون ذلك..

فلم يكن فارق السن يخيفه، إذ بمجرد أن يراني، يقوم بتحيتي من بعيد، وكأنني كنت واحدا من أفراد أسرته، ملوحا بفرشاته "صحا يا الروجي" وكنت أرد بنفس الوقت "Salut الروجي!" وهكذا أصبحنا أصدقاء.

وكان هناك أيضا شخص آخر أشقر في الحي، رجل ناضج، بدين وعريض، بشوش، تعلو رأسه طاقية لا تخفي شعره الأشقر، لم أكن أسمح لنفسي أبدا أن أناديه بغير "السيد مقران" حتى وإن كان يستخدم معي صيغة المفرد، كان السيد (مقران) يدير مطعما صغيرا على بعد خطوتين من الجامع القديم بشارع الحرية، في هذا الحي من القصبة السفلى الذي شرع في هدمه في نهاية الثلاثينات..

محل جد متواضع لا يرى فيه الأوروبيون غير واحد من بين العديد من محلات الإطعام المخصصة للأنديجان "السكان الأصليين".

يتكون رواده من عمال التفريغ. العمال القادمين من الورشات الصغيرة المجاورة.. الحرفيين، الفلاحين العابرين بالجزائر وهم يرتدون برانيسهم الريفية، وأغلبهم بدون حرفة، يكتفون بقدح من الحساء "الشربة"، أو بصحن من اللوبيا (لوبيا في مرق به الكثير من الفلافل) مع قطعة من الرغيف التقليدي وكوب من اللبن أو الحليب المبستر.

إن وجودي في جو الاستعمار آنذاك، حيث يتعين على كل واحد أن يبقى ضمن حدوده، يشكل استثناء ويثير استغراب وعطف الزبائن، لكن بالدرجة الأولى السيد (مقران) صاحب المحل وكان بإمكاننا أن لا نتناول الطعام على الطاولة ونحمل طلبياتنا في ماعون علينا أن نجلبه معنا. لقد كنت أطلب في أغلب الأحيان الكسكسي، الحبوب، الخضار واللحم والمرق، بكميات كافية لإشباع شهية أربعة أو خمسة شباب من أصدقائي، المجردين من المال وفي حالة مجاعة دائمة.

فالسيد (مقران) رجل كريم، لا يقبض إلا ثمن طبق أو اثنين، بل كان يضيف قائلا للطباخ، في اللحظة التي أهم بتسديد الحساب، ضف قليلا "زيد شوية" للروجي.. لقد كنت أسكن في الجانب الآخر من الساحة، في إحدى المباني التي شيدت بعد الغزو على طراز تلك الفترة غير بعيد عن فندق ريجنس (la Régence)، الذي اختفى منذ ذلك الحين، والذي كان معاصرا بالنسبة إليهم، إذ يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر، قبل أن تذهب البرجوازية الاستعمارية للإقامة بشارع إيزلي وميشلي (Isly et Michelet)، في قلب الحي الأروبي، بعيدا عن شوارع القصبة المتكتظة. كان المنزل جد قديم ولا يزال يحتفظ ببعض الآثار من ماضيه الغني..

لقد كنا ندخله من ممر مغطى يؤدي إلى سلالم من الرخام فقدت مع الزمن لمعانها الأصلي.

كان ضروريا أن نحتاط من السلالم حتى نعرف أين نضع أقدامنا، فقد كانت واحدة من اثنتين متصدعة، كما هو شأن بلاط الأروقة، فقد اختفى التمثال التقليدي الذي يحمل كرة من النحاس أسفل المنزل من هذا الطراز، وحتى الجدران لم تنظف منذ سنوات..

فهناك محلات للتجارة وعائلات ذات أسماء من أصول إسبانية وإيطالية، مالطية وحتى يهودية متوسطة الحال، كانت تقيم في الطوابق مكان المؤجرين الأغنياء ذات مرة، وفي الطابق الأرضي وعند مخرج الممر، نجد محلات لبيع الملابس، الأقمشة، الأحذية، يملكها تجار مسلمون أو يهود.

كان السيد (زيتون) الذي يملك محلا للمجوهرات يبدو الأكثر ازدهارا إذ كان محله يلمع ذهبا وفضة ويعرض الأطواق والأساور والخواتم ذات صنع محلي. لقد طلب مني ذات يوم أن أقدم دروسا في اللغة الإنجليزية لابنه الطالب الثانوي الذي أصبح هكذا أول تلميذ عندي والذي التقيته بعد سنوات في بهو سجن الحراش. ففي الطابق الثاني من المنزل الذي لم يكن يتضمن إلا ثلاثة طوابق إذا ما اعتبرنا الطابق الأرضي، كان يوجد بيت شباب الجزائر وفيه وضعت حقيبة سفري عند وصولي من مارسيليا.

لقد استغرقت وقتا لكي أدرك أن هذه الساحة والشوارع المجاورة للقصبة لا تمنحني إلا صورة مزيفة لما هي عليه الجزائر بالفعل وأكثر من ذلك جزائر ذلك الوقت.

اكتشفت لاحقا "الأحياء الجميلة" للمدينة وحول البريد المركزي، ساحة الحكومة العامة ، شارعي "إيزلي وميشلي" وفي المرتفعات حديقة دوغالون (de Galland) وحي مصطفى الأعلى، إنها جزائر الأوروبيين، الأكثر ثراء..

كما يتعين التذكير أن الأوروبيين الأكثر تواضعا كانوا يتوزعون بين حي باب الوادي إلى الغرب وبلكور وضواحي حسين داي والحراش إلى الشرق.

أما عن الشوارع المجاورة لساحة الحكومة والقصبة، وأنا أتجه إلى البريد المركزي في وسط المدينة، كان لدي شعور وكأني أنتقل إلى آفاق أخرى، أنتقل من البلد "الحقيقي" إلى منطقة ملحقة اجتهدوا في جعلها في صورة مدينة فرنسية : وتقع الحدود بين الاثنين في ضواحي حديقة بروسون (Bresson) حيث ينتهي شارع باب عزون الذي يتقاسمه اليهود والمسلمون ويبدأ شارع دمون دويورفيل (Dumont-d'Urville).

فهناك الأماكن الرمزية، المسرح البلدي أين تقوم الفرق المسرحية القادمة من فرنسا، بعرض مسرحيات وتقديم عروض مسرحية للمجتمع الأوروبي بالجزائر وهناك مقهى (Tanton Ville) الذي كان في بداية القرن، المقهى الراقي للمدينة التي هي تبدو أنها ليست في مكانها في هذا الجزء الذي يقع بالقرب من المدينة العربية.

وانطلاقا من هناك تحولت الجزائر إلى عمالة لمقاطعة فرنسية، شمسها أكثر حرارة، وضوؤها أكثر لمعانا وسكانها أكثر ضجيجا وتوسعا.

فالمقاهي والمطاعم كانت تدعى "الديك المقدام، فيكتور هيغو، البريستول الداربي، الحانة الالزاسية، البيري، هوستلري برسان". وهناك فندق انجلترا، السان جورج، والبرت الأول، وفندق نيس وأسماء على نفس النمط مثلما هو شأن قاعات السينما، ريجان، دوميسيه، مارينيان، ريكس، الماريفو، لوباريس أو شوارع سادي كارنو، فيكتور هيغو، ميشلي، باستور، لافاييت... تعلن في غياب أي شك أن هذه الجزائر لم تكن أقل فرنسية من مارسيليا، ليون أو ليل. ففي هذه الأحياء، كان أغلب المارة من الأوروبيين.

وكان وجود الجزائريين يبدو تقريبا غير لائق، باستثناء أولئك الذين يعملون في وظائف مأمورة، إنهم قلة أولئك الذين يمكن أن تراهم في الحانات أو شرفات المقاهي وقاعات السينما.

فليس هناك مثلما هو الشأن في مدن جنوب إفريقيا لافتات تشير إلى عدم قبول السكان الأصليين، غير أنه وفي حال قيام أحد الجزائريين بالمغامرة أو عن جهل أو بدافع الاستفزاز، سيتم إفهامه بسرعة وبعنف إذا ما كانت لديه الجرأة على الاحتجاج، أن لا مكان له هناك وأن من مصلحته عدم الإلحاح.. وحقيقة القول "لا أشعر بكامل الارتياح، وأنا أيضا في هذا الجزء من المدينة الذي يتناقض مع الجزء الذي أتحرك فيه يوميا. فلا أعرف الشيء الكثير عن الحقائق الاستعمارية، وأكثر من هذا ماذا يجري تحت عنوان "العمالات الثلاثة" غير أنه لم يكن من غير الممكن أن لا تطرح الكثير من الأسئلة التي تفرضها مناظر الشوارع الجد قريبة من القصبة والتي تكذب الفكرة المقبولة من طرف جميع الفرنسيين حول "بلد سعيد ومزدهر، ملحق بفرنسا" : متسولون عميان ينخر وجوههم مرض الجذري، كراسي للمعوقين بدون أرجل يدفعونها بقوة السواعد، ذوو عاهات يجلسون على الأرصفة ويعرضون ما بقي من العضو أو الجزء المقطوع، بؤساء يملؤون الشوارع، يمدون اليد، أطفال في ثياب رثة ينامون على الأرض، نصطدم بهم ليلا تحت الأقواس ويبدو أن بعض هذه الكلمات العربية "الله ينوب" هي أول ما يجب أن يتعلمه أجنبي في البلد في أقرب وقت لكي يتجنب البؤساء الذين يطلبون الصدقة "وعددهم كبير.. ولا يمكن التصدق على الجميع".

أنه موقف متكبر وعدواني مفضوح أو مزدرى متستر من الأوروبيين إزاء السكان الأصليين..

يقفز كل هذا إلى أعين القادم الجديد، إذا لم يصمم على الاحتفاظ بهما مغلقتين حول الحقيقة التي تهزه..

وفي باريس، كنت طالبا في ثانوية رولان (Rollin) التي أصبحت بعد 1939 - 1945 جاك ديكور (Jacques-Decour)، تخليدا لمؤسس الآداب الفرنسية الذي نعرفه تحت اسمه الحقيقي جاك ديكور دومانش، أستاذ الألمانية، بطل

المقاومة ومناضل شيوعي، أعدم من طرف النازيين في جبل فاليريان (Valérien)، وفي الأقسام الثانوية تعلمت على غرار زملائي أن "الجزائر كانت فرنسا" أما عن الجزائريين، فلم أكن أعرف أحدا..

فالقوانين تسهر على منع العمال المهاجرين من أي تجمع عائلي، وبالتالي لم يكن هناك أي طالب من أصول مغاربية في المؤسسات التعليمية لتلك الفترة. لقد علمونا أن لفرنسا إمبراطورية واسعة حيث نقلت الحضارة والتقدم. وكان بإمكاننا بعد في المدرسة الابتدائية أن نعجب بخريطة معلقة على الحائط تشير إلى مدى شساعة الأراضي التي تستولي عليها فرنسا.

إن كل ما كان يحمل اللون الوردي كان لنا، وقد فسر أحد الأساتذة ببعض الحزن يعلو نبرته لو أن الظروف كانت مختلفة، فإن كندا التي تنازل عنها لويس الخامس عشر (Louis XV) إلى بريطانيا ولويزيانا التي باعها نابليون الأول (Napoléon Ier) بمبلغ بائس في حدود ثمانين مليون فرنك ذهبي للولايات المتحدة، لكانتا قد بقيتا اليوم في حضن الوطن. وكان مجالنا الاستعماري عندئذ الأول في العالم، يتجاوز من حيث المساحة مجال انجلترا المسجل بالأخضر على الخريطة، والذي يبعث اتساعه على الازدراء.

ففي إحدى أيام السنة الدراسية 1931 - 1932 (كان عمري عشر سنوات)، أخذنا معلمنا لزيارة المعرض الاستعماري المقام في فانسان (Vincennes). كنا نقف في صف من اثنين، وقد اكتشفنا عجائب وثروات "الإمبراطورية" وأسواق إفريقيا الشمالية، القرى الافريقية التي أعيد تشكيلها، المزارع، حقول الأرز في الهند الصينية، أفرشة القش، والشواطئ البولينيزية، وقد اختتمت الزيارة بأخذ صورة تذكارية لجميع القسم عند أسفل سلالم معبد أنكور (Angkor) الساحر ذي المشهد الأخاذ الذي أعيد بناؤه من الجص معجون المرمر والجبس والخشب، كانت تلك زيارة موجهة لكي تطبع عقولنا الطرية إلى الأبد.

لم يتوان المعلم وهو يعلق على ذلك اليوم في التأكيد على المنافع التي لا تقدر بثمن والتي قدمتها الجمهورية تحت ثنايا العلم الثلاثي الألوان للسكان المتخلفين الذين يعيشون في هذه الأقاليم.

ففي الثانوية وفي السنة الرابعة، وبدون أن يطلبوا رأينا كثيرا، أدخلونا في الجمعية البحرية والاستعمارية، وهي منظمة شبه رسمية، يتمثل هدفها في بعث الطابع العسكري والاستعماري في روح الشباب.

وحقيقة القول، أن هذا التحريض الإمبراطوري لم يكن له كبير التأثير على نفسي، فالوسط الذي أنحدر منه يحميني بلا شك، لقد ولدت في بريطانيا من عائلة يهودية ذات جذور روسية وبولونية.

كان جدي لجهة أمي يدير مخبزة أقصى شرق لندن وفي شارع هانتون (Hunton Street) على وجه الخصوص، غير بعيد عن الطريق التجاري الذي كان أكبر شارع في الحي.

ولا يزال شارع (هانتون) موجودا إلى الآن، أو بالأحرى اسم الشارع الوحيد الذي يقاوم كون أغلبية بيوت تلك الفترة تم تهديمها بالقنابل خلال الحرب العالمية الثانية.

فقد استطاع المعبد اليهودي القديم في زاوية شارعي فورينر وبريك لين (Fournier Street et Brick Lane) والذي كان في الأصل كنيسة بنيت في القرن السابع عشر من طرف الهوغنوت (huguenots) الذين هربوا من الاضطهاد أن يسلم من القصف غير أنه في غياب الأتباع الذين أهملوا الحي، تحولت العمارة إلى جامع بعد أن تم شراؤه من طرف مهاجرين جدد من بنغلاديش وباكستان.

إنهم هؤلاء من يعمر اليوم بكثافة هذا الجزء من مقاطعة وايت شابل (Whitechapel) ويسميها اللندنيون "بنغلاتاون"(Bonglatown).

لقد هرب أجدادي من الإبادة التي كان يتعرض لها اليهود ومن البؤس الذي كان سائدا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الإمبراطورية الروسية واستقروا هنا في وقت مبكر، لقد تم تجنيد جدي مرغما ومجبرا لعدة سنوات في جيش التسار (tsar) وعلى غرار جميع الذين قاموا بهذه التجربة، احتفظ بأسوأ الذكريات وفضل عدم الحديث عنها إطلاقا، أما الأسرة ذات السبعة أطفال، فقد تحولت بسرعة إلى الديانة الانجلكانية وأصبح أحد أعمامي الذي خدم في البحرية الملكية الانجليزية خلال الحرب العالمية الأولى إنجليزيا أكثر من الإنجليز أنفسهم من بين اجيال من الأسلاف، لم يغادروا إطلاقا ظل وستمنيستر (Westninster) إلى درجة أنني تعرفت وأنا أقرأ بياردانيوا (Pierre-Daninos) لاحقا تعرفت على الميجور طبومسن (Thompson) وهو من كنت أفكر فيه. لقد كان يملك شنبات جد مشذبة ويرتدي الملابس الارستقراطية، السترة السوداء، المنديل الأبيض، السروال المزركش، القبعة المستديرة وبطبيعة الحال المظلة المطرية التي لا يتخلى عنها إطلاقا، كل شيء باستثناء ربما الدعابة التي تنقصه تماما إلى درجة لا يدرك معها أبدا أنه الهدف المفضل لتهكم أحفاده وبقية الأسرة، ليس فقط بسبب عاداته المستهجنة وشكله الكاريكاتوري كموظف نموذجي في المدينة، بل أيضا لأنه أمام زوجته أونتي كاتي (Auntie Katie) المتسلطة التي تقرر كل شيء سواء في المنزل أو في الأعمال، يتصرف وكأنه طفل صغير يخشى أن يتعرض للزمجرة.

لم يكن لدى العم غوردن (Gordon) والخالة أونتي كاتي (Auntie Katie) بعد أطفال، وكنت أقضي جزءا من عطلتي في ضيافتهم، لقد كان لديهم محل للموضة في حي بارنز بالقرب من ريشموند، حي راق يحتوي على حديقة كبرى وعلى بركة حيث نتجول في المراكب وبكثير من الحظ نستطيع صيد أسماك لا يتجاوز عرض أكبر سمك اصطادها حجم أصبعي.

لقد كنت أقضي الأمسيات مرفوقا بطفل من أترابي اختارته لي زوجة عمي كرفيق ألعاب والذي كان إبنا لأحد جيراننا، رجل شرطة ضخم الجثة.

وبالرغم من جاذبية بارنز كنت أفضل الإقامة لدى جدتي (التي أصبحت أرملة في سن مبكرة) أو عند أحد الأعمام (Barnes) الذي أحب كثيرا أحد أبنائه دافيد بيكر (David Baker) الذي يكبرني بعدة أشهر الذي أصبح ابن عمي المفضل.

لقد كان يفضل المزاح بجرأة نادرة تجعل والده الذي كان شقيق والدتي الأكبر يبتسم، لقد كان يحلو له أن يحوّل إلى مثار السخرية القواعد والمؤسسات التي تعتبر مقدسة لدى جميع العائلات المحترمة في إنجلترا. فقد كان يبدي عدم احترام كلي إزاء العائلة المالكة، ينشر النكت الشائعة حول طيش ومجون أمير بلاد الغال وأمام التذمر الكبير لجدتي كان يسخر من المعتقدات والخرافات التي كانوا يتعلقون بها.

لقد كان ذا روح ساخرة ورثها عن أبيه بلا شك، فهو فولتيري بدون أن يدرك ذلك، كان يغريني وجدتي التي تخشى التأثير السيء الذي استطاع أن يمارسه عليّ وكانت تحذرني "لا تستمع إلى ما يقوله دافيد.. إنه أكثر ذكاء منك" الأمر الذي يجعل ابن عمي ينفجر ضحكا.. وبعد سنوات تم توظيفه كملاح على طائرة مقنبلة لسلاح الجو الملكي وكاد أن يفقد حياته في إحدى المعارك الجوية فوق منطقة دييب (Dieppe).

وبدون العودة حتى إلى الأسطورة العائلية، فقد كانت ثقافتهم السياسية سطحية (فمنذ أن حصلوا على التجنس أصبحوا يصوتون باستهزاء يسارا فهم اشتراكيون أولا، ثم شيوعيون) لقد كانوا مترددين أمام كل ما يذكرهم بالجيش والمجد الحربي، لقد غادر أبي وهو في سن صغيرة الجزء الروسي من بولونيا لتفادي الخدمة في جيوش "التسار" ليلتحق ببريطانيا، إني لا أعرف إلا الشيء

القليل عن تاريخ أسرتي من جانب الأب، أتذكر فقط أن جدتي سيدة عجوز يغلب اللون الأسود على ملابسها وذات الشعر الطويل المتدلي إلى الوراء وقلادة ذهبية في رقبتها، كانت قد زارتنا في باريس في الفترة حيث كنت لا أزال طفلا.

وبدون أن يكونوا أغنياء، فإن هؤلاء الأولياء الكبار، لم يكونوا يعيشون في ظل الاحتياج، فهذا الجد البولوني الذي لم أعرفه إطلاقا كانت له بعض المستقعات بها أسماك يديرها تجلب له بعض الأرباح، لقد كان هناك أطفال كثيرون وكنت أعرف شقيقين لأبي استقرا في باريس، أحدهما توفي بمرض السل بعد أشهر من وصوله، والثاني متزوج وأب لطفلين، نجا من الحرب، غير أن علاقتنا بقيت جد مرتخية..

لقد كان أبي الذي لا يهتم كثيرا بوطنه السابق أو بديانته، جد فخور بمواطنته الفرنسية التي اكتسبها للتو وبدون أن يعرف أيّا كان سكانها، كان يتحدى بصفة فطرية كبار الوطنيين في تلك الفترة، ويشتمّ منهم حتى ولو أنهم لا يعلنون ذلك صراحة، اتجاهات معادية للسامية، أما بالنسبة لأمي فقد بقيت متعلقة عاطفيا بإنجلترا وبما تعلمته في طفولتها والعادات التي احتفظت بها لكي تكون "محترمة" وعلى سبيل المثال بعض المظاهر الخارجية للدين، لكن ليس إلى درجة الإرهاق أو ترك جذوة روح النقد التي تتمتع بها تنطفئ، وبالرغم من أنها تتكلم الفرنسية بسلاسة وراحة (فقد كانت في شبابها راقية مزدوجة اللغة وتفضل جريدتي Petit Parisien و Paris-soir اللتين تشتريهما كل يوم، إضافة إلى الكتب والجرائد والمجلات باللغة الانجليزية، وبقيت مشتركة في الدايلي ميل (Daily Mail)، ليس لأن هذه الجريدة المحافظة تستجيب لآرائها بل لأن صبغتها القارية تحمل لها أخبارا جديدة من البلد ويمكنها من متابعة كل شيء يخص العائلة المالكة..

وحول هذه النقطة، بقيت على الدوام غير لصيقة وقادرة على استذكار تواريخ آخر حفلات الزفاف الأميرية، وفاة الملك جورج الخامس (George V)،

عزل ادوارد الثامن (Edouard VIII)، تتويج اليزابيت الثانية (Elisabeth II) وميلاد أبناء العائلة المالكة، فالفكاهة التي تشكل إحدى سمات طباعها، تسمح لها بعدم الاستياء من التهكم الذي نمارسه أنا وأخي ألبرت (Albert) الذي يصغرني بأربع سنوات حول طريقة تبدو لنا برقة مثيرة للسخرية وعندما يكون لديها وقت.

وعندما تسمح الميزانية العائلية لشراء آلة موسيقية فإنها تجلس إلى البيانو وتبدأ في عزف مقطوعات من الأوبريت التي عرفت نجاحا على الساحات اللندنية قبل الحرب العالمية الأولى مثل chu, chin, chow أو أغنيات شعبية انجليزية أو اسكتلندية لصاحبها لوش لومند وعنوانها : (It's a long way to Tipperary) والتي كانت بمثابة أولى الأغاني التي تعلمتها.

يعود مرد قرار أهلي بالإقامة في فرنسا إلى سلسلة من الظروف الطارئة، ومثل العديد من الشباب في انجلترا، غداة الحرب العالمية الأولى، كانت تجذبهم أمريكا وقد صمموا الذهاب للعيش في الولايات المتحدة في اليوم الموالي لزواجهم.

غير أنهم وقبل مغادرة لندن، قرروا قضاء شهر العسل في باريس، وهكذا وصلوا ذات 14 جويلية من سنوات العشرينيات وقد ذهلوا لاكتشاف مدينة حيث يرقص الناس على أضواء مصابيح ثلاثية الألوان إلى غاية ساعة متأخرة من الليل وحيث تبدو الحياة مسترخية وسعيدة مقارنة بما يعرفونه عن تزمت وبرد مدينة لندن.

وقبل العودة إلى إنجلترا، أدركت أمي أنه تم سرقة مجوهراتها التي تركتها في الفندق.

لقد كانت الفترة التي يستثمر فيها الأزواج متوسطو الحال مدخراتهم في الذهب والألماس، إذ بمجرد ما تحول هذه الاحتياطات إلى نقود، ستمكنهم

من الإقامة في الولايات المتحدة وعند العودة إلى إنجلترا وتحت ضغط العائلة وبسبب السرقة التي راحت ضحية لها، تقلصت إمكانياتهم الاقتصادية وتخلوا عن الذهاب نحو بلد كان في ذلك الوقت يبدو جد بعيد.. وهكذا أرادوا مغادرة إنجلترا وقرروا في الأخير الذهاب إلى فرنسا، حيث أن أحد أصدقائهم الممتازين "خياط إنجليزي" حيث كان يقيم من قبل، ألح على تسريع مجيئهم معظما لهم تسهيلات التأقلم التي سيجدونها.

فقد فتح أبي أوّلا دكانا للخياطة بشارع سان مور (Saint-Maur) غير بعيد عن ساحة الجمهورية.

لقد كانت أول مدرسة لي، هي المدرسة الداخلية التي تتولاها راهبات (أعتقد أنها مدرسة سان فانست دوبول) في شارع دو كورون (Couronnes) غير بعيد عن محطة المترو التي تحمل نفس الاسم.

فلم تر أمي مانعا في أن أقوم بأولى خطواتي المدرسية تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية، غير أنها لم تكن سعيدة لبلوغ ذلك لمسامع العائلة الإنجليزية، التي بقيت جد صارمة في وفائها لتقاليد ومعتقدات الأجداد والتي قد تهتز أكثر للفضيحة عندما تعلم لاحقا أنه بإمكاني أن أغني عن قناعة مقطع أو مقطعين من التراتيل المسيحية.

إن محيط العائلة وبصفة عامة من أصل يهودي لا يثّمنون التحولات التي ينظر إليها حتى من كانوا بدون ديانة على أنها نوع من الإنكار، اختيار جد حقير لطريق سهل للاختفاء وراء المبررات والتمييز - ومن يعلم - من الاضطهاد الذي لا نعلم إطلاقا إذا لم يبعث يوما ما من جديد.

لكن مدرسة الأخوات البيض كانت الأقرب والأكثر عملية وأمي لم تفكر إطلاقا أن التردد عليها يمكن أن يؤدي بابنها إلى مقايضة الدين الذي ولد عليه بديانة غير الديانة اليهودية، لقد طلبوا منها لحظة تسجيلي ما إذا كنت

معمدا، وبدون تردد قالت نعم، وفسرت لاحقا للذين انتابتهم الدهشة وهي لا تزال مترددة باللغة الفرنسية، أنها لم تفهم السؤال جيدا، وكان أبي لا يعير كبير اهتمام لهذه المسائل، تاركا لأمي خيار القرارات التي تهم الأطفال.

وقبل ذلك بزمن بعيد، كان لا يهتم لا بالأعياد التقليدية، ولا بمعرفة ما إذا كان الطعام الذي يأكله حلالا أم حراما في الديانة اليهودية، بل على العكس، كانت متعة نادرة، فهو جد مشغول بعمله في دكانه أو في سوق سانت كين (Saint-Ouen) حيث يملك جناحا، أين يتناول سندوتش في الغداء أما العشاء ففي إحدى الحانات القريبة حيث كان يتناول قطعا من لحم الخنزير والنقانق والأصداف وغيرها من أنواع اللحم اللذيذ بالرغم من أنها "مغشوشة".

ولم تكن أمي تبدي استياءها، غير أنها كانت تطلب منه عندما يجلب هذا الطعام إلى المنزل، أن يستهلكه في التغليف الذي يحتوي عليه وليس في أطباق المنزل التي تريد الاحتفاظ بها "طاهرة"

وإذا كان أغلب الممونين أو التجار الذين يعمل معهم والدي، من اليهود المهاجرين من الشرق والتي كانت لغتهم الأولى العبرية التي يتحدثونها فيما بينهم، فإن أصدقاءهم المقربين من الفرنسيين الأصليين، ومن بين هؤلاء آل ألبرت، الأفرجان (Auvergnats) الذين وصلوا إلى باريس في سن الشباب، والذين أصبحوا مالكين لفندق وتجارة الفحم بالقرب من شارع بلفيل (Belleville) .

ويرتدي السيد (ألبرت) باستمرار اللون الداكن، وسترة مفتوحة على صدرية سوداء تزينها قلادة كبيرة من الذهب كما يحمل ساعة تدق كل ساعة ونصف.

وكان يبلغ حوالي الستين من العمر في الوقت الذي كنت لا أتجاوز فيه سن العاشرة وكان ذا شنبات مقوسة نحو الأعلى على شكل ناموسية مدهونة إلى أقصى حد، وهي شنبات مثيرة للإعجاب.. كان يأتي للجلوس في الدكان، يتحدث عن الجو، الأعمال، المتفرقات... يقدم توصيات تنال رضا أهلي

ولأنني كثيرا ما كنت أسمعهم يذكرونه: "قال ألبرت أن ..." لقد كانت إحدى غرف فندقه أول مسكن لهم عندما وصلوا إلى باريس قادمين من إنجلترا .

لقد كسب ودّهم وقدم لهم خدمات كثيرة وساعدهم على إيجاد مسكن أكبر بكثير وأكثر ملاءمة (غرفتين ومطبخ) حيث كنا لا نزال نستخدم الغاز في الإنارة، وعلى تدبر الأمور في مساعيهم من أجل الحصول على أوراق الإقامة والعمل وحتى الحصول على الجنسية الفرنسية...

لقد تساءلت لاحقا عما إذا كانت صداقة (ألبرت) لأهلي مردها كونه عاش وضعية المهاجرين في شبابه عندما وصل إلى باريس بدون موارد وهو لا يملك شجاعته وطاقته وهو الذي ينحدر من مونتجيزيو (Montjezieu) قرية قريبة من كانورغ في مقاطعة لوزير (Lozère).

لقد كان لأهلي صديق آخر يتردد على دكانهم السيد لومرسييه (Lemercier)، شخص جد مسن ذو وجه نحيل، حليق الوجه، يضع قبعة بلاستيكية عريضة على رأسه، لقد كان رساما من أصول إسبانية من جهة والدته.. كان يحلو له أن يذكر أنه من مواليد باريس ولم يغادرها إطلاقا . ومن حين لآخر، كان يقوم بإهدائهم إحدى لوحاته.

إنني أذكر منظرا ثلجيا أهداه إياهم وقد علق فوق سلة التحلية بقاعة الأكل، وقد رافقت هذه اللوحة العائلة في ترحالها وعاشت تمزقات الحرب في حين اختفت إحدى المنمنمات، رسمت وأطرت خصيصا لي مع إهداء: إلى صديقي الشاب (هنري) التوقيع لومرسييه.

إنها لوحة صاحب القلنسوة الحمراء يعبر الغابة وسلته في يده على الطريق المؤدي إلى منزل جدته حيث كان الذئب في انتظاره ليفترسه.

لا أدري كم كان بالضبط عمر السيد (لومرسييه) آنذاك في تلك الفترة من حياتي، لقد عاش طويلا لكي يتذكر بلدية باريس التي تكلم عنها ذات يوم

بحرارة كبيرة أمامي، بدون أن أدرك ماذا كان يعني ذلك. لم تكن دروس التاريخ في المدرسة الابتدائية ولا لاحقا في الثانوية التي بإمكانها تزويدي بما كنت احتاج إليه من معرفة، لأنها تتجاهل عمليا كامل هذه الفترة وفي المقابل وفي نقاش جد ساخن واصل الحديث على مسامعي مع زبون كان في الانتظار داخل الدكان.

وعندها أدركت أنه يكره المسمى رودان (Rodin) وتشكيلات رسوماته (أو فنه التشكيلي) لم أكن أعلم بعد من هو (رودان) هذا.

وأكثر من ذلك، ولسنوات خلت، أثار عمله جدلا شرسا، إلا أنه وبعد زمن طويل، لازلت أذكر بعد بعض الكلمات النهائية ألقى بها السيد (لومرسييه) على مسامع خصمه: "تعرف من هو مفكره؟ حسنا، حاول أن تأخذ نفس الوضعية جالسا كما هو.. الكوع على الركبة المعاكسة، ليس فقط لن تستطيع التفكير، بل قد تغامر بكسر وجهك.."

بعد مدرسة الراهبات، دخلت وفي نفس الحي إلى مدرسة ابتدائية بشارع داربوي (Darboy) عند زاوية شارع سان مور.. وقد لقبني أحد معلميها وعلى إثره تلاميذ الفصل "إنغليش" (l'Angliche) في حين عندما كنت في إجازة في لندن، كان تلامذة (هانتون ستريت) ينادونني "Froggy" لقب يمنح عادة لأكلة الضفادع.

وفي الثانوية لاحقا، نادرا ما كنت أسمع الشتائم العنصرية مثل "يهودي قذر" أو "إهودي" وهو ما كان يؤدي لا محالة إلى عراك بين الأصدقاء موضوع الشتيمة (من يهود وغير يهود) وبين أصدقاء الشاتم، لقد كانت هذه الحوادث نادرة وفي الواقع غير ذات انعكاسات فعلية، إذ أن الوضعيات الاجتماعية للأولياء وآراءهم العامة وخاصة ابتداء من الأقسام الابتدائية والثانوية، حيث الأذواق، التناغم والقناعات الشخصية، التي كان يطورها المراهقون، تلعب

دورا كبيرا في تقاربهم أو تباعدهم (تقارب أو تباعد هؤلاء من أولئك) أكثر من الدين أو أصل العائلة التي ينحدرون منها.

لم تكن معاداة السامية والعنصرية منتشرتين بالرغم من وجودهما، كما أنهما لم تكونتا أيضا مستمدتين في تلك الفترة من طابع الحقد الشرس، المرعب والقاتل الذي يوقظ الشياطين النائمة واللتين ستصيب جزء من أوروبا بالعدوى بعد سنوات قادمة.. ولا أحد كان بإمكانه أن يتصور إلى أي درجة من البربرية سيؤدي المذهب النازي الذي سيجتاح ألمانيا..

فالمهاجرون الجدد من البلدان التي عرفت ذات مرة مذابح اليهود لا يزال محفورا في ذاكرتهم أن ألمانيا كانت إحدى البلدان الأكثر تحضرا في العالم وأنه من العبث تصور تجدد جرائم مماثلة في قلب القرن العشرين وأن فرنسا في جميع المجالات، بلد الديمقراطية والتسامح، ستكون في مأمن على الدوام وكانت المبررات العرقية القاسية والمؤدية لا تزال منتشرة وحتى خلاصات قضية دريفوس (Dreyfus) التي كانت تبدو بعيدة قد أخروها، إذا قامت أحزاب اليمين المتطرف وصحفها من (Gringoire) إلى (L'Action française) وبتكالب على أحيائها، وقد استعاد بعض رؤساء الأحزاب ولحسابهم الأطروحات الهتلرية حول المناورة "اليهودية ـ البولشفية" والمعركة الضرورية من أجل الدفاع عن العرق، ضد غزو الأجانب المقيمين في غير بلدانهم (الدخلاء).

فالأفكار السامة التي ستصبح عقيدة رسمية في عهد Vichy والتي يعبر عنها بفضاضة وحتى في البرلمان، كثيرا ما ازدهرت أيضا في مفردات طلاب المدارس الذين تبنوها لحسابهم بدون قياس أبعادها، أبعاد الأحكام والتعابير التي سمعوها في مكان آخر وفي نقاشات الكبار.

وعندما غادرت المدرسة الابتدائية، تساءل والدي عما إذا كان من الحكمة أم لا أن أتابع الدراسات الثانوية. ولقد كان أبي من المتحمسين الأكثر

تصميما، ولقد كان يريد تلقين أولاده التعليم الذي لم يتلقاه هو نفسه وكانت رغبته في رؤيتي ذات يوم، أنهي دراستي وأكون على رأس صيدلية كبيرة، تجارة نظيفة ومحترمة وعلاقات طيبة. كان لأمي رأي مخالف، إذ تعتقد أن الوسائل المالية للعائلة لا تسمح بمثل هذا الطموح، وأنه من الأفضل أن أبدأ العمل في أقرب وقت. وفي الأخير، فإن إرادتي الخاصة وحصولي على منحة نصف داخلي في الثانوية كان له تأثير في الاتجاه الآخر..

لم أكن أعرف بعد الشيء الكثير عن المشاكل الكبيرة التي تحرك العالم.. لكي أعرف في أي معسكر يجب أن أكون. وحتى لو أن السياسة كانت ممنوعة في الثانوية، فإنها كانت تدخل بطرق مختلفة.

لقد كنت أسمع والدي يتكلم عن الأزمة، عن البطالة ... وكنت أرى كل يوم بالقرب من باب (كليبونكور) وحول شارع نوويي (Ney) الذي كان قريبا من شارع بوتو (Poteau) حيث رحلنا طوابير، أمام المطاعم العمالية لغير العاملين يرتعدون من البرد أو ملتفين حول موقد في انتظار وجبة يومية ضعيفة تقدم للسكان الأصليين من طرف جمعية الحساء الشعبي للحي.. وكان يتحدث أيضا عن الحرب القادمة، عن الخطر النازي.. وذات يوم وفي وسط العام الدراسي، وصل إلى قسمنا في السنة الرابعة تلميذ يدعى وولف (Wolf) من أسرة يهودية استطاع أن يغادر ألمانيا التي أصبح يهيمن عليها الصليب المعقوف، إن تواجد طفل بيننا من سننا، طرد من منزله ومدرسته وبلده، جعلنا نفهم أكثر من الخطاب، مأساة أن تولد في ظل ديكتاتورية فاشية.

لقد كان (وولف) خجولا ومنزويا، لا يعرف إلا بعض الكلمات الفرنسية عند وصوله، لقد فاجأ الجميع بدءا بالأساتذة الذين سيضربون به المثل لاحقا: مجتهد، مثابر، الأول أو الثاني في جميع المواد، ما عدا في مادة الفرنسية التي استغرقت منه بعض الوقت ليتحكم فيها.

كان للأيام الساخنة لشهر فيفري 1934 انعكاساتها على الثانوية، لقد تعرضنا للضرب في ساحة "الكونكورد" وحكى لنا أحد الأصدقاء أن والده الذي ذهب للتظاهر ضد صليب النار قد تعرض للضرب على يد رجال الشرطة، لقد كان أيضا موضوعا للنقاش بيننا، ثم جاءت الإضرابات الكبرى واحتلال المصانع، إنه منظر مذهل يستوقفني عندما أمر أمام ورشة في الحي حيث سدت الأبواب والجدران بالقماش الذي كتبت عليه مطالب العمال، وكان المضربون من العاملين في التعدين متمرسين بقوة في دردشاتهم ويتواجدون في نوافذ الطوابق العليا، ترفع إليهم سلال التموين والملابس النظيفة التي تحملها لهم رفيقاتهم أو أمهاتهم والعكس، تنزل الأواني والقطع المرجعة للغسيل نحو الشارع، كان يتم كل هذا في جو من المرح وكان نصر العمال قد أصبح مكتسبا بعد وكنا نسمع مقاطع من أغنية ذائعة الصيت قادمة من داخل المصنع، ترافقها أنغام آلة الأكورديون التي كانت تستوقف المارة وتجعلهم يصفقون.. وفي الأخير، انفجرت الجبهة الشعبية، إنه من المستحيل أن لا تشعر بالهزة وحتى من وراء أسوار الثانوية. ففي الأقسام العليا كان الطلبة مع أو ضد.

وبالرغم من أقلية أبناء العمال في هذه الثانوية مثلما هو الشأن في جميع المؤسسات الثانوية لتلك الفترة، فإن أغلبية التلاميذ كانوا يبدون مساندتهم ويعرف كل واحد منهم أسماء الأساتذة من يفكر في نفس الشيء بالرغم من عددهم الكبير نسبيا. لقد كانت الوضعية الجغرافية للثانوية بلا شك إحدى الأسباب التي أدت إلى ذلك.

لقد كان يسكن الأحياء المجاورة (مونمارت، شارع روش، شارع باريس، شارع أورنانر، إلى غاية بورت كلينيكور والشوارع القريبة من الدائرة الثامنة عشر) يعدّون سكانا من الدرجة الدنيا، أناس يقعون إلى اليسار أو من أهله..

كان أهلي أقل انخراطا في المسائل السياسية، وكانوا يميلون بصفة غريزية إلى هذا التيار. لقد كانت مصطلحات زبائنهم من العمال والموظفين ممن يناصرون في الغالب الجبهة الشعبية. الأمر الذي يعزز فكرة انتمائهم إلى نفس التيار.

وفي إحدى الأيام حيث كنت في الدكان، أنهى والدي تقديم خدمة إلى أحد الزبائن المعتادين، وكان يطلب مني أن أتواجد معه باستمرار بعد خروجي من المدرسة، قصد مساعدته، وهي مهمة أكره القيام بها لكن كان علي أن أقوم بها، ولحظة خروج الزبون وهو عامل، شاهدني وراء المرفق وأشار إلي بأصبعه، وخاطب أبي بصيغة المفرد: "هل هذا ابنك؟ "سيكون هذا الأخير لاحقا شيوعيا" لم يكن يعلم.. وأنا أيضا لم أكن أعلم، إلى أي حد تتأكد النبوءة، لكن في تلك اللحظة لم أكن آخذ الأشياء كمجاملة.

بأي حق يسمح لنفسه بالقول ماذا سأكون، وكيف يتعين عليّ أن أفكر؟ لقد تقبل والدي الفكرة والملاحظة كعلامة ود ومحبة كبيرة بالنسبة إليه ولجميع العائلة..

وابتداء من السنة الرابعة، كان التلاميذ يتوزعون يمينا ويسارا، بدون أن تستخدم هذه الكلمات للدلالة على الاتجاهات الكبرى التي تجذبهم أو تجعلهم متعارضين، لهذا كانت الحدود بين هؤلاء وأولئك غير واضحة تماما ولم تكن تظهر في بعض المناسبات.

إنني أذكر الجدال المثار في القسم الرابع من خلال الكلمات الجد ساخرة لأحد أساتذة الأدب إزاء "المبادئ الكبرى" للثورة الفرنسية وزعمائها، روبسبير (Robespierre) وسانت جوست (Saint-Just) لقد كانا من بين أبطالي وبدون أن أرفع أصبعي لطلب الكلمة، مثلما جرت العادة، حالفت رأيه باستياء وبطريقة جد متغطرسة، لقد كان رجلا ذكيا وبدون شك قد تسلى

بلغتي العنيفة، فلم يشهر التهديد بالعقاب واكتفى بالإبقاء على وجهة نظره، ومن بين التلاميذ كان هناك من يرافقني ومنهم من يتعلق بما قاله الأستاذ البروفيسور وهناك عدد كبير من الشباب غير المبالين.

وفي السنة الثالثة.. كانت المواقف أكثر وضوحا.. بالرغم من أن أصدقائي من اليسار من ذوي التوجه الجمهوري المناهضين للفاشية، كانوا مرتبكين لتفسير الاتجاه السياسي المحدد الذي تتجه إليه ميولهم وبالرغم من ذلك كانت هناك بعض الاستثناءات..

فقد كنت أعلم على سبيل المثال أن كلود لالي (Claude Lallet)الذي كان في فصل دراسي أعلى من القسم الذي أدرس فيه كان يدعي الشيوعية.

فقد توفي في شاتو بريون مقتولا بالرصاص إلى جانب آخرين ومن بينهم غي موكيه (Guy Moquet) من بين أصغر الأسرى.

وكان كلود ديرفوس (Claude Dreyfus) زميلي في الدراسة إلى غاية الثانوي قد التحق معي بحركة أمستردام بالايل (Amsterdam-Pleyel) ، وهو تجمع دولي ضد الفاشية ومن أجل السلام الذي يرأسه رومان رولاند (Romain Rolland) وهنري باربوس (Henri Barbusse) وكان بصدد الانضمام إلى الشبيبة الشيوعية.

لقد تعرض بعد سنوات إلى التوقيف ثم نقل إلى مركز الاعتقال في بارليشو، وتوفي أيام تحرير المعتقل، وكان أحد زملائي ويدعي غابريلا ماسيه (Gabriel Macé) ، الذي أصبح رئيسا تحرير Canard enchainé هو الآخر عضو في الصقور الحمر، منظمة الشبيبة للحزب الاشتراكي، كان ادغار موارن (Edgar Morin) وهو "أفضل أصدقائي" في تلك الفترة الذي لم ينضم إلى أية منظمة، يهتز مثلي لذكر جميع الأعمال البطولية (الملاحم) التحريرية للثورة الفرنسية وكذا الروسية والإسبانية الجمهورية، حيث أن البعض من كان يحلم بالالتحاق بالفرق الدولية متى سمحت لنا سننا.

وبطبيعة الحال، فإن تعاطفنا كان يتجه نحو الشعب الإثيوبي الذي كان يعاني من الغزاة الإيطاليين.

لقد تملكتنا رغبة استثنائية في القراءة، وفي سن صغيرة، استهلكنا مخزون دوماس، ديكنز، جاك لندن، ادغار بريه، جول فيري، ايركمان شاتريان الذي كان يملأ رفوف "الشباب" في المكتبات البلدية.

ثم اتجهنا لاحقا نحو الكلاسيكيات المختارة لدينا، فولتير، روسو، ديدرو، ثم الروايات هوغو، ساتندال، بلزاك، فولبير، زولا، موباسان... بدون نسيان المؤلفين المعاصرين الذين يثيرون جدلا عاما ويغذون نقاشاتنا، مثل باربوس، رومان رولاند، مارتان دوغارد، جيد، مالروا، غيونر.

لقد كنا نبتلع ما يقع بين أيدينا، وكان (ادغار موران) يقول وهو يتنهد، إنه قام بقراءة ثلاثة كتب في الأسبوع وكان يراهن على العيش لمدة ستين سنة (إنه يبدو لنا من غير اللائق أن نعيش أكثر من ستين سنة) وأن ذلك لا يتيح إلا القليل من القراءة في حياة رجل، لقد اكتشفنا الأفلام الكبرى لتلك الفترة ومن بينها أفلام رونيه كلير، جوليان دوفيينيه، جان رونوار، شارلي شابلن، لوريل وهاردي، ماركس برودر، وبعض الأفلام السوفييتية النادرة التي كانت تعرضها السينما الوحيدة في الحي اللاتيني.

كان (كلود دريفوس) يدخل مجانا إلى إحدى قاعات شارع ريفوليه الذي كان مسيرها صديقا لعائلته والذي كنت أحضر برفقته لعرض فيلم كينغ كونغ الذي يعجبنا كثيرا، وعند الخروج من القسم في نهاية الظهيرة إلى حفلات خطى الذئاب التي تقدم عروضا بأسعار مخفضة للطلبة والثانويين. لقد كنت أتسلل إلى الحي اللاتيني عدة مرات في الأسبوع، عندما يسمح توقيت الثانوية وفي أغلب الأحيان في ساعة الغداء أتناول سندويشا وأنا أسير أو واقفا على الأرضية الخلفية للأتوبيس، أذهب لأتفقد الكتب المعروضة خارج

الرفوف على امتداد أرصفة نهر "السين" وحتى تقليب صناديق أحد باعة الكتب بشارع سان جاك الذي أصبح صديقا يتحدث طويلا عن الكتب التي يوصي بها.

انطلاقا من الطور الثانوي وبالمال الذي أتلقاه لتناول الغداء خارج الثانوية وبسعر "محدد" والذي أقوم بادخاره بالقفز على بعض الوجبات، أشتري به الكتب القديمة، حجما بعد حجم وتقريبا جميع أعمال أناضول فرانس (Anatol France) الذي خلق لدي بعض الوقت شغفا حقيقيا، لقد كنت أبحث عن كتب التاريخ وخاصة تلك التي تعالج التاريخ اليوناني والمصري.

لقد كنت أحب أيضا حكايات الأسفار ومغامرات البحر وخاصة روايات (جوزيف كونراد)، وفي القسم ولكي أهرب من بعض الدروس التي ترهقني، كنت أحلم بالأسفار إلى البلدان المتوسطية، ومنها اليونان بالدرجة الأولى، وكانت كراسات المسودات مملوءة بالخرائط والمسارات التي أرسمها تحسبا للرحلات المستقبلية.

كان يتعين علي مساعدة أبي وأمي اللذين أرهقهما العمل وفي هذا الوقت المتأزم، كانا يتخبطان في مشاكل مالية دائمة، وكانت المهام التي يكلفونني بها وإلى غاية ساعة متأخرة أحيانا تتمثل في الذهاب للبحث أو إيصال لحسابهما بعض الرزم إلى الحرفيين الذين يعملون بالقطعة وهي أعمال تبدو لي مضجرة أكثر فأكثر، لقد كنت أخضع لهذه الواجبات ولم أجد فيها أدنى اهتمام ولم تكن هذه الحالة النفسية تجعلني أتحمس لمسار تجاري في المستقبل.

مع ذلك حملت فكرة مفادها أن أصبح ذات يوم مالكا لمتجر أو مسؤولا عن عمل تجاري في أي قطاع كان. وفي انعطافة حديث أعتقد أنه كان بعد البكالوريا الأولى وهو ما قلته لوالدي الذي لم يهضمه وكأنه تعبير عن موقف احتقار لما كان يقوم به هو نفسه، فلم يكن ليفهم الإلحاح الكبير الذي كان

يدفعني للخروج من الحلقة التي عشت فيها لأعرف آفاقا أخرى ولأكتشف العالم والرجال. كانت أمي تتحمل الأحلام العبثية وكذا مخالطات الثانوية والكتب العديدة التي قرأتها والتي اعتملت في نفسي إلى درجة جعلتني غريبا عن الحقائق وعن ضرورات الوجود.

لم أكن الوحيد في سني الذي يحلم بالهروب، بالبلدان المجهولة، بالسماوات الزرقاء، بحياة جديدة مضيئة وسعيدة وأخوية.

فالجبهة الشعبية، بتأسيسها للعطل المدفوعة، كانت وكأنها تفتح أمام هذه المطامح إمكانيات التجسيد والتي كانت لغاية الآن غير معروفة.

فهناك آلاف الشباب العامل، الحقيبة في الظهر، يذهبون في القطار بالدراجة أو باستيقاف السيارات ليكتشفوا البحر والجبل لأول مرة والفرحة بمعرفة مناظر أخرى غير سقوف ضواحيهم الرمادية.

لقد كشف لي مقال ظهر في نشرة بيوت الشباب، أنه بثمن جنيه استرليني أي مائة وخمسة وثمانون فرنك لتلك الفترة، تتيح شركة يونانية للملاحة فرصة قضاء عطلة صيفية ذهابا وإيابا من مارسيليا - لوبيريه على متن سفينة - كايرو سيتي - والقيام بمغامرة.

وهو اسم يثير في نفسي عرض البحر والمغامرة، وقد قررت فورا أن أكون ضمن الرحلة. ولم يكن والدي ليعارض مشروع الرحلة المقررة لصيف 1938 بعد اجتياز البكالوريا..

لقد كان والدي على الدوام سخيا، ليس فقط مع أقاربه، بل مع الجميع، أقرباء أم أجانب، وحتى في السنوات العجاف.. لقد كان يمنحني مصروفا، يكمل ما كنت أقتصده من أموال، من شأنها أن تمكنني من الصمود لمدة أسابيع. وكان من البديهي أن اسافر وأعيش بطريقة تميزها القسوة والصرامة.

وبهذا السعر يستدرك مؤلف المقال، أنه من غير الوارد الحصول على مقطورات فردية أو حتى مرقد جماعي، فالمسافرون ينامون على السطح، خدمات الإطعام محددة، ويمكن لكل مسافر أن يتمون من مرفق الباخرة حيث يجد الخبز والفواكه والمصبرات والأسماك.

وتستمر الرحلة من أربعة إلى خمسة أيام مع توقف واحد بمالطا سأكون قريبا على سطح الباخرة، وسأنام حتى على الأرضية ملتفا في أغطية أو في حقيبة النوم، إنهم عشرات الشباب من معتادي بيوت الشباب، عمال وموظفون في أغلبهم يقومون بأول رحلة طويلة، لقد كانوا يقومون بالتعارف حول علبة سردين، واللحم المصبر وزجاجة مشروب وعند التحلية يقومون بترديد أغاني قديمة.. أغاني ملحمية تمجد جمال مناظر فرنسا القديمة من البيرنيه إلى بلاد اللوار حيث يقومون بإحياء أزمنة القراصنة والبحرية الشراعية وكان البعض يتحدث بفرح عن العيش في حقبة لا يتصورها عابرة أو سريعة الزوال لقد كنا متجاهلين للأخطار الكبيرة المحدقة بفرنسا وبالعالم وفي مارس 1938 دخلت قوات الـ Reich إلى فيينا، وكان حكام فرنسا وإنجلترا قد عبّروا عن الارتياح لهتلر وساهموا في ضبط طموحاته، وهم لا يدركون أن ضعف رد فعلهم، سيزيد من عدوانيته.

غير أن قلة من بيننا ومن بين الشباب الواعي جدا كان قادرا على إدراك هذه الحقيقة وفهم الأسباب العميقة لمثل هذه الاستقالة والشعور بقرب الخطر.

لقد كنا نرقص على بركان تشهد أغانينا على عدم الوعي به.. لقد عرفت إحدى هذه الفضاءات نجاحا صارخا مع أنصار الجبهة الشعبية وهو نجاح يتردد وكأنه وعد بمستقبل زاهر.

- يا شقرائي هل تسمعي في المدينة ...

- صفارات الورشات والقطارات ...

- انهضي يا شقرائي،

- انهضوا يا أصدقاء...

- غنوا للريح،

- إنها تتجه نحو الشمس المشرقة..

- بلادنا [...]

ولم أعلم إلا لاحقا أن الموسيقى كانت قد كتبت من طرف "سوستا كوفيتش" وقد تم اقتباس النص من الروسية من طرف "بول فايان كوتوريريه"، رئيس تحرير L'Humanité. وقد كانت بعض هذه الأغاني سياسية، بما فيه الكفاية. لقد ولدت في تلك الفترة من الثورة الفرنسية حيث تتحدث عن المعارك ضد البؤس، والظلم والاستغلال وأيضا عن الإيمان في بزوغ عالم جديد، يتعين بناؤه لاحقا وتتحدث أخرى وهي أكثر إيقاعا مثل الخطوات الموزونة، أنشدت في معارك ثورية ضد الفاشية الألمانية والإسبانية والإيطالية والأمريكية والروسية، لقد كان يعاد ترديدها عن ظهر قلب، بدون إزعاج أحد ظاهريا، من ضمن المجموعات ذات الاتجاهات السياسية حتى ولو أن أغلبها يتموقع في الجبهة الشعبية بالرغم من أنهم كانوا منقسمين.

لقد بقي البحر طوال الرحلة هادئا بصورة استثنائية، وسطح الباخرة الذي يستخدم في ذات الوقت كقاعة للطعام ومرقد، كان يدعو للقاءات والمناقشات، لقد تعرفت على جورج (Georges)، ينحدر من باريس، طالب ثانوي مثلي، كان يعتبر نفسه فوضويا.

لقد بقينا طويلا أصدقاء إلى غاية الجزائر حيث وجدنا أنفسنا مرتبطين بحقد مشترك إزاء الحرب والعنصرية. فهو يعرف كلمات الكثير من هذه الأغاني التي كان يرددها فوق سطح الباخرة عن ظهر قلب..

لقد تعلمها وسط العائلة لأن أهله الذين يتقاسم أفكارهم كانوا من هواة التخييم والأمسيات الغنائية.

كما تعرفت إلى أحد آخر من المسافرين الشباب من مدينة لندن، وجدته جد سعيد لحديثه معي (وكان تقريبا من موطني) والتحرر من العزلة النسبية التي أوجدته فيها عدم معرفته باللغة الفرنسية.

طالب في مدرسة للفنون الجملية بلندن، وكان له شغف بالنحت وهو ما جعله يقرر الذهاب إلى اليونان لرؤية المواقع القديمة والمتاحف بها.

فهو أحد المولعين من النوع الآسيوي، أكثر منا سنا بقليل، يشارك أيضا في النقاشات التي تلتئم ولفترات على مدار الرحلة البحرية، وكان قد وصل إلى فرنسا منذ وقت غير بعيد قادما من "سايغون" أين يقيم والده، الموظف الفرنسي وأمه من أصل أنامي وذلك للدراسة والحصول على شهادة ممرض لقد كنت واحداً ممن ضايقوه بالأسئلة عن بلده، غير أن الإجابات التي يقدمها لم تكن تشفي غليلنا، فالهند الصينية هي الكلمة التي نستعملها بدون أن نوضح، أو نفصح بالضبط عن المنطقة التي نريد الحديث عنها.. وكانت إحدى مناطق العالم التي تثير فضولي.

في مارسيليا وقبل الصعود إلى الباخرة (Cairo City) كان لدي الوقت لزيارة قصر (إيف) وعلى متن قارب الرحلة الذي نقلني إلى غاية الجزيرة، أجريت محادثة مع طالب فيتنامي عائد إلى بلاده بعد عدة سنوات قضاها في فرنسا، كان يتحدث بالفرنسية بطلاقة استمتعنا بكلام منمق للمرشد المارسيلي، والذي أظهر لنا بجدية كبيرة الخلية الأسطورية "لأموند دانتي" والحفرة التي حفرها للاتصال مع الأب فاريا وكانت باخرتان حربيتان غارقتين غير بعيد عن الميناء، الأولى تحمل العلم الثلاثي الألوان والأخرى إتحاد جاك (Jack)، كان يشير إليهما بالأصبع، في حين كنا نلتحق بمكان

انطلاقنا وقال لي: فرنسي أو انجليزي، إنهم جميعا سواء أود أن ألقى بحبل بين هذين العلمين وأنشر عليه الملابس القذرة، ويعبر هذا فعلا عما يرمزان إليه. وبدون أن أتجمد احتراما لهذين العلمين الوطنيين، بحيث لم أكن أرى وراءهما غير بلدان وشعوب قريبة مني، وقد أذهلتني هذه الكلمات لماذا مثل هذا الحقد إزاء هذه الرموز؟

لم أكن حينها قادرا على الإدراك التام لمعنى ما أراد قوله وقد افترقنا قبل أن أتمكن من أسأله المزيد. مر وقت طويل لأدرك ما هو النظام الاستعماري، وجميع الجرائم التي ارتكبت تحت مختلف أعلامه من إفريقيا إلى أمريكا ومن آسيا إلى أستراليا التي ذكرتني بها هذه الرحلة إلى قصر إيف، لكي أفهم متأخرا ماذا أراد رفيقي ذات يوم قوله.

قضيت ليلتي الأولى عند أقدام القلعة الإغريقية في حديقة صغيرة، حيث التفيت بحقيبة النوم بالقرب من أعمدة ردهة المسرح. وفي فجر اليوم الموالي انطلقت في المغامرة في ظل رائحة شراب اليانسون، والقهوة والتوابل التي تنبعث من شوارع ساحة أومونيا باثينا إلى غاية ميناء بيري.

وفي إحدى الشوارع سد إثنان من الجزارين المنفذ وكانا منهمكين في سلخ جثة ثور مدمية وسط سحابة من الذباب ولم يثر ذلك أي تجمع، وكأن المشهد كان أمرا عاديا لا يستدعي التوقف عنده، غير أنه بالنسبة لي أنا الذي لم ير من قبل اللحم إلاّ مقطعا بطريقة نظيفة ومرتبا بشكل جيد في رفوف الجزارين الباريسيين، فقد كان مشهدا غير مألوف قززني واستوقفني في نفس الوقت.

وأنا أتجول، كنت أسجل الأسعار المطبقة من طرف محلات الإطعام والتي كانت في متناول إمكانياتي المالية، وحتى لو تعبت من أكل السندويشات بالزيتون والطماطم والعنب، التي كانت قاعدة نظامي الغذائي، فقد كان

بإمكاني بالمناسبة أن أتناول طبقا إغريقيا. اكتشفت في حلم يقظة هذا البلد الذي طالما أعمل في مخيلتي وسكنها بحيويته وأيضا برونقه، من طوابير الرخام برأس سونيون إلى المناظر العجيبة لدلفي وأولمبيا وكأني انغمست في فورة حريتي الكاملة.

فتنت بحرارة الود الذي يبديه اليونانيون للمسافرين عندما يعلمون أنهم بصدد التعامل مع فرنسي. ففي تلك الفترة، كانت الفرنسية في بلاد البلقان أكثر تداولا من الانجليزية، وكانت فرنسا تبدو كبلد التقدم، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، ونشيد المارسايز يبدو كنشيد ثوري.

ففي إحدى شرفات مقاهي أثينا، وحيدا أو مع (جورج) صديقي الفوضوي الذي تعرفت عليه على متن الباخرة وحتى في نوبلي القريبة من قناة كورنيت عندما كنت جالسا أمام كأس الأوزو في ساحة سينما الهواء الطلق، كنت متأكدا من التعرف على بعض الشباب اليونانيين، وفي أغلب الأحيان طلبة كلهم سعادة في التمرن على الحديث مع فرنسيين، وهم متعلقون تحديدا بالمبادئ الكبرى لثورة 1789، لنشرح لهم وضعية بلدهم تحت سيطرة أيوني ميتكساس (Ioannis Metaxas)، هذا الجنرال الوزير الأول الذي أعلن نفسه بسنتين قبل ذلك في 1936 ديكتاتورا بعد أن ألغى الدستور.

كانت اللقاءات عديدة ومتنوعة، لأن مراحل هذه الرحلة البطيئة التي تتم على الأقدام وفي الاوتوبيس او البحر بفضل العدد الذي لا يحصى من السفن المبحرة قرب الساحل التي تربط المدن الشاطئية فيما بينها، والتي تتيح عدة فرص، كل واحدة منها، حتى ولو أن المحادثات كانت محدودة بسبب عائق اللغة، فقد كانت فرصا ثرية.

لقد عدت إلى باريس في نهاية عطلة صيف 1938، وكان المناخ السياسي قد تغير كثيرا، ولو أن الشباب اليساري في الثانوية لم يكن واعيا تماما، فإن

بعض المخاوف كانت تحوم حولهم، وكأن التهديدات بخطر قادم ستقلب حياتهم رأسا على عقب، كانت متوقعة.

أما في الجانب الآخر من البيرنيه.. فقد تضاعفت الاخفاقات والهزائم، ففي مارس 1939 سقطت مدريد في يد أتباع فرانكو (Franco) وتم اغتيال الجمهورية الإسبانية في صمت متواطئ للحكومتين الفرنسية والإنجليزية اللتين ساهمتا بسياسة عدم التدخل في فسح المجال أمام ألمانيا وإيطاليا.

أخذت المطالب الهتلرية إزاء تشيكوسلوفاكيا حجما كبيرا وكانت فكرة الحرب الوشيكة تلاحق بعد العقول. كنا أبعد من المرح السعيد والتفاؤل في عهد الجبهة الشعبية.

كنت أبلغ من العمر سبعة عشر عاما وحوالي شهرين قبل الدخول المدرسي لعام 1938، حيث تبدو لي الثانوية وكذا متجر والدي كل يوم أكثر رمادية واختناقا بقدر ما يزداد عطشي إلى الحرية والانطلاق.

كنت أحلم بوظيفة تمكنني من اكتشاف العالم كالعمل على متن باخرة تجارية على سبيل المثال.

هكذا قضيت سنة دراسية سيئة.. فقد كان رأسي كما يقولون في مكان آخر، إذ لم أكن أفكر إلا في الرحلة المقبلة بعد البكالوريا في الفلسفة وفي الإجازة الصيفية لعام 1939. لقد رويت مغامراتي اليونانية لأصدقائي في القسم، وهكذا قرر (ادغار موران) الذي انبهر بالحكاية أن يكون ضمن الرحلة المقبلة.

وأمام اعتراض والده، ذهبت بمفردي لاكتشاف اليونان من جديد، وقد بقيت مدة أقل من المرة الأولى لكي يكون لدي الوقت لزيارة بعض المدن الإيطالية.

في طريق العودة توقفت بمدينة نابولي ولدى خروجي من الميناء، كان أول مشهد يستوقفني عمارة من ستة طوابق، كان أحد جدرانها مغطى من الأسفل

إلى السطح بمئات الصور العملاقة لبينيتو موسوليني (Beniwto Mussolini) ونظره يتجه نحو الأفق بوجه مشدود وفي وضعية هزلية لرئيس ولد ليحكم ويقود فلول الجماهير، وبنظرة شاب ثانوي قادم من باريس ومن الجبهة الشعبية، فإن تعليق هذه الصورة العملاقة المضاعفة للدوتشلي أمر يبعث على السخرية. وأذكر أنني تساءلت كيف أن الإيطاليين الذين يشتهرون بالذكاء والثقافة يمكنهم أن يمروا بالقرب من هذا التمجيد الهزلي للرئيس الكبير بدون أن لا يضحكوا.

كان بإمكاني أن أكون أقل قساوة في حكمي، لأنه بعد سنتين عرفت الجدران والأماكن الرسمية في فرنسا المحتلة تعليق العديد من الصور لبيتان (Pétain) المتواطئ إلى حد العمالة مع المحتلين النازيين وتمت ترقيته إلى مرتبة "منقذ فرنسا" وقبوله من طرف الفرنسيين بصفته تلك وهم فاقدون للبوصلة تحت وقع الهزيمة.

ذهبت عن طريق استيقاف السيارات إلى غاية آثار بومبي وعدت في نفس الوقت نهارا إلى نابولي، ثم أخذت القطار إلى روما، فالإيطاليون يتكلمون قليلا واستقبالهم كئيب وفاتر ويختلف بصورة كبيرة عن استقبال اليونانيين الحار.

إنها الفترة التي طلب فيها (موسوليني) وأتباعه على وقع ضجيج كبير من فرنسا التنازل عن نيس وتونس إذ بعد أن ساهموا في سحق إسبانيا الجمهورية، يقومون بدعم التحالف مع هذه الأخيرة، ويمكن أن نفهم أن الظرف لم يكن ملائما على الإطلاق للإيطاليين لإظهار أي نوع من التعاطف تجاه زائر فرنسي وحتى لو أن البعض يرغبون في ذلك فإنهم يفضلون الامتناع، إنه الحذر الذي فرضه عليهم النظام الفاشي، وانطلاقا من عناد وجهل الشباب، كنت أعتبره وقاحة، وكنت في ذات الوقت شاهدا وضحية في نفس مساء يوم وصولي إلى روما. لقد أردت قضاء الليلة في مرقد تابع

للجامعة يقدم الغرف والوجبات الرخيصة الثمن للشباب المسافر أو العابر. فالمكان يبدو للوهلة الأولى فاخرا نوعا ما، وقد كنت مسرورا لفكرة الحمام الساخن الذي ينتظرني. لقد قدم لي المكلف بالاستقبال الذي كان يجلس وراء المرفق بعد أن طلب جواز سفري، استمارة لكي أدون بها المعلومات من اسم ولقب وتاريخ ميلاد وأسئلة أخرى معتادة وهو بالمناسبة يتكلم الفرنسية.

غير أن بعض المعلومات بدت لي غير لائقة: الديانة، وقد كتبت "بدون" الأمر الذي جعله يحك رأسه بحزن "بلا ديانة ؟ من غير الممكن، كل الناس لهم ديانة".

«كلا أجبته.. هناك ملايين الأشخاص ليست لهم ديانة»، ويلح، «إذن ضع ديانة أهلك».

"إنهم ينكرون مثلي".

"إذن أذكر الديانة السابقة لعائلتك".

وعندئذ كتبت "الديانة اليهودية" وقدمت له الورقة مكتملة، لقد لاحظت أنه كان في قمة الإحراج وبصوت منخفض، أدار نظره وقال لي: "إذن يا سيد لا تستطيع المبيت هنا، فالقانون يمنع قبول اليهود".

انفجرت سخطا وبقوة حتى يسمعني الجميع، قائلا إن من يقبلون مثل هذه القوانين يستحقون تماما النظام المقيت الذي يعيشون في ظله، وقد أثارت هذه الحادثة اهتمام الأشخاص الذين كانوا في البهو والذين بدأوا في الاقتراب منا حتى لا يضيعوا شيئا من الباقي، وكان لهذه الحادثة أن تنتهي نهاية مؤلمة لو لم يتدخل أحد الطلبة أو الجامعيين من المتواجدين في المكان في حوالي الثلاثين من العمر والذي يسكن بالمرقد، إذ أخذني برفق من ذراعي، بإبعادي قليلا ليقول بالفرنسية وبصوت منخفض: "هدئ من روعك ولا تقل شيئا إطلاقا، إنهم قادرون على أن يدبروا لك مكيدة قذرة".

وعلى مسافة معقولة من آذان عامل الاستقبال، يقول لي أنه هو الآخر يهودي ومن جنسية رومانية.

"لماذا كل هذا الضجيج ؟ فالأمر هكذا لن تغير من قوانينهم؟ لقد كتبت أنا على الاستمارة أرتودكسي الديانة، وكان بإمكانك أن تكتب كاثوليكي أو بروتستانتي مثلي أنا، وبالتالي لن تكون هناك مشكلة.."

لم أقل له بدلا من اتباع نصيحتك أفضل أن تكون لي مشاكل. وفي الأخير وضعت حقيبة النوم فوق حشيش حديقة صغيرة مجاورة للمرقد الذي لم يتم قبولي فيه وأذكر أنني قضيت الليلة في نوم عميق.

إنها المرة الأولى التي أعرف فيها من خلال هذا الحادث المؤلم، لكن بدون عواقب كبيرة بالنسبة لي، مع ما يمكن أن نسميها بالعنصرية الرسمية، لقد كنت أبعد من أن أتصور أن ينتشر ويقيم هذا الطاعون الأسود في أوروبا بطريقة أكثر وحشية عنها منذ عقود في قارات بأكملها، ولقياس حب الإساءة القاتلة، يتعين علي أن أنتظر لمعرفة الجزائر الاستعمارية.

لم تكن "الحرب المرعبة" قد بدأت بعد بل كان يجري التحضير لها. ولدى العودة من إيطاليا قابلت بعضا من رفاقي القدامى في القسم وجميعهم مثلي، ممن أعلنوا عن رفضهم للفاشية يشعرون بنفس القلق. وهو ما نسميه "بروح ميونيخ" الذي مس جزءا كبيرا من الفرنسيين الذين فقدوا وجهتهم بسبب خضوع حكومتهم وحليفتها بريطانيا أمام عدوانية ومساومات هتلر وأتباعه.

قبل سنة، كان قد تم التوقيع على "اتفاقيات ميونيخ" التي كانت بمثابة مقدمة للعدوان، وهي الاتفاقيات التي صادق عليها البرلمان باستثناء ثلاثة وسبعون نائبا شيوعيا واثنين معزولين.

وبعد التوقيع من طرف رئيس المجلس القائم دلاديه (Deladier) عن فرنسا والوزير الأول تشامبرلين (Chamberlin) عن بريطانيا العظمى، لم

تتوقف مجمل صحافة البلدين عن الإشادة بهذه المعاهدة السعيدة التي ستمنح عشرين سنة من السلم لأوروبا.

ولدى عودته من ميونيخ، استقبل (دلاديه) استقبال الأبطال بصفته "منقذ السلام" من طرف جمهور مبتهج.

لقد كان جالسا في مؤخرة سيارته المكشوفة ينظر إلى الجماهير المهللة المتراصة على طول شارع لافاييت تصفق لمروره، عندها تمتم ببعض الكلمات في أذن اليكسي ليغر (Alexis Leger) الذي كان أمينا عاما للكيدورسيه آنذاك والمعروف أكثر في أيامنا هذه كشاعر تحت اسم سان جون بيريز: إنهم "الأغبياء" لقد تم ذلك فيما بينهما كما يقال اليوم. وفي الثانوية، كان التلاميذ أكثر نضجا للاهتمام بوضع يتقاسم أغلبهم فكرة مشتركة مفادها أنه لا سبيل إلى الحرب في حين كان بعض رفاقي المقربين يتفاخرون بجريدة "السهم"(La Flèche) الأسبوعية التي ينشرها غاستون بيرغيري (Gaston Bergery)، النائب الراديكالي المناصر للجبهة الشعبية، ثم باتفاقيات ميونيخ "دعاة السلام" بأي ثمن"، إنه النائب الذي صوت بعد سنتين لصالح إعطاء الصلاحيات الكاملة لبيتان (Pétain) الذي جعل منه سفيرا له في أنقرة.

إنه مسار أتبعه العديد من السياسيين من اليسار تحولوا بسرعة إلى متعاونين وهو منطق لم أفهمه إلا لاحقا، وهناك من بين من كانوا في سني من المتعاطفين مع الجبهة الشعبية، يتحدثون بكثير من الحماس عن جان غينو (Jean Ginou) ليس فقط عن الكاتب بل صاحب الفكر الذي ينبذ الحرب ويدعو إلى استعادة "الثروات الحقيقية" الخير العادي الذي تتيحه الأرض. وكانت هذه المشاعر الرعوية تغري الكثير من الذين أقابلهم خلال الأسابيع التي أقضيها في بيوت الشباب.

فأبناء الموظفين والعمال وأيضا العائلات العمالية من العاملين بالمصنع، الذين يحلمون بالفضاءات وبالترفيه لم يكونوا يدركون بعد خطورة هذا الأفكار التي تبدو "نقية" وساذجة لأنها تساهم بخطورة في تغطية المشاكل الحقيقية الراهنة. لقد بدأت الأمور تتضح، عندما نرى مثقفين وفنانين وسياسيين وكتاب قصة، يشتهرون بحرية الرأي يتحولون إلى مادحين (لبيتان) وإلى رجالات دعاية متعاونين.

ولم نكن بعد قد وصلنا إلى هذه المرحلة وبدون تقاسم الفكرة الساذجة لمخاطبيي في "السلم الكامل" وعبادة الطبيعة، لم أكن أرى أكثر وضوحا منهم.

لقد انتهى الإعلان عن معاهدة عدم الاعتداء الروسية الألمانية بالزج بي في حالة من الغموض.

أصبحت الصحافة التي ساندت ميونيخ هستيرية إزاء الإتحاد السوفييتي وكنت أشعر جيدا أن الأسباب العميقة للتوقيع على هذه المعاهدة تفلت مني. وفسرت صحف الحزب الشيوعي الفرنسي التي لا أقرأها إلا في مناسبات نادرة أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية ومن خلال تنازلاتهما السياسية المتواصلة للدول الفاشية ورفضهما المتواصل لإقامة تحالف مع الاتحاد السوفييتي أرغم هذا الأخير ولفائدة أمنه الخاص على التوقيع على هذا الاتفاق مع ألمانيا. بيد أن أصواتا أخرى غير تلك المعبرة عن وجهة النظر الرسمية تستطيع بالكاد إسماع صوتها وبقيت الأسئلة التي كنت اطرحها بدون أجوبة.

وفي بداية سبتمبر، كانت الحرب، وكل ما كان يتعلق بها مقيتا بالنسبة لي بالرغم من أنها كانت لا تهم الإقليم الفرنسي مباشرة.

وكنا قد وزعنا أقنعة الغاز، وكانت صفارات الإنذار تدوي من حين لآخر للإشارة إلى غارة جوية والدعوة إلى الالتحاق بالمخابئ، أما بالنسبة للباقي فلم يتغير شيئا في الظاهر. فقد كانت الحرب في جهة بولونيا وليس على

حدودنا المحمية، كما يقولون "بخط ماجينو المتعذر اجتيازه" في مواجهة التحصينات الألمانية التي تسمى "خط سيغفريد" أو كما تقول أغنية لم تفلح في أن تصبح شعبية "سنذهب قريبا لتجفيف ملابسنا".

انتهت السنة الدراسية 1939 بالنسبة لي بالفشل فقد كنت مشغولا بتساؤلات ومشاريع تبعدني عن العمل المدرسي، فقد فشلت في اجتياز الاختبار الشفهي في بكالوريا الفلسفة، ولدى عودتي من العطلة الصيفية، قررت أن لا أنتظر في باريس الدورة الاستدراكية وأن أتقدم للامتحانات في إيكس بروفانس، مما يقربني من مارسيليا حيث يمكنني بسهولة القيام بمساعي لدى شركات الملاحة قصد الإبحار للعمل، وفي هذه المرة كان أهلي أكثر ترددا وخاصة أبي الذي يرى جميع المشاريع التي وضعها لي تنهار نهائيا وبالتالي أصبح ساخطا.

أما أمي فقد اقتنعت في الأخير بعدم وجود وسيلة لكسر ما تسميه بـ "التصلب" عندي ولا تريد قطيعة عنيفة مشيرة إلى المخاوف التي تحملها الحرب، في محاولة منها لجعلي أتريث، فلم تستطع وفي نهاية المطاف، غادرت المنزل حزينا بدون موافقتهما ولا حتى بمباركتهما.

وفي إيكس أعدت الامتحان الشفهي للبكالوريا بدون مشاكل وهي شهادة مثمنة أكثر مما هي اليوم من شأنها أن تسهل توظيفي حسب أحد مسؤولي إدارة الميناء الذي حملت خطاب توصية له. وفي نهاية المطاف لم أتمكن من استيفاء جميع الشروط المطلوبة للإبحار في الوقت المناسب وغادرت السفينة المتوجهة نحو أمريكا الجنوبية التي كنت أرها تغادر الميناء من دوني. وكعزاء قال لي الشخص الموصى علي، أن سفينة أخرى لنفس الشركة ستذهب بعد أشهر وسيكون الحظ معي.

وفي انتظار ذلك، يمكنني الذهاب إلى الجزائر حيث ليس من الصعب العثور على عمل مؤقت. لقد كنت أسكن في بيت الشباب بمارسيليا، فيلا كبيرة ذات شرفة جميلة تطل على الكورنيش. يشرف على هذا البيت امرأة تساعدها ابنتها، ولم يكن الجو الذي يخيم عليه يشبه جو بيوت الشباب في "زمن السلم" حيث المرح، والحركة المتجددة والزوار من سياح ومسافرين يضعون حقائبهم ليوم أو يومين قبل أن يستأنفوا الطريق.

لقد أصبحت الآن ملاذا مؤقتا لأناس دفعتهم الحرب إلى هنا. هذا رجل إسباني في الخمسينات من العمر، رمادي الشعر وقليل الكلام، لاجئ في فرنسا منذ مدة، يبدو غير قادر على الخروج من الضنى الذي أغرقه فيه سقوط الجمهورية، وهذا روسي كبير السن يحمل علامات المثقف ذو لحية صغيرة هرب من بلاده بعد اندلاع الثورة واسمه فولين (Voline) ويعرف أنه من المنظرين الفوضويين. ففي الغرفة كان أول من يستيقظ، وعندما أفتح عيني، أراه واقفا عند النافذة المطلة على البحر مرتديا سرواله الطويل وبصدد القيام بالتمارين الرياضية.

وهناك أيضا طالب بولوني، طويل القامة ونحيف، له سلوكات مميزة، يخاطب الناس بطريقة الجمع على عكس العادات السائدة مع جميع محدثيه بما فيهم من يخاطبه بصيغة المفرد وتبدو عليه ملامح المسافر المعتاد على فنادق الأربعة نجوم ويكون قد أخطأ الفندق، لقد قدم إلى فرنسا لوقت قصير، إلا أنه وجد نفسه مجبرا على البقاء بسبب غزو بولونيا ولا يعلم شيئا عن عائلته التي بقيت في فارصوفيا التي قصفت. لقد قال لنا، أن استحضار الأرواح هوايته وفي إحدى السهرات جرب ذلك لكن بدون جدوى، من خلال عملية نقل للأفكار.

ومن بين الزوار الفرنسيين، هناك أستاذ في الآداب عيّن مؤخرا في المنطقة، لكنه لا يسكن في بيت الشباب، فهو يأتي للزيارة وكأنه جاء للنادي، ويبدو جد قريب من (فولين) ويدعو بشدة إلى النباتية والطبيعية والزواج الحر.

ومن بين النزلاء هناك شخص يدعى دوبري (Dupré) من المقاطعة يبلغ الثلاثين من العمر يمتلىء حيوية ويحفظ حكايات مثيرة وقصص غريبة، يبدي كراهية للمجتمع وللأحكام البرجوازية وبالرغم من المعيتة في المناقشات، يقول أنه لا ينتمي إلى أية حركة باستثناء حركة بيوت الشباب.

فهو يرفض الحرب ولا يخفي اتخاذ احتياطات حتى لا يقوم بها، إنه شخصية جد جذابة بالنسبة لم يستمع إليه في مثل سني، ثم يظهر كمغامر بدون مبادئ، لكنني كنت جد صغير لكي أتصور ذلك من الوهلة الأولى، لقد كان يسكن في بيت الشباب في انتظار ذهابه إلى الجزائر حيث يعيش.

لقد كان يدفعني بشدة للذهاب مدعوما بمعلمة فرنسية شقراء وجدّ حيوية تدعى إيزابيل فيال (Isabelle Vial) تعمل بوهران، لقد عادت رفقة ابنها فرانسيس الذي سرعان ما ربطت معه علاقات صداقة، والذي التقيته لاحقا بالجزائر، لقد كانت (إيزابيل) مناضلة شيوعية ودون أن تكشف عن ميولها، لكنها لا تخفي وجهات نظرها بالرغم من منع الحكومة في نهاية شهر أوت 1939، وبحجة التوقيع على المعاهدة الألمانية - السوفييتية، لجميع منشورات الحزب الشيوعي الفرنسي قبل أن تعلن الحكومة بعد أسابيع لاحقا عن حله.

قررت في الأخير الذهاب إلى الجزائر، لأن الرحلة التي حلمت بها نحو ضفاف بعيدة تبدو مستحيلة أكثر فأكثر.

وإذا كانت هذه المدينة العجيبة قد سحرتني منذ اليوم الأول وستصبح لاحقا مدينتي، فإنني لم أكن أفكر في الإقامة بها نهائيا، لقد كان أول لقاء وصول غير مبرمج من أجل عودة حقيقية بعد أشهر لاحقا.

لقد قدم لي (دوبري) الذي قابلته في مدينة الجزائر اقتراحات استهواني فيها فورا جانب المغامرة، باخرة تحمل العلم الأمريكي كانت راسية بالميناء

منذ عدة أيام وتستعد للرحيل نحو نيويورك مع توقف أو اثنين قبل عبور المحيط الأطلسي.

كان جون وهو طالب أمريكي يقوم بدورة حول العالم وقبل أن يعود إلى تونس، أقام لعدة أسابيع ببيت الشباب بساحة الحكومة، قد أعطاني هذه المعلومة. لقد استقاها من بحار عضو في الطاقم التقاه بحانة الميناء، وقد اقترح (دوبري) عليّ أن نصعد على متن الباخرة سرا، وعندما نصل إلى نيويورك سنتدبر الأمر. أما جون الذي أحيط علما، فقد استولت عليه الفكرة، فقال عندما نصل إلى أمريكا لن تكون لدينا مشكلة قانونية لأن الناس لا يحملون بطاقة هوية ولم يكن ذلك خاطئا آنذاك، وقدم لنا بعض الاقتراحات حول الأماكن حيث يمكن أن ننام بها خلال الليالي الأمريكية الأولى.

وفي حوالي الساعة الثانية صباحا وفي ليلة مقمرة تجعلنا عرضة لانكشاف أمرنا، تسلقنا الحبال التي تشد الباخرة في الرصيف، لننزلق بدون أذى على الغطاء الذي يغطي إحدى زوارق الإنقاذ، حيث مكثنا من أجل الرحلة.

فقد كان هناك تحت إحدى الكراسي صندوق من البسكويت وبرميل من الماء وبالتالي لن تكون هناك مشكلة في الزاد والطعام.. وربما سيكون هناك برد عند عبور المحيط الأطلسي، سنرى كيف سنخرج ليلا من حين لآخر من أجل الذهاب إلى الحمام والمرحاض.

توقفت الباخرة في وهران وستعبر مضيق جبل طارق بعد حين. وبالرغم من عدم الراحة، فقد كانت الأمور تسير على ما يرام إلى غاية توقف الباخرة في إحدى الموانئ التي يبدو أنها كانت لشبونة. بدأنا نسمع الخطوات والأصوات من حولنا، وأزيل الغطاء، ليبهرنا ضوء السماء.

وفجأة يقف فوق رؤوسنا أحد البحارة وهو يصرخ مناديا على آخرين: "أنظر ماذا عثرت عليه".

وكان هناك أيضا رجال الجمارك البرتغاليين، كانوا يبحثون بلا شك عن السجائر المهربة في إطار القيام بعملية الرقابة.

قال لي أحد البحارة الأمريكيين المرافقين والذي تبادلت معه بعض الكلمات بالانجليزية عندئذ: "أنتم محظوظون كثيرا، لو اكتشفناكم في البحر، لرماكم القبطان من أعلى الباخرة". ففي تلك اللحظة لم أحمل هذه الملاحظة محمل الجد، بل كنت أفكر أن الرجل أراد تخويفنا فقط "حتى تكون هذه عبرة لي" مثل طفل ارتكب حماقة خطيرة، وبالفعل كانت ملامحي تدل على أنني طفل صغير لكي يتم توبيخي.

وبالصدفة لاحقا وأنا أقرأ في المتفرقات فهمت عندها أنه لم يكن يمزح وأن بعض ربان السفن يلقون بالمسافرين غير الشرعيين الذين يعثرون عليهم على متن بواخرهم في البحر، وأن ذلك لم يكن ممارسة استثنائية لأن ذلك يجنب التعقيدات غير السارة مع أصحاب السفن والأوراق والمراسلات مع السلطات المينائية. لقد قضيت قرابة شهر في لشبونة فيما يشبه مركز اعتقال مريح ونظيف نوعا ما، كان يأوي حوالي ثلاثين شخصا من أعمار وظروف وأصول جد مختلفة أغلبهم في انتظار تأشيرة، كون الحرب أرغمتهم على مغادرة بلدانهم أو لا يريدون العودة إليها. وبدون أن أعرف لماذا، ربما لأنني على متن باخرة فرنسية ستحط بعد ثلاثة أو أربعة أيام من العواصف بميناء Havre. ففي صبيحة يوم غائم وبارد وجدت نفسي على رصيف يغمره الجليد وقريبا على الطريق نحو باريس حيث ستأخذني شاحنة إلى هناك عن طريق الاستيقاف. لقد صعدت إلى المؤخرة وعلى أرضية مكشوفة أرتعش بردا طيلة الرحلة في ملابس خفيفة ارتديتها منذ أن غادرت الجزائر، لقد وصلت إلى إحدى بوابات باريس في حالة تجمد، بعد أن اعتذر سائق الشاحنة عن عدم قدرته الذهاب أبعد وسألني عما إذا كنت أملك نقودا

للوصول إلى وجهتي ملحا علي بقبول قطعة نقدية من فئة فرنك تغطي ثمن تذكرة المترو. وهكذا ضربت جرس باب أهلي وأنا غير فخور بنفسي تماما.

لقد تم استقبالي بحرارة ولطف مع عدم الإلحاح كثيرا على معرفة من أين أتيت وأنا أرتدي هذه البذلة الصيفية أو بالأحرى المهترئة، وكانوا سعداء لأعلن لهم بعد أيام عن قراري بالتسجيل في جامعة السوربون لتحضير ليسانس في الآداب.

كان أخي الذي يصغرني بأربع سنوات يدير المتجر العائلي في وضع مريح وأعمال العائلة تسير بوتيرة عادية وتم التصالح مع والدي الذي كف عن اعتباري تاجرا وبالرغم مني. وكنت أشعر أن أمي وبدون أن تعبر عن ذلك، تشعر بسعادة داخلية بالاستعدادات الجديدة التي وجدتها عندي.

هكذا كنت بصدد التحول إلى شاب جدي و"عادي" إلا أنني سأخيب آمالهم مرة أخرى وبسرعة. لقد كنت أتابع بشرود الدروس في السوربون. وفي شوارع باريس، بدأت أحلم من جديد بخليج الجزائر وشوارع القصبة وبجميع المناظر الودية التي تركتها في الجانب الآخر من البحر المتوسط. ولم أصمد إلا بضعة أسابيع قبل أن أعلن عن عودتي إلى الجزائر. وهكذا وجدت نفسي في ربيع عام 1940 في الجزائر.

وكان "الروجيه" ماسح الأحذية الصغير بعلبته في ساحة الحكومة وكأنه ينتظرني، إذ عندما رآني نهض لتحيتي من بعيد وكعادته "صحا يالروجي.."

لقد عدت.. "صحا.."

لقد كانت حرارة استقباله بالنسبة لي وكأنها تحية ترحيب من المدينة كلها.

المستعمرة في عهد فيشي (Vichy)

تحول بيت الشباب لمدينة الجزائر إلى نادي يلتقي فيه سكان الحي، في غياب المتجولين من أزمنة السلم. يحتوي على قاعة للرياضة بحلبة للملاكمة تستقطب الرياضيين، من الأوروبيين واليهود على الخصوص، ومن بين هؤلاء من كان ذا جرأة كبيرة لتحدي تحفظات أهلهم، بعض البنات القلائل اللائي كن يتعرضن لمغازلات مستمرة للشباب.

ثم اكتشفت لاحقا أن أنشطة القاعة وجزئيا قاعة بيت الشباب، التي يمولها تجار أغنياء من بينهم صاحب محل "100.000 قميص" الواقع في شارع باب عزون، الذي كان يستخدم أيضا كغطاء لنشاط المقاومين المحليين الذين كانوا يستعدون مع جوزي أبولكر (José Aboulker) وفي انتظار وصول القوات الانجلو-أمريكية، للاستيلاء على النقاط الإستراتيجية للمدينة وبذلك يسهلون نزول الحلفاء في نوفمبر 1942.

لم نكن بعد في هذه السنة "فالحرب العجيبة" مستمرة غير أن الأخبار التي تقدمها الصحف لم تكن تغذي بتاتا نقاشات العاصميين لقد كانت تربطني علاقات بثلاثة جزائريين من أترابي من المترددين المواظبين على بيت الشباب حيث يقضون الليل أحيانا من أجل متعة مواصلة النقاشات التي كانت

قد بدأت على شرفات المقاهي الشعبية لجبهة البحر إلى ساعة متأخرة. لقد كنا نذهب إلى مقهى "مقلاتي" الذي يضع طاولاته وكراسيه تحت الأقواس في مواجهة البحر.

كان جل الزبائن من المسلمين، يشربون ويدخنون الرنجيلة، لكن في غياب المشروبات الكحولية، ولم يكن لهم خيار إلا بين القهوة والشاي ومختلف أنواع المشروبات والصودا الباردة وخاصة مشروب سيليكتو، الأكثر طلبا لأن له الكاراميل القليل الحموضة.

وبرفقة أصدقائي "حفظت الجزائر" واكتشفت بسرعة أنني لا أعرف الكثير عن البلد، إذ تقوم معارفي الهزيلة حول ما قيل لي في القسم أو ما استطعت التقاطه من الكتب.

الأمر الذي يغطي في الأخير جهلا كبيرا وأكثر من ذلك جملة من الأفكار الخاطئة والآراء المسبقة المعروفة لقد أقيمت بينهم وبيني علاقات ثقة ومحبة وهو أمر نادر في ذلك الزمان بين المسلمين والأوروبيين وبلا شك لقد تبنوني بسرعة، إلا بوجود بعض الأشياء المثيرة بالنسبة إليهم في هذا اللقاء مع شاب فرنسي من سنهم الذي جاء للتو من فرنسا ويتصرف باحترام إزاء الجزائريين، يتكلم بتهكم عن حكامه الغربيين الذين يدعون "حملة الحضارة" ويعبر عن سخطه بصوت عال أمام السلوك المتغطرس لأسياد المستعمرة ويظهر مثل هذا التغطرس لمعرفة بلدهم وشعبهم والذي شرع فورا في تعلم اللغة بواسطتهم وبفضلهم وبدون أن يشعروا أنهم يلقونني درسا ولا أنا أيضا كنت أشعر أنني أتلقى دروسا، وأن كل ما اتعلمه منهم، وكل ما عاشوه في حياتهم القصيرة من إهانات وشتائم وتمييز عنصري، كان يعطيني صورة أفضل عن الوضع الحقيقي للجزائريين المستعمرين الذين كان بإمكانهم أن يجعلوها دروسا في الجامعة. كان (مصطفى كاتب) وهو قريب (كاتب ياسين) الشاعر الذي كان لا يزال وقتها طفلا في تلك الفترة، الأكثر أناقة بين

أصدقائي الثلاثة، المتميز بارتدائه الملابس الأنيقة وبتسريحة شعره المسايرة لموضة ذلك الزمان والأكثر بلاغة وبيانا ومرحا أيضا وبقهقهته الراعدة التي كانت تجعل الزبائن الجالسين على طاولات مقهى "مقلاتي" يستديرون حينما يسمعونها.

لقد كان موظفا بالبريد المركزي بالجزائر، ويعترف (مصطفى) أنه عندما يكون بصدد ترتيب البريد، يكون عقله يجول في مكان آخر، في القطع المسرحية التي يحلم بتركيبها ذات يوم، وهو ما قام به بعد حوالي عشرين سنة لاحقا عندما أصبح بعد الاستقلال مديرا للمسرح الوطني الجزائري، ويتكلم (مصطفى) اللغة الفرنسية بطلاقة والعربية بذات القدر. كان ذا لسان لاذع، يفرض نفسه، ويترك بصماته خاصة على الشخصيات التي تؤطر المجتمع الاستعماري ومنها العنصرية، روح الاكتفاء والمزاعم المثيرة للسخرية التي تقدم له مواضيع الساخرة.

وبما أنه يسكن في ضواحي العاصمة، إذ بدلا من أن يذهب إلى منزله، كان يفضل قضاء الليل في بيت الشباب، الأمر الذي يسمح له بالذهاب إلى عمله في اليوم الموالي بدون أن ينهض عند الفجر.

كما كان يحدث له أحيانا حيث تكون مدة الليل قصيرة، يفتح عينيه ليرى أنه متأخر، ليبدأ بصب جام غضبه على "المنبه الذي لم يرن" وكان يقوم بإعداد نفسه بسرعة، الوجه مملوء برغوة الصابون، وفرشاة الحلاقة التي استعارها من شخص لا تزال في اليد، ينادي عبر النافذة التي تطل على الشارع الصغير (Chartres) على نادل المقهى القريبة ثم يطل على الجانب الآخر من الشارع لينادي على بائع الفطائر التونسية "..ياخفافجي .. احمل لي فطيرتين .. من فضلك .. أصعد بسرعة".

ينتهي من ارتداء ملابسه وهو يلتهم فطور الصباح، ينسل مسرعا إلى غاية البريد، ليصل بالكاد في الوقت.

أما صديقيّ الآخران فقد كانا أقل بوحا ويشكلان ثنائيا لا ينفصل. أحدهما طويل ونحيف، ويبدو أكثر تقدما منا جميعا في السن، إنه (علي تسة) وهو قبائلي، كان يعمل في حظيرة بحي الحامة شرق مدينة الجزائر. كان يتكلم قليلا وبصوت عذب.

أما الآخر فثقيل، عريض وممتلئ، إنه (محمد بوراس)، يساعد والده في إدارة متجر صغير في شارع راندون (Randon) في قلب حيّ القصبة حيث أقاربه الملاك من أصل تركي، حازوا على العديد من العقارات قبل قرن إلى غاية شروع الاحتلال الفرنسي في قهقرة عائلته.

وبدون أن أعلم جيدا ما إذا كان لأحدهما أية مسؤولية في حزب الشعب الجزائري (PPA) الحركة الوطنية الأكثر تأثيرا في تلك الفترة التي أسسها ويقودها (مصالي الحاج).

كانوا يتحدثون عن معرفة بالأشياء، وإفهامي أن حلم (مصالي الحاج) في الاستقلال كان حلمهم أيضا، لقد كنا نتسامر أمام أكواب الشاي بالنعناع بشرفة مقهى "مقلاتي"، أو جالسين بين أكياس السميد والحمص والتمر الجاف ودلاء زيت الزيتون لمتجرة بوراس وسط الضجيج الذي ينبعث من شارع راندون، هنالك حيث كانوا يساعدونني على القيام بتربيتي السياسية الجزائرية.

وفجأة وفي ماي 1940 .. أصبحت "الحرب العجيبة" حربا تحمل كل معانيها. وعلمنا بارتياب أن القوات الهتليرية قد اجتازت الحدود، وطردت نحو الطرقات الآلاف من الفرنسيين الذين كانوا يتظاهرون في باريس أين تعرضوا للقصف بالطيران ضد قبول الهزيمة واختفاء (بول رينولد) أمام (بيتان) الذي أعلن الاستسلام.

امتلأت الجزائر فجأة بالقادمين الجدد الذين فروا من الغزو الألماني، فقد وجد البعض منهم ملجأ مؤقتا ببيت الشباب الذي أصبحت أنا شخصيا

المشرف عليه بغياب المسؤول الأول، وفي المقابل كنت أسكن مجانا، ثم أن بعض الدروس التي أقدمها توفر لي ما يمكن لدفع وجباتي البسيطة.

حتى تعرفت على شخص من باريس في مثل سني، هو الآخر من رواد بيوت الشباب ويدعى سامي دورا (Sami Dorra) كان قد أنهى دراسته في الثانوية ويحاول الالتحاق بعمه الذي كان يقطن في المغرب، لقد كان في غاية المرح ويعرف كيف يمزح بالرغم من هشاشة الوضعية ويقيم الرجال والأشياء بتهكم حاد أثار إعجابي.

وجدنا أيضا هانز جونغ (Hans Jung) أحد المناهضين للفاشية من فيينا رمادي الشعر هرب من فيينا لحظة ضمها إلى ألمانيا فهو أستاذ التزحلق في إحدى محطات الألب.. فقد عبر الحدود السويسرية بواسطة التزحلق علي الثلج ثم لجأ إلى فرنسا ومن هناك دخل إلى الجزائر. وبمجرد وصوله سجل في دروس النحت بمدرسة الفنون الجميلة بالجزائر، وكانت له بعض المواهب حاول إبرازها من خلال تجربة قام بها جاعلا من (سامي) نموذجا وقام لاحقا بصنع ميداليات من الطين المكوي لمواجهة أعباء الحياة، مثل نحت رؤوس شخصيات مشهورة منها رأس الماريشال وهو ما لم استحسنه إطلاقا إذ يقول ذلك وهو ينفجر ضحكا على الفكر الوقح أن وجهه البارز "للمعاونة" يمنحه بصفة غير مباشرة ما يضمن معيشته، وغيره كثير من البعيدين عن الحركة المنظمة لبيوت الشباب (ajiste) وعن أية التزام سياسي يصلون إلى بيت الشباب الذي كانت أبوابه مفتوحة للجميع لكن لم يبق غير البحث عن سكن في مكان آخر.

قابلت هناك أحد المهندسين وزوجته وأختي زوجته وصهره الذين غادروا بروكسل على عجل حيث كانوا يسكنون.

ومن بين الذين لا يقطنون في بيت الشباب إبن عائلة صناعية كبيرة في النسيج، يبدو جد أنيق ويرتدي على الدوام بذلة من أفض أنواع القماش،

وزوجته الضخمة والشقراء استرالية الجنسية هي الأخرى لطيفة، لقد كانت راقصة في كازينو باريس في فرقة جوزفين بيكر وكان همها الأول في تلك اللحظة كيف تتمون بالويسكي لمحاربة الانهيار. إن جميع من ألقت بهم الحرب هنا وبالصدفة تقريبا يشعرون أن وجودهم في الجزائر كان وجودا غريبا ومؤقتا وأن ما ينتظرهم لاحقا.. ليس لديهم عنه إلا فكرة غامضة ويتوقف أساسا عن المنحى الذي ستأخذه الأحداث.

الغريب في الأمر أن أكثر الأشخاص غفلة استقبلوا تنصيب (بيتان) كخبر سار بالأحرى ... فيمكن الجميع إذن وضع الثقة في هذا الماريشال!

كان يبدو من غير اللائق التذكير أن هذا الأخير الذي كانت خصاله ممدوحة لدى البعض، كان تابعا قبل الحرب مباشرة لمجموعات اليمين المتطرف.

فاليوميات الصادرة في الجزائر التي كانت موالية له (في غياب "الجزائر الجمهورية") حيث كان البير كامو (Albert Camus) أحد منشطيها والتي كانت قد توقفت عن الصدور ذكرت أن "الشيخ النبيل" قبل أن يتبرع بشخصه إلى فرنسا، كان منقذها من قبل في فردان (Verdun)، ودعت فرنسيو الجزائر إلى شكر الرعاية الإلهية في هذه المحنة والتي أوجدت هذا المنقذ والقائد..

لقد كان جزء كبير من السكان الأوروبيين لمدة طويلة عرضة للتعتيم من طرف هذه الصحافة الغارقة في الرجعية التي لم تتوقف عن زرع الحقد والعنصرية، ومعاداة السامية، على استعداد لقبول التعاون مع حكومة فيشي (Vichy) وقوانينها إلى درجة أن الحيرة والغموض في أن بعض الأوساط اليهودية من الدعاية إلى مساندة سياسة (بيتان) سجلت عدة نقاط.. إلى غاية أن الإجراءات المعادية للسامية وعلى وجه الخصوص إلغاء مرسوم كريميو (Crémieux) الذي جعل في 1870 "اليهود الأصليين" مواطنين

فرنسيين كاملي الحقوق ألغى الأوهام التي تمت تغذيتها حول الرغبة السامية "للجندي الكبير" إزاءهم".

لم يبق أصدقائي (مصطفى كاتب) و (علي تسة) و (محمد بوراس) غير مبالين أمام هذه الأحداث الكبرى، غير أنهم لا يتحدثون كثيرا..

على غرار العديد من المناضلين أو المتعاطفين من الوطنيين الجزائريين.. كان يتعين عليهم التساؤل بدون التعبير بوضوح عن وجهات نظرهم فيما إذا لم يكن لهذا الإخفاق الذي حل بفرنسا أن يؤدي إلى بعض الأشياء الإيجابية بالنسبة للمستعمرين، إلى غاية المنطق الذي يلخص الصيغة القائلة أن "عدو عدوي صديقي" يمكن أن يؤدي بسهولة إلى البحث عن دعم من طرف ألمانيا الهتليرية وإيطاليا موسوليني الذي حظي بدعاية نشيطة في جميع شمال إفريقيا.

إنه التيار الذي أدى ببعض الوطنيين العرب في فلسطين ومصر وأماكن أخرى للمراهنة لوقت معين على انتصار المحور ولم تكن تلك بالحالة في الجزائر. وبالرغم من الضغوطات الممارسة عليه، رفض (مصالي الحاج) الذي يقود حزب الشعب الجزائري المحظور السير من هذا الطريق الذي اتبعه بعض الجزائريين.

كان انتقاله إلى صفوف الشيوعيين والروابط التي نسجها في الهجرة مع العمال الفرنسيين قد تركت فيه أثارا عميقة كما يقول هو نفسه .. فقد رفض أن يتم اعتباره فاشيّا.

ومن تلك الفترة، لم يكن يعبر عن الشعور الوطني والمناهض للاستعمار بنفس القوة التي ستعرفها السنوات المقبلة والمناقشات حول الوضعية المستقبلية للجزائر بقيت حكرا على بعض الدوائر المسيسة. كما تبيّن أن الزعماء لما تسميه السلطات الرسمية "النخبة المسلمة" لم يكونوا ليقدموا

إلا مطالب متواضعة مع التركيز على عدم شرعية الاستعمار، في الوقت الذي يتعرض فيه من غامروا بأنفسهم من مصاليين وشيوعيين إلى أقصى العقوبات.

ومن حين لآخر، كان يلفت نظري في إحدى الأكشاك، أو ورشات الحرفيين، وجود صورة (كمال أتاتورك) أو الملك (فؤاد) ملك لمصر، نزعت من مجلة وألصقت على الحائط. وكنت أفهم بلا عناء أن من يعمل هنا يحلم بمستقبل آخر غير المستقبل الذي تتيحه فرنسا الرسمية.

لم تكن أغلبية الجزائريين قد بلغت بعد مرحلة الانتفاضة المفتوحة أو الأمل القريب في التحرير عن احتراز، أو لأنهم لا يرون ماذا استطاع عمله الآخرون، وهم بذلك يمارسون نوعا من الرقابة الذاتية الجماعية.

وفيما يخصني، لم تكن مسألة استقلال الجزائر تخيفني إطلاقا، بل على العكس، لقد كنت في حالة استماع جيد لما يكشفه أصدقائي من الظلم و اللامساواة التي كانت الحصة اليومية للجزائريين تحت الاستعمار، غير أنني لم أكن قادرا بعد على فهم أن طريق الحرية والكرامة يمر من خلال هذه المعركة من أجل الاستقلال، هذه الكلمة بمجرد أن ينطق بها، تجعل سادة الجزائر المستعمرة يمتقعون غيضا وقلقا ومعهم الجزء الأكبر من الأوروبيين.

كان يبدو لي نظام فيشي ووراءه الهتلرية المنتصرة لحد الآن أكثر إثارة للاهتمام، ولم أكن أملك تجربة سياسية للربط بين المشكلتين، مشكلة الهزيمة الضرورية للفاشية وبين مشكلة تحرير الجزائر. ولقد استدعى مني الأمر لكي أدرك ذلك، أن أصبح شيوعيا بالفعل حتى ولو كان تعاطفي يذهب فطريا نحو هؤلاء الرجال والنساء من الذين تندد بهم صحافة "بيتان" على أنهم خونة وتعلن من وقت لآخر عن اعتقالهم ومحاكمتهم. وحتى ولو أنني التحقت بسرعة بنضالهم السري فقد كنت لا أزال بعيدا لأكون مناضلا

واعيا.. لأنني كنت أجهل كل شيء أو تقريبا تاريخ الكفاح الثوري والنظريات الماركسية التي قد تمكنني من فهم دواعي الحركة.

في الصباح الباكر من أحد أيام نهاية أوت 1940، تقدم أحد الشيوعيين رفقة عدد من رجال الشرطة إلى بيت الشباب للتأكد من أوراق المقيمين به.

وكان لحركة الغدو والرواح للقاطنين الذين قدموا للتو التي تختلط بحركة العاصميين واليهود والمسلمين تبدو مريبة للسلطات المحلية، التي قررت لا محالة أن الوقت قد حان للتخلص من هذا الإرث من زمن آخر، بحجة عدم احترام قواعد الفندقة التي تتطلب وضع سجل بالوافدين والمغادرين.

جاء محافظ الشرطة لإبلاغ المسؤول عن بيت الشباب الذي كنت أنا والمحيطين بي بقرار الإغلاق النهائي، مرغما هكذا النزلاء بدون أدنى مهلة للبحث عن مأوى في مكان آخر، ولم يكن ذلك بالأمر السهل بالنسبة لي وبلا شك بالنسبة للآخرين ممن يتوفرون بعد على بعض الامكانيات المالية، لقد قاربت أموالي على النفاد ولم تكن أمامي أية آفاق للعمل ولو بصفة مؤقتة.

لم أكن أدرك جيدا ماذا سأفعل ولا حتي أملك المعلومات عن أهلي وعن أخي الذي بقي معهم وكنت أتساءل عن مصيرهم في باريس المحتلة.

هكذا قررت أن أذهب إلى وهران، حيث كنت أعتقد أنه بمساعدة (إيزابيل فيال)، معلمة شيوعية وولدها (فرانسيس) الذي أملك معلومات عنهم منذ لقاء مارسيليا.. حيث سأعثر على وظيفة وفي جميع الحالات.. إمكانية إقامة علاقات مع نساء ورجال مثلي مضطربين من الجنرال. وصلت إلى محطة وهران بالقطار الليلي وقررت اقتصادا للقليل من الأموال التي بقيت بحوزتي وتفادي الذهاب إلى الفندق وانتظار طلوع النهار في عربة القطار الذي حملني إلى هذا المكان، فقد تمددت إلى أريكة القطار واستسلمت للنوم إلى غاية اللحظة التي أيقظني فيها ضوء مصباح كهربائي صوّب إلى وجهي..

حيث نهضت مذعورا.. إنه أحد رجالات السكة الحديدية المكلّف بالمراقبة.. كان في مهمة رقابة.. شرحت له لماذا لم أغادر القطار، وكانت ملاحظته الأولى، أنه ممنوع منعا باتا قضاء الليل في القطارات المتوقفة إلا أنه سيتصرف وكأنه لم يرني.. وكان بإمكاني مواصلة النوم، بل كان علي مغادرة القطار قبل وصول المسافرين الذين يصعدون صباحا للانطلاق نحو الجزائر .. وعندما كنت أبدي له الشكر، كان يكتب عنوانا على ورقة صغيرة ويقدمه لي.

"إنه عنوان حماتي، لها شقة كبيرة .. بضواحي شارع لامارين .. حيث أسكن مع زوجتي وابنتي .. لديها غرفة للإيجار .. إن راقت لك خذها .. ستدفع الإيجار عندما تجد عملا".

لقد كانت حماة هذا العامل الخفيف الروح امرأة من مارسيليا، ممتلئة الجسد وطليقة اللسان التي سرعان ما قبلت أن أكون مستأجرا عندها ومقترحة على أن تهتم بغسل ملابسي.. وقد رددت عليها ما سبق أن قلته لزوج ابنتها: في هذه اللحظة أنا بدون مال.. وكما فعل زوج ابنتها.. أن لا شيء يدعو للاستعجال .. وأنها ستنتظرني إلى اليوم الذي أعثر فيه على عمل .. وفي نفس اليوم أقمت في الغرفة ونمت في سرير مريح.

وفي اليوم الموالي ذهبت إلى مقر جريدة Oran républicain وكانت هذه اليومية قد تأسست قبل Alger républicain بقليل وعلى غرارها متبنية المبادئ التي تؤمن بها الجبهة الشعبية.. وحاملة نفس الهدف المتمثل في كسر احتكار الصحافة الاستعمارية.

لقد كانت التوجيهات السياسية للجريدتين بعد الحرب العالمية الثانية تختلف تماما، إذ كانت توجيهات "الجزائر الجمهورية" تندرج في سياق المعركة ضد الاستعمار .. في حين تتبنى اليومية الوهرانية مواقف الفرع

الفرنسي للأممية العمالية (SFIO) -التسمية السابقة للحزب الاشتراكي- .

ففي هذه الأشهر الأولى من نظام فيشي كانت هذه الأخيرة لا تزال تحتفظ بالنسبة لقرائها القدامى بقليل من بقايا لمعان جريدة سارية، حتى وانها واصلت الصدور وفرض فيشي عليها على غرار جميع الصحف التي بقيت تنشط في الشرعية مواضيعه الدعائية.

توجهت إلى المشرفة على الإعلانات الصغيرة، وقدمت لها نصا من بعض الأسطر من أجل طلب عمل، وبدلا من أن أسألها على المبلغ الذي يتعين علي دفعه مقابل نشر الإعلان، ترجيتها الاستعلام لدى المسؤولين عن إمكانية النشر بدون دفع مسبق وعلى الأقل لغاية اللحظة التي أحصل فيها على بعض الردود.

وبعد لحظة، خرج شخص ضخم الجثة، في حوالي الخمسين من العمر، من المكاتب التي توجد في مؤخرة الشباك متوجها إليّ، قائلا والابتسامة تعلو وجهه : بالتأكيد، ستنشر الجريدة إعلاني الصغير.. وبطريقة ودية طلب مني ما إذا كنت أود تناول الغداء معه، قبلت بكل طواعية كوني كنت أعاني من جوع دائم، وكنت قد عزمت على الاكتفاء بحصة يومية من الأكل تتمثل في الخبز والبطاطا والسردين، الحمص والفول في انتظار أيام أفضل.. وهي حصة يقدمها أصحاب المقاهي مجانا في صحون صغيرة متوفرة على مرفق محلاتهم والتي كنت ألتهم محتوياتها تحت النظرة السوداء للنادل مقابل احتساء كأس من الجعة المضغوطة.

لقد ذهب بي إلى مطعم صغير في شارع الباستيل، حيث يجري الحديث باللغة الاسبانية أكثر منه بالفرنسية، ليجلسني في طاولة بدون أن يجلس معي وقال لي وهو لا يزال واقفا : ستعذرني، أطلب بدون انتظاري ما تريد تناوله، سأعود بعد لحظة، ومن باب التربية.. انتظرت بعض الشيء، حيث عادت النادلة

للمرة الثالثة أو الرابعة لأخذ طلباتي، عندها قررت أن أبدأ وجبتي وحيدا.. ورويدا رويدا أصبح المطعم فارغا والرجل لم يأت بعد.. وقد فكرت أنه يكون قد نسيني.. وحتى ولو أنني تناولت وجبة جيدة، فقد وضعني في ورطة بظرافته.. ولن يكون بمقدوري دفع ثمن ما تناولته، وناديت على النادلة لأعرض عليها الوضعية لقد أوقفتني عند الكلمات الأولى: "لكن كيف؟ ألا تعلم، لن تدفع شيئا". قام السيد (تبارو) بتسوية ثمن وجبتك، وكذا ثمن معاش لمدة خمسة عشر يوما قادمة. إلى لقاء آخر.

- السيد تبارو (Tabarot) ألا تعلم هذا أيضا؟ يبدو أنك قادم جديد، إنه مدير يومية "وهران الجمهورية".

علمت بعد وقت طويل لاحقا أنه كان من الجبهة الماسونية وأنه في لحظة ما من حياته كان عضوا في الحزب الشيوعي الجزائري قبل أن يغادره. ولم أعرف إطلاقا لماذا لم أره ثانية.

ففي الذي كنت أكتب، قد توفي منذ زمن طويل، وعلى مدار سنوات وحتى اليوم وعندما أسمع أغنية (جورج براسنسز) حول Auvergnart الذي قام ذات يوم من أيام البؤس بلفتة سخاء وكرم "أفعمت قلبه" لا أتملك نفسي عن التطرق لتلك اللحظات البعيدة، حيث مجهولان اثنان قابلتهما الأول في محطة قطارات وهران والآخر في بهو الجريدة كان لهما أن مدّيا لي يدهما الأخوية..

كان الدخول المدرسي على الأبواب وقد عثرت بلا أدنى صعوبة على منصب مراقب بثانوية لاموريسيار، لقد كانت وظيفة ذات سعر اسمي.. غرفة ووجبة في الثانوية مع إمكانية الحصول على بعض النقود مقابل إعطاء دروس خاصة خارج المؤسسة أو احلال محل المراقبين الميسورين ممن يمقت القيام ببعض الأعمال المرهقة. ففي يوم الأحد على سبيل المثال، يتعين تجميع

النزلاء الذين يذهبون إلى القداس الأول في الكنسية ومرافقتهم عبر شوارع وهران النائمة إلى غاية الكاتدرائية. لقد كنت متطوعا لهذه المهمة وكان ذلك يجلب إليّ عشرين فرنكا، ومن وجهة النظر هذه، كان شهر رمضان فترة بدخ، فقد كان هناك عدد قليل من الطلبة المسلمين في الثانوية وأغلبهم كان من أبناء "كبار الخيم"، بمعنى كبار الإقطاعيين الذي يحظون برعاية الإدارة الاستعمارية أو بعض التجار الأغنياء، غير أن جميعهم يلزمون بالصيام.

وطيلة شهر، تستدعي القاعدة إيقاضهم عند الفجر، لارتداء ملابسهم بسرعة والتوجه إلى صف من اثنين وفي هدوء إلى المطعم حيث يقدم لهم السحور، ثم يعاد اقتيادهم إلى المرقد لأخذ قسط من النوم، غير أنهم لا يأكلون ولا يشربون إلا عند الغروب. وكانت هذه المهمة تقع على عاتقي باستمرار، وعلى المراقب الذي يكون في الخدمة أن يدفع عشرين فرنكا للقيام بها بدلا عنه.. لقد كان جل هؤلاء المراقبين من الأوروبيين باستثناء واحد، كان عنصريا كلاسيكيا مثلما لاحظته منذ البداية ومنحازا فطريا لنظام فيشي وسياسته. وبالرغم من حاجته إلى خدماتي أظهر لي نفورا ملحوظا منذ البداية، ففي هذا المجتمع حيث يصنف كل واحد تسلسليا وفقا لأصله وعرقه، لم يكونوا يعلموا أين يمكن تصنيفي. فقد كان مظهري وتعابيري ولهجتي تثير مخاوفهم، كنت أدعى "سالم"، اسم ذو رنة عربية حقيقية (قبل أن أعجب لاحقا باسم "علاق" وهو اسم مستعار استخدمه في النشاط السياسي) كنت آتكلم مثل فرنجاوي، كنت أكل بنهم أضلاع الخنزير التي تقدم في المطبخ، أرافق الأطفال إلى القداس، غير أن القس لاحظ عدم مشاركتي لا في القداس ولا في الطقوس المرافقة وقدم شكوى للمراقب العام.

غريب.. لقد كنت أنادي الأطفال الذين يقدمون لنا في المطبخ بصيغة الجمع ولم أكن أشارك في المناقشات الخطيرة، التي يزيدها البيادق صعوبة والتي تشكل الموضوع الرئيسي في نقاشاتهم عندما يكونون على الطاولة.

وأكثر من هذا يصدمهم ارتباطي بعلاقات مع الجزائري الوحيد في المجموعة والذي أحظى باحترامه ويدعى (محمد فليسي)، شاب لطيف ورزين ويمتلئ مرحا وحذرا مع الجميع باستثنائي إذ يجدني بالأحرى صريحا مع الآخرين.

"انتبه! هؤلاء الأشخاص، أشرار وخطيرون" قال لي ذات يوم وقد كان على حق إذ حدث وأن رئيس مجموعتهم ابن إحدى رجالات السلطة المحلية المعروف وشرير كبير، أمي وبليد لم يتحمل الملاحظات الساخرة التي استطعت القيام بها من وقت لآخر حول مستوى النكت العنصرية والمعاكسة التي يتبادلها مع نظرائه ويرغب في التخلص مني كوني تجرأت على تقزيمه.

لقد نجوت ذات مساء من فخ حقيقي أعده خصيصا لي، في مكان معزول من المؤسسة، لقد استمد شجاعته من احتساء جرعات قوية من شراب الأنيس وقرر إعطائي درسا، وتحت جنح الظلام، استطعت الإفلات من اثنين من الرجال بعث بهما للاقتصاص مني وبعد أن التفا حولي قمت بإحداث ضجيج كبير حتى اثنيهما على مواصلة الجري ورائي.

لقد كان آخر يوم حضرت فيه إلى الثانوية، وأعتقد أنهم كانوا ربما وراء طردي، وكان المراقب العام قد استدعاني عشية ذلك إلى مكتبه وقال لي أنه في غاية الحرج وأنه لا توجد حسابات شخصية معي، إلا أنه يتأسف على إبلاغي أنه لا يمكن استمرار توظيفي في الثانوية.

إنه القانون، قانون ليس من صنعه يقول، غير أنه يتعين الخضوع له، لقد أحاطوه علما أنني كنت يهوديا.. هل يتعلق الأمر بهذا.. أليس صحيحا ؟ وأن القانون يمنع وجود معلمين من أصل يهودي في المؤسسات العمومية.

"لكنه، يقول لي في الأخير. ماذا سأفعل ؟ هل يمكنك أن تحصل على عمل آخر ؟ هل تملك المال لمواجهة الحياة ؟".

ويبدو أنه كان أكثر اضطرابا مني.. وقد طمأنته.. سأعرف كيف أتدبر الأمر، لقد كان مطمئنا وسعيدا أن يعامل هكذا من طرف من قام بتسريحه، ثم يقوم بمصافحتي متمنيا لي حظا سعيدا قبل أن يرافقني إلى الباب. وهكذا انتهى مساري المهني القصير في التعليم.

لم أجد في وهران حرارة الصداقة التي عهدتها في الجزائر، ولا النقاشات السعيدة والمثيرة، التي تتواصل إلى ساعة متأخرة من المساء في مقهى "مقلاتي"، وتحت أقواسها المعبقة برائحة بخار الشاي بالنعناع.

ومن حين لآخر كانت (إيزابيل فيال) المعلمة الشيوعية، التي تعرفت عليها في مارسيليا، تجمع في بيتها حوالي ثلاثين شابا من الذكور والإناث العاملين والعاملات الذين انتسبوا إلى حركة بيوت الشباب، غالبا ما يذهبون في عطلة نهاية الأسبوع في جولة، وبالرغم من وجود تواطؤ سياسي بينما وبين المجموعة، أرغمها جو البيتانية السائد في البلد على اعتماد الحذر عند طرح المسائل المتعلقة بالأحداث.. وكأنها لم تكن متيقنة من الذين يحيطون بها، ولم نكن نرى في هذه الاجتماعات والخرجات سيرا على الأقدام أشخاصا من المسلمين.

ليس لأن (إيزابيل) لا ترغب بقوة في تجنيدهم، بل لأن في تلك الفترة كان التمييز لا يزال واضحا ومن الصعب تجاوز القواعد إما في وهران أو في الجزائر.

وفي مثل هذه الظروف، لا يمكن للنقاشات واللقاءات أن تجذبني إليها ولا تلفت اهتمامي، مطرودًا من الثانوية وبدون أية علاقات حقيقية تربطه مع هذه المدينة، قررت العودة إلى مدينة الجزائر حيث وصلت وأنا أشعر أنني دخلت إلى بيتي.

لقد كان العديد من أصدقائي الذين غادرتهم قبل أشهر لا يزالون هناك، غير أن نقاشاتنا الكبرى في بيت الشباب بين العاصميين وبعض اللاجئين من فرنسا وبلجيكا، كانت تبدو من عهد ولّى.

فقد تم إغلاق بيت الشباب، وقد تدبر كل واحد أمره لحل مشكلته في الإيواء، فالأكثر غنى أجروا غرفا في فندق أو عند أحد السكان، واستفاد البعض الآخر من بيت مؤقت لدى عاصميين من المتعاطفين معهم مثلما هو شأن سامي دورا (Sami Dorra) الذي عرض عليّ السكن لديه لبعض الوقت في الطابق الأرضي من عمارة تقع في منحدر فالي في حي مجاور لحي القصبة حيث يعيش الكثير من الأوروبيين من طبقة متواضعة الحال.

وبالنسبة لي، غالبا ما كنت أقوم بتغيير مكان السكن، كما لم تكن لدي صعوبات كبيرة في الحصول على بعض الأعمال التي تسمح لي بالبقاء. ولم أكن الوحيد في مثل هذه الحال. فقد أرغمت النصوص القانونية المطبقة على المعلمين من أصل يهودي حيث العديد منهم قبل بوظائف لاتتناسب مع الشهادات التي يحملونها.

إنها حالة أحد أصدقائي المقربين، الفريد سيرتش (Alfred Strich) مناضل شيوعي ودكتور في الكيمياء فقد منصب عمله بالجامعة ويقوم بلصق البطاقات على الزجاجات بمستودع في الميناء. لقد بدأت بإعطاء دروس خاصة لبعض التلاميذ ينحدرون من أصول أوروبية ثرية وبموازاة ذلك كنت أبحث عن وظيفة أكثر استقرارا.

وبواسطة مهندس لاجئ من بلجيكا تعرفت عليه في بيت الشباب استطعت الحصول على منصب في المؤسسة التي يعمل بها. إنها وحدة للطلاء والصمغ ومختلف المواد المستعملة في العمارة، ويقع مقرها في حي باب الوادي، وتضم هذه الوحدة زيادة عن رب العمل ونائبه الذي يتولى دور المراقب، والمحاسب والمهندس، حوالي خمسة عشر عاملا بمن فيهم أنا تم توظيفنا حديثا، وكان صاحب العمل ومحيطه من الأوروبيين، والعمال باستثنائي أنا من الجزائريين، غير أن المسؤولين يشيرون إليهم على أنهم أنديجان .. أي من السكان الأصليين.

ففي الورشة وهي عبارة عن اسطبل كبير يطل على المكتب الزجاجي للمديرية تم تركيب أحواض اسطوانية كبيرة تدور حول محاور مركزية لخلط المواد.

فمنذ اليوم الأول تم تعيني في قسم صناعة الصمغ، وكنت الوحيد الذي يتولى تدوير الحوض الذي عهد به لي، في حين يقوم عامل آخر بصب المادة على شكل جرعات، سواء كانت جافة أو سائلة تدخل في تركيبة الخليط.

وانطلاقا من هذا النوع من المعاجن الكبيرة والمتحركة، التي كنا نديرها بسواعدنا، كانت تنبعث روائح حمضية كريهة تلهب العيون والأنف والحنجرة وتنفذ إلى الرئة وكان أن أتوقف من حين لآخر لأدير رأسي من الأبخرة الخانقة المتصاعدة من الحوض واستنشق هواء نقيا، وكنت أنهي يوم العمل في حالة من الإنهاك، غير أن لا أحد يدعي أن ما نقوم به عمل خطير ولا حتى أنا، وعمل سيدمر بمرور الزمن أولئك الذين يقومون به بدون أية حماية تذكر. فلم تكن هناك نقابة في المؤسسة وليس في تلك الفترة من انتصار فيشي حيث يمكن إنشاء واحدة، فلم أكن بعد على وعي كاف ونضج كبير لأخذ المبادرة وتقديم مطالب ما ولا حتى القيام بمجرد مسعى لدى صاحب العمل، فالرجل الطيب السيد لوجندر (Legendre)، كان سيدعوني بلا شك إلى عدم التدخل فيما لايعنيني والاهتمام بجدية أكثر بتدوير المعجن المكلف به.

وعند منتصف النهار، توقف العمل وغادر العمال الورشة لمدة ساعة في انتظار استئناف العمل، وهكذا يتمددون على طول الرصيف المحاذي لسور الورشة لتناول وجبة خفيفة تتكون في غالب الأحيان من فلافل مشوية وطماطم وكمية من التمر أو عنقود من العنب مع قطعة من الخبز، لقد كنت أفعل مثلهم وكانت مناسبة لإثارة نقاشات، ففي اليوم الأول وبالرغم من أن لا أحد أبدى لي عداءه المفتوح، شعرت ببعض الحذر لم يكن من الصعب عليّ فهمه، لماذا هذا الأشهب الذي يحمل نظارات يقوم بعمل هو "حكر على العرب" مع أنه أوروبي ويعرف القراءة والكتابة ؟

من هو هذا الرجل؟ ربما هو أحد الوشاة؟ إنها بالتأكيد الأسئلة التي كان يطرحها رفاقي، غير أن ما كان يقلقهم على الخصوص، أو الذي كان يدهشهم هو وتيرتي في العمل.

وعندما تأتي شاحنة تحمل إلى المصنع أكياس الجبس أو مواد كيماوية تدخل في صناعة الأصباغ، كان المشرف يطلب من أحدهم مغادرة منصب عمله للمدة التي يستغرقها تفريغ أكياس تزن الواحدة حوالي الثلاثين كيلوغراما. إنه عمل متعب غير أنني كنت أقوم به طواعية، كونه يحررني من البقاء أمام الحوض وما ينبعث منه من روائح، لقد كنت أعمل بسرعة لأنني لم أعرف إطلاقا إنجاز الأعمال ببطء وخاصة وأنني لم أتعلم مثل الذين تعودوا على القيام بالعمل اليدوي في المصانع، حيث يجب معرفة كيفية اقتصاد طاقاتهم واحترام الحركات التي لا تلزم الآخرين على تسريع الوتيرة.

وعندما يكون أحد العمال قد حمل كيسا على ظهره إلى غاية عمق الورشة حتى تتراص المواد ويعود إلى الشاحنات لكي يأخذ كيسا آخر، أكون قد أنزلت كيسين من على ظهر الشاحنة، وكان ذلك غير مقبول، إلى غاية ان أشار عليّ أحد أعضاء الفريق والأكثرهم سنا متشنج وذو شنبات، بالتوقف وراء صف من الأكياس المملوءة بعيدا عن أنظار صاحب العمل، المتواجد وراء زجاج مكتبه.

وكان وجهه قريبا من وجهي وعينيه في عيني .. وقال لي بأسلوب لا يخلوا من التهديد:

"عن ماذا تبحث ؟ لا أفهم"

"كلا فأنا لا ابحث عن شيء"

"اسمع أنا وأنت لنا نفس العمل، أحمل كيسا وتحمل كيسا، تنزل كيسا، ليس اكثر".

لقد كان أول درس لي في نضال الطبقات ولاحقا عندما عرفت الأسس النظرية وعرفت ميكانيزمات القيمة المضافة. ولن أتأخر في الاعتراف لأول "أساتذتي" وهو عامل أميّ من باب الوادي، يعي أكثر مني معنى الاستغلال ويعرف أيضا في أدق التفاصيل كيفية الحد منه بسلوكه الخاص.

وفي نفس الفترة، استدعاني صاحب المصنع الذي لاحظ طاقتي وإخلاصي في العمل إلى مكتبه. وقال لي: "أنت أوروبي.. ابتداءا من الأسبوع القادم، ستربح فرنكين زيادة وستتولى مراقبة الآخرين" وكان مرتبي إلى ذلك الحين هو نفس مرتب رفاقي في العمل وكان ضئيلا، بالرغم من عرض زيادة فرنكين لم أكن أرغب إطلاقا في "الترقية" ولا حتى في أن أصبح عين صاحب العمل.

وفي اليوم الموالي أعربت له عن رغبتي في الاستمرار في العمل في المكان المعتاد وبنفس المرتب. وقد لاحظت أنه كان ينظر إليّ باستغراب وفهمت أن أيامي في الوحدة أصبحت معدودة.

وبالفعل تعرضت للتسريح في وقت لاحق، وبسرعة حصلت على عمل في ورشة تقليدية للنسيج، إذ لم نكن إلا اثنين، (فرانسيس رين)، ابن (إيزابيل فيال) التي أعرفها في مارسيليا وفي فترة "الحرب الغريبة" وأنا. لقد كان السيد والسيدة (بيلت) زوجين مثاليين وكلاهما في الثلاثين من العمر ومن أصل فرنسي، ويقومان بتشغيل مؤسسة صغيرة. لقد كانت المهنة الحقيقية للسيد (بيلت) هي النحت وأذكر أنه استفاد من منحة سمحت له بالعمل والمبيت مع زوجته بفيلا "عبد اللطيف" التي تقع في الهضبة المطلة على حديقة التجارب وكانت فيلا متواضعة نسبة إلى فيلات روما بالنسبة لشاب فنان (رسام على الخصوص) والأول في المسابقة. وكان وقت إقامته "القانونية" هو وزوجته في المدينة قد انتهى.

وكانت آخر طلبية تلقاها (بيلت) تتعلق بإقامة تمثال تخليدا لروح (جان بوان) صاحب الرقم القياسي العالمي في العشرة آلاف متر، الذي قتل في الجبهة في بداية الحرب العالمية الأولى. ثم لا شيء بعد ذلك، وكان يتعين عليهما أن يعيشا .. لذا جاءت فكرة إقامة هذه الورشة للنسيج وبعاملين فقط.

كانت الورشة جد بدائية.. تعمل آلاتها بطريقة يدوية وبالدواسة لتحقيق تقاطع خيوط الشبكة، وكان القماش الذي تصنعه موجها لتصميم بذلات ومعاطف النساء. في تلك الفترة من الندرة التامة للنسيج، الذي كان يسوّق جيدا وبأسعار عالية إلى زبائن راقين يهمهم أن يلبسوا منسوجات أصيلة صممت رسوماتها وألوانها من طرف رسام بارع. لقد كنا نتقاضى أجورنا عن كل متر ننتجه، وكان العمل أقل تعبا عنه في مؤسسة إنتاج الطلاء ولا يحتاج إلى تمهين كبير، فالأصعب هو إعداد اللفيفة، وهي مهمة يتولاها السيد والسيدة (بيلت).

تعلمنا بسرعة كيف نطلق الآلة وهي من القوة بمكان لاستعادة الخيط من الجانب الآخر للمنسجة وبدون خسائر وتسيير الدواسات بتنسيق الحركة والسرعة اللتين تتطلبان وقتا طويلا، وبالرغم من مجهوداتي لزيادة الإنتاجية، كنت بعيدا عن أداء (فرانسيس) الذي يعمل بدقة و وتيرة أعجبت بهما. ومن باب الحذر لم نكن نتطرق إلى المشاكل السياسية مع صاحب المحل، لكن وانطلاقا من بعض الملاحظات الساخرة التي كنا نسمعها، فهمنا بسهولة أنه لم يكن من أتباع فيشي.

وفي خريف 1940، كشف بيتان عن وجهه وما يمثله كبار الكولون الذين يسيطرون على الإدارة، واحتفالهم بمقدمه مثلما يحتفلون بقدوم عصر ذهبي.

ومن أجل أرباحهم الكبيرة، كانت البواخر المحملة بالمواد المنجمية، الخمور، القمح، الحوامض، تغادر الموانئ الجزائرية، ليذهب جزء من حمولتها لتموين الـ Grand Reich وآلته الحربية تحت رقابة لجان الهدنة الإيطالية – الألمانية. لقد كانت فترة سانحة أيضا بالنسبة للذين ما انفكوا يتعاملون مع العرب ولم تكن هناك إلا طريقة واحدة لحل المشاكل: القوة، "فالعرب لا يفهمون إلا بالقوة" لقد تصرفنا معهم باستمرار على هذا النحو إنها ميزة جنس المنتصرين في فرض واحترام القانون.

ومن الآن فصاعدا وتحت حماية الماريشال، يمكننا الدفاع عن التفوق الفرنسي بدون التخوف من رؤية بعض الفرنسيين يتدخلون انطلاقا من باريس في شؤون المستعمرة. وفي ظرف أشهر، عرف الجو السياسي المزيد من التدهور، فقد غزت دعاية فيشي الجزائر دفعة واحدة وكسبت دون أدنى مجهود السكان الأوروبيين الذين بقوا لمدة طويلة رهينة صحافة في يد الاستعمار وإدارة تحت أوامره : عمل، أسرة، وطن، سلطة، أوامر بالخضوع للمسؤول، تفوق فرنسا (الفرنسيين من ذوي الأعراق) ... الالتزام إلى جانب ألمانيا الهيتلرية ضد البولشيفية الملحدة – حليف الخائن Albion الذي دمر في جويلية 1940 بمرسى الكبير عمارة الأسطول الفرنسي – قمع مناهض للشيوعية والوطنيين، إلغاء مرسوم كريميو ووضع قانون لليهود.. ومواضيع أخرى وقرارات تداعب أسماع المعمرين، مثلما كانت تحمسهم خطب (بيتان) حول هذه "الأكاذيب التي أساءت إلينا كثيرا وتنديده بالجبهة الشعبية وبالفكرة الخاطئة للمساواة الطبيعية بين الأفراد".

فقد عرفت صفوف اللفيف الفرنسي للمحاربين، هذا اللفيف الذي هو في ذات الوقت حركة جماهيرية، لحفظ النظام وشرطة متممة للنظام، ويمكننا أن نتأمل صباح كل يوم أحد أعضاء اللفيف يضعون قبعة باسكية، يحملون الأعلام والميداليات وهم يجوبون مدينة الجزائر بخطى موزونة وفي صفوف متراصة.

ونجدهم في بقية الأوقات في الأسواق يراقبون الطوابير المشكلة أمام رفوف الباعة يتأكدون من وصولات التموين من أجل توزيع الزيت، السميد أو السكر، ويتدخلون لتفرقة المتسولين المعتادين ويضعون مكانهم السكان "الأصليين" وهم سعداء بإظهار حصتهم من السلطة في كل مرة.

ويطلق عليهم البعض ممن لا يحبونهم ولا النظام الذي يخدمونه "sépia" بسبب الشعار الذي يشبه جسم حبارة. وعندما يتكلم أحد العاصميين عن شخص يحمل "sépia" وهو نوع من السمك يدعى السبيدج فإننا نفهم ماذا يريد قوله ونتصور أنه شخصيا ليس من أتباع الماريشال.

وفي بعض المدن مثل البليدة، يقومون بتحية العلم الذي يرفع عاليا في الساحة، أين يقف شباب اللفيف في الاستعداد يرددون اسم الزعيم ويدعون إلى الوحدة ويرد الآخرون "فرنسا" ثلاث مرات متتالية.

وفي إحدى زوايا الساحة، تتولى مجموعة من الأطفال من ماسحي الأحذية يرتدون ثيابا رثة، حفاة الأرجل، يحملون علبهم على أكتافهم تقليدا لشباب اللفيف من خلال ترديد كلمة "كومبانيون" يتولى ذلك متزعم المجموعة ثلاث مرات متتالية وثلاث مرات أخرى مجموعة الأطفال وفي كلمة واحدة وبأقصى صوتهم.. وينتهي كل شيء بانفجار الجميع ضحكا، قبل افتراق سريع وحذر مع الإشارة الجماعية بذراع الشرف باتجاه الذين لم يتوقفوا رسميا عن القسم بالبقاء أوفياء للماريشال. ولم يكن تواجد رجال اللفيف هنا، لمجرد الديكور فقط. فقد كانت فترة وشاية مكثفة ودائمة وهي الفترة التي كانت تجمع حملة "sépia" الأكثر استعدادا في مصلحة حفظ النظام من الذين يتعين الحذر منهم، نظرا للدور النشيط الذين يقومون به.

ومن وقت لآخر، كانت الصحافة تشير إلى اعتقال مناضلين شيوعيين ووطنيين، وكانت مراكز الاعتقال للجنوب الجزائري : جناين بورزق، مشرية، Bossuet، Geryville، تمتلئ من جديد بالقادمين الجدد.

وأما العناصر المناهضة فكان يتم الزج بها في المعتقل بدون سند قانوني وفقا للمبدأ الحكيم المعلن من طرف أحد كبار المسؤولين في شرطة وهران الذي مفاده من الأفضل سجن "الخونة" بدلا من إضاعة الوقت في مراقبتهم.

وفي سياق هذه السياسة، يمكن لصغار وكبار المستعمرة الصغيرة أن يطيروا فرحا، إذ لم يسبق أن شعر موظفو السلطة، المتصرفون، الإداريون، محافظو الشرطة، رجال الشرطة، القياد، الوشاة، الأعوان، بحرية العمل وفقا لرغبتهم مثل هذه المرة. فقد كان أغلب رؤساء البلديات الصغيرة من المعمرين الأثرياء في المنطقة يزعمون أنهم يعرفون "كيف يتعين معاملة العرب" ويتصرفون كاستبداديين وأحيانا كقتلة، وفي بداية شهر أوت 1941، تعرض رئيس بلدية زرالدة السياحية التي تقع على بعد حوالي 30 كليومترا من مدينة الجزائر بعد "حادث مؤسف" إلى انتقادات مباشرة من طرف "شخصيات عربية محلية" لم تتطرق إليها الصحف.

وتكفلت الإشاعة العمومية و"التلفون العربي" بالتعريف بما حدث، وكان رئيس البلدية قد قرر غلق شاطئ بلديته على السكان الأصليين، وليظهر مدى صلابته وعدم السماح بأية مخالفة، أمر مصالح الشرطة بإيقاف المخالفين.

وفي جو من الحرارة الخانقة تم الزج بحوالي أربعين من السكان الأصليين في عمق قبو تابع للبلدية وحجزهم في محشر ضيق بحيث توفي 26 منهم في صباح اليوم الموالي اختناقا، إنها مجرد حادثة يقولون عنها وتم طمس القضية بطبيعة الحال، إذ لا يتعلق الأمر "بنسج قصة" ولا بمحاسبة رئيس البلدية طبعا.

طلبت منه السلطات العليا السهر على عدم تكرار مثل هذه الحوادث إذ أن انعكاساتها، يمكن أن تدفع" بالسكان الأصليين إلى العصيان" وهو ما يذهب ضد سياسة الماريشال.

وبقدر ما كان النظام يبدي وقاحته وقساوته، كنت أشعر بالمزيد من الالتزام الفعلي عن بعض المناضلين الشيوعيين، حيث وجدتهم في الأخير وكان أحدهم وهو عامل "فرنسي أتى من فرنسا" يعمل بورشة في الأميرالية، كان قد قطع الاتصال فجأة بسبب استدعائه إلى فرنسا ربما، وكان الثاني يعمل بمصالح البريد وقد علمت لاحقا أنه تعرض للاعتقال بعد أولى اتصالاتنا، وكان الثالث يعمل في السكك الحديدية، ويدعى (جاك بنيتوليلا) والذي تم اعتقاله لاحقا وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في محاكمة أثارت الكثير من الصخب في تلك الفترة، وقد دعي للمثول أمام المحكمة واحد وستون شيوعيا (من بينهم ست نساء) وقد سميت تلك المحاكمة" بمحاكمة الواحد والستين".

ومنذ الهجوم النازي في جوان 1941 ضد الاتحاد السوفييتي، أوقفت جميع المسائل التي يمكن أن تطرح حول طبيعة النزاع ذاته ولمدة اشهر خلال "الحرب الغريبة" وبعد الهزيمة تضاءل التسجيل في صفوف الشيوعيين أمام الواجب الأكبر: واجب محاربة ألمانيا الهتلرية ومنع انتصار الفاشية وأطروحتها العنصرية والاستعبادية، الواجب الذي يتوقف عليه مجمل مستقبل فرنسا المحتلة ومستقبل الجزائر والشعوب المستعمرة والمقهورة وتحت نير الاستعمار وكذا الأمل في عالم جديد وحر.

وكان (فرانسيس) في نفس الاستعداد النفسي مثلي، فلم يكن يرغب في البقاء مكتوف الأيدي وانتظار بقية الأحداث والتفكير في ضرورة إسماع صوت آخر راعد غير صوت دعاية فيشي. وحتى ولو أن إمكانياتنا الضعيفة جدا لا تسمح بالوصول إلا لحلقة ضيقة، فقد كنا نعلم أن الجميع لم يلتحق في الجزائر بسياسة الخضوع للهتلرية.

لقد كان مؤشرا .. إذ بالرغم من القمع، عبرت القوات المعادية للفاشية سواء من جانب الأوروبيين أو المسلمين وخاصة الشباب في زمن الجبهة الشعبية عن إرادتها في عدم إهمال المعركة.

فقدنا كل اتصال مع الحزب الشيوعي الجزائري وأدبياته السرية التي لم تكن تصلنا، لقد كنا نتحدث باسم منظمة الشبيبة الشيوعية في الجزائر والتي لم نكن نعلم أنه كان هناك وجود لبعض المجموعات على الرغم من الاعتقالات والقمع المتواصل.

وبواسطة بطاقات لاصقة كنا نشتريها من المحلات التجارية وكذا بمساعدة أحرف من المطاط تقدم ضمن لعبة كانت تباع في محلات بيع الألعاب، قمنا بتصميم "فراشات" تندد بالفاشية وتمجد كفاح المقاومة في فرنسا وفي أوروبا. وعند حلول الليل، كنا نخرج لوضعها على جدران الشوارع الأكثر اكتظاظا في المدينة. وكانت طباعة المنشورات تطرح مشكلة إذ في غياب الإمكانيات التقنية، لم يكن بإمكاننا تجاوز هذه المعظلة.

ولم يكن على مستوانا غير صفيحة من العجينة لمضاعفة النسخ، وزجاجات من الحبر المكثف وأقلام مخصصة لهذا الاستعمال، إنه نظام بدائي لمضاعفة نص واحد.

لقد كنا نرغب في القيام بعملية مثيرة، لقد قرأ (فرانسيس) في مكان ما، أن الشيوعيين الألمان قد اخترعوا أو استعادوا نظاما أصليا لتوزيع نصوصهم السرية. ويكفي توفير صفيحة توضع في حالة توازن على حافة شرفة أو بلكونة بحيث يوضع على إحدى حوافها رزمة من المنشورات وعلى الطرف الآخر دلو مملوء بالماء وبه ثقب صغير.. إذ عندما تقطر كمية من الماء، يختل التوازن وتسقط الأوراق في الشارع وتتبعثر، وسرعان ما تجلب انتباه المارة الذين يتسارعون إلى معرفة محتوى هذه الأوراق التي تسقط من السماء، وعندئذ يكون أمام المناضلين الوقت الكافي للاختفاء.

وقد اقترحت استخدام شرفة بناية ساحة الحكومة، حيث يوجد بيت الشباب سابقا والذي يطل في الآن نفسه على شارع مزدحم وعلى الساحة نفسها، في حي شعبي، حيث يتقاطع صباحا ومساءا آلاف العاصميين من جميع الأصول، ولا يمكن أن يوجد مكان أفضل منه.

أعرف هذه الدار جيدا، لقد سكنت فيها وأيضا سطحها حيث يقوم المستأجرون بغسل ملابسهم ونشرها تحت الشمس بالتداول. لقد عدت في سرية تامة وتفقدت الباب الذي يفصل السطح في آخر طابق.. إذ يكفي مجرد مفتاح لفتحها، لقد اشتريت رزمة مفاتيح من بائع الخردوات بالسوق القريب من شارع شارتر وعدت للقيام بالتجربة ولم أجد كبير عناء في العثور ضمن الرزمة على المفتاح الملائم، وكان مفتاحا صدئا ويثير جلجلة عند دورانه، الأمر الذي استدعى بعض الحذر حتى لا يستيقظ سكان المكان عندما نستخدمه. لقد توجهنا إلى البناية ذات ليلة في الوقت والساعة المقررين.

وبدون إنارة الأضواء صعدنا إلى غاية السطح وفي شبه ظلام تام وضعت الخشبة التي كنا نحملها إلى أعلى الحائط المطل على نقطة استراتيجية، الزاوية التي تطل على "شارع وساحة العود" وعلى إحدى جوانبها رزمة المناشير تعلوها بعض الحجارة لمنعها من التطاير ومن الجانب الآخر وقصد ضمان التوازن بدلا من وضع دلو مثقوب ومملوء بالماء وفقا للوصفة الألمانية، وضعنا قطعة آجر مربوطة بخيط إلى الباب إذ سيحرك أول من يفتح الباب في صبيحة اليوم الموالي، قطعة الآجر والمنشورات، وعندما تسقط تتبعثر الأوراق فوق رؤوس المارة، والذي نتمنى أن يكون عددهم كبيرا في تلك اللحظة التي تحدث فيها "المعجزة".

لقد خرجنا بدون عناء من المبنى، وكانت الساحة تكاد تكون خالية في انتظار قدوم النهار ونحن جد فخورين بإنجازنا. كان ذلك في وقت متأخر بالنسبة لسكان العاصمة الذين ينامون باكرا على عكس سكان وهران.

ففي تلك الساعة كان المسافرون في عربات القطار قليلين على طرقات الجزائر وكانوا يدعونها (السيفيرا) والتي كانت تنقل زيادة عن المسافرين الأغنام في عربة خاصة ملحقة بمؤخرة القطار في أيام سوق Maison-Carrée

(الحراش) وكان الضوء جد خافت في عربات القطار، عندما القيت نظرة على (فرانسيس) الذي كان قابعا هناك، لقد استقام مثل قمر مكتمل في سماء قاتمة.

- "أنت كالك بياض .. "قلت له

- لكن وأنت أيضا

كنا نشبه خبازين هربا من فرنهما أو بهلوانيين مغشيين بالدقيق، وكان منظرنا الغريب جد لافت للانتباه لبعض المسافرين في العربة وقد نزلنا بأقصى سرعة ممكنة لنفض الغبار. ولم يكن ذلك الغبار بالفارينة بل كان مادة الطالك.

وكان (فرانسيس) جد حساس لجميع التفاصيل، فقد أصر على أن لا نترك أي بصمات يمكنها أن تساعد على معرفة هويتنا، وكان قد اشترى زوجين من قفازات المطاط، قام بلفهما بعناية وغطاهما بالطالك حتى لا يتعرضان للتلف.

وفي ظلام السطح، غاب عن ذهننا هذا التفصيل الهام وبدون أن ندرك أصبحت ملابسنا بيضاء وكأننا تعرضنا إلى الرش، وبالفعل.. لقد كانت الاحتياطات المتخذة غامضة، ورجال الشرطة لم يكونوا قد بدؤوا بعد في رفع البصمات بصفة نظامية عندما يفتحون التحقيق.. وقد اكتفوا هذه المرة على ما يبدو باستنطاق المستأجرين والجيران المجاورين للمبنى، وفي تلك اللحظة ثمنت تقنية الحذر العالية عند (فرانسيس)، لقد كنا شبابا ورومانسيين وبدون شك كان لا يحلو لنا الإنقاص من أهمية العمل المثير وهيجان السلطات على إثر توزيع منشورات شيوعية في الجزائر الموالية لبيتان.

كان هذا أول عمل نضالي فعلي بالنسبة لي.

وكنت جد واع بضآلة العمل وفي نفس الفترة، كان مقاومون يصغرونني بعدة سوات يقومون بنسف القطارات في فرنسا المحتلة، غير أن إلقاء نظرة إلى الوراء، تجعلني أشعر بالارتياح لفتح الطريق لأول وأهم اختبار.

لم تتطرق الصحف بكلمة واحدة لهذه القضية، غير أننا لم نكن سذجا إلى درجة يدهشنا ذلك الصمت، إذ بعد ستين عاما.. أي مؤخرا، وفي سرد للأحداث السياسية المتميزة للفترة المسجلة من طرف مصالح الشرطة بالجزائر، كنت سعيدا باكتشاف إشارة إلى "عودة أنشطة الشباب الشيوعي" وبالضبط في الفترة التي سقطت فيها منشوراتنا من السماء.

وقد سمع أعضاء من الشبيبة الشيوعية وكنا نطلق عليهم تسمية "Jice" الذين ينشطون في مدينة الجزائر بهذا النشاط المبذول دون علم منهم عن منشورات ودعوات موقعة من "الشباب الشيوعي" ويتساءلوا عن وجهتها، وما إذا كانت تخفي مناورات استفزازية من طرف الشرطة.

وبالرغم من أن الجزائر مدينة صغيرة، ومن الحذر الكبير الذي كان يطبع نشاطنا، فقد توصلوا إلى الخيط الذي أوصلهم إلينا، وقد صرنا لاحقا نجتمع بانتظام في مجموعة سرية من ثلاثة.. "ترويكا" وهي كلمة لم تثر بالنسبة لي غير مقطورة يجرها طاقم من أحصنة تتزحلق على الثلج في غابة روسية.

وكان اتصالنا مع المستوى الأعلى يتم بواسطة إحدى الفتيات الأوروبيات تشبه طالبات الثانوية وابنة للبرجوازية الكولونيالية.

لم يكن عمرها يتجاوز الخمسة عشر عاما، وبدت لي لاحقا أنها جد صغيرة للقيام بمثل هذا العمل وكنت قلقا بعض الشيء وقد علمت أنها تتابع دروسا في مدرسة الفنون الجميلة بالجزائر وتعتزم تمديد دراستها في الهندسة المعمارية، وبمناسبة أولى اتصالاتنا، قالت إن إدارة الشبيبة الشيوعية قد أعطت للجميع تعليمات قصد الاستعداد الجدي والنفسي إلى تحمل التعذيب في حالة التوقيف..

لم أكن أرى كيف يمكن ذلك أن يحدث وتساءلت لحظتها عما إذا أخذ هذا الكلام محمل الجد. غير أن الأمر لم يكن سخرية. لقد تم إيقاف شباب شيوعيين سيصبحون لاحقا من أصدقائي المقربين وأخضعوا لويلات التعذيب من طرف المختصين في الشرطة السياسية لنظام فيشي.

علمنا بعد ثلاثة سنوات لاحقا، أن أحد المفتشين يدعى أندريه أشياري (André Achiary)، الذي يمارس من جديد نبوغه بعد ماي 1945، قد استبسل بوحشية غير مسبوقة ضد جيلبرت شمويلي (Gilberte Chemouilli)، احدى الشابات المناضلات من مدينة الجزائر، ولم يتطرق أحد بصفة علنية ولو بكلمة واحدة، إلى طريقة معاملة المناضلين، عندما يقعون بين أيدي الذين يطاردون الشيوعيين والمقاومين.

جورجيت كوتان (Georgette Cottin) هو اسم عون الاتصال لدينا، وبالرغم من صغر سنه، كان على درجة من النضج والتحفيز والفعالية، زيادة عن الحذر والسرية إلى غاية أن أصبح عضوا في مجموعتنا، إذ لا والده ولا والدته كانا شيوعيين، حتى وجد نفسه في السرية ضمن عائلته الفعلية، لقد كانت لديه مشاعر عميقة في الثورة على البؤس وعلى العنصرية واللاعدالة التي يكون قد تلقاها عن أحد أسلافه لجهة أمه الذي كان ضابطا في الجيش الفرنسي في أواسط القرن الماضي، وهي مشاعر جعلته يتجاوز سنه بعدة أجيال، وكان هذا الضابط قد حكم عليه وتم ترحيله نحو الجزائر لرفضه المشاركة في عمليات قمع مظاهرات عمالية.

كان للتوسع النسبي لصفوف الشبيبة الشيوعية أنه أعطى للمجموعة بعض الإمكانيات التقنية الجديدة.

وهكذا أصبحنا نتوفر على آلة كاتبة تسمح لنا باستخدام الورق المشمع لطبع عدد كبير من النسخ، بواسطة آلة نسخ قديمة، تمت استعادتها من

طرف (جورجيت) في إطار عملية إرث لعتاد يعود لبيوت الشباب. وهكذا أصبح بالإمكان إصدار ورقة من الجهتين تقدم بفخفخة على أنها "الجهاز المركزي للشبيبة الشيوعية" وعنوانه "الحراسة الفتية" غير أن صدورها نظرا للظروف، لا يمكن إلا أن يكون غير منتظم.

كان المحتوى الهزيل للمقالين أو الثلاثة مقالات موجها أساسا إلى التنديد بحكومة فيشي والنازية وضرورة تجنيد جميع القوى إلى جانب الاتحاد السوفييتي والحلفاء والمقاومة الفرنسية ضد ألمانيا الهتلرية.

كان من المتفق عليه أن مستقبل الجزائر، مثلما هو شأن مستقبل العالم، يتوقف بالدرجة الأولى على هزيمة الفاشية وأن جميع المسائل الأخرى ثانوية لحد الآن بالنسبة لهذا الرهان الرئيسي، وكانت النسبة الضعيفة للجزائريين المسلمين في قيادة الحزب الشيوعي الجزائري في تلك الفترة تدعم الاتجاه نحو التقليص من الأهمية الحاسمة للمطلب الوطني والذي كان لا يعبر عنه بالقوة التي سيعرفها بعد وكان عنصرا أوليا ودائما في أية سياسة شيوعية في بلد يخضع لهيمنة استعمارية.

بيد أنه منذ تشكيل الأممية الثالثة، ماانفك القادة (سواء الفرنسيون أو الجزائريون) يؤكدون على أن المعركة التي يخوضونها إنما هدفها هو استقلال الشعوب المستعمرة.

وقبل أن تصبح الأشياء أكثر وضوحا بالنسبة لي، أدركت جيدا أن أصدقائي منذ الأيام الأولى، (علي تسة)، (محمد بوراس) و (مصطفى كاتب)، الذين كنت ألتقي بهم من حين لآخر، والذين كانوا متفتحين على الدوام للنقاش، لم يكن لهم نفس رد الفعل مثلي عند الإعلان عن الأخبار التي تمس سير الحرب وبالضبط معارك الاتحاد السوفييتي في مواجهة القوات الهتلرية. لقد سجلوا الأحداث ويدركون الانعكاسات الممكنة، غير أن كل ما

كان يجري لم يكن يهمهم بطريقة مباشرة، إلا أنهم لم يكونوا يتمنون انتصار ألمانيا.

لكن وبكل بساطة كما قال ذات يوم (جوزي أبو لكر) بخصوص الموقف المشترك للجزائريين المسلمين في تلك الفترة "إنها ليست حربهم" أو بالأحرى لم يكونوا يدركون أنها أيضا حربهم، لقد كان من الصعب بالتأكيد على رجال يعيشون تحت الاستعمار القبول أن آمالهم في التحرر تستدعي على العكس في هذه المرحلة التاريخية مشاركتهم إلى جانب المستعمر الفرنسي الذي يتولى اضطهادهم في هزيمة ألمانيا و"أعداء أعدائهم"، حتى ولو أن أكثر الزعماء الوطنيين المعية في تلك الفترة مصالي الحاج، قد رفض أية مشاركة مع النازيين، لم يذهب إلى غاية دعوة الجزائريين إلى المشاركة في الكفاح ضدهم أو حتى تحذير العمال ضد محاولات توظيفهم من طرف الجيش ومصانع Reich.

وفي جناين بورزق، مركز الاعتقال بالجنوب الجزائري حيث تم الزج بالشيوعيين والوطنيين بصفة عشوائية، رأينا هؤلاء وأولئك يهللون وأحيانا بعنف لدخول القوات الألمانية إلى باريس في جوان 1940.

استقبل الإعلان عن الهزيمة الذي بدا في أعين الشيوعيين بمثابة كارثة، بمظاهرات فرح من طرف المعتقلين الوطنيين الذين يرون في الهزيمة الفرنسية انعطافة نحو الاستقلال، وقد كان هذا بالأحرى أحد مواضيع الدعاية الهتلرية والموسولينية باتجاه إفريقيا الشمالية في السنوات التي سبقت الحرب.

وكان (فرانكو) في بداية الحرب الاسبانية هو الآخر قد لعب على العواطف الوطنية حيث عبر عن رادته في المساهمة في تحقيق استقلال شعوب المغرب.

رد (عبد الخالق طوريز) أحد أهم القادة الوطنيين المغاربة في الأراضي تحت الهيمنة الإسبانية بحرارة على عروض (فرانكو) ودعا شعبه إلى مساندة الجنرال المشاغب ضد أسبانيا الجمهورية.

لقد تم إحراز النصر وكمكافأة له، قام بمنع حركته وزج به في السجن.

حالت القبضة الحديدية للرقابة في نظام فيشي دون الفهم الحقيقي للأحداث، وإضافة إلى جهلي، لم يكن متاحا لي إدراك التعقيدات الكبيرة للوضعية.

وحتى ولو كانت الفكرة قد اخترقتني فإن الآمال في حرية الجزائريين تستدعي أولا هزيمة المحور، فإن البراهين كانت تنقصني لإقناع أصدقائي، لذا كنت أمتنع عن النقاش معهم حول الموضوع.

علمت ذات يوم أن من بين المسؤولين في الحزب الذين يعملون في السرية والذين لم أكن أعرفهم بعد، كانت لهم وجهات نظر مختلفة حول الخط السياسي الذي يتعين الدفاع عنه وأتباعه وكان ذلك بمناسبة لقاء هام مع (أحمد اسماعيلي)، أحد أوائل المناضلين المسؤولين الذي تعرفت عليه والذي كان قد حارب ضمن الفرق الدولية في إسبانيا. وكان غائبا في قفص الاتهام ضمن مجموعة الواحد والستين، لذا تم الحكم عليه بالإعدام غيابيا وكان يجري البحث عنه أثناء محادثاتنا.

وبطريقة مكشوفة، كنت "جديدا تماما" فقد كان يعلم فقط عن نضالي في الشبيبة الشيوعية، لذا أشار بطريقة غير مباشرة إلى الموقف اللامشروط للحزب الشيوعي الجزائري إلى جانب جميع القوى المناهضة للفاشية الفرنسية والعالمية، وكان يتمنى ولفائدة المعركة المشتركة موقفا سياسيا أكثر وضوحا لأسباب وأهداف مشاركته في المعركة.

وبعد سنوات، حيث توفي (أحمد اسماعيلي) منذ زمن طويل تحت عجلات شاحنة عسكرية بعد وقت من إنزال القوات الإنجلو- أمريكية أعدت التفكير فيما قاله لي وقدرت أهميته.

كانت الأيام تمر في انتظار أحداث من شأنها تغيير مصير الحرب والخروج في نفس الوقت من هذا الجمود النسبي الذي أغرقتنا فيه سرية لم تكن بدون مخاطر.

وكنت على أبواب سن الرشد ولم أكن أستطيع كما ينص عليه القانون بالنسبة للشباب المولودين في الخارج ومن أبوين متجنسين بالجنسية الفرنسية، أن يختاروا نهائيا هذه الأخيرة بدون أن يتم تجنيدهم في ورشات الشباب أوفي التشكيلات شبه العسكرية المخصصة "للإسرائيليين الأصليين".

وبالاقتناع عن القيام بهذا التصريح، اخترت بنظر السلطات، الاحتفاظ بجنسيتي الأصلية، وبالتالي أصبحت من الآن فصاعدا تابعا لقوة أجنبية عدوة وهي بريطانيا، وكان هذا على الأقل ليؤدي بي إلى إحدى مختلف مراكز الاعتقال حيث تقوم الثورة الوطنية بإدخال إلى حظيرتها أفراد "غير مرغوب فيهم".

إن كونهم يدركون أني كنت مسؤولا سابقا للشبيبة الشيوعية السرية، يزيد في أعين سلطات نظام فيشي من "خطورة" حالتي، وهكذا قررت عدم انتظار هذا الاحتمال وتغيير بطاقة الهوية بمساعدة شاب شيوعي أعارني أوراقه، وقد أصبحت وسأبقى طويلا السيد (دوفال).

كان فريقنا للشبيبة الشيوعية قد قرر الالتحاق برفاق الطريق وهو تنظيم تابع لفيشي يحاول بلا نتيجة تعويض ما كانت عليه بيوت الشباب.

وكانت العملية ستؤدي إلى الحصول على محل كبير يقع في الطابق المسروق لساحة الحكومة في قلب المدينة الشعبية وبالتالي الحصول أيضا على غطاء شرعي يمكننا من التسهيلات سواء بالنسبة للقاءاتنا أوعملنا السري.

وحقيقة القول .. لم تكن هذه الحركة غير مجرد قوقعة فارغة، الأمر الذي يجعل استثماراتها سهلة نسبيا. غير أن القطيعة مع قاعدة الترويكا يمكن أن تشكل سابقة خطيرة، وسيكون الشباب المناضل الأكثر وعيا على علم بطبيعة الحال بهذا المسعى وحتى وهو يحترم تعليمات الحيطة والحذر، فإن خطر انكشافها يبقى قائما. بيد أن شيئا من هذا لم يحدث .. فالاعتقالات التي تمت في الأشهر الأولى لسنة 1942 لم تكن لها علاقة بهذا النشاط.

يمكن لغموض غريب حول هويتنا السياسية الحقيقية أن يحدث. إنها مغامرة لا تزال بعد ستين سنة تجعلنا نضحك، عندما نتحدث اليوم أنا وصديقي القديم ألفريد ستريش (Alfred Strich)، بدأت بالنسبة لنا نحن الاثنين ذات صباح صيف، عندما كنا نسير والحقيبة على ظهورنا على طريق بئر خادم على أمل إيقاف سيارة خاصة أو شاحنة تقبل بنقلنا إلى غاية البليدة، ومن هنا عبر الدروب الجبلية نصعد مشيا على الأقدام إلى غاية محطة الشريعة حيث سيلتحق بنا أعضاء من مجموعتنا بالشاليه الذي كنا قد أجرناه.

"هيا اصعدوا يا أطفال .. هناك مكان في الخلف.." فالرجل الذي يخاطبنا، أوروبي ذو شعر رمادي، يلبس قميصا بنصف أكمامه، يقود عربة يجرها حصان مطيع.

لم نكن جد متحمسين للرد على دعوته، خوفا من ضياع فرصة مرور سيارة، من شأنها أن تنقلنا بسرعة وإلى مسافة أبعد على طريق البليدة، وكأنه شعر بأسباب ترددنا أضاف : "سيمكنكما في جميع الحالات من ربح المسافة، سأغادر الطريق في المفترق على بعد أربعة كيلومترات من هنا، مزرعتي لا تزال بعيدة، هيا اصعدا.. ستكونان نعم الرفيقين .." وبالفعل ذلك ما كان يبحث عنه، مرافقته في الطريق حتى يستطيع التحدث، إذ كنا لا نرغب في الحديث، وهكذا صعدنا إلى بلاتو العربة وهو يجلس في الكرسي

الأمامي والحصان يعدو، عرض علينا بحماس مندفع وجهة نظره حول الحرب و وضعية فرنسا وآفاق المستقبل.

"نعم أيها الشباب.. أي حظ هذا أن يكون عمركم اليوم عشرين سنة، كنت أتمنى أن أكون في مكانكم.. أية حياة ستعشونها.. الماريشال والمستشارية، فرنسا والمانيا، اليد في اليد.. لن يكون هناك أقوى منا في العالم إطلاقا.."

لقد وصلنا إلى المفترق.

"سأدور نحو هذا الاتجاه...، إن مزرعتي في نهاية الطريق .. سأترككما هنا.."

وعندما كنا نهم بالنزول.. رفع يده وكأنه يلعب دور الأب مقدما النصيحة إلى أطفاله الصغار وخاطبنا قائلا: "اسمعاني.. واحذرا.. تذكرا جيدا ما أقوله لكما واحفظا دائما في رأسيكما: فرنسا لها ثلاثة أعداء: الإنجليز، البلاشفة واليهود.. لا تنسيا هذا أبدا".

وبينما كانت العربة تبتعد تحت سحابة من الغبار، كاد (ألفريد) يختنق من ضحكة حبسها منذ وقت طويل: "ألا يعرف هذا المغفل أن هؤلاء الأعداء الثلاثة، الانجليزي، البولشفي واليهودي قد جمعهم في عدو واحد: وفي عربته".

مدينة الجزائر في حرب

في الليلة من السابع إلى الثامن من نوفمبر 1942، تردد صوت طلقات المدافع والانفجارات من الميناء إلى غاية أعالي المدينة، معلنا للعاصميين عن وصول الحلفاء. كان بعض المناضلين الشيوعيين على علم بتحضيرات وصولهم، وكان عليهم أن يساهموا بصفة فردية، إلى جانب (جوزي ابولكر) ومقاومين محليين، في تحييد المراكز الحساسة لمدينة الجزائر، لتسهيل الاستيلاء على المدينة من طرف القوات الأمريكية.

لم تسفر المفاوضات التي شرع فيها مع الحزب الشيوعي الجزائري من أجل المعاونة مع بقية المجموعات المقاومة عن نتيجة، وانطلاقا من هذا، تم إخراج الحزب الشيوعي الجزائري بصفته تلك من العمل الذي كان يجري التحضير له. ومن جهتنا.. لم نكن نحن أعضاء الشبيبة الشيوعية على علم بما يجري.

وفي الصباح الباكر ليوم الأحد الثامن من نوفمبر، دق أحد أصدقائي المقربين، رونيه دوفاليه (René duvalet) الذي تم تجنيده مؤخرا في الشبيبة الشيوعية من بين المنخرطين في رفاق الطريق، على باب إقامتي ليعلن لي الخبر.

سمح له عمله الليلي في الميناء من أن يكون في الصفوف الأولى عندما ظهر الجنود الأمريكيون على الأرصفة قبل أن يدخلوا إلى المكتب الذي يحتله، حيث لم يمكثوا إلاّ بعض ساعات.

في تلك الأثناء تم حجزه هو وبقية رفاقه في العمل كرهائن إلى غاية اللحظة التي تم "استلامهم" وهم في حيرة من أمرهم من طرف مجموعة من أفراد الشرطة «المخلصين للماريشال».

كان يعتقد أن الأمر يتعلق "باختبارات" لدفاعات فيشي وليس بإنزال مكثف للقوات وكأنه يمنّي نفسه وأنا معه ـ أضاف: "لا تقلق، سيعودون وستكون هذه المرة من أجل الأفضل".

وعند نهاية الصبيحة، أضحت الأمور أكثر وضوحا. فالأمريكيون والانجليز (الذين قل الحديث عنهم) وصلوا بالفعل إلى الجزائر ولم يغادروها ثانية. فالجنود الذين ظهروا بالليل على الأرصفة حيث يعمل (رونيه)، لم يكونوا هناك إلا للقيام بصرف الأنظار والاستطلاع لفتح الطريق لبقية قوات الحلفاء.

انطلقت هذه القوات من نقاط إنزالها الواقعة خارج مدينة الجزائر، ودخلت المدينة من مرتفعات الأبيار مع نهاية الظهيرة، وكان الأمريكيون والإنجليز قد وضعوا أقدامهم في المغرب أيضا.

وواجه الضباط الموالون لفيشي الذين تولوا الرد، مقاومة سرعان ما اشتدت لتخلف مئات الضحايا. وفي المساء ألقت الطائرات الألمانية قنابل في مؤخرة ميناء آغا أسفرت عن اندلاع حرائق.

هكذا أصبحت إفريقيا الشمالية برمتها مسرحا للعمليات، وبدأت مرحلة جديدة في الحرب وخطوة حاسمة أيضا نحو الخروج منها.

كنا ننتظر البقية بقلق شديد، وبدا لنا أن هذا لا يمكن أن يكون إلا للقضاء السريع على نظام فيشي الذي يسود في الجزائر وتحرير المعادين للفاشية

والوطنيين والشيوعيين الجزائريين والفرنسيين المسجونين والمعتقلين، منذ بداية الحرب في محتشدات الجنوب مع مئات الجمهوريين الإسبان، وأعضاء من الفرق الدولية التي اعتقدت بعد انتصار (فرانكو) أنها وجدت ملجأ لها بالجزائر. وقد تمكنا من الخروج من السرية والعمل على المكشوف، وكنا مدفوعين بنفاد صبرنا إلى الاعتقاد أننا أصبحنا في الأخير أحرارا في الإعلان عن قناعاتنا وانخراطنا التام في المعركة التي شرع فيها ضد (هتلر) و(بيتان) وشركائهما.

وسرعان ما اكتشفنا أنهم ينظرون للأشياء بشكل مغاير في المستويات العليا، وبما أن أول إجراء كان عليّ اتخاذه لأبرهن لنفسي أن صفحة قد طويت، قررت في البداية، أن أعلن لمستخدمي من أكون فعلا، وذكرت له أنني اخفيت هويتي الحقيقية وأن (دوفال) كان اسما مستعارا وأضاف (فرانسيس) رفيقي في "النسيج" أننا كنا الإثنين مناضلين شيوعيين، فلا (بيلت) ولا زوجته صدما، بل على العكس إذ مجرد ما أعلنت لهما أنني من مواليد لندن، طارا فرحا وكأنهما شاركا بأنفسهما في لعبة خطيرة، وأنه بإمكانهما في الأخير أن يعبرا عن شعورهما الحقيقي بدون خوف.

إنهما ينددان بـ (بيتان) وديماغوجيته الأبوية والرجعية، وعندئذ قال لي (بيلت) إذا ما كنت تتحدث الإنجليزية وقمت بتدريسها لبعض الوقت، بإمكانك أن تقدم لي بعض الدروس وهكذا اتفقنا على حصتين في الأسبوع خارج ساعات العمل في ورشة النسيج، فهو لا يريد تعليما كلاسيكيا ولا تمارين كتابية ولا قواعد نحو، بل يريد محادثة فقط، ولم أتساءل طويلا حول قيمة هذه الطريقة، ولم يكن لدي الوقت لقياس نتائجها.

أصبح النسيج التقليدي غير مساير للفصل، والزبائن في تراجع، والجميع يفكر أنه لا يحب الانتظار طويلا لكي تزول الندرة وظهور النسيج الصناعي في الأسواق، وهكذا قرر (بيلت) وقف الإنتاج في ورشته وأعلمنا بقراره.

لم يطلب مني الاستمرار في إعطائه الدروس، كونه بلا شك قد استنتج بنفسه أنه سيتعثر وليس لديه ميل لتعلم اللغات، وقد كان ذلك رأيي أيضا، وغادرت عشرته ومنزله بأسف، لكن سعيدا بفكرة أن حياتي وأنشطتي ستتخذ مجرى آخر. لحد الآن لم يغير وجود الحلفاء في الوضع الداخلي للجزائر على الإطلاق.

وبعد نجاح ما يسمى بعملية "Torch" وهو الاسم الذي أطلقه الإنجليز والأمريكان على عمليتهم في شمال أفريقيا، أعلن خليفة (بيتان) المعين والقائد الأعلى للقوات الفرنسية الأميرال دارلان (Darlan) الذي كان في زيارة مباغتة للجزائر لمعايدة أحد أبنائه المريض لحظة الإنزال.. ليعلن توليه منصب المحافظ السامي لفرنسا في إفريقيا وناطقا باسم الماريشال الذي أصبح يقدم كسجين للألمان منذ أن اجتاز هؤلاء خط الحدود واحتلوا المنطقة الحرة وعاصمتها فيشي.

عشية عيد الفصح تم اغتيال الأميرال على يد عسكري شاب يبلغ العشرين من العمر، متطوع في لفيف أفريقيا ويدعى (فرناند لونييه ذولاشابيل)، على ارتباط بمجموعة من المتآمرين الملكيين الذين استغلوا الحرب النظام الملكي إلى فرنسا لفائدة كونت باريس الذي كان يقيم آنذاك في المغرب.

لم يتم الإعلان عن الظروف والأسباب الحقيقية لعملية الاغتيال ولا عن أسماء مدبريها ولا يزال يحيط هذه العملية الغموض إلى حد الآن.

ذكرت صحف آنذاك التي كانت تخضع للرقابة العسكرية، أن القاتل تم تنفيذ حكم الإعدام فيه بعد محاكمة مغلقة، ليعلم الجميع أنها كانت شكلية.

اختفى (دارلان)، ليصل هنري جيرود (Honri Giroud) الجنرال الهارب من ألمانيا قاصدا الجزائر مرورا بإسبانيا وجبل طارق لخلافته وبمباركة أنجلو-أمريكية والذي حدد كهدف له الإبقاء على كل ما تركه فيشي بخصوص الوضع الداخلي في البلاد.

بقي المسجونون والمعتقلون السياسيون في معتقلاتهم وواصلت الشرطة مطاردتها للمناضلين بحماس أقل، وكان أعضاء من الشبيبة الشيوعية بالجزائر قد تم ضبطهم قبيل عملية الإنزال وهم يحملون حقيبة مملوءة بالمناشير، لا يزالون في السجن، وفي المدينة حيث تجوب عربات الجيب والشاحنات العسكرية الشوارع، التي امتلأت فجأة بالزي العسكري الأمريكي والإنجليزي، أبقت نفس السلطات الفرنسية على النظام الذي أقامه (بيتان) وحتى لا يخطئ أحد احتفظت المكاتب الرسمية وفي المكان المناسب بصورة الماريشال، في حين واصل أعضاء اللفيف الفرنسي للمحاربين كما في الماضي نشاطهم "النضالي" للمساومات والدعاية في خدمة الثورة الوطنية وتم توقيف مقاومين، ممن ساعدوا على الاستيلاء على المدينة أثناء الإنزال، واتهموا خطأ بالمشاركة في اغتيال (دارلان).

وفي نفس الوقت منح وسام اللفيف الأجنبي للكومندار دورانج (Dorange) لمقاومته الأمريكيين، في حين رفض منح وسام الشرف العسكري للكابتن بيلافور (Pillafort)، الذي حارب إلى جانبهم والذي توفي متأثرا بجراحه.

وكنا قد خلصنا بسرعة إلى أنه يمكننا وبدون مخاطرة التخلي عن النشاط في السرية، وكان يتعين "تقويم" بعض الأشياء.

وبقيت جميع قوانين فيشي بما فيها القوانين الاستثنائية التي تستهدف اليهود سارية المفعول وواصلت الجريدة الرسمية لشمال إفريقيا نشر مراسيم (بيتان) التي تلتقط بالراديو انطلاقا من فرنسا.

كان الحاكم العام شاتل (Chatel) العائد من فيشي غداة الإنزال قد دعا إلى مقاومة الحلفاء قبل أن يلتحق بهم في اليوم الموالي، حيث أعيد تنصيبه في مكتبه وفي وظائفه بدون أية مشاكل، قبل أن يترك مكانه بعد عدة أشهر لاحقا إلى مارسيل بيروتون (Marcel Pyrouton) وزير الداخلية السابق في عهد بيتان والمقيم العام في تونس.

وبمناسبة تنصيبه في مهامه كحاكم عام للجزائر، لم تتوان وكالة هتلر العابرة للمحيط عن تذكيره الطريقة التي تقدم بها عندما كان وزيرا ومناصرا متحمسا للتعاون مع ألمانيا النازية.

«لقد كنت أول الفرنسيين الذي أدخل الوطنية ـ الاشتراكية في شمال إفريقيا، ووضعت حدا للنفوذ اليهودي وطردت الجبهة الماسونية من مكتبي في الوقت الذي كانت تعتقد فيه أنها تستطيع التأثير عليّ وأنشأت شرطة الدولة وفقا للنموذج الألماني».

وباختصار.. لم نخرج من نظام فيشي، ولم يعد حماته من الألمان بل أمريكيين وإنجليز، ولم تتغير الأشياء أيضا بالنسبة للذين كانوا قد تعرضوا للقمع، فقد كانت (إيزابيل مينال) والدة (فرانسيس)التي حكم عليها في محاكمة الواحد والستين لا تزال في سجن Maison-Carrée.

كان (فرانسيس) يزورها رفقة شقيقته الصغرى (كوليت)، وفي صباح أحد أيام ديسمبر 1942، أظهر لي (فرانسيس) برقية، أرسلت له من طرف مدير السجن يخبره فيها ببرودة بوفاة والدته (إيزابيل مينال). فلم تستطع تحمل السجن والإحباط طويلا ، لتقرر نهايتها.

لقد تساءلت بحيرة عن حال والدي، فقد أبلغوني بواسطة بطاقة بريدية وبصورة مقتضبة أن أمورهم جيدة.

لكن ماذا يحدث لهم الآن والألمان يحتلون فرنسا برمتها، لقد توجست تحويلهم إلى ألمانيا من أجل العمل كوننا لا نعلم شيئا بعد عن محتشدات الإبادة حيث ستقضي من بين ملايين آخرين على إحدى قريبات والدي وثلاثة من أطفالها، ولم أعرف ملحمة والدي إلا لاحقا.

وقبل وقت من حملة المداهمات الكبرى المعادية لليهود في ماي 1941، تقدم ذات مساء أحد رجال الجندرمة في زي مدني إلى منزلهم ليعلمهم

بالخطر الذي يتربص بهم وينصحهم بالانتقال إلى المنطقة الحرة بدون انتظار، مع أنهم لا يعرفونه.

كان والدي أول من عبر خط الحدود للتأكد مما إذا كان يجب وضع الثقة في القائمين على التهريب، ولحقت به والدتي وشقيقتي بتواطؤ مع أحد عمال القطارات الذي قام بإخفائهم في إحدى العربات، وقد اجتمعت العائلة تقريبا في منطقة بريزاك، وهي مدينة صغيرة وعاشت هناك إلى غاية تحرير باريس، بفضل التضامن الفعال للسكان الذين لم يسألوا عن سبب مجيء هؤلاء الباريسيين ذوي اللكنة الأجنبية للعيش بينهم، ولا عن قياس الفرصة الاستثنائية التي سمحت لهم بتفادي الترحيل، وقد بقي والديا إلى غاية نهاية حياتهما وهما يدينان لهؤلاء القرويين شجاعتهم وما قدموه لهما من مساعدة وحماية.

فقد كانت الأسابيع والأشهر تمر، ونحن لا نفهم سلوك القادة الحلفاء الذين يعلنون من جهة، أن هدف المعركة هو تحرير الشعوب وتكريس الديمقراطية، ومن جهة أخرى يقدمون دعمهم إلى سياسيين جد متواطئين ومتعاونين مع الهتلرية.

كان بعض أصدقائي يتساءلون عما إذا كان هذا الموقف لا يندرج ضمن التحضير لنزاع مع الاتحاد السوفييتي، الذي اعتبر منذ زمن طويل نزاعا لا مفر منه من خلال استراتيجية افتعال معاداة الشيوعية، حتى ولو أن تحالفاتهم المؤقتة مع الشيطان، (لكن الشيطان الذي حمل العبء الأساسي للحرب)، كان لا يزال يرغمهم التحلي بنوع من الالتزام.

فالأمريكيون والانجليز يقدمون الانطباع أو يريدون أن يظهروا عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية للفرنسيين، وأنهم يرغبون في البقاء حياديين إزاء النزاعات القائمة بين دعاة سياسة بيتان المنحازين والمقاومين الحقيقيين.

إنهم لا يرغبون إطلاقا في المساعدة على تقوية وترسيم حركة شعبية مكافحة ومناهضة للفاشية، الأمر الذي يبدو محرجا لهم لمواصلة أهدافهم الخاصة، سواء في الجزائر أو في فرنسا.

انهم يفضلون ان يكون الطرف الآخر من العسكريين او السياسيين من أقصى اليمين، إلى غاية الأنصار المتحمسين للتعاون مع الهتلرية، ليس من المرفوضين تماما، وإنما ممن يخدمون بنفس الحماس الذي أظهروه إزاء فيشي والألمان. ولنفس الأسباب يجتهدون في تحييد (دوغول) لفائدة (جيرود).

في فيفري 1943حيث كنت لا زلت أنشط في السرية تعرفت على النواب الشيوعيين الفرنسيين السبعة والعشرين الذين تم تجريدهم من عهدتهم ثم رحلوا إلى الجزائر وتم سجنهم بـ Maison-Carrée بعد محاكمتهم التي تمت في جلسة مغلقة في مارس 1940 عند إطلاق سراحهم. لم ير مئات المناضلين الآخرين أبواب المحتشدات تفتح أمامهم إلا بعد أسابيع من ذلك.

وفي بداية جويلية، ذكر أحد الناطقين باسم النواب السبعة والعشرين فرانسوا بيللو (François Billloux) وهو نائب عن مارسيليا في مقال له بجريدة Liberté الجريدة التي أطلقوها، أن جميع المجهودات التي يكونون قد بذلوها قصد انتزاع المساجين والمعتقلين من الزنزانات الفرنسية والجزائرية استدعت منهم القيام بثلاثمائة مسعى لدى مختلف المصالح، بغض النظر عن العمل الخاص للنقابات والنجدة الشعبية الخ .. وكان يتعين ربح تحرير المناهضين للهتلرية مثل الانتصار في معركة ولم يتم إطلاق سراح آخر سجين الا بعد ثمانية أشهر من الإنزال، وبالتالي يمكن لجميع العاملين في السرية أن يظهروا بوجه مكشوف.

وفي حوالي شهر مارس، التقيت بمناضل يكبرني بعدة سنوات، خرج من محتشد جناين بورزق، وعلمت أنه كان قبل اندلاع الحرب وإخراج الحزب من الشرعية، أحد المسؤولين عن الشبيبة الشيوعية، وأن إدارة الحزب التي لا تزال في السرية، قد كلفته بالاتصال بي وبأعضاء آخرين من الشبيبة الشيوعية من أجل العمل على إعادة تنظيم وبعث الحركة، لقد طلبت منه أن يعرفني باسمه: "في هذه اللحظة نادني بلوشارد"، قال هذا وهو يبتسم ويدرك ما يعنيه هذا الاسم ذو الصدى الفرنسي الذي لا يناسب تركيبته الجسدية.

كان مثلما تقول تقارير الشرطة "من صنف شمال إفريقيا" ذا وجه جميل نحيل وأسمر وشعر أسود. وكان يتكلم بوضوح كبير وبنوع من الحماس الممزوج بالخشونة، وبالرغم من أنه لم يمكث طويلا كان يتكلم لغة فرنسية جيدة. وكأغلبية الجزائريين، فإنه يكون قد بدأ العمل مبكرا، والى غاية اعتقاله، كان يعمل حرفيا في الترصيص الصحي في حي باب الوادي، ويقول إنه كل ما يعرفه، قد تعلمه في الحزب، وبالدرجة الأولى وحدة معركة المضطهدين والمستغلين.

طلب مني اذا ما كنت أقبل بالاستمرار في العمل الدعائي أي تحرير وتوزيع مناشير ونشريات المنظمة التي لا تتضمن في تلك اللحظة غير صفحتين مطبوعتين على اللينوتيب والتي نسميها بفخر "الجريدة" وكان يتعين انتظار عدة أشهر قبل أن تستحق هذه التسمية بالفعل، وسيكون عنوانها "La jeune Algérie" وقد أصبح هو مديرها وأنا رئيس تحريرها.

عثرت على (بلوشارد) بعد وقت قصير، في دورة تكوينية بالمدرسة السرية للإطارات التي نظمتها إدارة الحزب الشيوعي الجزائري بالاتفاق مع مجموعة من النواب الشيوعيين الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من سجن Maison-Carrée، لحوالي عشرة من المناضلين الذين بقي بعضهم أصدقاء

لي في المعركة طيلة سنوات، وكان الاسم الحقيقي (لبلوشارد) الذي انتظرت بعض الوقت لمعرفته، هو (بوعلي طالب) الذي استشهد في إحدى جبال وهران خلال حرب التحرير.

اتخذت المدرسة مقرا لها في إحدى الشقق المتواضعة، بالطابق الأرضي لمبنى قديم بحسين داي في الضاحية الشرقية للعاصمة، وكان يجب المرور برواق ونظرا للظروف، كنا ندخل بأكبر قدر من السرية في الصباح الباكر الواحد تلو الآخر، لكي لا نخرج الاّ في المساء وبنفس الاحتياطات.

وقد تم اختيار أساتذتنا جميعا من بين النواب الذين تم إطلاق سراحهم.

كان من الصعب العثور على أفضل منهم. لقد كانوا رجالا يتمتعون بخبرة طويلة في النضال، وبمعارف صلبة في النظرية الماركسية وتاريخ الحركة العمالية الأممية، وكان أحد هؤلاء وهو ايتيان فاجون (Etienne Fajon) الذي أصبح بعد سنوات مديرا لجريدة "L'Humanité" مسؤولا عن التربية على المستوى الوطني في الحزب الشيوعي الفرنسي وأشرف على العديد من المدارس والتربصات.

كان يولي أهمية كبيرة لدراسة النظرية من أجل تكوين مناضلين ثوريين، وقد احتفظ من مهنته الأولى كمدرس بشغف التدريس ومهما كانت صعوبة الموضوع، كان يعرف كيف يعالجه بصرامة وبوضوح أكبر بدون أن ينسى المستوى التعليمي لكل من تلامذته والذين يتحكم بعضهم في اللغة الفرنسية بشكل جيد، وكان أحد عمال التعدين القدامى ينوب عنه، وعلى غرار (فاجون) تم إيقافه وترحيله إلى الجزائر في فترة "الحرب الغريبة" وتم اعتقاله والزج به في محتشد Bossuet بجنوب سيدي بلعباس بالغرب الوهراني.. ثم فر من المحتشد بقرار من القيادة الشيوعية للمحتشد. لقد كان بارينو (Parinoud) من ذلك الصنف من الرجال الذين كانت تكونهم الأحزاب الشيوعية ولم أكن قد تقابلت معهم بعد.

فهناك مناضلون ينحدرون من الأوساط العمالية، انهمكوا منذ سنوات في الكفاح اليومي ويحملون في نفس الوقت إيمانا عميقا، رجال عصاميون مثيرون لا يتوانون في إثراء معارفهم بمعلومات جديدة في التاريخ والاقتصاد والسياسة، ولا يتوقفون عن لقاء القدامى والجدد، وهم على قناعة أنهم لا يمكن أن يكونوا شيوعيين حقيقيين إذا ما لم يجتهدوا ويتعلموا أكثر وباستمرار.

كانت مدة الدراسة قصيرة، أسبوعين فقط ومصطلح "تريص تكويني مكثف، كان أكثر ملاءمة وكان الهدف منه خاصة، هو تعليمنا كيف نتعلم".

وفي هذا الاتجاه، كان ذلك بمثابة اكتشاف مذهل، فقد اكتشفت عناصر الأجوبة للمسائل الرئيسية التي لم أكتشفها، لا في سنوات الدراسة بالثانوية ولا خلال مطالعتي ولا حتى في الظروف الصعبة للسرية، ولا خلال المناقشات القصيرة مع المناضلين الأكثر اطلاعا مني.

وكانت نصوص (ماركس) و(أنجلز) تعالج الصدامات السياسية في فرنسا من 1848 إلى 1850 وفي بلدية باريس كما اتضح لي الدور الحيوي لصراع الطبقات عبر التاريخ، وهو مفهوم غائب تماما في التعليم الذي تلقيته.

هكذا فتحت لي كتابات (لينين) حول طبيعة الإمبريالية وكتابات (ستالين) حول المسائل الوطنية والاستعمارية الطريق أمام فهم الأسباب الرئيسية للاستغلال والاضطهاد الذي يتعرض له الجزائريون وشعوب أخرى لا تزال تحت نير الاستعمار، وكانت تحفز إرادتي في الانخراط أكثر وبصفة كاملة في معركتهم التحررية.

وتجيب هذه القراءات على أسئلة كنت أطرحها منذ مدة طويلة على نفسي وتثير تساؤلات جديدة تجعلني أدخل في دوامة من التفكير الخصب.

وكانت المناقشات التي تتم بين «التلاميذ» و«الأساتذة» تثير رغبة عارمة في المزيد من التحصيل والتعلم وتقوي عندي الشعور بالهيجان، أكثر من

الثورة الفوضوية التي كانت تعتمل بداخلي، لقد تعلمت كيف أكون ثوريا واعيا وقادرا على أخذ مكانته في المعركة الكبرى للرجال من أجل «تغيير العالم».

فالتحرير الغريب الذي نعيشه والذي يتطلب أن نكون أكثر حذرا في مشاعرنا إزاء نظام فيشي وأكثر من ذلك في عملنا السري كمناضلين شيوعيين ، لم يكن يمنع من تطوير نشاط سياسي مثمر وأكثر كثافة.

فقد التحقت قوى جديدة بمعركتنا، تم تجنيد أغلبها من بين الأقدام السوداء (تعبير لم يكن متداولا بعد) مدفوعين بالمشاعر القديمة المناهضة للفاشية والوطنية الفرنسية التي تمجد المعارك المنتصرة للجيش الأحمر والصدى الجيد لمعركة ستالينغراد.

وبعد مفاوضات طويلة لإلحاق الهزيمة بالمعارضة والتي لم تكن أنجلو ـ أمريكية فقط، استقر الجنرال (دوغول) بالجزائر في نهاية 1943 ولم يكن يحتاج إلى مرسوم أو إعلان عن هذا، بدأ الجهاز السياسي والعسكري التابع لنظام فيشي في التفكك والانهيار من جميع الجوانب، وبمباركة قيادة الأركان لقوات الحلفاء بقي (جيرود) لحد الآن وفيا للماريشال ذاته وعلى الأقل للتصورات الرجعية التي يستلهمها والتي يستمر في بسطها بدون تغيير ولو قيد أنملة، وهو تفكير لم يتغير منذ أمد طويل.

وجد الدعم من الإدارة المحلية ومن الاستعمار الكبير والتعاون المثمر مع اللجان الإيطالية ـ الألمانية المتواجدة في الجزائر، للاستيلاء على الثروات الفلاحية والمعدنية باتجاه Reich، كانت تعتبر فترة فيشي، فترة ذهبية بالنسبة إليّ.

وفي مارس 1943 أعلن (جيرود) في الأخير عن إلغاء التشريعات المعدة في عهد بيتان بدون أن يلغي الأمرية التي ألغت مرسوم (كريميو).

كنا نرى في الطرقات والورشات، هامات غريبة تتدافع، كانت ترتدي بذلات قديمة تم استعادتها من المخازن والتي ربما أصبغت باللون الأسود،

ويتعلق الأمر بشباب يهود (انديجان اسرائيليين) حسب المصطلحات الرسمية تم تجنيدهم في الوحدات الخاصة والتي يكون قد ألبسوهم إياها للضحك عليهم، وكانوا يوجهون على الخصوص نحو أعمال التهيئة في كل تدريب عسكري، ثم يرسلون الى الثكنات في السينغال، حيث يقومون بمضاعفة التظاهرات الاحتجاجية لوقف هذه الأشكال من التمييز والحصول على تعيينهم في الوحدات المحارية.

وبالرغم من المبررات الواهية للوسط الذي ينحدرون منه، لم يكن (جيرود) يريد اقل من هزيمة الألمان حتى أنه لم يتوان في طلب مساعدة الشيوعيين إذا ما كان ذلك ضروريا "كان يقوم بالحرب لكن لا يتعاطى السياسة" وهو ما كان يريد اسماعه. وربما كان يعتقد ذلك.

بيد أنه طلب من الشيوعيين تعيين ممثل عنهم للذهاب في مهمة خطيرة تكمن في إجراء اتصالات مع القيادة السرية للحزب الشيوعي الفرنسي في فرنسا المقسمة.

أسندت المهمة إلى الدكتور كامي لاريبير (Camile Larribère)، ضابط احتياط ومناضل محنك في الحزب الشيوعي الجزائري.

وقد استقل (لاريبير) غواصة نقلت خصيصا في سرية إلى مسافة معينة من الحدود الإسبانية حيث نقله زورق صديق ليضعه غير بعيد عن الحدود الفرنسية، ومن محطة إلى محطة، إلى غاية وصله إلى ليون لمقابلة غاستون بليزونيه (Gaston Plissonnier) السكرتير اللاحق للحزب الشيوعي الفرنسي وعاد إلى الجزائر بلا أدنى صعوبات، ليقدم تقريرا عن مهمته إلى (جيرود) الذي خصه بتهنئة حارة.

غير أن هذا التعاون الدوري لن يغير شيئا، في وجهة نظر (جيرود) حول الحزب الشيوعي ذاته وحول المكانة التي يجب أن يحتلها في المعركة الجارية مثلما هو الشأن بخصوص الطريقة التي يتعين اعتمادها لاحقا في التعامل معه.

سيصبح المطلب الجزائري الذي توقف بمجرد انتهاء الحرب مسألة كبيرة والتي لن ترد عليها الحكومات الفرنسية إلا برفض الاستماع إليها، بالقمع والحرب التي لم تكن بعد بالنسبة للمسؤولين غير مجرد اهتمام ثانوي.

ولم يكن (جيرود) الذي سيتم تجريده من جميع المسؤوليات من طرف (دوغول)، يرى سببا لتغيير النظام الاستعماري القائم. ويعتقد (دوغول) انه يتعين القيام بشيء ما لتفادي ظهور مشاكل، لكن بطريقة بطيئة وهدفه الأول في ذلك، في الظروف الجديدة التي ستفرض ما بعد الحرب هو الحفاظ على الإمبراطورية وديمومة السيادة الفرنسية على العمالات الثلاث للجزائر.

إنها نفس الروح التي تمثلت في إقرار بعض التحويرات السطحية من أجل أن يتم أي تغيير جذري في النظام الاستعمار الذي سيفرض عليها بعد عدة أشهر لاحقا - جانفي 1944 في خطابه الشهير ببرازافيل، على عكس المؤامرة التي حيكت من طرف حملة مبخرة الجنرال والذي لا يشكل إعلانا مناهضا للاستعمار.

ستأخذ تطلعات الجزائريين في الاستقلال لاحقا انطلاقة كبيرة، وهي تطلعات لم يكن يعبر عنها بقوة بعد لكي يتم أحذها بعين الاعتبار من طرف السلطة المقيمة في الجزائر والتي بدأت في التشريع باسم فرنسا.

وأشار النواب الشيوعيون الذين خرجوا من سجن Maison-Carrée في تصريحهم أن الجماهير المسلمة، لها مطالب مشروعة، وطالبوا بإجراءات عاجلة قصد تلبيتها.

ويقولون إنه لمن العدل الاستماع إليها وأكثر من ذلك، فهي مطابقة لضرورات اللحظة قصد إعطاء مبرر حقيقي للمجهود والتضحيات التي طلب منهم القيام بها لخوض الحرب، وعليه يتعين توضيح ماهية هذه المطالب المشروعة وهنا ظهرت الاختلافات.

وقد استعاد الحزب الشيوعي الجزائري هذا الموضوع خلال ندوته الأولى التي عقدت بحسين داي يومي 13 و15 سبتمبر 1943 والتي حضرتها. وفي بيانه، رفض "أنصاف الإجراءات" وطالب بالنسبة لهذا الأخير بممارسة جميع الحقوق الديمقراطية، والقضاء على اللامساواة السياسية والقانونية والاجتماعية بين مختلف الجماعات العرقية التي يتكون منها الشعب الجزائري (..)، إلغاء جميع القوانين الاستثنائية.

وأشار الحزب الشيوعي الجزائري إلى الأهمية الحيوية التي يوليها للجزائريين الذين شاركوا بكامل قواهم وبدون شرط في المعارك التي أدت إلى تحرير فرنسا والعالم من الخطر النازي القاتل.

"فإذا كانت مشاركة الشعب مشاركة هامة في المعارك الحاسمة القادمة، يقول هذا البيان، فبإمكان هذا الأخير أن يطالب بقوة بالحق في العيش سعيدا وفي حرية". كان ذلك ردا على المواقف المتخذة من طرف (فرحات عباس) وأصدقائه. ففي نص موقع من طرف ستة وخمسين من الأعيان المسلمين قدم للحاكم العام بيروتون (Peyrouton) في فيفري 1943، ندد بمبدأ الاستعمار وعرض رسميا مطالب الشعب الجزائري، وطالب "بتطبيق مبدأ حق الشعوب في حكم نفسها بنفسها"، ودعا إلى هبة كبيرة وطرح كشرط مسبق لمشاركة الشعب الجزائري في المجهود العربي، قبول فرنسا بمطالبه. "فالصيغة المتمثلة في القيام بالحرب أولا لم تقدم للسلام في 1918 الا الخيبات".

وفي سياق حماسي ذكر كمثال "ما تم القيام به من طرف الماريشال (بيتان) والألمان في تونس" وهي إشارة يمكن أن ترضي الشيوعيين الذين سبق لهم انتقاد صمت ورد فعل الوطنيين في مواجهة دعاية Reich الذي حاول تجنيد العمال في شمال إفريقيا للعمل في مصانعه والمرتزقة لجيشه.

غير أن الشيوعيين سواء كانوا فرنسيين أم جزائريين لم يبدوا اختلافا جوهريا حول الهدف المحدد في البيان والمتمثل في إقامة جزائر محررة من قيودها. ولم يقل الحزبان الشيوعيان الفرنسي والجزائري بالاتفاق مع الدولة الشيوعية الثالثة، شيئا آخر أكثر من ذلك بصفتهما حزبين، فقد كانا من الأوائل الذين أكدوا حق الشعوب المستعمرة في الاستقلال والدخول في الحرب من أجل تحقيق الانتصار.

وكان المناضلون الجزائريون الذين ظهروا إلى العلن بعد سنوات قضوها في المحتشدات أو في السرية يعلمون أن التأكيد الذي مفاده المساهمة المسبقة في انتصار هؤلاء الذين أبقوا عليه لأكثر من قرن تحت هيمنتهم، يشوبه بعض الغموض ولا يخدم المصالح الحيوية للجزائر.

إنهم يسيئون تقدير قوة المطلب الوطني الجزائري إساءة خطيرة، وسيدفعون لاحقا ثمن إساءة تقديرهم غاليا.

وبقيت تركيبة الحزب ذات أغلبية أوروبية، (تدعمت أكثر بتيار جديد في الانخراطات في سنة 1943، قبل أن تتقلب الأمور لصالح العرب ـ البربر)، وقد زاد تواجد إطارات من الحزب الشيوعي الفرنسي بالجزائر، والضغوط التي يمارسونها من صعود اتجاه يتعين التخلص منه «مؤقتا» لأسباب تكتيكية، بالرغم من وجود المطلب الأساسي في الاستقلال في برنامجه.

وبالرغم من أنهم من الأنصار المتحمسين لاتحاد القوى المناهضة للاستعمار، منذ أمد بعيد، إلاّ أن الشيوعيين تخلوا عن العرض المقدم لهم بالالتحاق، مثلما فعل الأعضاء والمتعاطفون مع حزب الشعب الجزائري لمصالي الحاج، وجمعية أصدقاء البيان لاحقا وأعضاء من الحزب الشيوعي الجزائري، وخاصة من منطقة قسنطينة، الذين انتقدوا موقفا اعتبروه عرقيا وجد "فرنسي"، لكن لا أحد اسمتع إليهم، وأن بعضهم استمر في الدفاع عن

وجهة نظره، وصفت بالانتهازية وبالانزلاق نحو الوطنية ولم يفلتوا من الإقصاء.

إنه لمن السهل لا محالة بعد نصف قرن من هذه الجدالات، الفصل لفائدة هؤلاء المعارضين لقيادة غير قادرة على تقدير القوة الهائلة، وتلك التي لا تزال في الاحتياط للحركة الوطنية التي ستحرك البلد بأكمله بعد عشر سنوات.

وبلا شك أيضا، فإن المجهودات من أجل التوصل إلى حل مقبول من طرف الوطنيين والشيوعيين على حد سواء، من أجل تحقيق وحدة المناهضين للاستعمار، والمشاركة بأكبر قدر من الفعالية الممكنة في الكفاح ضد النازية، لم تتم بكامل الحيوية المطلوبة، غير أن الشيوعيين لم يكونوا يتصوروا أن الكفاح من أجل استقلال الجزائر، يمكن أن يتم خارج المعركة الكبرى لشعوب العالم ضد تهديد هتلر، وأكثر من ذلك ضد الطموحات الأمريكية التي تم التعبير عنها بصوت خافت والتي أصبحت حقيقة.

ويتعلق الأمر بالنسبة للولايات المتحدة أنها كانت تريد زحزحة القوة الاستعمارية السابقة - فرنسا - من الأقاليم التي تهيمن عليها قصد أخذ مكانها، وكان الرئيس الأميريكي روزفلت لا يخفي مثل هذه النوايا.

وحسب الشيوعيين، فإن الكفاح من أجل الاستقلال الجزائري كان جزءا من الكل، وأن هذا الكل هو المعركة العالمية من أجل التحرر الوطني والاجتماعي لجميع البلدان، لا ينفصل عن الدفاع عن الاتحاد السوفييتي الذي يكرس هذا الأمل منذ ثورة 1917.

وكنا نعلم بدون أن يخرج هذا إلى العلن، أن (عباس) وأصدقاءه الموقعين على البيان، قد تلقوا تشجيعات من روبر مورفي (Robert Mourhy)، ممثل الولايات المتحدة في الجزائر، الذي عرض نفسه عليهم كصديق، في حين لم يكن الأمر بالنسبة للشيوعيين أكثر خطورة، من الاستمرار في الاعتقاد أن

الولايات المتحدة، تناضل من أجل تنقية الاستعمار وتدعم وتساند الكفاح التحرري.

ولم يكن البعض قد اغتر بهذه الأوهام، عندما علموا بالتصريحات الديماغوجية للفاشيين الإسبان، والألمان والإيطاليين، الذين تقدموا هم أيضا بصفتهم أصدقاء، وكمحررين للشعوب المستعبدة!

بيد أن هذه المسائل التي كان على الشيوعيين الجزائريين أن يتصوروا أهميتها من أجل المستقبل، لم تكن بعد في المقام الأول من اهتماماتهم لتلك اللحظة.

وبداية.. المساعدة على جمع جميع الطاقات لتسريع نهاية الحرب. وفي نفس الوقت، الوقوف إلى جانب المستغلين والمضطهدين في مقاومتهم اليومية للنظام الاستعماري وللاحتقار والبؤس، للتمييز واللاعدالة، وللتجاوزات التي يتعرضون لها.

ففي هذه المعركة، لعبت جريدة Liberté التي يساهم فيها الشيوعيون الجزائريون، دورا أساسيا في التنديد بقوة غير مسبوقة لحد الآن، بأعمال الرشوة والتجاوزات وابتزازات الإدارة الاستعمارية، والآياد والانتهازيين في خدمتها.

وتضاعفت خلايا الحزب الشيوعي الجزائري بمجموعات الشباب بسرعة عبر أنحاء البلاد، وكانت الشبيبة الشيوعية بصدد الذوبان في حركة أكثر اتساعا، وهي اتحاد الشباب الديمقراطي الجزائري، (U.J.D.A) وكان انضمام الشباب المسلم، والعمال والفلاحين أو البطالين، يتم تحت التأثير الواسع للأفكار الوطنية بشكل جماعي، وخاصة في منطقة قسنطينة، أو بتحريض من المسؤولين المحليين لحزب الشعب الجزائري، والشباب الأعضاء أو المتعاطفين مع هذا الحزب، الذين ينخرطون في الحركة، على خلفية العثور على تغطية لأنشطتهم السياسية الخاصة بهم.

إن هذا التكتيك «المدخلي» ليس إلاّ سرا شيطانيا في الواقع ولا يخلق مشاكل حقيقية بل على العكس، فإن وجود الشباب المنخرط القادم من صفوف الوطنيين، لا يحمل عقدة مناهضة الشيوعية والأفكار المسبقة لبعض قادتهم، بل يعطي للتنظيم الذي بقي طويلا يتمتع بالأغلبية الأوروبية، دما جديدا وحساسية وطنية أكثر عمقا.

غداة الحرب، استقبلت مع عدد من اعضاء اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية (من بينهم احمد عكاش الذي كان آنذاك متعاطفا مع حزب الشعب الجزائري والذي اصبح احد سكرتيري الحزب الشيوعي الجزائري بعد سنوات لاحقا) في باريس من طرف مصالي الحاج. لقد كان رجلا ودودا يبدو بحكم السن جد مهتم بهندامه وبالانطباع الذي يتمنى أن تعطيه لحيته الطويلة المشذبة، وجلابته السوداء الرائعة التي تفتح على قميص أبيض وشاشيته التي لا تفارقه، حركاته النبيلة والبطيئة التي تنم عن حكمة متأصلة، تعطيه هيئة رسول يستطيع أن يبهر الشباب الزائر الذي كنا.

لقد عرضنا عليه أهداف حركتنا وطلبنا دعمه من أجل جمع الشباب قدر الإمكان في حركة كبيرة مناهضة للاستعمار، وبطبيعة الحال، كان ضمن الفريق الذي زاره أعضاء من الحزب الشيوعي الجزائري، حيث أبدى بعض التحفظ وبدون أن يعبر عن أي التزام، كان على قدر كبير من اللطافة والاهتمام بل كان محتارا نوعا ما من هذا المسعى للشباب ومن بينهم "أوروبي" ذو تعبير راديكالي.

وبعد وقت قصير نظم اتحاد الشباب الديمقراطي الجزائري تظاهرة كبرى امتزج فيها الفن بالسياسة بمسرح الجزائر وذلك تحت الرئاسة الشرفية للحزب الشيوعي الجزائري وكذا بقية الزعماء الوطنيين للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. وكان الحاضرون أكبر بكثير من أن تستوعبهم القاعة.

وتعتبر هذه التظاهرة من وجهة النظر هذه نجاحا باهرا والذي كاد أن يتحول الى كارثة حقيقية.. ولم يفهم العديد من الذين حضروا ومنهم من جاء من أماكن بعيدة، ماذا تعنيه رئاسة شرفية. لقد كانوا على قناعة ان مصالي وبقية الزعماء الذين تتواجد أسماؤهم في الملصقات والمنشورات، كانوا يتراسون بصفة شخصية وأن غيابهم ترجم لاحقا بصفة غامضة من طرف جزء من القاعة على أنه نوع من الاحتيال من طرف المنظمين وقد تم تفادي الاحتجاجات الشفهية بالكاد لكي لا تتحول الى عراك حقيقي.

ففي الأوساط التي كانت تتطور عبر البلاد والتي تجمع أعضاء جددا مرتبطين بشعبهم كلهم نشاط وحضور في الكفاح اليومي، عرف الشباب الجزائري القادم من الوسط الوطني بالاحتكاك بالشيوعيين كيف يضعون أنفسهم في الاستماع الى ما يقال عن المعارك التحررية في العالم برمته.

وقد اتخذ البعض مكانه في قيادات اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية والحزب الشيوعي الجزائري.

لم اتفاجأ طيلة حرب التحرير حين أعلم أن هذا وذاك من رفاقي القدامى فلاح، عامل في المناجم، موظف صغير، ممتهن أو بدون مهنة، من الذين كنت أقابلهم خلال الاجتماعات التي تعقد في أحيائهم أو قراهم، قد تم اعتقاله وحكم عليه بمشاركته في النضال السري أو أنه سقط في المعركة بالجبال.

ومن جهتهم، اكتشف أعضاء اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية، من اصول اوروبية وينحدر أغلبيهم من عائلات عمالية، مدى كثافة سخط الشباب الجزائري ضد العنصرية والاضطهاد والإهانة التي كانوا ضحاياها، ويتفهمون جيدا معركتهم. وعندما كنا نتحدث عن الاستقلال كان الأمر يبدو وكأننا بصدد استحقاق بعيد، وهكذا كنت وأغلب رفاقي نرى هذا التحرير، تحرير الجزائر وأقاليم أخرى مستعمرة، أمرا لا مفر منه بعد سحق الهتلرية من طرف تيار لا يقاوم والذي يجر فرنسا وغيرها من بلدان أوروبا والعالم، نحو الاشتراكية.

وخلال فترة التكوين القصيرة التي قضيتها، طلبت من أحد محاضرينا وربما أكثرهم المعية وهو ايتيان فاجون كم من الوقت يلزم حسبه، قبل أن تصبح فرنسا اشتراكية بعد النصر المكتسب، وأسجل هنا نوعية الاهتمام لدى اتباعي الذين كانوا أكثر تعطشا مثلي أن يسمعوا الجواب، لقد ابتسم وقال لنا:

«سأخيب آمالكم بلا شك، سيستغرق ذلك وقتا طويلا أكثر مما تعتقدون، قد يتطلب ذلك عشر سنوات على الأقل..»

وقد أصبت ورفاقي في المدرسة بخيبة أمل من رده كيف يمكن تصور أجل أطول من هذا؟ انه يعادل الدهر بالنسبة لصبرنا! وكان يجب إحراز نصر في أقرب وقت. لقد مضت العشر سنوات المتوقعة منذ نصف قرن، وها أنا اليوم أكبر سنا عما كانت عليه سن أستاذنا في تلك الفترة والذي كان يعتقد أنه يجب أن يكون حذرا في توقعاته. لقد استخلصت الدرس الذي كان مؤلما بمحاولة توقع السنوات أو العقود التي تفصلنا عن «غد أفضل»، غير أنني أحتفظ بقناعة ساذجة بالضرورة.. كما يرى البعض وهي أنه اذا كان الوقت الذي يستدعي الوصول الى الهدف غير متوقع وفقدان الأمل، والبربرية على استعداد أحيانا لابتلاع العالم، فإن الإنسان سيصل في النهاية إلى تحقيقه.

الالــتــــزام

أصبحت من الآن فصاعدا مرتبطا ارتباطا كاملا بالعمل السياسي.

ولازلت أفكر باستمرار وبكثير من اللهفة في جميع الأسفار والاكتشافات للعالم التي كنت أتمنى القيام بها، غير أنني أجلت تحقيقها إلى وقت لاحق.

يحضرني الشعور بالإحراج عندما أعود إلى نفسي وإلى طموح قديم في الانطلاق نحو آفاق جديدة، كيف أسمح لنفسي بمعانقة هذه الأحلام الأنانية، في الوقت الذي يوجد فيه العديد من الشباب في مثل عمري، يخوضون المعركة ويقدمون حياتهم من أجل تحرير أوطانهم والعالم، في الوقت الذي يصرخ فيه البؤس والمعاناة والظلم في مدن وأرياف هذا البلد المضياف الذي يستقبلني ولست أدري كيف تعود إلى ذاكرتي كلمات إيلوارد (Eluard) التي اكتشفتها في نشرة سرية لا أدري أيضا كيف وصلت إليّ: «أن تجعل من نفسك انجازا رائعا»، أو بالأحرى أن تجعل من حياة الآخرين، من حياة الجميع، عملا رائعا، لقد بدى لي عندما أصبحت شيوعيا أنني وجدت الجواب .. جواب العقل والقلب كما يقولون دائما.

كنت أعلم جيدا أنه في جميع القارات، هناك ملايين الرجال والنساء يتقاسمون نفس المثل، إلا أنني وجدت متعة مذهلة في اكتشاف دليل حي

على بعد خطوتين من مدينة الجزائر، غير بعيد عن Maison Carrée، بالقرب من قرية بابا علي.

فهناك يوجد مخيم يضم حوالي مائة من السوفيات الذين حاربوا ضمن الفرق الدولية، أو كانوا أسرى في الجبهات الشرقية، والذين تم ترحيلهم من طرف الألمان إلى تونس للقيام بالأعمال الشاقة. إنهم ينتظرون هناك اتخاذ قرار بالوجهة التي سيتخذونها، إنهم من روسيا وأوكرانيا، وينحدر بعضهم من آسيا الوسطى.

وذات مساء وعندما كنت أتواجد في "بابا علي" مع هؤلاء السوفيات الأصدقاء الجدد، لمحت شابا يافعا، أبيض يميل إلى اللون الوردي يتجه نحونا مبتسما، يرتدي زيا عسكريا أمريكيا ويحمل رتبة رقيب، يصافح الأيدي التي تمتد إليه، وقد علمت أنه فصل من مجموعة صغيرة من الجنود الأمريكيين غير بعيد عن مخيم السوفياتيين وأنه يأتي باستمرار لزيارتهم.

يفهم ويتكلم القليل من الفرنسية، إلا أننا شرعنا في حوار أكثر سهولة باللغة الإنجليزية وأصبحنا تقريبا وفي وقت قصير أصدقاء، ولم أكن بوسعي أن أتصور أن هذه الصداقة لا تزال دائمة، بالرغم من المسافة وبعد ستة عقود من الزمن.

كان يعمل في قطاع التعدين، وكانت له مسؤوليات ضمن هيئة نقابية، وقال لي أيضا أنه كان عضوا في الشبيبة الشيوعية الأمريكية. إنها المرة الأولى التي التقي فيها شيوعي أمريكي.

اكتشفنا بسرعة أن لدينا العديد من الاهتمامات المشتركة وبالدرجة الأولى، الحقد المشترك الذي يسكننا إزاء الفاشية، نفس الإيمان ببزوغ قريب لمجتمع جديد مسالم وأخوي على ضفتي الأطلسي، وكان يدعى "بوب" وهذا اسمه، قال لي أنه يبحث منذ وصوله عن الاتصال بالشيوعيين الجزائريين

بدون أن يعرف كيف، وبكل بساطة لكي يتعرف على الأصدقاء ويعرف منهم كيف يرون الوضع ومعرفة كيف يمكنه مساعدتهم.

اقترح علي أن يصب في حسابنا كل شهر أكبر جزء من مرتبه لأنه يتجاوز بكثير ما ينفقه، وقد طلبت منه عما إذا كان بالإمكان أن يزودنا بما يلزم من رزم الأوراق لسحب منشوراتنا وجريدتنا التي كانت لا تزال في السرية والتي لا يمكن أن نقتّنها بصفة شرعية، إذ يستدعي الأمر الحصول على رخصة مسبقة من العمالة لشرائها، وهكذا تم طبع نصوص الدعاية للشبيبة الشيوعية في بعض الحالات وجزئيا في أخرى، بفضل عتاد الجيش الأمريكي.

وكان بإمكانه أن يقدم خدمة أفضل حسبي أنا، بيد أن القيادة العسكرية لم تكن لترضى عن ذلك وحتى ولو لم تصبهم بعد لعنة مقاومة الشيوعية ومطاردة السحرة التي جعلت اسم السيناتور ماكارتي (Mc Carthy) ذائع الصيت.

كانت فترة علمت فيها بعد سنوات لاحقا، كيف كان صعبا على بوب (Bob)، المطارد كآلاف الشيوعيين والتقدميين في المؤسسة حيث يعمل، وعلى غرار عدد من الرفاق،عرضة للتسريح كلما اكتشف انتماؤه السابق.

وبعد تغيير المقر عدة مرات، توصلنا في الأخير إلى تحديد مقر اتحاد الشباب الديمقراطي في الطابق الأول لمبنى تجاري يقع في 8 شارع باب عزون، أحد أقدم شوارع العاصمة أعيد بناؤه في شكل أقواس في القرن السادس عشر على نمط شارع (Rivoli) لكن أكثر فقرا.

إنها غرفة وحيدة، خانقة في الصيف وبدون إمكانية تسخين في الشتاء، وبالرغم من هذه العقبات وبالدرجة الأولى ضيق المكان .. فإن ميزته تكمن في وقوعه في قلب المدينة وفي إحدى الأحياء الشعبية ذات المداخل السهلة.

وكان عدد الزوار في أغلب الأحيان كبيرا، وعندما استذكر لاحقا، يبدو لي المشهد شبيها بعيادة (ماكس برودر) في إحدى الليالي بالأوبرا التي كثيرا ما تخطر على بالي.

وفي النهار، ولكي نغير الهواء قليلا، غالبا ما نواصل اجتماعاتنا في إحدى المقاهي الشعبية.. كنا نشرب الشاي، القهوة والمشروبات الغازية، مقهى يوجد في الجانب الآخر من الشارع، في ممر يطل على الأقواس، وعندما كانت تتاح لنا الفرصة، كان بإمكاننا أن نذهب أيضا للاستجمام بأخذ حمام بخاري في الحمام المجاور لهذا المقهى.

وكان (بوعلي طالب) من أقرب الرفاق إليّ، قد تخلى عن اسمه الحركي "بلوشارد" - الذي كان العضو الدائم والوحيد بالرغم من الراتب الشهري الهزيل الذي يتلقاه بصعوبة من خزينتنا.

لقد كنت أتولى مسؤولية تحرير النشرة وإدارة "La Jeune Algérie" التي أصبحت جريدة شرعية تصدر شهريا. وبسبب القيود على الورق، فإن عدد الصفحات كان أربعة من الحجم الكبير، لم تكن أكثر فقرا عن مثيلاتها في اليوميات التي تصدر في الجزائر أو وهران أو قسنطينة، وسحبها في أحسن اللحظات كان يبلغ خمسة وعشرين ألف نسخة، وبالنظر لظروف تلك الفترة (الفقر والأمية العامة) كان أمرا جد معتبر.

وكنت أشرف أيضا على النشرة الداخلية المعنونة "إلى الأمام!" التي كانت تنشر مقالات تشمل مختلف أنشطة الحركة، النصائح العملية للدعاية، اختيار الكتب والدراسات التاريخية وملخصات الدروس السياسية والنظرية.

وخارج هذه المطبوعات بالفرنسية، أطلق إتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية مجلة باللغة العربية "الشباب" التي كانت قد توقفت عن الصدور لأسباب مالية. واستأنفت مجلة "La Jeune Algérie" المسيرة بالشروع في نشر بعض المقالات باللغة العربية.

وفي الواقع، كان يتعلق الأمر بعمل سياسي أكثر منه ضرورة عملية، كون أغلب الشباب الذي يفترض فيه شراء الجريدة كان يقرأ بالفرنسية أكثر منه بالعربية، غير أننا كنا مصرين على تسجيل مدى تمسك اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية بأخذ مطالبه المتمثل في الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية وتعليمها إلى جانب اللغة الفرنسية.

لقد كنت أقبل بسعادة كبيرة تولي تحرير الافتتاحيات، والتحقيقات والأعمدة التي كنت أوقعها بأسماء مستعارة، وعندما صدرت "La Jeune Algérie"، كنت متواجدا عند لوحة الرخام التي توضع عليها صفحات المطبعة لإخراج التجارب فيها وكذلك عند السحب، لقد كان العمل يتم في ورشات "الجزائر الجمهورية" (Alger républicain) في شارع كوشلان بباب الوادي والتي ستكون الجريدة التي أتولى إداراتها فيما بعد فاللينو تيب، ,القصاصات الصحفية، وفي المطبعة الطابق السفلي هناك التي عرفها "البير كاموا" في تلك الفترة التي كان أحد المحررين لليومية، فقد كانت كل هذه الآلات قديمة وتستحق أن تحال على التقاعد، إلا أن غياب الإمكانيات حال دون التخلص منها.

فالذين يشرفون عليها وأغلبهم من الاسبان الذين أطلق سراحهم من المحتشدات، كانوا عمالا مهرة، يتولون طباعة المقالات المكتوبة بلغة غير لغتهم وبدون ارتكاب أخطاء.

وببراعة مذهلة كانوا يعرفون أيضا وبدون وسائل ولا قطع الغيار كيف يقومون بإصلاح الآلات التي تتعرض باستمرار إلى التوقف.

وكان رئيس الورشة جوزيف باريز (Joseph Parrès) أحد المحكوم عليهم بالإعدام في محاكمة "الواحد والستين"، يقوم بمهمته كمناضل، ولا يحسب ساعات عمله ولا مجهوداته.

لقد أحببت جو المطبعة، ضجيجها ورائحة الحبر والرصاص، روح الجماعة التي تسود في الورشة بين الرجال الذين أعمل معهم أثناء تركيب وسحب الجريدة.

وكنت أتولى أيضا إدارة المسائل السياسية والتنظيمية وبخاصة في فترات الغياب المتكررة لـ (طالب) التي تجعله صفته كدائم كثير التنقل عبر البلاد للمساعدة على سير النوادي وتنظيم وتربية أعضائها.

وبموافقته تعودت أثناء غيابه على التوقيع مكانه على الأوراق التي يفترض أن تحمل توقيعه، خاصة الصكوك القابلة للتخليص، وكنت أقلد توقيعه بمهارة، إلى درجة أن أعاد لنا - وكان (طالب) عائدا إلى الجزائر بعد جولة طويلة في الغرب الجزائري - مركز البريد شيكات كانت تحمل توقيعه الخاص مع إشارة "توقيع غير مطابق" ليذهب (طالب) للتصديق عليها رسميا، ليتضح أمام سعادة الجميع الذين يعرفون ترتيباتنا أنها لم تكن شيكات مزورة.

وكان عليّ أيضا أن أقوم بتأمين الحد الأدنى المطلوب للبقاء وكانت عائدات الدروس التي أقدمها غير كافية لتأمين معيشتي وحتى لو كنت أتغذى بشح على أطباق البطاطا بالمرق أو الحمص والسردين المشوي التي تقدم في المطاعم الشعبية لشارع باب عزون.

وبالنسبة للسكن، كنت أتقاسم في أغلب الأحيان غرفة مع مستأجر آخر، ولبعض الوقت كان (أحمد خلاف) من يتقاسم حجرتي، شاب من سطيف جاء إلى مدينة الجزائر بعد انتخابه في قيادة اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية بعد مغادرة (طالب) الذي أصبح أحد المسؤولين عن نقابة البناء، لقد كان أحمد شابا في مثل سني، وكان على ذكاء وعذوبة يتقاطعان مع انخراطه التام الذي يعبر عنه أحيانا بعنف في المعركة ضد الظلم والاضطهاد ومن أجل الحرية والكرامة، ومن خلاله ومعه كنت أشعر بقوة

بضرورة الانتفاضة التي كانت تكبر في أنفسنا، أكثر مما كنت أشعر مع غيره، ولم يكن بإمكاني أن أتصور أنها ستنفجر قريبا في سماء مفتوحة.

لقد كنا نسكن في أحد المخابئ القديمة للقيادة السرية للحزب الشيوعي الجزائري الذي يستخدم في الوقت ذاته كمكتب ومأوى للعضو الدائم في تلك الأثناء.

كان الأثاث الوحيد في الغرفة حيث نعمل، يتكون من طاولة وكرسيين، وكنبة تستخدم في النهار لجلوس الزوار وتتحول في الليل إلى مرقد لأحدنا، في حين ينام الآخر على سجادة في الغرفة المجاورة، وكنا نتبادل المرقد أسبوعيا وهي وتيرة بدت لي بالتجربة مريحة أكثر وعملية.

وكان (خالف) من أكثر المتساهلين، إذ ينحدر من عائلة فلاحية لم يعش من قبل في أبهة كبيرة، ووجد هذه الترتيبات أكثر ملاءمة.

قبلت الاقتراح الذي عرض عليّ للعمل كسكرتير مكلف بالمسائل الإدارية في نقابة عمال الموانئ، وأغلبهم من المسلمين، من الرجال الذين يتميزون بالخشونة والشجاعة، تعودوا على الحياة الصعبة، التي تتخللها الإضرابات والمطالب الاحتجاجية التي تجعلهم يصطدمون باستمرار بقوات الشرطة.

وكان قادتهم النقابيون قد قاموا قبل سنوات بحرب ضد مافيا مارسيليا وكان (كاربون وسبيرتو) من الوجوه المعروفة أكثر من الذين يتميزون بطموح بسط أيديهم على نقابة عمال موانئ الجزائر العاصمة.

كان النقاش قصيرا بين مسؤولي النقابة وبين مبعوثي مافيا مارسيليا اللذين قدما إلى مدينة الجزائر لعرض مطالبهما وفرض قوانينهما.

لقد كانا يهزان كتفيهما ويتحدثان كزعيمين، كما حكى لي أحد الشهود، وهما متأكدان من أن شهرتهما وتهديداتهما التي يطلقانها، كانت كفيلة بكسر أية مقاومة.

ولم يكن الأمر يتعلق بالنسبة لعمال الموانئ بإعلام شرطة عنصرية وقمعية يسعدها أن تأتي لقمعهم في الميناء بالمناسبة.

فقد منحوا للمفياويين في مهمة حرية الاختيار بين خيارين، إما العودة إلى أول مكتب في مارسيليا بدون مشاكل، أو العودة لاحقا في نعوش، وفي الأخير وبطريقة فيها الكثير من الحكمة فضل هؤلاء الخيار الأول.

لقد عاش مسؤول النقابة (محمد نافع) الذي وظفني هذه الفترة قبل أن يعتقل في محتشدات الجنوب في عهد فيشي، ولقد كان رجلا في حوالي العقد السادس من عمره، كبيرا ونشيطا، ذا شنبات كثيفة، يرتدي برنوسا عريضا ويعتمر شاشا أصفر.

لقد كان يعرف باسم (الحاج موسكو)، إنه لقب يعود حسب البعض إلى رحلة قام بها إلى الاتحاد السوفييتي قبل الحرب، وحسب البعض الآخر يعود إلى تعلقه الحماسي بالاتحاد السوفييتي منذ إنزال الحلفاء. استعاد الميناء نشاطه المكثف وتنقصه اليد العاملة للقيام بعمليات تفريغ العديد من البواخر التي ما انفكت تتوافد.

كانت النقابة قوية جدا، وقد اشترطت على المترشحين للتوظيف، قبل أن يحصلوا على بطاقاتهم المهنية أن يمروا أولا عليه .. "الحاج موسكو " قبل غيره من أعضاء النقابة ممن لا يعرفون الكتابة والقراءة، الأمر الذي طلبوا لأجله مساعدتي..

كنت أجلس وراء طاولة يعلوها الغبار وسيئة الإضاءة في بورصة العمل، كنت أسجل كل يوم مترشحين جدد بالعشرات، منهم الفلاحين النحيفين وذوي الزي الرث الذين يقفون في الطوابير أمام مكتب النقابة.

لقد كانوا يصلون تباعا من الأرياف حيث المجاعة والتيفوس يصنعان دمارا، بدون رد من السلطات التي لا تستجيب.

وبمجرد أن انتشر خبر التوظيف في ميناء الجزائر حتى تسارعوا في مجموعات، لا أحد منهم يتكلم الفرنسية وبمثل لغتي العربية المتلعثمة كان علي أن أتدبر الأمر.

كان عليهم أن يقدموا بطاقة هوية لم يكن من السهل عليهم الحصول عليها في جزائر استعمارية بصفتهم فلاحين أو عمال فلاحين وأكثر من ذلك فهم بدون حرفة وبدون أية موارد.

لقد كانت العادة أو بالأحرى الواجب يقتضي أن يتركوا بقشيشا لكل ممثل للسلطة وعلى جميع المستويات من البواب إلى القايد للحصول على أي ورقة رسمية.. والكثير منهم لا يملكون الوسائل.. يعاودون الكرة.. وقد يحصل أن طالبا للتوظيف لم يكن يبلغ العشرين من العمر يقدم بطاقة هوية، يكون قد استعارها من شخص قريب يبلغ من العمر الأربعين، وأحيانا نفس البطاقة التي أخرجت في فترات متراوحة من اليوم تستخدم من طرف ثلاثة أشخاص مختلفين قصد تسجيلهم في سجل الباحثين عن العمل.

ففي مثل هذه الحالات، كان (الحاج موسكو) هو من يفصل في أغلب الأحيان بدون الاهتمام بالتفاصيل البيروقراطية.

- "سجلهم، سنرى جيدا، يتعين أن يأكلوا .. أليس كذلك"

لقد كنت منسجما مع الطريقة التي قام (الحاج موسكو) من خلالها بتسوية إنسانية للمشاكل.

وفي ماي 1943، تم تحرير تونس، باستسلام الفرق الألمانية الإيطالية في رأس بون وفي جويلية انتقلت الحرب إلى الأراضي الإيطالية.

وبعد سنة..وفي الوقت الذي كان الجيش الأحمر يواصل هجومه الانتصاري إلى الشرق حيث كان (هتلر) يحتل وقتها ثلثي (Wehrmacht) وقوات الحلفاء تنزل على شواطئ (النورماندي)، وتحت التأثير المزدوج لجيوش الحلفاء التي كان جزء منها يهاجم المقاطعة، شرعت المقاومة الفرنسية في تحرير فرنسا.

فقد تم على واجهة البريد المركزي، نشر خريطة فرنسية بألوان حية، كتب عليها تقدم قوات التحرير، فقد كانت جيوشا متحمسة من المسلمين والأوروبيين تتمركز أمام السلالم التذكارية للبريد تحيي بهتافاتها وتحياتها أي تغيير يظهر على الخريطة ويسجل خطوة أكثر نحو نهاية الحرب والانتصار، أن نرى جميع هذه الوجوه المتفتحة والسعيدة التواقة والعيش في خضم هذا الودّ، خارج الانغلاق العرقي والاجتماعي للمستعمرة، الذي يجمع الكل، يوحي لك أن هذه المدينة لم تكن تابعة (لبيتان) ولا عنصرية وأنه لم يكن صحيحا كما يحلو للذين كانوا يحكمون الجزائر باسم المارشال قبل سنتين أن (دوغول) كان خائنا. وأن الجيش الانجلو-أمريكي الذي نزل منتشرا يتعين محاربته السلاح في اليد.

إن هذه الحقائق المؤلمة "لهذا التحرر الغريب" لم يبق منه لدى المناهضين للفاشية والشيوعيين والوطنيين الذين يتواجدون في السجون سوى كابوس يريدون نسيانه.

لقد كنت في هذه الأثناء مناضلا كاملا ودائما في الشبيبة الشيوعية وعضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري، استقلت بناء على طلب رفاقي من آخر منصب كمحرر ومترجم أكبر حصة من البرقيات تأتي من الوكالات الأمريكية أو الإنجليزية إلى وكالة France-Afrique التي بمجرد انتهاء الحرب انتقل مقرها إلى باريس .. لتصبح "France-Presse" أنه عمل يلائمني تماما.. عمل يبدأ على الساعة الثامنة من كل مساء وينتهي في نحو الواحدة والنصف صباحا ولمدة ستة أيام في الأسبوع، إنه عمل متعب لا يقبله الكثير إلا إذا كانوا مرغمين على ذلك. ولم يكن ذلك ينسحب على حالتي، بل على العكس كنت سعيدا أن أتمتع بكامل أيامي.

لقد كنت في صحة جيدة وتكفني ساعات قليلة من النوم وكنت أقوم في الصباح الباكر لكي أقوم بساعات طويلة من العمل كانت تنتظرني، ولم يكن

المرتب الذي أتقاضاه يقارن بالأجور الهزيلة التي كنت أتلقاها من قبل، لقد بدا لي مرتبا ضخما، يسمح لي بدفع إيجار غرفة ووجبات أكل متنوعة وحتى تقديم مساهمة مالية معتبرة لخزينة إتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية.

وفي الوكالة، اكتسبت ودّ أربعة راقنين على الآلة، مكلفين برقن الترجمة التي أمليها مباشرة باللغة الفرنسية انطلاقا من البرقيات الأصلية، كما يفعل ذلك بقية المترجمين الذين يتراوح عددهم بين أربعة أو خمسة مترجمين أو مترجمات في المصلحة.

لم أخف آرائي السياسية وقد وجدت أذانا صاغية، باستثناء رئيس التحرير الذي كان ينظر إليّ بغرابة، لقد علمت لاحقا، أنه قبل أن يصل إلى الجزائر، قد تعاون وبقناعة كما يقولون، مع إحدى الجرائد الجمهورية التابعة (لبيتان)، إلا أنه لم يقم بأية ملاحظة حول عملي، ولم يعلم أو يتظاهر بعدم العلم، أن في لحظات الفراغ، كانت مساعداته يقدمن وقت فراغهن لرقن مقالات La Jeune Algérie ومشاريع المنشورات اللاحقة التي كنت أعدها.

وباستثناء بعض المستخدمين الذين كانوا يقومون بصيانة المحلات أو يقومون بدور البوابين، وجميعهم من السكان الأصليين، مثلما هو الشأن في جزائر مستعمرة، فإن جميع الموظفين كانوا من أصل أوروبي وأغلبهم من النساء.

وكانت إحدى المحررات وهي في سني على الأرجح، تبدو أكثر إصغاء لما أقول، وقد اقترحت عليها أن تحضر لقاء للخلية المفتوحة لجميع الذين يرغبون في معرفة الشيوعيين وسياستهم، لقد قبلت بالمجيء والانخراط في الحزب الشيوعي الجزائري في وقت لاحق.

كنت في غاية الارتياح لهذه الخلاصة الايجابية التي أدين بها بدون فخر إلى قيمة مبرراتي وإلى البراعة التي أبديتها في إبرازها وفي إقناعها.

أدركت فقط لاحقا، إنه لم يكن لي كبير فضل في كسب هذه المحبذة الجديدة.. التي تدعى لوست (Lucette) ولها أربعة شقيقات وهي ابنة جان

ماري لاربيير(Jean-Marie Larribère)، طبيب وصاحب عيادة مشهورة في وهران، وتتعاطف منذ زمن طويل مع الحزب الشيوعي الجزائري على غرار حفيدة طبيب آخر كامي لاربيير (Camille Larribère) الذي خدم كعون اتصال بين قيادة أركان الجنرال (جيرود) والمقاومة الفرنسية، مناضل نشيط، كان قد شارك في مؤتمر للشيوعية الأممية خلال سنة ما قبل الحرب وتعرض إلى القمع أكثر من مرة. وتعرض على إثر النزاع العالمي الأول إلى تخفيض رتبته كضابط لحمله للجنود الأعضاء في كتيبة على رفض الذهاب إلى المغرب للكفاح ضد عبد الكريم والمحاربين في الريف.

وكان كامي "طبيب الفقراء" مثل أخيه (جان ماري) معروفا في جميع الغرب الوهراني وعلى غراره أيضا محترما ومحبوبا من الجزائريين الذين يمكن أن يتعرضوا لإهانة كبار الكولون العنصريين والفاشيين. لقد كبرت لوست تحت تأثير هذا الأب وهذا العم.

ويمكن القول أنه ليس من الضروري تلميع مبرراتها لإقناع أي أحد ينتمي إلى عائلة ذات وجاهة.

وبعقد اجتماع هذه الخلية وجهت لها الدعوة لحضورها في حي يقتصر سكانه تقريبا على الأوروبيين من صغار الموظفين، وعمال البريد، والسكك الحديدية، عمال وموظفين في المؤسسات الصغيرة، وكانت (لوست) مرفوقة بفتاة سمراء ونشيطة، متميزة، تتكلم متحررة من رطانة الأقدام السوداء المعتادة.

لقد تعرفت عليها بكلية الآداب بجامعة الجزائر ويترددان معا على نفس مرقد الطلبة في شارع (سانت سان) محمد الخامس اليوم الذي تديره عوانس أمريكيات بروتستانيات متشددات، وخلال الاجتماع طرحت "المتعاطفة" بعض الأسئلة ولاحظت أنه بالرغم من تحفظها ودعابتها تظهر من كلماتها أنها ذات روح "حادة" متشككة وصارمة وأنها لا تقبل ما اعتبره

حقيقة بدون نقاش وكان اسمها (جيلبرت) أعلمتنا أنها تعمل كمترجمة في الرقابة العسكرية للإعلام وهي هيئة مكلفة بانتقاء البرقيات، النصوص، الصحف والمجلات، الدراسات والتعاليق التي يمكن أن ترسل للصحافة المحلية والتي يستدعي سير الحرب اعتمادها، وبالنسبة للشاب الشيوعي المتصلب المتمثل في شخصي والذي تعلم كيف يكون حذرا في مواجهة أي محاولة اختراق للعدد، كانت نقطة سيئة بالنسبة للقادمة الجديدة.

وبالرغم من المرح والجاذبية التي شعرت بها، رأيت أنه يتعين التريث قبل قبولها بكل ثقة في صفوفنا. وقد أخطأت تماما لأنها كانت تستعد لتقديم استقالتها.

رات أنه من غير اللائق هذا الفرز الخاص المخصص للخارج وللأخبار التي تظهر في الولايات المتحدة، فقد اكتشفت بفزع عبر الصحافة الأمريكية التي تمر في المصلحة، أن ما يشغل الحكومة الأمريكية هو من جهة الأسف والصعوبة التي تجدها هذه الأخيرة في إعادة إدماج جميع أبنائها المسرحين عندما تنتهي الحرب وعندما لا تدور مصانع السلاح بكامل طاقتها ومن جهة أخرى وللضرورة القصوى ليس مساعدة الحليف السوفييتي المنهك بل ألمانيا على النهوض بسرعة، لأن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة هما الماء والنار.

وكانت (جيلبرت) وأختها الصغرى قد عاشتا مراهقتهما في مستغانم حيث كانت والدتهما تدير متجرا لمواد الموضة ووالدهما مغرم بالموسيقى والأفكار السخية والذي توفي قبل وقت من الحرب. وتطبيقا للقوانين المناهضة لليهود الصادرة عن نظام (فيشي)، تم إقصاء واحدة من الثانوية والأخرى من كلية الآداب بالجزائر العاصمة.

لقد جلب لهما ذلك الكثير من المعاناة، إلا أن النتيجة لم تكن مثلما هو الشأن بالنسبة للبعض، نوع من اللقاء مع "أصل يهودي" لم تهتما به إطلاقا،

لقد كانتا بلا منازع مناهضتين للفاشية وأن اتصالاتهما مع الجزائريين والجزائريات كانت مليئة بالحذر والاحترام بحيث تبدوان غريبتين للغاية في هذا البلد الذي تسوده السلوكات المحتقرة إزاء "الانديجان" والتي كانت بمثابة القاعدة، وبعد أول لقاء لنا في هذه المجموعة التي دعيت لها بالرغم من بعض التردد والتأويل والسخرية، قبلت عن طواعية المعتقدات النظرية التي كنت على غرار رفاقي متذرعا بها بقوة وهكذا انخرطت (جيلبرت) في الحزب، لقد كانت مدفوعة أيضا بارتباط قديم وعائلي بالأفكار الكبرى للثورة الفرنسية، وبإعجاب كبير بمعركة السوفيات وفي نفس الوقت بإرادة رد الفعل ضد الظلم والاحتقار والبؤس الذي يرهق الشعب الجزائري والتي لم تكن بعد تستطيع قياس مدى اتساعه.

وخلال لقاءاتنا التي ما انفكت تتكرر، كنا نتناقش بلا انقطاع حول هذه المسائل وغيرها، عن تاريخ الشعوب، عن مستقبل العالم، عن الكتب التي نقرؤها، عن الأسباب الحقيقية للحرب، عن ماذا اكتشفته في الماركسية.

لقد كنا نضرب موعدا بالقرب من محل شارع باب عزون ونذهب لتناول الغداء في إحدى المطاعم الشعبية التي لا تتوفر إلا على أربع أو خمس طاولات وهو مطعم يطل على شارع بالقرب من ساحة Chartres، وقد بقيت حتى النهاية زبونه الأوروبي الوحيد، إذ قلما نعثر في تلك الفترة على امرأة في مقهى أو مطعم جزائري، كما كنا نؤم أيضا مطعم الـ Canard الذي كان يوجد بالقرب من مقر مكاتب فرانس أفريك وLiberté.

(فالكنار) البط الذي تشير إليه لافتة المحل لا يوجد على لائحة الطعام، لكنا وجدناه حيا سمينا يتجول تحت الطاولات وبين أرجل الزبائن، وكان صاحب المحل يدعى (سعيد) وهو شقيق (عمر أوزقان) الذي كان آنذاك السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجزائري وأب (مليكة) إحدى الجزائريات المسلمات النادرات التي انتسبت إلى الشبيبة الشيوعية.

وكان أيضا مكانا للقاءات الساخنة والعنيفة بين الأصدقاء من ذات السن والمنخرطين في العمل النضالي، وكان من بين هؤلاء طالبان يهوديان تونسيان أرغمتهما الحرب على مغادرة بلادهما.

يدعى أحدهم (دافيد) وهو مولع بالآداب ومتقد الفكر، وقد تم توظيفه في جريدة Liberté ولاحقا في "Alger republicain" التي أصبح في وقت قصير احد أحسن صحافييها، ولم يكن ذلك بالنسبة إليه غير فترة عبور.. وأما الآخر يدعى (شارل) وكان قد بدأ العمل في ورشة والده الذي يعمل إسكافيا، في ترقيع الأحذية، وكان يضع نظارة سميكة تنم عن ضعف نظره، في الوقت الذي يدرس برنامج مواد الامتحانات المقبلة التي ينجح فيها بامتياز، وفي الجزائر قبل العمل كموظف بمصلحة مراقبة الجلود التي كانت في تلك الفترة تعرف ندرة حيث كان دوره يكمن في توزيع الجلود على الحرفيين وتجار الأحذية بالكميات التي تعود لهم قانونا.

وكان له في مخزنه باستمرار عينات من الأحذية المكرسة التي يرسلها باعة الجملة والتي تتضمن عيوبا وحتى يتفادى تحويلها من طرف الوسطاء لحسابهم، وكان ذلك يزعجه قليلا، لذا كنا نراه يلبس زوجين من الأحذية من صنف مختلف وهو يريد أن يظهر من خلال هذا خلوه من الآراء البرجوازية المسبقة.

كان هؤلاء رفاق شبابي في مدينة الجزائر، كانوا مخلصين ومن هذا الخلق يستمدون قناعاتهم وسخاءهم وآمالهم وهم لا يدركون الشيء الكثير عن المعاناة الكبيرة للشعب الذي يعاني ويتألم في داخل البلاد، ولم تكن صرخاته طلبا للنجدة لتصل بقوة إلى مدينة الجزائر وحتى إلى أذان الذين يريدون سماعهم.

وعند الخروج من المدينة وفي منعرج الطريق، تكشف أضواء السيارة فجأة عن مجموعات من الرجال نحيلي الأجسام يرتدون ملابس رثة شاحبي

الوجوه يبدون كأشباح يتجهون ليلا نحو المدينة على أمل الحصول على عمل. وللحديث مع هؤلاء يتعين المرور بطرق وعرة وغير معبدة إلى غاية الوصول إلى دشرتهم البعيدة أو الانتظار بالقرب من القرى أو من المدن الصغيرة. طردهم الجوع من دواويرهم رفقة نسائهم وأطفالهم يحاولون البقاء بالعيش في مخيمات تعيسة، بداية بإقامة أكواخ قصديرية انطلاقا من الألواح الخشبية المهترئة، لقد كان يصادفني هذا المنظر المؤلم عند فصل كل شتاء عندما كنت أسافر عبر الجزائر وبمناسبة مروري في عين مليلة، أخذني مسؤولو النادي المحلي للشبيبة إلى غاية الفندق البلدي وهو عبارة عن رواق كبير غير مغطى والذي يستخدم في نفس الوقت كمستودع للعربات وكمحشر.

كان أحد جوانبه تحتله الكلاب الضالة التي تلقى مصالح البلدية القبض عليها وكذا بعض الأحمرة ويحتل الجانب الآخر عشرات العائلات الفلاحية الجائعة التي لجأت إلى هناك. لقد كان المطر يتساقط والجو جد بارد ومكفهر ورياح باردة تهب على الرواق.

وتحت المخبأ كانت هناك عشرات النساء والأطفال متراصين الواحد إلى جانب الآخر قصد الحفاظ على قليل من الدفء المشترك.

وفي زاوية من الرواق وعلى حصيرة من الحلفاء كانت تجلس امرأة عجوز تنخر وجهها بقع مرض الجذري تئن من الألم بدون أن يستطيع أحد أن يقدم لها النجدة. وقد وجد رفاقي من النادي المحلي للشبيبة وجميعهم من الجزائريين ينحدرون من عين مليلة صعوبة في تفسير الوضعية غير القول أنهم يرغبون في مساعدتهم لكن ليس بتقديم لهم بعض الصدقات بل لأنهم يشعرون أنهم متضامنون معهم ويناضلون من أجل جزائر أخرى لن يتعرض أطفالها إلى المجاعة.

ولم يشأ من يخاطبونه أن يرد وبدا وكأنه لم يحاول حتى الفهم معبرا بسلوكه هذا أن الكلمات لا تسمن ولا تغني من جوع.

وبعيدا عن هذه الاعتبارات المهتلكة وفي تلك اللحظة لم يكن يهم هؤلاء النساء والأطفال، غير قطعة الخبز التي يمكن أن نقدمها لهم.

لقد توجهت إلى أحد هؤلاء وكان في حوالي الستين من عمره، وطلبت منه ماذا يمكن أن نفعله فورا خارج جمع المواد الغذائية لمساعدتهم، ولقد أفهمني أنه من الأفضل أن نغير مكانهم إلى حيث يوجد الكلاب والحمير حتى يستطيعوا الاستقرار في الجانب الآخر من الرواق، حيث يكونون بمنأى عن الريح والبرد. شعرت بحرج كبير وأكثر من ذلك بالعار لتواجدي في هذا المكان .. كاس وحليق أمام هؤلاء الرجال والنساء، الذين كانت ملابسهم تخفي بالكاد عوراتهم ويرتعشون جوعا وبردا، يطلبون منا مساعدتهم ووضعهم في مكان الحيوانات وهو ما لم نكن متأكدين من القدرة على القيام به.

في باتنة وفي إطار أسبوع التضامن مع الشبيبة المسلمة، نظم أعضاء نادي اتحاد الشبيبة الديمقراطية الجزائرية بالاشتراك مع الفريق المحلي للكشافة الإسلامية حساء شعبيا.

وفي مكان صغير من أرض محوشة وفي انتظار توزيع الحساء، كانت هناك فلول من الفلاحين البؤساء بنسائهم وأطفالهم يسعلون، ويبكون وينتحبون في الأوحال وتحت المطر الخفيف، يتسارعون نحو عربة قديمة مستعارة من الجيش، لقد طلبوا منهم الاصطفاف في صف هندي، ليمر كل واحد بدون النبس بكلمة، حاملا بيده ماعونه وهو عبارة عن دلاء صدئة، أو محفورة أو علب المصبرات وحتى خوذات أمريكية أو ألمانية تمت استعادتها.

وفي الطابور رأيت -ولا أزال أرى - امرأة جد متقدمة في السن نحيفة وجلدها على عظمها وشبه عارية وكأنها خجولة من عريها لم تكن تلتحف

غير رداء قديم مربوط بخيط حول خصرها، وفي مكان آخر، منعت السلطات المحلية وعلى رأسها رئيس البلدية بكل بساطة الدخول إلى مدنهم على هؤلاء "الشحاذين" الذين انتشروا هذه السنة وينشرون التيفيس وأمراض أخرى، مثلما تقول الصحف. ويسهر رجال الجندرمة على صدهم خارج حدود المقاطعة، كما سهلت الأسوار الرومانية المحيطة بتبسة هذه الأمور. وعلى بعد مئات الأمتار من محطة القطار وأمام الباب الحجري على امتداد السور القديم، يقبع مئات الفلاحين بصفة دائمة في حالة عوز كامل. إنه من السهل مراقبة الدخول ومنع العبور عليهم.

وكان الاهتمام الوحيد للإدارة الاستعمارية هو منع "غزو المدينة" ويقول الناس الطيبون من ذوي الضمائر المرتاحة أن تقديم الإغاثة لهم، سيزيد من جلب بؤساء جدد وتوسع الأوبئة.

ويكشف البلد عن حقائق أخرى، بعيدة عما يمكن أن يتصوره الأوروبيون الذين يعيشون وهم لا يأبهون بما يجري في عمق هذا البلد، بلد لا يعرفونه ولم يكن لديهم الفضول لزيارته. فكرت لاحقا في هذه الأوراق (لألبير كامو) الذي كان لا يزال بعد صحفيا في "الجزائر الجمهورية" الذي اكتشف برعب أن خمسين بالمائة من السكان على الأقل يعيشون على الأعشاب والجذور. "ذات صباح باكر، رأيت في تيزي وزو أطفالا يتصارعون مع كلاب قبائلية على محتوى مزبلة"، كتب ذلك في جوان 1939 في تحقيق حول القبائل. وعن أسئلتي رد"علي" أحد المواطنين "يحدث هذا كل صباح"، فإن (كامو) يكون قد عاد من هذا التحقيق مضطربا وكأنه عاد من قارة لم تكتشف، بعيدة وقاسية، إنه مولود في الجزائر التي لا تبعد عن تيزي وزو إلا بمائة كيلومتر. غير أنه لا يعرف هذه الجزائر، وستبقى بالنسبة إليه ولأغلبية الأقدام السوداء غير مرئية.

ما اكتشفته بعيني كقادم جديد، لكن كشاب متعطش لمثل العدالة والحرية، كنت أكثر حضورا في كل لحظة، أكثر منها في المدينة شاهدا على

الاضطهاد والاحتقار الذي يتعرض له شعب بكامله، شعب تعلمت كيف أعرفه بصفة أكثر بعد كل "غطسة" في البلاد وفي لقاءاتي ونقاشاتي مع المناضلين الوطنيين والشيوعيين وعمال المناجم في بني صاف في الغرب الوهراني، والونزة أو الكويف في الشرق القسنطيني، مع عمال الموانىء في بجاية وعنابة، مع العمال والفلاحين في عين تموشنت وعمال السكك الحديدية في سيدي بلعباس وبريغوا.

إنها نهاية الحرب، وبداية مخاوف الكولون وأرباب مختلف أشكال الاستغلال، فترة تشكيل النقابات النشيطة عبر كامل البلاد وفي أغلب الأحيان بدفع من المناضلين الشيوعيين الذين يرتبط جميعهم بالكونفدرالية العامة للعمال، عمال الفلاحة، السكان الأصليين المرتبطين بالنقابة، وانتشار الرعب بالنسبة لسادة الاستعمار الذين شعروا فجأة بظهور تهديدات مخيفة تشبه تهديدات فترة الجبهة الشعبية التي أطلقتها حكومة الماريشال.

وبالرغم من البؤس الذي يسحق الأرياف والإرادة المعلنة للأقوياء في عدم تغيير أي شيء، بدأ نفس جديد يسود البلاد، فقد قص عليّ أحد قدماء أصدقائي (عبد الحميد بوضياف) مسؤول إحدى الجمعيات الفلاحية وإقطاعي صغير وفي نفس الوقت عضو في إدارة الحزب الشيوعي الجزائري، قص علي حكاية ذات مغزى كان شاهدا عليها.

"على حافة إحدى الطرق الريفية، كان يجلس حوالي عشرين عاملا فلاحيا عندما وصل رئيس البلدية المختلطة المتصرف على ظهر حصانه، وكانت العادة أن يقف الجلوس لتحيته وهو ما فعله أغلبيتهم باستثناء خمسة أو ستة من بينهم لم يقوموا لتحيته وعندها توقف المتصرف وقال: "إذن لا تنهضون لتحيتي، فردوا عليه نحن منخرطون في النقابة يا سيد!" وبالفعل لقد كان الرفض لا يزال سياسيا أكثر منه نقابيا.

وكنت أسمع أحيانا بعض الأوروبيين يستعيدون ما يقوله أعوان الإدارة وهم يشتكون من "سوء الحالة النفسية للسكان الأصليين" وهي حالة توجد حتى عند الأطفال ويحكي الجنرال توبرت (Tubert) الذي أصبح رئيسا لبلدية الجزائر بعد أن تم إلغاء بلدية (فيشي) وهو رجل من طراز استثنائي بالنسبة لعسكري من الصنف العالي ويقرب من الشيوعيين وعلى استعداد دائم للتنديد بمظالم وتجاوزات النظام الاستعماري، ما حكى له أحد المعلمين إلتقاه خلال إحدى الرحلات.

لقد كان يقدم درسا في التراث القديم وعندما تطرق إلى المصير المأساوي للعبيد، صرخ أحد التلاميذ قائلاً "مثلنا"! وفي منطقة بجاية قدم أحد المعلمين في المدرسة كنموذج للكتابة الجملة التالية: "أنا فرنسي وفرنسا وطني" وقام الأطفال بتصويب نفس النص الذي أملاه المعلم من تلقاء أنفسهم" أنا جزائري والجزائر وطني".

فهناك الكثير من المؤشرات الجديدة عن نفاد الصبر والتوق إلى الحرية والكرامة الوطنية، لا ترغب فيها السلطات الفرنسية ومعها (دوغول) إلا لإيجاد وسائل مواجهتها والإبقاء على النظام القديم مع القيام بتحذيرات خفيفة وحذرة.

وفي مدينة الجزائر، كان الحاكم العام كاترو (catraoux) جد واضح وعبر عن رأي مطابق لرأي (دوغول) "أن وحدة فرنسا والجزائر تشكل عقيدة.. ولن توافق فرنسا إطلاقا على استقلال الجزائر التي تعتبر جزء منها.." لقد كانت وجهة نظر رسمية ونوع من الرد على الأسئلة والاقتراحات الواردة من مسؤولي الحركة الوطنية أسمعت من طرف لجنة الإصلاحات للمسلمين التي أسست مؤخرا.

وفي نهاية المطاف تمت المصادقة على بعض التحذيرات الإيجابية لكنها جد ضئيلة والتي عرفت لاحقا تحت تسمية أمرية 7 مارس 1944. وقد حصل ستون ألف مواطن أصلي مسلم على المواطنة الفرنسية.

فالمنتخبون الجزائريون ـــ وحتى لو أن عدد السكان الذين يمثلونهم كان أكبر بعشر مرات عن السكان الأوروبيين ـــ لم يكونوا لحد الآن يمثلون الثلث في المجالس البلدية أمام ثلثي المنتخبين الأوروبيين، الأمر الذي يستثني أيضا أية إمكانية لانتخاب رئيس بلدية من السكان الأصليين.

فالتدابير الجديدة توسع تمثيل الجزائريين إلى الخمسين (2/5) بيد أن جميع القوانين والإجراءات الاستثنائية التي يخضعون لها والتي تعرف إجمالا تحت اسم "قانون الانديجانا" (Code de l'Indigénat) قد ألغيت وأصبح مصطلح "أنديجان" يعرف بتسمية أكثر ملاءمة سياسيا وهي "فرنسي مسلم" وبالفعل، لاشيء تغير جوهريا ولا يزال النظام الاستعماري القديم قائما عمليا وبرمته.

وفي مارس 1944، وبعد أسبوع تقريبا من صدور هذه القرارات التي قدمت على أنها نجاحا وذات أهمية تاريخية لترقية السكان الجزائريين، رفض المؤتمر التأسيسي لأصدقاء البيان والحريات الذي جمع ممثلي الأحزاب الوطنية من أنصار (فرحات عباس) و(مصالي الحاج) وكذا جمعية العلماء، بالإجماع هذه القرارات، وبالنسبة إليهم وحسب ما صرح به الشيخ (بشير الإبراهيمي) الذي أصبح منذ وفاة الشيخ (عبد الحميد بن باديس) يترأس هذه الجمعية، فإن مشروع الجنرال (دوغول) الرامي إلى "فرنسة بضعة عشرات الآلاف من المتحضرين" لا يتطابق مع الوضعية الجديدة، فالجزائريون لا يطلبون ترقيتهم إلى مصف المواطنة الفرنسية، وإنما هم يعتبرون انفسهم من زمن بعيد أكثر ترقية وشرفا كونهم مسلمين، غير أن الجنرال لا يفهم هذه اللغة، ولا يسمع بالتالي للتحذيرات الواردة من طرف من يلفتون انتباهه حول الوضع المتفجر الذي يساهم البؤس في إنضاجه في الأرياف الذي يستغله السادة الحقيقيون للبلاد لإرغامه على إلغاء الإجراءات المحتشمة التي شرع فيها.

وفي نهاية مارس 1945 (قبل أسابيع من نهاية الحرب توقف القمع الدموي الذي سيحل بسكان سطيف وقالمة وخراطة ومناطق أخرى من الشمال القسنطيني). توجه (إيتيان فاجون) إلى السلطات باسم الحزب الشيوعي الجزائري مندداً "بهتلري الجزائر" الذين يأملون في الاستفادة من انتفاضات الجوع ويجتهدون في افتعالها قصد القيام بقمع وحشي والحصول هكذا على إلغاء إجراءات ديمقراطية تمت المصادقة عليها حديثا..

ويؤكد غابريال أبو (Gabriel Abbo) هذا التصريح بطريقة لا إرادية وهو أحد الناطقين الرسميين لكبار الاستعماريين ورئيس بلدية دلس وكبير الملاك والمدافعين المتحمسين عن (بيتان) الذي أغتنى من التعاون الاقتصادي مع الألمان وخاصة بتقديمه للسلع لجيوش تحارب في ليبيا "ستكون هناك انتفاضات وستكون الحكومة مرغمة على التنازل عن أمرية 7 مارس". ولم تكن محض نبوءة بل كانت أكثر من أمل غير معلن.

فقد كان هناك مخطط ساري سيتعاون على إنجازه هو وأتباعه بكل إدراك. وخلال هذه الفترة، نظم الحزب الشيوعي الجزائري اجتماعاته وملتقياته عبر كامل التراب الوطني. وكنت أشارك في هذه الاجتماعات التي كانت تجلب إليها سواء في المدن أو الأرياف جماهير غفيرة متعطشة إلى المعلومات والشروحات حول موقف الشيوعيين في مواجهة المسائل التي طرحتها نهاية الحرب التي يشعر الجميع بقربها.

وقد قادتني إحدى هذه الجولات من الجزائر إلى قسنطينة وإلى غاية بسكرة رفقة (عمر أوزقان) الذي كان آنذاك السكرتير الأول للحزب.

وكان (أوزقان) يكبرني سنا بعشر سنوات وتربطنا علاقات جيدة.. وكان كثير الإعجاب (La Jeune Algérie) التي كان يعتبرها الجريدة النموذج، وكوني ولدت في بريطانيا كان أمرا يبهجه : "كيف يمكن أن تولد ببريطانيا وتصبح شيوعيا جزائريا؟" لم يطرح هذا السؤال وإنما تخيلت ذلك.

ولا يتوانى إطلاقا على الإشارة إلى أصلي عندما يقدمني مع تعديل الحقيقة بعض الشيء.

وكأنه كان يريد أن يرسم الأشياء على مزاجه ويقول : "إنه اسكتلندي" وأمام إصراره على جعل لندن تقع في اسكتلندا، تخليت في الأخير عن تصحيحه.

لقد علمتني المناقشات التي أجريتها معه الكثير حول النضالات السابقة للحزب الشيوعي الجزائري وحوله شخصيا. لقد بدأ حياته كموظف في مصلحة البريد وكمناضل في الحركة النقابية قبل أن ينخرط في الحزب في الثلاثينات.

وبدأ اسمه يعرف في فترة الجبهة الشعبية وفي مؤتمر المسلمين الذي اعتبر أول أكبر تجمع جزائري موحد بالرغم من معارضة (مصالي الحاج) الذي ندد بالمسعى ووصفه "بالاندماجي" ورفض الانضمام إليه. وكان (أوزقان) سكرتيرا، وبهذه الصفة لعب دورا كبيرا ومتميزا.

وكان أيضا على إطلاع على المسائل الدولية وخاصة المتصلة بالحركة الشيوعية لمشاركته في المؤتمر السابع للدولية الذي عقد في موسكو في 1935، إذ أصبح بعد خروجه من محتشد (جناين بوزرق) حيث قضى فترة اعتقال، أحد سكرتيري الحزب الشيوعي الجزائري.

لقد كان رجلا يتمتع بحيوية كبيرة وبروح متقدة بالرغم من صوته الأخن المزعج وكان أيضا خطيبا بارعا، كان يولي عناية خاصة لخطبه، ويعرف كيف يبني الفكرة ويعرضها على العمال والفلاحين وأغلبهم من السكان الأصليين، أميون لكن ليسوا جهلة بل بالعكس فقد كانوا على دهاء سياسي مذهل.

لقد كان لكلامه تعابير متخيلة وأمثال من الحكمة العربية تنال إعجاب الجمهور الذي بدا يحفظها أو يرددها وكان يشبّه القياد والأغاوات والباشاغاوات وبقية الموظفين من "الانديجان"، بعملاء الإدارة الاستعمارية

في عبوديتهم ودناءاتهم، "بالجراد بقدمين" أكثر تدميرا من الجراد الذي يأتي في أسراب لالتهام الحصاد.

أصبح أحد الأغنياء من إقطاعي منطقة بسكرة ويدعى الباشاغا (بوعزيز بن قانة) الذي كان أحد أسلافه من خونة شعبهم قد منح الجنرال دو غالبوا (de Galbois) الكثير من الخونة في خدمة الهيمنة الفرنسية الأمر الذي أدى بالملك (لويس فيليب) إلى مكافأته بخمسين ألف فرنك لتلك الفترة وبوسام جوقة الشرف يطلق (أوزقان) عليه اسم "ثعبان الصحراء المذهب" ويصف عمارة الحكومة العامة "بمغارة علي بابا" ليس بسبب الكنوز غير الموجودة فيها ولكن بسبب اللصوص المتأكدين من وجودها.

لم تكن اللقاءات أحيانا في مستوى الاستقبال وحتى لو أنها تستهدف تجسيد مواقف، هي في الأصل مواقف جماعية لقيادة الحزب وتطوير النقد إزاء الزعماء الوطنيين الذين يغذّون الأوهام حول مناهضة أمريكا للاستعمار والدعم الذي يمكن أن تتلقاه الجزائر في كفاحها من أجل الاستقلال ويتهمهم بإرادة "تغيير حصان مشبوه مقابل حصان أعور" ذلك الحصان الذي سيأتي من أمريكا وهو ما ردّ عليه بعض المجادلين الذين يملكون بعض الأمثال الشعبية المناسباتية في جعبتهم، ان تغيير السرج يريح، في جميع الحالات، وحسب الشيوعيين الجزائريين فإن الاستراتيجية الوحيدة المقبولة للتقدم في طريق تحرير الجزائر وأكثر من ذلك جميع بلدان العالم الثالث تتطلب اتحادا متينا مع جميع قوى التقدم والتي تعبر في فرنسا على الخصوص من خلال المقاومة وعمل الشيوعيين، بقوة متنامية وتطالب أيضا بتضامن دولي غير مشروط مع جميع الحركات التحررية الوطنية والاجتماعية، وبالدرجة الأولى مع الاتحاد السوفييتي الذي بعد أن حرر الشعوب من نير الاستعمار القيصري، عليه أن يفتح آفاقا عريضة للانتصار على النازية، الطريق إلى بروز عالم جديد، ومجتمع بدون اضطهاد ولا استغلال.

وكانت جميع التوجهات وعلى وجه الخصوص تلك التي كانت تراهن على دعم أمريكا للوصول إلى الاستقلال، أو على قوى عربية متسلطة وإقطاعية تدور في فلك مختلف الإمبرياليات ولا تقدم غير أوهام خطيرة.

عرض (أوزقان) بصفة كاملة وهادئة أفكاره التي يتقاسمها جميع الشيوعيين، غير أن لهجته أصبحت عنيفة وعدوانية وعرقية عندما يهاجم الوطنيين الذين يناديهم بالوطنيين "المزيفين" وكان خطابه واللهجة التي يستعملها يبعثان على الاعتقاد في الأخير أن الحزب الشيوعي الجزائري إن لم يكن معارضا فقد كان على الأقل مترددا إزاء الفكرة القائلة بالاستقلال، في حين أن هذه الأخيرة ومنذ نشأتها، كانت في صلب قاعدة برنامجه وعمله.

وفي باتنة وخلال اجتماع جد ساخن كان ينشطه والذي كنت أحد خطبائه، سمعته يقول أنه من غير المسؤولية الحديث عن الاستقلال و"البلد لا يزال غير قادر حتى على صناعة إبرة" وهو تأكيد عبثي.

إذا كان يتعين انتظار بلد تحت نير الاستعمار حتى يستطيع بناء قاعدته الصناعية قبل أن يطالب باستقلاله، يمكن القول، أنه لا يمكن لأي شعب مستعمر وربما يستحيل ذلك أن يكون قادرا على الخروج من الوضع الاستعماري، كون القضية الأساسية لتأخره الصناعي هي بالضبط استمرار تبعيته إزاء المستعمر ذاته.

قرأت كل ما كان ممكنا لي للحصول على الأدبيات السياسية فيما يتعلق بآلية الاستعمار والمسألة الوطنية وبالدرجة الأولى كتاب ستالين (الماركسية والمسألة الوطنية والاستعمار) الذي كان كتابنا المرجعي حول جميع هذه المسائل.

وكان من شأن كلمات (أوزقان) أن تجعلني أطير، لكن وفي تلك اللحظة وبدون شك، كنت مشلولا بسبب نقص الخبرة، وبالاحترام الذي أكنه لمن

يكبرني سنا وللمسؤول أيضا، كنت أستمع بدون رد فعل وكأنني وضعت مؤقتا في إجازة عن التفكير.

كان اللقاء القادم مقررا عقده في بسكرة، إذ هي المرة الأولى التي اكتشفت فيها الجنوب، وكانت بسكرة بواسطة الطريق على بعد حوالي مائة كيلومتر بالكاد من باتنة، إنه مناخ آخر ومناظر أخرى وجزائر أخرى.

وبعد عبور سلسلة جبلية وبمجرد أن تراءت القنطرة التي تبدو من بعيد كأنها حد سكين في الجسد حسب أسطورة سيدي عقبة، الفاتح العربي، الذي فتح هذا الجبل بضربة سيف، ليفسح الطريق أمام جيوشه. لقد غادرنا الأراضي القاحلة ورمادية الهضاب العليا، نحو آفاق رملية مذهبة وأشجار نخيل تبعث على الاخضرار.

وفجأة ظهر على الطريق ظل جثة شيطان كبير يتخلع في المشي، أشار علينا وساعديه مرفوعتان بالتوقف: "إنه (لابان) يقول (أوزقان) وقد سبق أن أعلمنا بانتظاره لنا".

إنها المرة الأولى التي ألتقي فيها مع موريس لابان (Mourice laban) الذي كان اسمه محاطا بالأساطير من قبل.

لقد كان يملك مزرعة متواضعة للنخيل غير بعيد عن بسكرة، مزرعة وكأنها موجهة لقضاء حياة هادئة بالنسبة لمعمر صغير، انخرط في العمل النضالي من شبابه الأول وذهب لمحاربة فرانكو في أسبانيا بالالتحاق بالفرق الدولية. ولا يزال جرح عميق يشوه وجهه، يشهد عن المعارك الأولى التي قادها إلى غاية موته البطولي إلى جانب جنود آخرين من أجل الاستقلال.

ولدى عودته إلى الجزائر في بداية الحرب 1939 - 1940 تم سجنه بسركاجي (الاسم العربي للإشارة إلى سجن باربروس) الذي استطاع الهروب منه بأعجوبة.

لقد اقترب من السيارة التي توقفت وحيّانا بسرعة من خلال الزجاج الذي كان مفتوحا، قبل أن يطلب منا بنوع من نفاد الصبر: "هل ستتحدثون عن (بن قانة) في تجمع هذا المساء ؟"

- "بطبيعة الحال، لقد قدمنا من أجل هذا!"

- "حسنا .. إذن لقد ربحت كبشا!"

وقد شرح لنا أنه في الفرع المحلي الذي يتكون منخرطوه تقريبا من المسلمين - فلاحون يرتدون الجلابية والبرنوس الأبيض العريض - جرى نقاش حول هذه المسألة.. فهل سيغامر الخطباء بالتعرض إلى هذا الرجل القوي "ثعبان الصحراء المذهب" وأنه راهن على أنهم يفعلون ذلك.. وأكد آخرون أنهم لن يفعلوا، إنه رجل جد خطير .. وهكذا فتح الرهان وكان الكبش موضوعه وكسبه (لابان).

لم يجرؤ أحد لحد الآن للتعرض علنا بالإدانة في بسكرة إلى الاستبداد والرعب الذي يمارسه (بن قانة) على مجمل إقليم بسكرة مع الصمت المتواطئ للسلطات الاستعمارية الذي يتجاوز حدود المدينة.

وفي بسكرة ذاتها، كان قصره محاطا بأسوار عالية ومحروسا وكأنه قصر ملك، هناك عند مدخل الحدائق، فرسان مسلحون يرتدون الزي الرسمي يقومون بحراسته.

كان يرتدي برنوسا أحمر ويعلو رأسه قنارية يلفها قماش أبيض، ويتدلى من صدره العديد من النياشين التي كرمته بها الجمهورية، "(بن قانة) كبير أعيان السكان الأصليين، صديق فرنسا" وكان يحضر في جميع الاحتفالات الرسمية وكنا لا نزال نذكر بعد مغامرة (شباح مكي)، مناضل شيوعي وعضو أيضا في جمعية العلماء الذي تعرض للاعتقال في فترة قبل الحرب لجرأته على انتقاد هذا النبيل وأسياده في الإدارة الاستعمارية، وتم ربطه إلى ذيل

الحصان وأرغم على قطع مسافة لأكثر من ستين كيلومترا مشيا على الأقدام، وهي المسافة التي تفصل أولاد جلال حيث تم اعتقاله وطولقة أين زج به (بن قانة) في السجن.

لقد كان ذلك زمنا آخر، غير أن خطر الاستفزاز والاعتداء من طرف (بن قانة) وأعوانه كان لا يزال قائما، وقد انتظم (لابان) ورفاقه لمواجهة ذلك.

فقد تمركز مناضلون يخفون مسدساتهم في ثنايا برانيسهم على السطح الذي يطل على المكان حيث ينعقد الاجتماع. وفي الأخير.. تم عقد هذا الاجتماع بدون أية حوادث، وقد اعتبره الجميع بمثابة انتصار، بسبب عدم جرأة (بن قانة).

وكان (أوزقان) قد ندد تحت تصفيقات الحضور بتجاوزات الإدارة الاستعمارية وخدمها ومن بينهم الثري الإقطاعي (بن قانة) بحدة وعدوانية تفوق نظيرتها في الاجتماعات السابقة، كما تطرق ثانية "للوطنيين المزيفين" وقبل أقل من سنتين لاحقا، انتهت الحرب، وكانت إدارة الحزب الشيوعي الجزائري تقوم بانتقاد مواقفها المعبر عنها بقوة من طرف سكرتيرها الأول وبالدرجة الأولى رفض عدم الأخذ بعين الاعتبار للشعور الوطني المتنامي بقوة.

لم يكن (أوزقان) بالمسؤول الوحيد عن الأخطاء الخطيرة المرتكبة، غير أنه تمادى في كبريائه وكانت إحدى ملامحه الأولى المعبرة عن مزاجه، عدم قبوله لأية ملاحظات تقدم له حول تسييره السياسي.

لم يحاول إطلاقا أن يشرح ذلك، وانتهى إلى عدم الرد على استدعاءات المكتب السياسي والأمانة التي بقي عضوا فيها، وبعد عبور الصحراء انضم لاحقا إلى جبهة التحرير الوطني، وكان أحد المحررين الأساسيين لميثاق الصومام، وهي الوثيقة الإيديولوجية والسياسية الرئيسية لجبهة التحرير

الوطني، والتي ضمنها عددا من التهجمات المناهضة للشيوعيين، وخاصة فقرة تحذر من تطور محتمل للحزب الشيوعي الجزائري.

وفي وثيقة أخرى، صب جام حقده ضد (العربي بوهالي) الذي عوضه على رأس اللجنة المركزية التي انتقدته بشدة.

ويبقى بعد خمسين سنة لاحقا، أن (أوزقان) كان يحسب من بين ضحايا حزب كان بإمكانه أن يعاقبه ولأنه امام مسؤولين "بيروقراطيين" وغير قادرين على التحرر من الضغوط الاستعمارية ومن وصاية الحزب الشيوعي الفرنسي، يكون الوحيد الذي دافع عن سياسة جزائرية صائبة وذلك برأي "الخبراء" أو الكتاب الموسميين. في حين أن الحقيقة هي على النقيض تماما.

إن تعنته في الإبقاء على توجه عرقي، من شأنه أن يعزل الحزب الشيوعي الجزائري عن الحركة الوطنية وهو الذي أدى بالتالي إلى إقصائه.

وفي طريق العودة إلى الجزائر، وكان يوم 8 ماي 1945 اتخذ قرار بالتوقف في سطيف لتحية المسؤولين عن الفرع الشيوعي للمدينة. وكان الوقت بين منتصف النهار والواحدة بعد الظهر والشوارع تعيش حالة غليان، وكانت تلك التي مررنا بها خالية، ولم يكن بإمكان أي منا أن يتصور أنه في صبيحة نفس اليوم حيث كان يحتفل بالانتصار، وأثناء الاستعراض المرخص به للحركات الوطنية، تفتح الشرطة النار على الجموع، ويلقى بعض المتظاهرين حتفهم لتتوجه على إثر المجزرة مجموعات الفلاحين إلى السوق وتنتشر عبر المدينة تهاجم الأوروبيين.

وفي منزل ألبير دونيه (Albert Denier)، سكرتير الفرع الشيوعي بسطيف، كانت زوجته بمفردها وقد أعدت طاولة الأكل.. قالت لنا أن زوجها ذهب إلى المظاهرة ولن يتأخر في العودة، ولم يكن بإمكاننا الانتظار وغادرنا بعد قليل، وكانت الشوارع لا تزال هادئة بشكل غريب. ولم ألحظ غير شبح

شخص أو اثنين وهما بصدد الهروب أو البحث عن مخبأ في أروقة المباني المجاورة، وقد أثار هذا الوضع قلقي ليس أكثر، وعلى بعد كيلومترات من المدينة وحول الطريق الوطني، كانت هناك مجموعة من الجزائريين يبدو أنهم من الأكثر فقرا كانوا يقطعون الطريق، أشاروا إلينا بالتوقف.

وخفضت السيارة التي كانت تقلنا من سرعتها وكنا أربعة على متنها، ليقترب أحدهم من باب السيارة ليفتح (أوزقان) الذي كان في المقعد الأمامي الزجاج ويطلب منه بالعربية ماذا يريد، وألقى الآخر بنظرة على "الشاشية التي يضعها على رأسه (والتي تعطيه هيئة شخصية مسلمة) ليرد.. حسنا.. يمكنكم ... الذهاب" وقد واصلنا الطريق بدون أن نعرف الكثير، غير أننا كنا ندرك بحدسنا حدوث شيء ما.

وعلى قرابة ثمانين كيلومترا من الجزائر مدينة الجزائر، وعلى مستوى Palestro -الأخضرية- اليوم، صادفنا شاحنات عسكرية محملة بالعسكر، كانت قادمة في الاتجاه المعاكس وتتجه نحو سطيف وقسنطينة.. ولم يكن من الصعب أن "نفهم" أنها كانت ذاهبة "لاستعادة النظام" في مكان ما. لقد حدثت بالفعل أشياء خطيرة، غير أن المجزرة المروعة التي ستهز قلوب الجزائريين من هذه الأيام من شهر ماي «شهر الانتصار» ستأتي لاحقا.

وفي 9 ماي 1945 خصصت الصحف الفرنسية والجزائرية ملفا للاستسلام غير المشروط للنازية الألمانية، وكانت لا تزال تخضع للرقابة العسكرية ولم تنشر إلاّ بلاغا مقتضبا للحكومة العامة حول ما اتفق على تسميته بحياء لاحقا "بأحداث قسنطينة". ولم يكن الحديث إلاّ عن "حوادث" قصد التقليل من شأنها".

"وفي الوقت الذي تشارك فيه الجزائر بحماس في الاحتفالات بوقف إطلاق النار، قامت عناصر فوضوية مستلهمة الطرق الهتلرية باعتداءات مسلحة على السكان الذين كانوا يحتفلون بالانتصار في مدينة سطيف وضواحيها".

وبعد يومين، اطلعت الصحف والإذاعات على برقية من الجنرال (دوغول) ينقل فيها تعليماته إلى الحاكم العام شاتينو (Chataigneau) : "اطلب منكم العمل على التأكيد العلني أن فرنسا المنتصرة عازمة بعدم السماح بأي مساس بسيادتها على الجزائر، كما اطلب منكم أيضا اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية لقمع كل التصرفات المناهضة لفرنسا من طرف أقلية من المحرضين .. واسعوا إلى اثبات أن فرنسا تحتفظ بثقتها في الجماهير المسلمة في الجزائر".

وفي 15 ماي اتهمت مذكرة لوزارة الداخلية الفرنسية حزب الشعب الجزائري لمصالي الحاج وبعض العناصر من حركة أصدقاء البيان.

وقالت جريدة l'Humanité في تعليقها على هذا التصريح في اليوم الموالي "لا يزالون يلحون على إلقاء المسؤوليات في الأحداث التي وقعت على المسلمين. وفي المقابل "نسيت" الداخلية أمرا خطيرا من هم المسؤولون الحقيقيون، إنهم أتباع فيشي والفاشيون الفرنسيون" وفي الجزائر قام أعضاء مندوبية الحزب الشيوعي الفرنسي الذين لم يكونوا قد التحقوا بعد بفرنسا وقادة الحزب الشيوعي الجزائري الذين لم تكن لهم نظرة واحدة عن الأسباب الحقيقية "للأحداث" بتشكيل وفد مشترك من الحزبين، استقبل من طرف الحكومة العامة وقام بالتنديد بالتحالف الإجرامي للأعوان الهتلريين لحزب الشعب الجزائري وغيرهم من الأعوان المندسين في منظمات تدعى الديمقراطية مع رجال فاشيين-استعماريين.

وفي إطار مسعى يندرج ضمن منطق السياسة المتبعة من طرف الشيوعيين خلال الحرب ولأسباب تكتيكية أخروا إلى مرتبة أدنى شعار التحرير الوطني، في الوقت الذي كان الطموح إلى الاستقلال يكبر في أعماق الشعب الجزائري.

وقد عاد أندريه موان (André Moine) أحد المناضلين الفرنسيين المرحلين نحو الجزائر في بداية الحرب واعتقل في محتشد (Bossuet)، ليتحدث عن هذه الفترة باسم الشيوعيين الفرنسيين خلال محادثات معه نشرتها لاحقا في مكان آخر مبديا الملاحظات التالية: "لقد كنا بالتأكيد مناهضين للاستعمار، وكنا نتلقى الاضطهاد الكولونيالي من بعيد وبصفة غير ملموسة تماما، بدون أن تكون لنا اتصالات جد مباشرة مع الجماهير المسلمة لنفهم أن الدفاع عن المطالب ذات الطابع الوطني، لم تكن فقط مسألة عدل وحق بالنسبة للجزائريين، غير أنه كان بإمكانها أن تشكل نقطة دعم للتجنيد ضد الهتلريين".

لقد أكمل فرانسو بيلو (Francois Billoux) وهو أحد الأعضاء السبعة والعشرين من النواب الشيوعيين الذين سجنوا في Maison-Carée ثم شغل منصب وزير الصحة في حكومة الجنرال (دوغول) هذه الشهادة على النحو التالي :

"لم نعرف حجم أحداث ماي *1945* إلا بعد وقت كبير، فالحكومة لم تكن تعط الشيء الكثير عن هذه المسائل. لقد كان الكثير من الأشياء يتم تسويتها مباشرة من طرف (دوغول) ووزيره للداخلية.. وكانت معلوماتنا جد متناقضة ويتعين القول بكل بساطة أنه في هذه اللحظة بالذات صدرت عدة تصريحات من الحزب وفي جميع الحالات من ممثلي الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر تستحق الانتقاد حتى لا أقول التنديد. لقد تم إعلام اللجنة المركزية التي قامت لاحقا بتصحيح الوضع، غير أنه فيما يتعلق بالمشاركة المباشرة في القمع، فإنه لا أحد من الوزراء الشيوعيين، له مسؤولية مباشرة في هذه القضية. لقد قيل على سبيل المثال أن تيّون *(Tillon)* كوزير للقوات الجوية، كان قد قرر إرسال طائرات ذهبت إلى هناك، هذا خطأ، (تيّون) لم يكن ليتخذ أي قرار من وجهة النظر هذه.. وهو ما لم نره بسرعة، بما أن الأمر لا يتعلق بأمر بسيط وأن ما حدث كان نتيجة لتطور الحركة الوطنية".

وبعد أيام من هذا العبور كأعمى في سطيف، علمت أنه في صبيحة ذلك اليوم الذي ذهبنا إلى منزله ولم نجده، تعرض (ألبير دونيه) إلى اعتداء من طرف مجهولين وقطعوا يديه، كما تعرض رئيس المندوبية الخاصة الذي كان يتولى منصب رئيس البلدية الاشتراكي الموالي للعرب للاغتيال.

كان الاثنان يحضيان بتقدير السكان المسلمين ولهذا السبب أصبحا ممقوتيين لدى الإدارة والكولون المحليين وأتباع فيشي الذين لم يتوبوا كلية.

وكان رجال الشرطة من العنصريين الشرسين ممن يخفون بالكاد ارتياحهم الخبيث في رؤية أحد الشيوعيين الأوروبيين "ضحية هؤلاء العرب" الذين يدافع عنهم، قد قاموا بعرض المشتبه بهم ممن تم إيقافهم بعد المظاهرات على (دونيه) الذي كان ممدا في سريره بالمستشفى وطلب منه أن يتعرف على المعتدين عليه.

رفض مصرحا أنه لا يتعرف على أحد وأن المسؤولين الحقيقيين بالنسبة إليه عن هذه المأساة هم من يعملون على استدامة نظام القمع الاستعماري المسلط على الجزائريين، وحسب عامل العمالة ليستارد كاربونال (Lestrade-Carbonel) فقد بلغ عدد الضحايا الأوروبيين من عمالة قسنطينة مائتين وثلاثة وعشرين من بينهم مائة وثلاثة موتى في صفوف الكولون وعائلاتهم تمت مهاجمتهم في مزارعهم، لكن وبصفة تدريجية وبمرور الأسابيع بدأت تصل إلى الجزائر بعض الحقائق حول مدى القمع الذي أعقب المجزرة.

لقد ذهب ميشال روزيه (Michel Rouzé) رئيس تحرير "الجزائر الجمهورية" بنفسه إلى عين المكان برفقة الكاتب (جان عمروش) و(عبد القادر مولفي) صديق (فرحات عباس) للإطلاع على ما حدث فعلا، وقد قام بتحقيقه بطريقة تكاد تكون سرية وكان في سباق مع الشرطة ومصالح الجيش التي تلقت تعليمات بالحفاظ على السر وبالتالي منع الصحافيين

وغيرهم من الفضوليين من دس أنوفهم في قضايا من مصلحة فرنسا الإبقاء عليها مخفية.

وعليه.. سيسكت عن حجم المجازر المرتكبة في محيط سطيف وفي منعرجات خراطة وقالمة من طرف اللفيف الأجنبي وقوات أخرى مدعمة بالطيران التي انطلقت في الهجوم على "القرى المنتفضة" في حين كانت تدق انطلاقا من الشاطئ بقذائف مدفعيتها دواوير منطقة أولاد موسى وتميمون.

ولم يقولوا أنه في بعض القرى انتظم الأوروبيون في مليشيات وقاموا بمطاردات مرعبة ضد العرب حيث قتلوا بلا أدنى شفقة كل من عثروا عليه في طريقهم وحتى الأطفال. كما قتلوا بدون أدنى اعتبار وبمحض إرادتهم من يعتبرونه مشتبه فيه.

وفي قالمة قام نائب رئيس العمالة (أشياري) الذي كان من أتباع حكومة (فيشي) وتحول إلى مقاوم «دوغولي» بتعذيب مناضلين شيوعيين وكان يشجع على الانتقام «تعالوا أيها الكولون وانتقموا لأنفسكم».

ففي مواقعهم كان القتلة يزهقون أرواحا جديدة كل يوم، فقد قتلوا أعضاء فريق الأمل الرياضي لقالمة، وفريق كرة القدم المسلم المحلي الذي اتهم أحد مسيريه بالانتماء إلى حزب مصالي الحاج.

وكانت لجنة بقيادة الجنرال (توبرت) قد أوقفت فجأة تحقيقها بناء على أمر من الحكومة. وقد أبدى الجنرال فضولا كبيرا ولم يستطع إخفاء غضبه، فلم تنشر لا خلاصاته ولا تقرير (روزيه)، فقد كانت الرقابة تسهر على أن لا تكون هناك كتابات ولا حصص إذاعية بأي شكل من الأشكال من شأنها أن تظهر حجم الجرائم المرتكبة باسم "سيادة فرنسا".

وبعد أشهر طويلة بدأت تظهر بعض المؤشرات عن الحصيلة المخفية، بالرغم من أنها لا تشير إلى وحشية القمع، مقارنة بما قام به دعاة الحضارة في الآونة الأولى للغزو.

وقدم الجنرال (توبرت) رقم خمسة عشر ألف قتيل من الضحايا، في حين قدمت القنصلية الأمريكية بالجزائر رقم خمسة واربعون ألف ضحية، وتوصل حزب الشعب الجزائري الذي قام بتحقيقه الخاص تقريبا إلى نفس النتيجة.

وبعد وقت تمكّنا من إعادة تشكيل سير التراجيديا، ولم يكن هناك أدنى شك، فالاتهامات المقدمة كانت موضوع استخفاف من طرف الذين يرون فيها سياسة خيالية، من ذلك رغبة كبار الإقطاعيين في وقوع هذه الأحداث ومساعدتهم على وقوعها، إلاّ أنها أغرقتهم في الدم، هل يمكن الإبقاء على شعب جموح أكثر فأكثر تحت الهيمنة إنها ميكيافيلية ليست بالجديدة يصعب على الرأي العام قبولها ولا تؤدي بالتالي إلاّ إلى فصل آخر معهود في سلوك أسياد الاستعمار، لقد كانت هناك سوابق في التاريخ ولهذا فإن الذين يكافحون منذ أمد بعيد ضد نظام يعرفون حيله وشروره هم على حق أن لا يأخذوا بجدية خلاصاته.

إنه لصحيح أيضا أن بعض المسؤولين الوطنيين، من خلال تمثيلهم غير الواقعي للوضع وقراراتهم المتسرعة، قد سهلوا وضع الترتيبات وسقطوا في الفخ الذي وضع لهم.

وكان أحد قادة حزب الشعب الجزائري الدكتور (الأمين الدباغين) يدافع عن فكرة مفادها أن الوقت قد حان "لتدويل" المشكل الجزائري في الوقت الذي تنتهي فيه النزاعات في أوروبا ويتقرر مصير العالم في ندوة سان فرانسيسكو، ولذلك فإن المظاهرات والاستعراضات التي كانت مقررة بدت غير كافية، وكان يتعين الانتقال إلى العمل المباشر، فالأسلحة متوفرة، تلك التي تمت استعادتها أثناء مرور جيوش الحلفاء والمخزنة في مخابئ.

وآخرون مثل (عمر اوصديق) الذي كان يعمل مصححا في جريدة "الجزائر الجمهورية" قبل وقت من اندلاع الثورة والذي أصبح بعد الاستقلال

سفيرا للجزائر لدى الاتحاد السوفييتي و (حاج شرشالي) قيادي محترم ومن أوائل حزب الشعب الجزائري، لم يكونوا يتقاسمون وجهة النظر هذه ويرون أن الظروف لم تكن مناسبة لإطلاق مثل تلك الشعارات.

في الأخير وفي ظل الاختلاف مع هذا الرأي، والانقسام والغموض، توالت الأوامر والأوامر المضادة وانطلقت بعض الأعمال المسلحة التي كان مآلها الفشل.

إن هذا التحليل للأسباب وسير الأحداث لا يعود للشيوعيين وحدهم فحسب، إنه تحليل (فرحات عباس) وأصدقاء البيان بالأساس الذين صاغوا اتهامات خطيرة ليس فقط إزاء السلطات الاستعمارية بل ضد ما يسمونه بالمتواطئين مع الاستعمار، ففي إحدى نشريات حزبهم بعنوان من "البيان إلى الجمهورية الجزائرية" كتبوا "في 8 ماي بسطيف قامت عناصر متواطئة مع الشرطة وكأنها وجوه وطنية في غياب قادة أصدقاء البيان وبالاتفاق مع إدارة المنكوب (ليستارد كاربونال) بتنظيم مظاهرة صاخبة ذات يوم سوق، لتطلق الشرطة المكلفة منذ عشية ذلك اليوم النار على الموكب".

عضو دائم في الحزب الشيوعي الجزائري

انتهت الحرب بخليط غريب من الابتهاج بالانتصار بالنسبة للبعض وبالمأساة والغضب والحزن بالنسبة للبعض الآخر، وبتساؤلات مثيرة للقلق بالنسبة للجميع. تخليت عن مسؤولياتي في الشبيبة الشيوعية التي أصبحت تدعى اتحاد الشباب الديمقراطي الجزائري بأسى وببعض الندم. وكان عمري يفوق الخامسة والعشرين وكنت أبدو أكبر سنا من بين الذين يحيطونني.

كنا نمزح أحيانا من بعض الحركات الشبانية التي كان يرفض قادتها الذين تجاوزوا سن الأربعين منذ أمد طويل ترك زمام الأمور تحت حجج مختلفة، إلا أنهم في الحقيقة لا يثقون كثيرا في أن يخلفهم الأصغر سنا منهم.

وبالرغم من أن الآخرين كانوا يمنحونني سنا أقل بكثير من سني، إلا أنني لم أكن أرغب في أن أكون أحد هؤلاء "الشيوخ الشباب" الذين كنت أسخر منهم في غالب الأحيان. فقد عرفت الحركة تحولا معتبرا في فترة رفاق الطريق وأغلبهم من الأوربيين الذين استخدموا للتمويه عن النشاط السري للشبيبة الشيوعية سواء في تشكيلتها العرقية أو في توجّهاتها التي أصبحت وطنية أكثر فأكثر، إنها ليست تلك الحركة الملحقة بالحزب الشيوعي الجزائري،

تستعيد شعارات وأساليب القدامى وإسقاطها على الشبيبة فقط لكنها حركة حقيقية ومستقلة ذاتيا إلى أبعد الحدود. ما انفكت تكبر وتجلب منخرطين جدد حتى من خارج المجال الشيوعي. وينحدر العديد من المنخرطين الجدد والذين يشكلون الأغلبية في بعض الدوائر، من أوساط عربية وقبائلية شديدة التأثر بالوطنية.

ساعد السلوك المتفتح والخالي من الخلفيات للمسؤولين الذين يشجعون ترقية هؤلاء الشباب على كافة المستويات، على جعل اتحاد الشبيبة الديمقراطية أكثر انتشارا ونشاطا وفي نفس الوقت أكثر نضالا وتحفيزا في الجزائر.

تظهر المواقف الوطنية لهذه الشبيبة والتعبير عنها أحيانا أكثر راديكالية من مواقف الحزب، إلى درجة أن بعضها يبعث على التساؤل عمّا إذا كان المسيرون بصدد الانزلاق نحو الوطنية.

وبالفعل، ومنذ دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري في جويلية 1946 التي قامت بتحليل نقدي شديد اللهجة لسوء تقدير الإدارة لقوة الحركة الوطنية وللسلوك العرقي الذي انتهجته إزاء الوطنيين، يكون الشباب الشيوعي قد أظهر حزما أكبر من قدامى المناضلين على التجسيد العملي للتصحيح المقترح.

وفي قسنطينة على سبيل المثال، وافقوا على التوقيع مع بعض حركات الشبيبة والتي كان بعض مسؤوليها منخرطين في حزب مصالي، على نص يصرح بالاستقلال وهو مطلب يوجد أيضا في برنامج الحزب الشيوعي الجزائري، لكن غالبا ما تتم استعادته تحت تعبير آخر "التحرير الوطني"، والذي يضم كما تم شرحه مطلب التحرر الاجتماعي في حين أن كلمة "الاستقلال" لا تقترحه. وكان هذا الغموض يغيب في مجمله على الذين كنا نخاطبهم، وفي جميع الحالات، لم يكونوا ليتقبلوا ولا ليتفهموا غياب الكلمة

السحرية "استقلال" التي كانت تهز الجماهير وتعظم آمالهم. ذلك ما فهمه الشباب الشيوعي المفاوض والذي أبقى في الأخير على التعبيرين ووقع على النص المقترح حتى وإن كان ذلك سيؤدي إلى بعض الملاحظات من طرف القدامى.

وجمعت المخيمات الصيفية لاتحاد الشباب الديمقراطي الجزائري التي أقيمت في سيدي فرج في 1947 وفي الشريعة بالقرب من البليدة في 1948 وفي شرشال في1951، عدة فئات من المشاركين (أكثر من خمسمائة بالنسبة للأول).

لم يكن الأمر يتعلق بمراكز مؤقتة للترفيه، بل كانت أيضا فترات للتربية والتكوين السياسي حيث تناقش وبكل حرية المشاكل التي كانت تتخبط فيها الجزائر والعالم.

ولتفادي الوقوع في الخطأ، تم إعطاء اسم جمهورية الشباب لهذه التجمعات، وكانت جميع المقالات والمنشورات المرجعية الخاصة بهذا الحدث تحتوي على هذه التسمية التي تم اختيارها من أجل الحديث عن جزائر الغد التي نحارب من أجلها، جزائر متحررة من الاستعمار ومن آلامه، من البؤس والظلم والجور والاستغلال، الأمية والعنصرية..الخ. وتم تنظيم انتخابات لاختيار المسؤولين. وتم انتخاب (طيب مالكي) الذي ينحدر من مشرية في الجنوب الوهراني، وسكرتير أحد أندية مدينة وهران المحبوب من طرف الجميع نظرا لرزانته وخفة ظله وحكمته وحلمه الكبير في إبداء رأيه وتسوية الخلافات "رئيسا لجمهورية الشباب" في الشريعة.

فقد جعل منه طربوشه وهندامه الأنيق وكذا وضوح تعبيره الجيد باللغتين الفرنسية والعربية بالرغم من صغر سنه، شخصية "نموذجية" في مواجهة السلطات المحلية القلقة من وجود تجمع على إقليمها تعلم بتوجهه المخرب

والمتناقض مع المعايير الاستعمارية من حيث خلقه لعلاقات أخوية بين الشباب الأوروبي والشباب "الأنديجان" الأصليين وتم انتخاب إلى جانب (طيب مالكي) ووليام سبورتيس (William Sportisse) المسؤول عن نوادي منطقة قسنطينة الذي يتمتع بحدس سياسي ونشاط متميز.

كان (ويليام) يتقن تنظيم ومراقبة عمل الفرقة بدون خدش شعور أي مشارك، وينحدر من عائلة يهودية من قسنطينة، سيرتا نوميديا، في الحي الشعبي لساحة الفطائر أين يتعايش المسلمون واليهود معا منذ قرون.

ولا يدل اسمه إلا على جزء من هذه الأقدمية، كونه ينحدر بلا شك من اسم مكان (- سيسبورتاس- الأبواب الستة) أصل أسلافه المطرودين من أسبانيا من طرف ملوك الكاثوليك.

أما من جهة نسب أمه، فإن أسلافه كمعظم أسلاف أغلبية اليهود الجزائريين، فينحدرون من البرابرة الذين اعتنقوا اليهودية قبل العهد المسيحي والموجودين في البلاد قبل أن يدخل غالبية السكان في الدين الإسلامي الذي حمله الفاتحون العرب.

لقد كان (ويليام) الفصيح اللسان باللغتين العربية والفرنسية، عاشقا ولهانا لبلاده ومناهضا شرسا للاستعمار وشيوعيا كما كان عليه أخوه الأكبر (لوسيان)، المعلم الذي تم طرده من الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية لينضم إلى صفوف المقاولة ويسقط برصاص الـ (Gestapo) في إحدى شوارع ليون، شأن أخيه الآخر (برنارد) المناضل النشيط الذي تم اعتقاله في عهد حكومة فيشي.

وخلال فترة "جمهورية الشباب" وبمناسبة تحضير تجمعات أخرى، كتجمع براغ بمناسبة المهرجان العالمي للشباب الذي شارك فيه حوالي 120 مندوبا، من بينهم مندوبون عن الكشافة الإسلامية تدربوا تحت لواء (الاتحاد

الديمقراطي الجزائري) انظم مئات المناضلين من الشباب، ليكتشفوا مثالا يستحق النضال من أجله، لقد كنت مسرورا لرؤية قادمين جدد، لم يشهدوا قبل سنوات قليلة ولو لفترة قصيرة تجربة السرية ومحاربة نظام فيشي، كانوا أكثر اقتناعا بحسن اختيارهم الذي لا يقل حماسا عن حماس القدامى.

اقترحت عليّ إدارة الحزب مسؤولية جديدة تماما، كنت الوحيد الذي يقوم بها لمدة طويلة، تدعى بتفخيم "مدرب الحزب" وكان ينبغي علي أن أنوب لبضعة أيام أو أسابيع عن المسيرين المحليين أو الجهويين في أعمالهم، وكانت مهمتي تتمثل في تنظيم فترات تربوية سياسية حيث يمكن تنظيم ذلك.

قرأت وتعلمت الكثير من مدرستي الأولى، تلك التي كانت تنظم سرا من طرف نواب شيوعيين لدى خروجهم من مركزية Maison-carrée، وكنت شغوفا بتاريخ الحركة الثورية الدولية وبمشاكل بناء الاشتراكية وبالمسائل التي كانت تطرحها حركة التحرر الوطني للشعوب التي لا تزال تئن تحت نير الاستعمار.

كانت عملية تنظيم هذه الفترات التربصية التي كنت أشرف عليها في الجزائر تلائمني تماما، ولم يكن ذلك في الواقع إلا جزء من عملي.

ففي قسنطينة وبونة (عنابة) ووهران حيث أقيم أحيانا لعدة أسابيع، وفي مدن أخرى لمدة أقل، وفي سيدي بلعباس، مغنية، بني صاف، سطيف، باتنة، تبسة، كنت أندمج في العمل المحلي والجهوي وأشارك في الاجتماعات والتظاهرات والإضرابات والحملات الانتخابية التي كانت تنظم خلال إقامتي.

لقد كنت في تنقل مستمر عبر الوطن، الذي سأعرفه فيما بعد من الحدود المغربية إلى الحدود التونسية ومن الساحل إلى حدود الصحراء.

وكنت أكتشف عن قرب ما كانت عليه حياة الناس البسطاء تحت الحكم الاستعماري، وعلى سبيل المثال حياة عمال منجم الحديد بالونزة في منطقة قسنطينة الذي زرته رفقة سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري لمنطقة عنابة

(عبد القادر بن زقالة)، وكانت محدودية مواردنا المالية تمنعنا من كراء سيارة للوصول إلى تلك المنطقة، لذا يتعين علينا الصعود إلى محطة سوق أهراس وركوب إحدى عربات القطار الذي ينقل خام مادة الحديد دون أن يشاهدنا أحد، والإفلات من مراقبة حارس القطار.

وكنا نخرج من القطار متجمدين من البرد تعلو أجسادنا طبقة من الغبار أحمر اللون، لون المادة التي كانت تغطي كل المكان، العربات، المنازل، المناظر والبشر. كنا نحتسي شربة بقطعة من الرغيف، إذ كنا بعد اجتماع قد يستمر إلى ساعة متأخرة من الليل، نقضي بقية الليلة في إحدى الحجرات حيث يسكن حوالي ألفان وخمسمائة عامل في المنجم موزعين على مختلف الأحياء حسب جنسياتهم. كان هناك حي الشاوية، حي المغاربة، الحي التونسي، ثم حي سكان الونزة وضواحيها. وكانت عائلات هؤلاء تكد للحصول على منتوج ضعيف من الأراضي الجافة والصخرية التي طردهم إليها الاستعمار.

أما الأوروبيون المهندسون وعمال الإدارة والتقنيون والحراس الذين يشبه معظمهم حراس مساجين الأشغال الشاقة، فكانوا يسكنون في جزء منفصل وفي فيلات مريحة.

كانت مطالب العمال تنحصر في توفير كميات كافية من الماء الشروب، في الوقت الذي يتوفر فيه لدى الإطارات وعائلاتهم على ما يكفيهم للشرب والاستحمام.

ففي هذا المكان بالذات، أحسست بمرارة البؤس والكراهية العنصرية التي كان يعاني منها الأجراء من الجزائريين العاملين بالمنجم.

إنها نفس الوضعية التي كان يعيشها عمال منجم تامازيرت بوادي الصومام، الذي زرته برفقة (يحي بريكي)، مسؤول نادي الشباب بالقرية، قصد تنظيم اجتماع في حقل قريب من المنجم الذي كان دخوله ممنوعا على الغرباء في غياب نقابة لم تشكل بعد، وكان عمال المنجم يلجؤون إلى (بريكي)

لمساعدتهم في تنظيم أنفسهم وتحرير مطالبهم، ليصبح بالتالي مستشارهم وأحيانا الناطق باسمهم.

وفي أحد شوارع القرية، كان والده يمسك متجرا صغيرا لا يتسع إلا لأربعة أو خمسة أشخاص، فلا نجد فوق رفوف خشبية خشنة إلى جانب مخزون من الفحم الثنائي للإضاءة وسلة من التمور الجافة (للبيع الحر) سوى كيس أو اثنين من العجائن والأرز ومن ثلاثة إلى أربعة صفائح من زيت الزيتون وعلب من السكر غير المعبأ وقطع مكعبة من صابون مارسيليا الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تقديم وصل أو قسيمة.

غير أن هذه التجارة الصغيرة مكنت (ابن بريكي) من مزاولة دراسته بالثانوية حتى بلوغه السنة الرابعة حيث توقف.. ومن بين عمال المنجم الأميين، كان يظهر كعالم، يحل محل الكاتب العمومي، قبل أن يعمل كمراسل متطوع لجريدة "الجزائر الجمهورية". لقد تم عقد الاجتماع باللهجة القبائلية، غير أن الكثير من عمال المنجم يفهمون اللغة الفرنسية.

كانت إحدى المطالب الرئيسية التي ينادون بها منذ زمن طويل، تتمثل في بناء جسر فوق الوادي الذي يؤدي كل سنة بحياة عامل أو اثنين من عمال المنجم عند هطول الأمطار الغزيرة. وتقع الدواوير حيث يقطن أغلبية العمال في الضفة الأخرى للوادي الذي يتوجب عليهم عبوره للذهاب إلى المنجم إذ يضطرون أحيانا إلى تشمير سراويلهم عندما يكون منسوب الوادي منخفضا وإلى حمل ملابسهم فوق رؤوسهم عندما يكون المنسوب مرتفعا والتيار قويا.

لم يتم إحصاء الضحايا من الغرقى لمدة سنوات بل ومنذ افتتاح المنجم، في حين بقيت إجابة الإدارة تتمثل في التمسك بالكلفة العالية لبناء الجسر عند التطرق لهذه المسالة.

ولم يكن رجالات المنجم ورئيس البلدية المختلطة، الذي يحمل بيده سوطا على استعداد لاستخدامه في أي وقت ضد أي مواطن لم يلق عليه التحية باحترام ، والشرطة والمخازني والقياد والوشاة .. بالمصيبة الوحيدة في هذا الجزء من الوادي.

كان على العائلات التي تقطن هذه المداشر التي توجد بالقرب من أرض فلاحية خصبة تقدر مساحتها بخمسة آلاف هكتار تابعة للباشآغا (بن علي شريف)، أن تقدم بمناسبة حملة جني الزيتون كل سنة رجلا قوي البنية للقيام بأعمال شاقة ومجانية لمدة ثلاثة أيام لفائدة الباشا آغا.

وبفضل هذا النظام، ينطلق كل سنة من ملكية هذا الأخير قطار يتكون من خمسة عشر عربة خزان محملة بالمحصول من الزيت نحو مدينة الجزائر.

ففي كل يوم جمعة وهو يوم صلاة، يجلس الباشا آغا على أريكة من طراز لويس الرابع عشر في وسط القرية، حيث يقوم كل قروي وتاجر وحرفي وبائع خضروات بمبايعته وتقبيل جبينه أو يده، كدليل عن الاحترام والخضوع، مصحوبا بورقة نقدية يضعونها في يده.

ويعرض المترددون والعصاة أنفسهم للطرد من القرية، أو للضرب المبرح أو حتى السجن والقتل على يد قتلة يعملون لحسابه.

فلمن يتجه الناس بشكواهم ؟ فلا وجود لمحافظ شرطة أو قاض يقبل بتسجيل أدنى تظلم ضد أحد كبار "أصدقاء فرنسا" والذي يعرف بالإضافة إلى ذلك كيف يتعامل مع أصدقائه عندما يدعوهم إلى مأدبة فخمة "ضيافة" كما يقولون.

لقد كنت أنقل إلى (جيلبرت) ما كنت أكتشفه خلال رحلاتي من حكايات وكأنها من عصر آخر، وهو أمر كان يكدر صفوها. لقد كانت تعلم ما معنى العنصرية والبؤس والظلم، لكنها تجهل الكثير عن الجزائر العميقة، عن حياة

عمال المناجم أو الفلاحين الجزائريين، عن الاضطهاد اليومي تحت وطأة طاغية سواء كان مسيرا أو مالك منجم أو باشا آغا أو قايد.

لقد قربتها ثورتها ضد ما تعلمه عن النظام الاستعماري من أولئك الذين يكافحون من أجل هدمه وبناء مجتمع آخر ومن الشيوعيين بالرغم من تحفظاتها الأولية عليهم ولم نتوقف عن اللقاء منذ الاجتماع الأول الذي تعرفت بمناسبته عليها.

كانت مثقفة، بشوشة، مازحة، ترفض التسلط، غير أنها كانت مقتنعة بعمق باستقامة اختيارها السياسي ومنذ ذلك الحين أصبحت مقتنعة تماما بالقضية التي أصبحنا نخدمها سويا. وأمام مخاوف المستقبل، قررنا أن نتزوج حتى نمنح لطفلنا الذي كان سيولد وضعية قانونية.

وفي أحد أيام جوان 1946، أعلن جوزيف باريز (Joseph Parrés) نائب رئيس بلدية الجزائر ومن جهة أخرى مدير المطبعة التي تسحب (La Jeune Algérie) عن زواجنا من "أجل الأفضل والسيئ".

ومع بعض الانقطاعات التي لم تكن عن قصد منا (سنوات السجن والسرية وبالنسبة "لجيلبرت" الطرد من الجزائر) فقد بقينا سويا إلى غاية اليوم.

وكنوع من اللعبة والاستفزاز على طريقة "الشاب البولشفي" قلصنا مراسيم الاحتفال الذي نعتبره شكليا وبسيطا في رمزيته والذي تزامن بين اجتماعين بالنسبة (لجيلبرت) وبين جلسة عمل وزيارة إلى وهران في نفس المساء بالنسبة لي.

أما والدة (جيلبرت) التي أحضرت الشامبانيا والحلوى فقد تفاجأت مثلما هو شأن الرفيق القديم مسؤول الحزب الذي سافرت معه في تلك الليلة. وبينما كنت أقص عليه بهدوء كيف مر علي ذلك اليوم والاحتفال السريع بزواجي، أحسست أنه يتشبث بمقود السيارة تحت تأثير شعوره حتى كادت أن تنحرف عن مسارها ليقول لي: "أرى أنك تبالغ كثيرا ..! لا ؟

وكان والديا وأخي قد استقروا ثانية في باريس وبنفس الحماس الذي عهدته فيهم باستمرار قد عادوا إلى العمل فورا.

وكانوا قد استعادوا الشاليه القديم في Saint-Ouen الذي كانوا يقطنون فيه إلى غاية مغادرتهم المنطقة وبفضل مختلف القروض استطاعوا من جديد فتح متجر، وقد عدت لرؤيتهم بعد وقت قليل، وكانوا جميعهم متأثرين لبقائنا أحياء في بلد محرر، لكنهم كانوا يعدون وبألم أولئك الذين عرفناهم وفقدناهم في الحرب أو في المنفى أو في معتقلات الإبادة التي كنا نكشف عن وجودها وحصيلتها المروعة، ثم علموا بعد ذلك بزواجي بواسطة رسالة بعثتها إليهم لكنهم لم يفرحوا لهذا الأمر، لقد كانوا يريدون زواجا "حقيقيا" يتخلله حفل ومأدبة وعروس بثوب ورداء أبيض وبحضور العائلة الإنكليزية وأخذ صور تذكارية لتأطيرها.

ولأكثر من مرة، تكون والدتي قد قالت بأنني "غير طبيعي" وبالتأكيد عن المرأة التي تزوجتها أنها كانت أيضا غير طبيعية وأظنها قد تنفست الصعداء عندما علمت بما نسيت أن أقوله لها، أن (جيلبرت) تتحدر من أصل يهودي وهو أمر غير مهم بالنسبة لي و(لجيلبرت)التي لم تهتم بمعرفة جذوري الأصلية وعما إذا كنت يهوديا أم لا.

وعندما تعرفت عليها اطمأننت حتى أنها قالت لي يومها بمزاجها اللاذع نوعا ما، لكن بطريقة لا تخلو من الإحساس الحقيقي وعلى الطريقة الإنكليزية غير الاستعراضية "أتساءل كيف استطاعت فتاة جيدة مثل (جيلبرت) أن تجد فيك شيئا إيجابيا لتتزوج بك".

وبعد فترة قصيرة من الانتشاء، حيث انتهت الحرب وأجمع الرأي العام على أن الحلفاء الذين هزموا الهتلرية والامبريالية اليابانية، سيبقون متحدين من أجل بناء هذا العالم الجديد المتضامن والسلمي وهو أمر تم التطرق إليه

طوال سنوات الكفاح المشترك، وأنه يتعين على (ونستون تشرشل) أن يعيد المياه إلى مجاريها.

وبعد أن أغلق قوس الحرب ضد ألمانيا النازية التي طالبت بتحالف ضروري ومؤقت مع الاتحاد السوفييتي، لم يتغير العدو اللدود، إنه العدو نفسه، الذي لم يتوقف سادة العالم الرأسمالي على التنديد به ومحاربته منذ ثورة أكتوبر1917 : الشيوعية ومعها القوة التي تمثلها.

كان هذا التذكير أهم ما جاء في خطاب فولتون (Folton) في مارس1946 الذي صفق له هاري ترومان (Harry Truman) الذي خلف فرنكلين روزفلت (Franklin Rosevelt).

بعد سنة من ذلك وفي مارس1947 وفي رسالة للكونغرس عبر الرئيس الأمريكي الجديد عن الخطوط العريضة لما يسمى لاحقا (مذهب ترومان) الذي يعلن بالخصوص باسم المبادئ الكبرى للحرية والديمقراطية عن حق الولايات المتحدة الأمريكية في التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى كلما بدت المصالح الأمريكية عرضة للتهديد.

دخلنا في مرحلة جديدة بدون أن نتصور ما ستحمله لنا من آلام في المستقبل، هي مرحلة الحرب الباردة والمواجهة الحادة على كل الأصعدة بين العالم القديم الاستغلالي والقوى الجديدة التي تعارضه بصرامة وحماس جامحين، ذلك ما كان عليه إحساسي وإحساس أصدقائي إزاء الأمور وفي هذه الحركة التي تندرج ضمنها معركتنا.

ففي الاجتماعات التي كنت أتناول فيها الكلمة، كنت أرى أنه من المفيد الإصرار على التحولات العميقة التي كنا شهودا عليها. وقد اكتسحت كفاحات التحرير قارات بكاملها.

التحقت الصين بمئات ملايينها من السكان بالمعسكر الاشتراكي وكنت على غرار رفاقي مسرورا بهذه الانتصارات وفي نفس الوقت جد مشغول

بالمخاطر المحدقة بالسلم عبر العالم، كون هذه الانتصارات كانت تؤجج غضب الأوليغارشية (Oligarchies) الطاغية التي تصر على حماية مواقعها في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية أو على إعادة استعمارها مرة ثانية، وبالمقابل فلم يفصل الوطنيون الشيوعيون الجزائريون كفاح الجزائر عن كفاح الأمم الأخرى المحتلة.

فلم يفوتوا فرصة الإعلان عن صداقتهم مع الاتحاد السوفييتي على عكس ما كان يفعله البعض من الذين رددوا طوال سنين وبتبجح أنهم كانوا "متشيعين لموسكو" بل وببساطة لأنهم وعلى شاكلة كل الشيوعيين عبر العالم، كانوا يعتقدون أن الاتحاد السوفييتي بصفته ركيزة دعم ضد النظام الرأسمالي ومساند لفكرة بروز مجتمع جديد، كان في نفس الوقت الحليف الطبيعي للأمم المكافحة من أجل تحررها الوطني.

لقد اعترف الكثير ممن كانوا لا يتفقون مع هذا الرأي خلال الحرب الباردة والذين كانوا يستهدفون النظام السوفييتي بانتقاداتهم، بعد فوات الأوان بالدور العظيم لهذا الأخير في الحفاظ على السلم العالمي وفي دعم دول العالم الثالث في مواجهة الطموحات الإمبريالية.

لقد انتهى الاتحاد السوفييتي وبقيت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة، وكأنها هبة من السماء لتسيير العالم بأسره، وفرض هيمنتها السياسية والاقتصادية والثقافية، على الدول العنيدة ولو باستخدام القنابل والنابالم عند الضرورة.

وفي هذا السياق، بدأت الوضعية في فرنسا والجزائر وفي غمرة حماس التحرير وبالرغم من فضاعة جرح 8 ماي 1945، توجه البلدين نحو إقامة علاقات جديدة لكن آيلة إلى التتدهور بسرعة.

وبدأت قوى الماضي التي تم احتواؤها لتظهر إلى السطح، وبعد فترة من التطهير وبدون انتظار تواطؤ النسيان، استرجع الرجال الذين عرضوا

أنفسهم للخطر بتعاونهم مع الهتلريين، وسائلهم الاقتصادية والسياسية التي ظنوا أنهم حرموا منها نهائيا...

وبدأت الولايات المتحدة بطريقة شبه علنية، تتطرق إلى ضرورة مواجهة التهديد الشيوعي بإقامة شبكة من القواعد العسكرية عبر العالم والشروع في عملية إعادة تسلح مكثفة، باللعب على فكرة كونها الوحيدة التي تملك سلاحا نوويا يضمن لها التفوق العسكري ويسمح لها القيام بجميع المساومات.

وكانت تستعد بنشاط لتحويل الحرب الباردة إلى حرب ساخنة ضد الاتحاد السوفييتي الذي لم ينته من تضميد جراحه المؤلمة التي تركها الغزو الهتليري.

ففي جميع بلدان أوروبا "الحرة" وحيث يزعجها نفوذ الشيوعيين وعلى عكس فرنسا وإيطاليا، كانت الولايات المتحدة تقدم دعمها للرجال وللأحزاب الرجعية وتجتهد في إحداث التفرقة في صفوف القوى المنبثقة عن المقاومة.

وفي فرنسا قام القادة الاشتراكيون بدعم هذه السياسة وخاصة في شهر فبراير 1947، عندما قاموا بقيادة بول راماديه (Paul Ramadier) بطرد الشيوعيين من الحكومة وبتدبير عملية شق الكونفدرالية العامة للعمال بتمويل من وكالة المخابرات المركزية وإنشاء القوة العمالية.

وبالرغم من هذه النقائص، بعث الدستور الفرنسي الجديد المصادق عليه في نوفمبر 1946، في الجزائر كما في بقية الأقاليم التابعة لما كان يسميه الجنرال (دوغول) قبل حين "الإمبراطورية" آمالا في تغيير حقيقي.

وجاء في مقدمة الدستور أن "فرنسا تشكل مع شعوب ما وراء البحار إتحادا يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات بدون تمييز عرقي أو ديني ووفاء لمهمتها التقليدية، تعتزم فرنسا جعل الشعوب التي تكفلت بتحريرها تتولى قيادة نفسها وتسيير شؤونها بكل ديمقراطية (...) على أن لا تقوم بأي حرب لأهداف احتلالية ولن تستعمل أبدا قواتها ضد حرية أي شعب : (...)

بيد أن بعض عبارات هذا النص لا تبعث على الارتياح إطلاقا، فقد عبر أحد رفاقي الذي قرأ النص بحضوري في الجريدة التي نشرته فورا عن تحفظاته إنها تلك التحفظات التي يشعر بها أغلبية المناضلين المناهضين للاستعمار حتى ولو أنهم لا يجاهرون بذلك علانية.

لماذا الحديث عن "إتحاد فرنسي"؟ فالشعوب المدعوة للمشاركة في هذا المجمع، لم تكن فرنسية في مجملها، لماذا تفرض مثل هذه التسمية التي تهدم فكرة المساواة التي يزعمون بناء حرية الجماعة على أساسها ؟ لماذا اللجوء إذن إلى إعادة استخدام هذه الكذبة القديمة بخصوص فرنسا "صاحبة المهام التقليدية" لا تستجيب إلا للمثل الرفيعة لتحرير وتقدم الشعوب، في حين تقوم بالغزوات الاستعمارية بالحديد والنار وبإبادة واستعباد ملايين البشر.

وكانت الردود بلا شك تقول بأن أن لهذه الملاحظات مبرراتها، غير أنه يتعين الاحتفاظ بالدرس الذي قدمه Ho Chi Minh ألا وهو أخذ العبرة المتمثلة في الإرادة، المعلن عنها لأول مرة من طرف فرنسا الرسمية في إقامة علاقات جديدة مع الشعوب التي احتلتها ذات مرة بالقوة، علاقات تقوم على الاحترام المتبادل والاعتراف بحقوقها في حكم نفسها بنفسها.

لقد وضعت الأحداث التي أعقبت ذلك حدا لهذه المحادثات وأظهرت مدى تفاهتها، ولم يكن حبر النصوص الدستورية قد جف بعد، عندما قام في نفس شهر نوفمبر1946 الأميرال تيري ارجيونيلي (Thierry d'Argenlien) المحافظ السامي للهند الصينية بقصف مروع لميناء Haiphong أدى إلى مقتل آلاف السكان في محيطه.

وفي شهر ديسمبر من نفس السنة رفضت الحكومة التي يقودها ليون بلوم (Léon Blum) جميع اقتراحات التفاوض التي تقدم بها (هووشي مين)، لتبدأ

الحرب على الفيتنام وفي مارس 1947 تدخل الجيش الفرنسي في مدغشقر وبنفس العنف الوحشي قبل سنتين في قسنطينة وكانت النتيجة ثمانين ألف قتيل لإغراق مطامح الشعب الملغاشي في الاستقلال في بحر من الدماء.

إن إقامة شراكة حرة وأخوية بين المستعمرات السابقة وبين فرنسا ليس إلا حلما متبخرا، مثلما كان للحزب الشيوعي الفرنسي الذي ساند المشروع أن أكده بمرارة "تحت التسمية المنافقة لهذا الاتحاد الفرنسي، يلاحظ موريس طوريز (Maurice Thorez) خلال مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي، على أن هذا يمثل في حقيقة الأمر أسوأ الطرق الاستعمارية التي تم بعثها من جديد في مدغشقر، مثلما هو الشأن في كامل إفريقيا من البحر المتوسط إلى الكونغو".

وفي الجزائر، تركت الآمال المعبر عنها من طرف الحكومة والبرلمان الفرنسي في تغيير حقيقي مكانها للشكوك، وشيئا فشيئا، وبشعور يتقاسمه الجميع تأكد أن هذا الطريق لن يؤدي إلى تحرر الجزائر.

ولمدة أشهر بعد مجزرة قسنطينة في ماي 1945، استمرت "العدالة" الاستعمارية في إصدار أحكام الإعدام أو بالسجن لمدة طويلة ضد الجزائريين الذين لعبوا .. أو يحتمل أنهم لعبوا أي دور خلال "الأحداث" وحتى بتغذية شعور "معاد لفرنسا". وفي شهر مارس 1946 وعلى إثر حملة عمومية مكثفة بادر بها الحزبان الشيوعيّان الفرنسي والجزائري، صادقت الجمعية التأسيسية على عفو عام بتحرير جميع الجزائريين المسجونين أو المتابعين لهذه الأسباب.

بيد أن ذلك غير كاف لإرضاء شعب ينتظر بفارغ صبر تغييرات عميقة وحقيقية من نظام لم يعد يتحمله أكثر. لقد كبرت خيبة الأمل أكثر عندما عرفت الوضعية المأزق التي ستفرض على الجزائر من خلال تصويت الأغلبية البرلمانية في سبتمبر 1947.

وبالرغم من الجهود الرسمية لتقديم الاقتراح على انه نص تقدم وانفتاح، إلا أنه لن يكون سوى تدعيما للنظام الاستعماري القائم، وكانت القاعدة

الأساسية لهذا البناء تتمثل في انتخاب جمعية جزائرية تتكون من مائة وعشرين عضوا، منهم ستون للناخبين من الدرجة الأولى، أي الأوروبيين حصرا من المواطنين كاملي الحقوق، وستون للناخبين من الدرجة الثانية أي للسكان الأصليين (الأنديجان)الذين ندعوهم "الفرنسيين المسلمين" ويكمن كامل الفرق في هذا النعت.

إنه التصور الغريب للديمقراطية أن يتفوق أقل من مليون ساكن يمثلهم منتخبون من الدرجة الأولى على ثمانية ملايين ساكن ممثلين من طرف منتخبين من الدرجة الثانية، أي أن صوتا أوروبيا واحدا يساوي ثمانية أصوات مسلمة.

وبعد انتظار طويل، تم أخيرا تحديد تاريخ الانتخابات. فقد تم اختيار بداية شهر أفريل 1948 وكنت واحدا من بين المناضلين المكلفين بالسهر على السير الحسن في الميدان.

وفي يوم الأحد المصادف للاقتراع، كنت متواجدا في مقر الحزب الشيوعي الجزائري في بونة (عنابة) حيث تم توزيع المندوبين في الصباح الباكر للتوجه إلى مختلف الأحياء لمراقبة الانتخابات والإطلاع على الكيفية التي تسير بها الأمور.

وكانت المكالمة الأولى من صديقين وصلا إلى (Duvivier) وهي مدينة صغيرة في العمالة أين كان الجميع يتوقع يوما انتخابيا "ساخنا" وربما أحداثا خلال فرز الأصوات. غير أن الأمر كان عكس ذلك، إذ لم تكن هناك انتخابات أكثر "هدوءا" من هذه وعلى بعد حوالي كيلومتر واحد من هذا التجمع السكاني، قام رجال الدرك والمخازنية بغلق الطريق ومنع ممثلي مترشحنا من الذهاب بعيدا، وبعد إصرارهم على كونهم مندوبين وتقديم التفويض الرسمي، هددهما رئيس المجموعة المكلفة بحفظ النظام بالتوقيف، مشيرا عليهم بعدم جدوى المزيد من النقاش لكون الانتخابات قد تمت بالأمس "حتى لا يعرقل مثل هؤلاء الأشخاص سيرها الحسن".

وفي المساء تم إعلامنا أن أحد شيوخ البلدية من قرية أخرى قد أمر رجال الدرك بطرد مندوبي جميع المترشحين باستثناء الرسميين أي الذين قدمتهم السلطات وتدعمهم.

وفي منطقة أخرى، حدث انقطاع في التيار الكهربائي عند غلق مكاتب الاقتراع ودام لفترة كافية إلى غاية استبدال الصندوق بآخر تم ملؤه مسبقا ببطاقات اقتراع (جيدة) وهكذا دواليك.

وغير بعيد عن مدينة الجزائر، قامت الإدارة بأكثر مما في وسعها، وفي القرى المعروفة "بالأرواح الشريرة" لا نجد فوق الطاولات غير أوراق اقتراع جماعة "بني وي وي". وكان خارج مقرات الانتخابات الجندرمة والشرطة والحرس المتنقل مسلّحين بالرشاشات يحمون الناخبين الذين يتم تفتيشهم بدقة قبل دخولهم إلى مكتب الاقتراع حتى يتأكدوا أنهم لا يخفون بطاقة أخرى في ثيابهم. وقد استخدمت نفس الإجراءات بطرق مختلفة في جهات أخرى من الوطن انتهت لسوء الحظ بمصائب.

ففي الدشمية (قرب Aumale في مقاطعة الجزائر) تردد بعض الفلاحين في وضع البطاقة التي فرض عليهم بالقوة وضعها في صندوق الاقتراع، وحاولوا بسذاجة وضع البطاقة التي اختاروها بأنفسهم عن حسن نية. لذا تدخل الحرس المتنقل "لردهم إلى جادة الصواب" بإطلاق النار وكانت النتيجة سبعة قتلى.

وحدث نفس الشيء بمكتب الانتخاب في قرية (Champlain) في الهضاب العليا القريبة من بوغاري وأدى إلى نتيجة مماثلة، حيث أطلق أعوان الأمن النار وقتل أربعة فلاحين، وفي بونة عنابة حيث كنت متواجدا جرى الدور الأول بصورة عادية، بسبب تردد بعض المأمورين في تنفيذ الأوامر القادمة من أعلى في مدينة مهمة مثل بونة.

ففي الدور الأول حل مترشح الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (لمصالي الحاج) في المركز الأول – 6544 صوتا مقابل 3174 صوتا لممثل الإدارة، غير أن هذا الأخير استدرك الأمر في الدور الثاني – بدون أن يهتم بما يفكر فيه الناخبون أمام ضمان عدم وجود عقاب.

ولم يحصل المترشح الوطني إلا على 96 صوتا، أما مترشح "بني وي وي" الذي فاز فقد تحصل على 16348 صوتا وهي نتائج تم تأكيدها رسميا من خلال نشرها في الجريدة الرسمية.

لقد كان بإمكان كل واحد قياس مدى التزوير والكذب والنفاق الذي كان يسود أولئك الذين استمروا في الجزائر وباريس في الحديث عن إقامة مؤسسات "ديمقراطية".

تم كل هذا تحت إشراف الحاكم العام مارسال إدموند (Marcel - Edmond) الذي حل محل (شاتينو) الذي يدعى (محمد شاتينو) من طرف المعمرين الذين كانوا يمقتونه بسبب كونه "أكثر ليونة مع العرب" أما ناجيلان (Naegelen)، فكان ينعت بأفضل الأوصاف بسبب "حزمه". فمنذ وصوله أعلن تحت تصفيقات رجال الصحافة عن إرادته في الضرب بقوة من أجل وضع حد للانفصاليين، وهو ما قام به بدون تردد ضاربا بالشرعية عرض الحائط.

لقد تعلم سريعا من محيطه المتكون من الموظفين السامين، الذين يعرفون "المستعمرة" أن العرب لا يفهمون إلا بـ "القوة" وحتى لو تعلق الأمر بقول العكس – أن الجزائر ليست فرنسا وأنه بإمكاننا القيام بالكثير من الأشياء، وحتى يظهر درجة قناعته، قام ليلة الانتخاب باعتقال واتهام 32 مترشحا من بين 59 تقدموا تحت ألوان الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية بتهمة "أعمال أو أقوال تمس بسيادة فرنسا".

لم يكن ذلك سوى مقدمة لأعمال أخرى، حيث تضاعفت أعمال الردع طيلة عهدته ومن بين المشاهد المذهلة ما حدث في سبتمبر1949 تلك الحملة العقابية ضد دوار سيدي علي بوناب بالقرب من مخيم الماريشال بالقبائل.

فلاح شاب يستدعى للخدمة العسكرية، يرفض الالتحاق بالثكنة ويصعد إلى الجبل، فهو معروف كمناضل وطني موضوع بحث من طرف الشرطة، لوحظ في الجوار، وتم الإبلاغ عنه من طرف مخبر، وكان ذلك عذرا كافيا لكي يقوم الجندرمة المدججين بالسلاح بهجوم على الدوار واعتبار سكانه متواطئين مع الرجل الهارب ليقوموا بفعلتهم: تهديم الأكواخ، إتلاف المؤن، تمزيق أكياس القمح والشعير، ثقب دلاء الزيت، إتلاف المواد الغذائية وخلطها بالبنزين.

ولاعتقادهم أن العقاب لم يكن كافيا، وحتى يكون درسا لهؤلاء الفلاحين غير المتعاونين.. جمعهم الجندرمة في ساحة القرية وأطلقوا عليهم وابلا من الشتائم وأشبعوهم ضربا بالهراوة والقيام بدفع النساء وشتمهن واغتصابهن ونزع ثياب أحد الشيوخ وإرغامه على الرقص عاريا أمام أعين سكان القرية تحت التهديد.

تنقل (بوعلام خالفة) مبعوث جريدة "الجزائر الجمهورية" إلى عين المكان صحبة العديد من الشخصيات منهم بيار فايت (Pierre Fayet) نائب شيوعي عن مدينة الجزائر للتحقيق في عين المكان، ثم روى على أعمدة الجريدة الأحداث المخجلة للحملة التي لم تكن الأولى في سجلات الجزائر المستعمرة.

وصف عامل عمالة مدينة الجزائر لاحقا تقرير الجريدة بـ "قصة متسلسلة" ورفضت الجمعية الوطنية التي عرضت أمامها القضية إيفاد لجنة تحقيق، وكان ذلك بطلب من جول موك (Jules Moch) وزير الداخلية الذي هب إلى نجدة (ناجيلان) صديقه في الحزب.

انتهت القضية أمام محكمة الجزائر التي حكمت على (بوعلام خالفة) بسنتين سجنا بتهمة القذف في حق الجندرمة والسلطات، وتم تأكيد الحكم من بعد الاستئناف وقد نجا من التوقيف لوقت قصير بسبب دخوله في السرية بعد انتفاضة نوفمبر 1954.

وفي 1951 وعلى إثر اكتشاف المنظمة السرية (OS) للتحضير للأعمال المسلحة بسنة قبل ذلك، تم الحكم على مائتين وستة وسبعين مناضلا من حركة انتصار الحريات الديمقراطية ومن بينهم (أحمد بن بلة).

تم سنة 1952 متابعة عشرين عضوا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري من مجموع 55 عضوا تتشكل منهم هذه اللجنة. وأعلن جهاز الحزب الشيوعي الجزائري بعد أقل من سنتين في أفريل 1953، عن بلوغ عدد الأحكام التي صدرت في حقه لأسباب سياسية 945 سنة سجنا و 570 سنة منعا من الإقامة.

بعد ذلك بقليل تم الكشف عن صورة أخرى من سياسة الردع التي تمارسها الحكومة على كافة الأصعدة وكذا ممثليها في مختلف الأقاليم، حيث تم حل بلديتي وهران وسيدي بلعباس التي كان يسيرها شيوعيان هما نيكولا زينتاتشي (Nicolas Zannettacci) ورونيه جوستاريو (René Justrabo) وذلك بطريقة تعسفية.

فما من يوم يمر عبر التراب الوطني إلا وتتخذ إجراءات تعسفية قوية حتى وإن لم يكن لها نفس صدى المحاكمات الكبرى، ضد جميع الذين يتجرؤون على التشكيك في أساليب الاستعمار والطرق المستعملة لتأكيد "سيادة فرنسا" وكانت جرائمهم تتمثل أحيانا حتى في مجرد تصريحهم بفكرة تؤخذ على أنها "انقلابية".

أما عن سبب توجيه التهمة فقد بلغ ذلك قمة المهزلة ولم يكن ذلك مهما، وعلى سبيل المثال تم سجن (طاهر عيادي) بناء على شكوى تقدم بها

المتصرف المحلي تفيد أن (الطاهر) نظر إليه عند التقائهما نظرة لم تعجبه اعتبرها وقاحة عن طريق النظر ويعمل (الطاهر) الذي حكم عليه بسنتين سجنا نافذا مدرسا لأصدقائي بـ Mondovi وهي قرية في الشرق القسنطيني.

لقد استبدلت عملي المتنقل كمدرب بعمل قار كسكرتير للتنظيم في الحزب الشيوعي الجزائري بمنطقة الجزائر، وكان يعمل معي عضوان دائمان، اللذان كانا في نفس الوقت عضوين أيضا في المكتب السياسي هما (أحمد محمودي) من البليدة يعمل في مستشفى الأمراض العقلية و(رشيد دالي باي) عامل بمطبعة باب الوادي، وكان هذان العضوان يعرفان مدينة الجزائر معرفة جيدة، مناطقها المختلفة، والورشات والمؤسسات، الأحياء والضواحي حيث يوجد للحزب خلايا ومجموعات منظمة وأعضاء يسيرونها.

وكنت معجبا بطريقة تعاملهما مع الحمالين في الموانئ وأغلبهم من المسلمين وكذا في خلية الحزب لمدينة الجزائر حيث لا نجد سوى الأوروبيين.

وتدعى الكاتبة على الآلة الراقنة (ماري روز سولبس) وهي أيضا كاتبة إدارية، شابة شيوعية في العشرين من عمرها من باب الوادي على غرار (رشيد دالي باي).

كان دورها في الممارسة اليومية أهم من ذلك بكثير، فبالإضافة إلى موهبتها في التنظيم كانت ذات روح سياسية عالية وصاحبة أراء سديدة جدا، لقد كنا نطلب رأيها ولا نتردد في التعبير عنه.

وفي الاتصالات مع العمال كنت الأقرب إليهم أكثر مما كان الأمر عليه مع الحركة الشبانية بخصوص الأهمية القصوى لحزب ثوري وضرورة ممارسته للديمقراطية وحرية النقاش واحترام قواعد التنظيم والعمل الجماعي والانضباط، بطريقة تختلف عن طرق القيادة التقليدية في المجتمع الاستعماري.

اقتنعت فيما بعد أنه لا المعرفة الضرورية بالنظرية ولا القناعة النضالية تكفيان لبناء قوة فعالة قادرة على الاستقطاب بدون انخراط آلاف الرجال في المعركة التحررية، وكنت أعتقد بأنني أملك كل ذلك وأنني تعلمته من النصوص ومن (لينين) ومن دورات تكوين الإطارات التي شاركت فيها، غير أن تجربتي وتجارب الآخرين علمتني كم من السهل نسيان هذه الحقائق الأساسية.

لقد كنا أنا و(جيلبرت) ومعنا ابننا الصغير (أندريه) الذي كان سيدخل المدرسة التحضيرية والذي كنت أقول أن أطفال الجيران لن يتأخروا في تسميته بالأشقر وهي كناية حملتها أنا نفسي قبل سنوات، نسكن في أعالي مدينة الجزائر في حي لارودوت (La Redoute) الذي أصبح يسمى اليوم "المرادية" أين كان يعيش المسلمون والأوروبيون دون قطع الصِلات الوثيقة بينهم ومنهم: الموظفون والعمال في مختلف المؤسسات.

كان بيتنا يتألف من غرفتين، واحدة (لأندريه) ولاحقا (لجون) أخوه الأصغر والأخرى كانت غرفة نوم وأكل في نفس الوقت، ولم تكن كلمة "مطبخ صغير" مستعملة بعد لكنها تنطبق على مطبخنا الذي لم يكن يتسع لأكثر من شخصين في نفس الوقت وكانت العمارة تتكون من طابق أرضي وطابق أول تعلوها قبة من الزجاج وتتكون من خمسة أو ستة شقق تشبه شقتنا المتواضعة جدا، لقد كان جميع سكانها من الأوروبيين ماعدا عجوز مسنة جدا كانت تسكن في غرفة في عمق الطابق الأرضي.

كانت ظروف سكان العمارة بسيطة جدا، كما كانوا أقل دراية بما يحدث حولهم في هذه الجزائر المحتلة.

كان (لاندريه) صديقان يلعب معهما أقل سنا منه وخاصة (روبير) الصغير ابن جارتنا الإيطالية المتزوجة من عامل في البناء، لقد كانت جد مؤمنة وأدركت أن ابننا لا يعرف عن الدين شيئا، لذا أخذت على عاتقها تعليمه

الديني وإنقاذ روحه، كانت تقدم له الدروس كما تلقتها في صغرها، أي تلاوة صلوات ودعاء بخضوع على الركبتين وبتوسلات للقديسين، وبينما كانت (جيلبرت) تنتظر انتهاء هذا الأمر وهي تحاول إفهام (أندريه) وإرجاعه إلى جادة الصواب بدون زجره، تألمت ذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة، عندما وجدت (أندريه وجون) الذي كان يبلغ عمره سنة ونصف وهو يرتدي لباس النوم راكعين على الأرضية الباردة، لتقوم بأخذ تعهد من (أندريه) بأن لا يؤثر على أخيه أو يفرض عليه هذه المشاق الليلية وأن يترك له "حرية الاختيار" وهو الذي لم يكن أحد يمنعه من الصلاة، وأنه إذا ما أراد القيام بذلك، عليه أن يقوم به في الصباح وفي ساعات أقل بردا أو في المساء ولكن تحت البطانية.

ولم يكن ذلك بالأمر الخطير، غير أن ما كان يخيفنا، هو تأثر عقل الطفل بالعنصرية العادية واليومية التي كانت تطبع المجتمع الاستعماري.

وفي المدرسة التي كان يذهب إليها (أندريه)، تم تقسيم ساحتها بالطباشير، جزء للأوروبيين وجزء آخر خاص بأبناء البلد الأصليين، وكانت هذه الممارسات العنصرية الواضحة بعيدة عن الممارسة ذات الطابع الجمهوري عموما لسلك المعلمين، وكانت أيضا لا تزعج مفتشية أكاديمية الجزائر ولا أولياء التلاميذ من الأقدام السوداء في الحي ممن يقبلونها كقواعد تعليم لا يمكن لهم التدخل فيها.

وقبل أيام من الدخول المدرسي، كانت المؤسسة تقوم بتسجيل أبناء الأوروبيين أولا لضمان مقاعد لهم، على أن تملأ الأقسام بأبناء المسلمين في حالة وجود أماكن شاغرة.

وهكذا نرى في يوم التسجيلات، طوابير من الأولياء ينتظرون أمام المدرسة منذ الفجر علهم يظفرون بمقاعد لأبنائهم ونادرا لبناتهم.

وكان هذا الأمر يحدث في "لارودوت" وهو حي في مدينة كبيرة ومكان متميز مقارنة بالقرى والمداشر الواقعة في التل أين لا يذهب معظم الأطفال إلى المدارس، أما أولئك المحظوظون في مزاولة الدراسة، سيتعلمون أن في فرنسا التي تعتبر "الجزائر جزء لا يتجزأ منها" يبقى التعليم مجانيا وإجباريا منذ عهد (جول فيري) كما يردده المعلمون. ويبدو من الواضح أن تحويل القوانين الدراسية الفرنسية لم يتسبب في مشاكل للغالبية الأوروبية حيث يدخل في سلسلة تحولات أخرى تندرج في خصوصيات أخرى شرعية كانت أم لا.. كالمنح العائلية والأجور وأهم من ذلك الحقوق السياسية التي تحكم العلاقات بين الأوروبيين والمسلمين.

كانت هذه الممارسات تهز مشاعر المعلمين الفرنسيين الذين وصلوا من مقاطعاتهم حاملين معهم الكثير من الأوهام حول الدور "الحضاري" للاستعمار، والذين انتهى بهم الأمر بالرغم من العقوبات التي تتهددهم في صفوف المعارضين للسيادة الفرنسية.

لم نصل بعد إلى جو الكراهية القصوى التي ستتمخض عنه الحرب، حيث ومنذ التعليم التحضيري كان كل شيء يحضر للحرب في القطاعات الثلاثة أين ينتشر هذا النوع من "العنصرية الفرنسية" حيث كان كل واحد مصنفا وفق رمز "قيم" غير مكتوبة لكنها موجودة فعلا.

كانت القيم الاجتماعية في تدهور تلين وتقوي السلوكات المبدئية، إذ لم يكن بالإمكان التصرف مع حمال وباشا آغا بنفس الشكل حتى ولو كان الاثنان "عربيا". وبالرغم من ذلك بقيت الصورة على حالها، في الأعلى نجد الفرنسيين الأصليين بداية من أولئك الذين يشهد اسمهم على انحدارهم من الضفة الأخرى من المتوسط، إذ أن تسمية دوبون (Dopont) تعني شهادة عن الأصل النبيل.

ضمن هذه الفئة نجد أولئك الذين ينحدر آباؤهم أو أجدادهم أو أسلافهم من إيطاليا أو أسبانيا أو مالطا أو اليونان والذين كان الفرنسيون الأصليون يلقبونهم لزمن طويل "الفرنسيون الجدد" أو حتى "فرنسيون بفرنكين وخمسة وسبعون سنتا" نسبة لثمن الطابع الجبائي الذي يضعونه على طلب التجنس. ونجد اليهود الفرنسيين بمرسوم بدرجة أقل وتحتهم في القائمة أبناء البلد الأصليين الذين ينعتون بـ"العرب" حتى ولو كانوا قبائل أو مزابيين.

وقد زاد هذا المناخ في نفسي نفورا، كنت دائما أحس به تجاه تصنيف الناس إلى مجتمعات عرقية أو دينية انطلاقا من جذور هوية خيالية وهي طريقة ملائمة لروح العصر في وقتنا الحالي، لكن وبدلا من توضيح الحقائق الاجتماعية، ينتهي الأمر إلى رفض تحليلها ولا تغطي عليها الحقائق الرئيسية المتمثلة في معارضة الطبقية.

وفي مشواري النضالي لاحقا، تحول هذا الحذر الطبيعي إلى نفور سياسي تجاه جميع الفوارق العرقية والدينية التي تتحول إلى عنصرية بربرية.

تعرف الإيديولوجية الصهيونية هذا الأمر وتحاول شرعنة الآلام التي تتسبب فيها للفلسطينيين المطرودين من بلادهم والإهانات التي يتحملونها والجرائم ضدهم كرد فعل عما عاشه اليهود خلال الحرب العالمية الثانية والاضطهاد الذي عرفوه على مر العصور.

لم تكن جارتي الإيطالية والسكان الآخرون يتساءلون كثيرا، بل إن ما كان يشغلهم هو في أي قطعة أرض يمكنهم سكنها، وكنا نصنف بصعوبة في مرتبة من المراتب التي كانوا يستعملونها كمرجع لتصنيف الناس، إن ما كان يفاجئهم هو تنوع الزوار الذين كانوا يقصدوننا ومن بينهم الكثير من المسلمين الذين كنا نوفر لهم المبيت أحيانا بالرغم من صغر حجم البيت.

كان بإمكانهم أيضا مشاهدة ضيوف يخرجون من بيتنا وقد حدث وإن شاهدوا كاهنا يرتدي جبته وهوالأب (سكوتو) مسيحي مناهض للاستعمار وتمت ترقيته لاحقا إلى أسقف قسنطينة.

كانت جميع هذه الأمور معاكسة للمعايير، كما لم يكن كذلك إطلاقا السلوك "السياسي" لطفلنا (أندريه) الذي لم يكن يبلغ بعد ثلاث سنوات من العمر. لقد كانت كلمة النظام المعادية للحاكم العام (ناجيلان تنحى!) التي ترددها فلول الجماهير في المظاهرات تستهويه عندما نصعد في الحافلة في طريق عودتنا من مظاهرة وكان يتساءل كيف يمكن السماح لهذا "الشرطي" الجالس في مؤخرة الحافلة، الصعود معنا وهو الذي كان يتصرف بوحشية خلال المظاهرة المساندة لإضراب عمال الترمواي الذي انتهى للتوه.

ومن بين معتادي الخط، هناك العديد من سكان الحي الذين يعرفوننا، وكان البعض ينظرون إلينا باحتقار ونظرتهم تعبر عن غضبهم علينا كآباء أصليين مثلما نظهر في أعينهم، أما البعض الآخر فكانوا مسرورين ويبتسمون للطفل المشاكس كنوع من التشجيع لمواصلة صراخه.

وبالفعل، كان جيراننا يعلمون بانتمائنا الشيوعي، وكانت الخلية التابعة للحي والتي تعمل بها (جيلبرت) نشيطة جدا.

وكانت تضم مسلمين وأوروبيين معظمهم من العمال وموظفين في البريد ومعلما اسمه بول كوصو (Paul Coussaud) وهو قائد حركة السلم، ونجد أيضا فلاحا كان يعمل في قطعة أرض ببئر مراد رايس البلدية المجاورة وكان اسمه (حويداش)، وكان أميا لا يعرف الفرنسية ولا العربية، غير أن ذلك لم يمنعه من التدخل في النقاشات سواء تعلقت بالقضايا السياسية أو بالنشاط الميداني للخلية.

وكانت له مسؤولية لا يشاركه فيها أحد وهي مهمة جمع وتغذية الحلزون في حديقته في الريف المجاور وذلك لعدة أشهر قبل تقديمه كوجبة في مأدبة بمناسبة الاحتفال السنوي لصحافة الحزب الشيوعي الجزائري.

وكان (حويداش) الملقب "بوزير الفلاحة" يقوم من حين لآخر بتقديم تقرير عن تطور نشاطه "لقد وصلنا إلى ستة كيلوغرامات" لقد كان الاختصاص المطبخي للفرع، مصدر دخل للخزينة، أما نقود الجريدة التي كان يخفيها في منديل مشدود، فقد كانت مقدسة بالنسبة إليه، قد يموت جوعا ولا يقوم بإنفاقها.

أما حجر أساس الخلية والمكلف بتنظيم وإنجاز الأعمال من تعليق اللافتات وتوزيع المنشورات ورفع الرايات فكان بيرو فيليان (Pierrot Vellien) عامل بمصلحة الصيانة ببلدية بئر مراد رايس وهو مناضل ثوري عرف السجن في عهد فيشي. يرتدي دائما بدلته الزرقاء المعهودة للعمل وكانت قبضة يده عند المصافحة تمثل اختبارا للقوة والقناعة.

كان يتكلم العربية بطلاقة، يوزع منشورات وجرائد الحزب الشيوعي الجزائري بدون كلل، وقد أصبح مثالا في الحي يعرفه الأوروبيون والمسلمون ومنهم أعضاء في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية الذين كان يتناقش معهم بحدة، لكن بكل روح أخوية.

لقد كنا نقطن بوسط حي (لاردوت) بموقفين بعد محطة القولف، في Clos-Salebier (المدنية حاليا).

وبالنسبة للحزب فالأمر يتعلق بفرع آخر وقد كنا نعرف مناضليه وعلى الخصوص (بايا علاوشيش) المسلمة الوحيدة في اللجنة المركزية للحزب لمدة طويلة إحدى مسؤولات إتحاد نساء الجزائر، والبعض الآخر منهم هنري مايو (Henri Maillot) عضو في إدارة إتحاد الشباب الديمقراطي الجزائري

وفرناند إفتون (Fernand Iveton) عامل خراط في ورشات الكهرباء والغاز الجزائرية وهما رجلان سيحتفظ تاريخ الجزائر باسمهما[1].

لقد تعرفت على (هنري) خلال انخراطه في الشبيبة الشيوعية ثم وجدته لاحقا في "الجزائر الجمهورية" أين كان يسير مصلحة المبيعات. كان شاب خجولا وقليل الكلام ولكنه فعال عند القيام بعمله.

عند اندلاع الحرب تم استدعاؤه كطالب ضابط في الجيش الفرنسي، وهناك استطاع بالتعاون مع إدارة الحزب الشيوعي الجزائري الاستيلاء على شاحنة أسلحة وذخيرة للسلطات تم استعمال جزء منها في تموين المحاربين من أجل التحرر الذين كان يسيرهم الحزب الشيوعي الجزائري في منطقة (Orléansville) وتسليم الباقي إلى المجاهدين في صفوف جيش التحرير الوطني.

وفي رسالة وجهها إلى الصحافة طبعت في منشورات يشرح (هنري مايو) سبب قيامه بهذا العمل "بصفتي جزائري من أصل أوروبي مناهض للاستعمار، كان من واجبي المشاركة في معركة شعبي". إن ما قام به بالرغم من تصريحه بأصله الأوروبي أبعد من أن يكون بمثابة "خيانة" كما ادعت الصحافة الاستعمارية آنذاك، بل أن ما قام به يخدم المصالح العميقة

(1) عضو المحاربين من أجل التحرير، حركة أنشئت من طرف الحزب الشيوعي الجزائري اندمجت في جيش التحرير الوطني (ALN) تم اعتقال (فرناند إفتون) بتاريخ 15 نوفمبر 1956 بمصنعه وعثرت الشرطة في خزانته على قنبلة كان ينوي تفجيرها بعد ساعات العمل حتى لا يحدث سوى أضرار مادية. بعد ذلك بدأت حملة هيستيرية ضد الشيوعيين واضعي القنابل بمشاركة شخصية للحاكم العام روبير لاكوست (Robert Lacoste) الذي قال انه كان بالإمكان أن تتسبب القنبلة في خسائر فادحة في مدينة الجزائر.
أما بالنسبة لحكومة غي موليه (Guy mollet) لقد كانت فرصة من ذهب، غذت خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة فرضية "مؤامرة شيوعية مصدر التمرد". تم إعدام (فرناند إفتون) بعد تعنيبه في 24 نوفمبر 1956 أي بعد تسعة أيام من اعتقاله، وتم رفض العفو عليه من طرف الرئيس رونيه كوتيه (René Coty) بموافقة فرانسوا ميتران (François Mitterand) وزير العدل آنذاك، وتم إعدامه في سجن باربروس يوم 11 فبراير 1957 مع مواطنين جزائريين آخرين: محمد ونوري واحمد لخنش.

للأوروبيين أنفسهم ويحفظ علاقاتهم المستقبلية مع الجزائريين موضحا أن جميع الأوروبيين مهما كانت أصولهم لن يكونوا متواطئين مع الاستعمار.

إنها الفكرة التي يتقاسمها الشيوعيون مهما كانت أصولهم، غير أن ما يدهش زملاءه هو جرأته على القيام بهذا الفعل وقد أسر لي أحدهم قائلا: "لم اكن أدري ابدا أنه يمتلك روحا بطولية" وكان تواضعه يخفي قوة شخصيته.

أما (فرناند إفتون) فكان غريبا عني بعض الشيء، لقد كنت أشاهده في اجتماعات الحزب أو بالصدفة في "الجزائر الجمهورية" أو في شوارع (لارودوت) كان رجلا متفتحا ومبتسما ومليئا بالطاقة والحيوية ومناضلا نشيطا في الصفوف الأولى للنضال النقابي والسياسي، وكان يرافق أحيانا أباه وهو عامل أيضا وكان مثله حميمي ومتفتح.

وهكذا كنا نعيش في صداقة أخوية، تملؤها الثقة العمياء في النتيجة الإيجابية للكفاح من أجل استقلال الجزائر والانتصار الأخير للثورة الاشتراكية، لكننا كنا مدركين لما يخفيه لنا المستقبل القريب.

وكنا نحس يوما بعد يوم بتزايد الغضب الشعبي وتنامي فكرة الثورة التي تمخضت عن الجزائر العميقة ولم نكن نتصور أنها وبعد فترة قصيرة ستنفجر في الشارع وأن حياة الكل ستنقلب رأسا على عقب.

وبدون أن نتوقع أنه بالنسبة للكثير من أصدقائنا سيكون ذلك آذانا لظهور الحقيقة والكفاح السري وغرف التعذيب والسجن والموت. هذه هي التراجيديا التي انتهت في جبال الونشريس وتحت الرصاص بالنسبة (لهنري مايو) وتحت المقصلة بالنسبة (لفرناند إفتون).

جريدة "الجزائر الجمهورية"

التحقت" بالجزائر الجمهورية" في نوفمبر 1950. وكان الاقتراح الذي عرض علي لأكون مديرا بمثابة المؤشر على تغيير هام في العلاقات بين الجريدة والشيوعيين. ولم تكن "الجزائر الجمهورية" بعد جريدة للشيوعيين، بالرغم من نفوذ أعضاء الحزب عليها الذي ما انفك يكبر. لقد تم اقتراحي من طرفهم وبالتالي لم يطرح ترشيحي أية مشكلة.

لقد أنشئت الجريدة في 1938 بعد وقت من صدور Oran républicain، بدعم من بعض الرجال التقدميين من أمثال البروفيسور شارل اندريه جوليان (Charles-André Julien) الذي يتولى الإشراف على اللجنة العليا المتوسطية التي وضعتها الجبهة الشعبية، وظهرت كصوت لليسار المعارض بقوة لكبار المعمرين ولسياسة الادارة التي كانت في خدمتهم، غير أنها لم تكن تذهب إلى غاية إعادة النظر في عقيدة "الجزائر فرنسية".

وقد ساهم اشتراكيون ونقابيون وشخصيات من السكان الأصليين وبعضهم من تيار جمعية العلماء مثل التاجر الغني (عباس تركي) وبعض الشيوعيين في تمويل العملية بتكوين شركة تعاونية، قامت بعد الحصول على مبنى بشارع كوشلان Koechlin بباب الوادي، بتنصيب الإدارة والتحرير في

الطوابق، ثم تهيئة الطابق المسروق لاستقبال المطبعة، قبل أن تتخذ بقية اللواحق مثل طاولة الرصاص واللينوتيب مكانها في الطابق الأرضي. وكان هذا العتاد يستخدم في السابق في إخراج يومية صغيرة في إحدى مدن مقاطعة فرنسية.

وبكثير من التفاؤل، قدر الذين اشتروا العتاد، أنه يمكن استخدامه في الجزائر بعد مراجعته وصيانته. وقد تم استخدامه فعلا وبمعجزة من خلال تجديده يوميا تقريبا.

ففي أحد الأيام تعرض نظام التبريد بالماء في الظاغطة إلى عطب، وفي مرة أخرى توقفت لفائف السحب عن الدوران بسبب ارتفاع درجة حرارتها وكان يجب انتظار أن تبرد. وكان (البير كامو) في فترة إطلاق الجريدة، يشغل منصب محرر وكانت مقالاته تعكس بصدق مواقف اليسار الأوروبي في الجزائر، وكذا مواقف المسلمين على غرار (فرحات عباس)، والمنتخبين "الانديجان" مثل الدكتور (بن جلول) الذي كان من أنصار الاندماج.

وكانت الجريدة تندد بالبؤس والظلم والتمييز الذي يتعرض له السكان الأصليون، وتهاجم كبار المعمرين، لكن ليس النظام الاستعماري في حد ذاته. وكان التعبير عن هذه المواقف يتم بوضوح في النداء (الثلاثي الألوان) الذي قدم كبرنامج سياسي في عددها الأول : " على الجمهوريين الحقيقيين قراءة هذه الجريدة ونشرها لأنها جريدتهم، إننا نعول عليهم في محاربة الامتيازات الصارخة لبعض العائلات والوقوف ضد معاداة السامية على الطريقة الألمانية، وضد نزعة التزمت الاجتماعي الرامية إلى الإبقاء على أصدقائنا من السكان الأصليين في مستوى أدنى.

وبالنسبة "للجزائر الجمهورية"، لن يكون هناك نوعان من الفرنسيين، بل نوعية واحدة تجمع بين الباريسيين والسكان الأصليين لباريس وسكان

مارسيليا الأصليين والعرب من السكان الأصليين للجزائر. ولهذه الأسباب وغيرها، ندعو إلى المساواة الاجتماعية العاجلة بين جميع الفرنسيين، مهما كان أصلهم ومعتقداتهم وفلسفتهم. إنه السبب الذي يجعلنا نطالب بالتوجه نحو المساواة السياسية للسكان الأصليين وبالتالي استفادة جميع سكان شمال إفريقيا من القوانين الاجتماعية ومن إجراءات المساعدة والنظافة التي يستفيد منها سكان فرنسا الكولونيالية.

انها لغة سخية، لكن لا علاقة لها بأية مطامح للجزائريين في التحرر من النظام الاستعماري واستعادة حقهم في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.

فقد جرى في عهد فيشي إسكات صوت الجريدة لتعود للظهور في فيفري 1943 بعد أشهر من الإنزال الأمريكي بتوجيهات واضحة "فرنسا حرة" أي فرنسا مناهضة للفاشية، لكنها كانت أكثر ترددا في إثارة المشكل الوطني الجزائري.

وفي نهاية الأربعينيات وخاصة منذ 1947 بدأ صوت وخط الجريدة في التحوّل. وكان الشيوعيون أقلية ضمن إدارة التعاونية المؤسسة والمالك للجريدة، التي بدأت تواجه مشاكل مالية يصعب تجاوزها بدون مساعدة خارجية، وهكذا توصلت إلى اتفاق مع الاتحاد الفرنسي للإعلام وهو في نفس الوقت وكالة إعلام وهيئة مكلفة بمساعدة تسيير اليوميات الشيوعية أو تلك الناشئة عن المقاومة.

وبمقتضى هذا الاتفاق تولى كارل اسكور (Karl Escure) أحد قدماء التعدين في مدينة ليون الذي تحول إلى صحفي في جريدة l'Avant-Garde لسان حال الشبيبة الشيوعية. الفرنسية ومجلة Regards خلال المعارك من أجل اسبانيا الجمهورية، إدارة اليومية.

وصل في جويلية 1947 إلى بلد ومدينة كانا مجهولين بالنسبة إليه، وإلى غاية تلك اللحظة وقبل ذلك بسنتين، خرج بأعجوبة حيا من المعتقل النازي بالقرب من (Leipzig).

قبل أيام من تحريره، أين قام رجال هتلر المكلفون بحراسة المساجين بالإبقاء على هؤلاء في أقفاصهم وإغلاق النوافذ حتى يمنعوهم من النظر نحو الخارج، ثم أطلقوا الرصاص عليهم وكانت الرصاصات تخترق الألواح الرهيفة للكابينات بسهولة تقتل وتجرح الناس الذين كانوا واقفين، قبل أن يشعلوا المبنى مثلما يشعلون مصباح..

مات المساجين الذين انبطحوا تحت أسرّتهم تفاديا للرصاص، اختناقا أو حرقا أما الآخرون الذين حاولوا الهرب من المجزرة، فقد تم القضاء عليهم بقاذفات اللهب من طرف جنود هتلر (SS) وعندما دخلت القوات الأمريكية أخيرا إلى المعتقل، لم تجد غير رماد الكابينات وقطع من الأشلاء البشرية وعظام محروقة ملتصقة بالأسلاك الشائكة وجثث عارية من اللحم مثقبة بالرصاص. ولم ينج إلا عدد قليل من الأشخاص من المحرقة ووابل الرصاص ومن بينهم (ايسكور).

يكتشف (كارل) في الجزائر، المقر الجديد للجريدة، حيث توجد جريدة la Dépêche algérienne الممنوعة من الصدور بمقتضى القوانين المصادق عليها من طرف البرلمان الفرنسي ضد الصحافة المتعاونة والتي تم طردها.

وكانت "الجزائر الجمهورية " (Alger républicain) تحتل الأماكن منذ نوفمبر1946، هذا وغيرت الإمكانيات الجديدة التي توفرها المقرات الجديدة الأكثر ملاءمة للطباعة، وخاصة المطبعة وعتاد الطباعة المتطور الذي وضع تحت تصرفها، بشكل كلي عمل المحررين والجريدة في حد ذاتها : "فالانتقال من المطبعة ومكاتب شارع (كوشلان) إلى مطبعة ومكاتب la Dépêche algérienne سابقا، هو مثل استبدال حمار بحصان عربي أصيل".

قال لي ذات يوم (بوعلام خالفة) الذي كان في البداية موعودا بمسار في سلك التعليم وانتهى في الأخير كمحرر في (كوشلان) وعاش جميع هذه التغييرات. كان من أنصار حزب الشعب الجزائري (PPA) ووطنيا في بداياته

الأولى، الا أنه انخرط في الحزب الشيوعي الجزائري، عندما أكد هذا الأخير وبقوة نواياه إزاء استقلال الجزائر.

وعلى مدار هذه السنوات تدرب في نفس الوقت على العمل السياسي وعلى مهنة الصحافة التي انتهى بإتقانها جيدا، وكان يكتب بلغة واضحة ومحددة ومختصرة، كثيرا ما تتميز بالعاطفة والمرح، ففي الوقت الذي التحقت "بالجزائر الجمهورية" كان يصغرني بعدة سنوات، ويفوتني بالأحرى في المهنة، ليصبح لاحقا أول "مسلم" يحتل منصب رئيس التحرير في يومية، واحد من "السكان الأصليين" رئيسا للتحرير فلم يحدث هذا من قبل ويؤدي إلى صرير الأسنان في الجزائر الاستعمارية التي تعتمد كمبدأ مفاده أن "المهن النبيلة" ومناصب القيادة، لم يكن مسموحا بها للعرب، وكما علمت لاحقا، لم يكن بعض الأعضاء في مجلس الإدارة القديم "للجزائر الجمهورية" ينظرون بعين الرضا لهذه الطريقة في رؤية الأشياء ولم يكن أي منهم قد تجرأ علنا عن إبداء تردده.

وبصفة غير مباشرة، كان البعض قد أبدى تخوفه من انعكاسات «سلبية بالضرورة» على القارئ الأوروبي، وهو قرار يذهب في الاتجاه المعاكس لجميع المعايير الجزائرية في تلك الفترة.

بدا هذا التوقع خاطئا بصفة كلية بخصوص ترقية (خالفة) الذي أصبح بتوقيعه وخصاله جد معروف كصحفي وبالتالي لا تشكل أية عقبة لدى القراء.

وفي السنوات اللاحقة وإلى غاية منعها من الصدور، تعرض توزيع "الجزائر الجمهورية" بالفعل إلى بعض التراجع لدى الأوروبيين في الوقت الذي لم يتوقف عن التزايد لدى المسلمين، وذلك بسبب خط الجريدة وتوجهها لتصبح «وطنية» يوما بعد يوم وأكثر نضالية، في مواجهة تكالب السلطات الرامي إلى الإبقاء على حالة الاحتباس ومناخ الرعب الذي تغذيه.

وفي أول فيفري 1951، أعلن بيان مقتضب عن تغيير في إدارة الجريدة، وهكذا عينت أنا شخصيا خلفا (لكارل إسكور)، الذي عاد إلى فرنسا وساعدني لمدة ثلاثة أشهر على التأقلم مع المهام التي كانت تنتظرني.

ولم يكن تعييني مجرد استخلاف مثبت بآخر قادم "للجزائر الجمهورية" قدم الكثير، وساهم في جعلها جريدة عصرية. في حين لم يقدم نفسه إطلاقا على أنه رجل عابر جاء لمساعدة أصدقائه الجزائريين قبل عودته إلى فرنسا التي تبدو على الأقل مبرمجة، وانطلاقا من ذلك.. كانت علاقاته مع الجزائر والجزائريين علاقات ودية وبقيت نوعا ما غير متوترة، كانت تظهر بالنسبة لي شيئا مختلفا، وعلى عكس الذين سبقوني على رأس الجريدة، لم أكن في مهمة مؤقتة، لقد كنت مناضلا ملتزما في النضالات، ومساهما في تحقيق آمال الشعب الجزائري، لم تكن لي في حياتي المهنية والسياسية آفاق أخرى غير الآفاق الجزائرية.

كانت مسؤوليتي الجديدة تملأني فرحا، وبدا لي أن التجربة والمعارف التي اكتسبتها وحصلتها خلال سنوات تخدمني الآن بشكل جيد، وقد كنت أرى منذ زمن بعيد، أن القوة الفعلية ليومية وخاصة في ظرف لم تكن فيه التلفزة معروفة وأجهزة الراديو التي كنا نطلق عليها TSF مقتصرة على أقلية، مثلما هو الشأن في الجزائر، إنها آلة عجيبة لغسيل المخ والاستعباد الإيديولجي عندما تكون في خدمة الأسياد، وأداة هائلة للتربية السياسية والتجنيد الشعبي حينما تكون بين أيدي الرجال الذين لا يملكون طموحا غير خدمة قضية عادلة.

كان يتعين على "الجزائر الجمهورية" القيام بدورها هذا، فقد كانت الوحيدة التي أفلتت من احتكار الصحافة اليومية التي يمتلكها كبار المعمرين، إنها الجريدة الوحيدة التي يمكنها أن تتعرض يوميا للحقيقة المرعبة التي تختفي وراء التسمية الكاذبة لـ "للعمالات الفرنسية الثلاث" إنها الجريدة الوحيدة التي نددت باستعباد وتخلف البلد، وهي الوحيدة أيضا التي ساهمت بفعالية في جمع القوى الشعبية قصد التخلص من نظام غير متسامح يسد الطريق أمام أي تطور.

وقد بدا لي أيضا أن وجودي في الجريدة ومن خلالها أستطيع أن أقدم مساهمة أكثر في إحياء قضية بين الشعب الجزائري وشعب فرنسا، زيادة عن الانتصار النهائي للاشتراكية، قضية تعطي بنظري مفهوما للحياة يستحق كل التضحيات. ومنذ أن بدأت النضال، لم أتوقف إطلاقا عن الكتابة، وفي غالب الأحيان تحت اسم مستعار "علاق" (Alleg) الذي تبنيته منذ عهد السرية ولكن أيضا تحت أسماء أخرى : "ماجييه" (Magier) "بن سالم" وغيرها.

كنت أكتب افتتاحيات، وأعمدة ومقالات حول مواضيع خاصة كنت استلهمها من أسفاري عبر البلاد، المظاهرات، الإضرابات والأنشطة الشعبية المختلفة التي كنت شاهدا عليها أو شاركت فيها. وفي أغلب الأحيان كانت أسبوعية Liberté التابعة للحزب الشيوعي الجزائري هي من تطلب ذلك وتنشره. وقد بلغ الأمر أحيانا أن أقدم لها مقالا، قد لا يكتسي صفة السبق، بل كان يعتبر استثنائيا ولافتا للنظر، لقد ذهبت للمشاركة في اجتماع بذراع الميزان، قرية كبيرة في القبائل عشية الانتخابات البلدية، وبدون سبب مميز، باستثناء ذلك المتمثل بطبيعة الحال في تخويف السكان وتحضير مناخ استفتاء مقبل، قام دركيان بإيقافي والزج بي في السجن، بسبب مراقبة مزعومة للهوية ليستمر سجني لمدة ثلاثة أيام، إلى غاية قيام أصدقائي بالجزائر الذين تم إشعارهم بالتدخل لإطلاق سراحي.

لقد تم سجني في قاعة عارية ووسخة، يتمثل الأثاث الوحيد فيها في بعض الأفرشة من الحلفاء ملقاة على الأرض، وكان أغلب المساجين الذين يتواجدون هناك وعددهم حوالي (خمسة عشر) من الفلاحين المتهمين بقطع الخشب لاستخراج الفحم وبالتالي الاعتداء على قانون الغابات، أو بسبب رفضهم القيام بتسخيرة فرضها القايد عليهم، وكان من بين هؤلاء اثنان أو ثلاثة من المناضلين الوطنيين الذين التحقوا بالجبل هروبا من رجالات الجندرمة، وقد أحطتهم علما بشخصيتي ومن أكون وقد استقبلوني كصديق.

وطيلة يوم كامل، استطعت مساءلتهم واستجوابهم إلى غاية اللحظة التي قرر فيها رئيس الحراس، وبدون شك بأمر من أعلى، القيام بعزلي في زنزانة ذات تهيئة أكثر بدائية من تهيئة القاعة التي كنت فيها، حيث لم يكن بها حتى حنفية للماء، لقد كنت قد استقيت الكثير من العناصر الإخبارية لإنجاز مقال مفيد إلى درجة أنه عند ظهوره، طلب مني البعض عما إذا لم أكن قد طلبت طوعا إيقافي من أجل كتابة ذلك المقال.

كنت بصدد التطوع كلية لهذا الشغف بالكتابة، الذي لا يعادل عندي السعادة الهادئة لمكتب للمؤلفين، بل نشاط مناضل صحفي يعمل في يومية، ويساهم كلية وفي كل لحظة في حياته، في المعركة الكبرى للرجال. ولم يكن طموحي الكبير، مخاطبة شلة من ذوي الامتيازات، بل أن يفهمني أكبر عدد من الناخبين من الذين لم تكن الفرنسية لغتهم الأم، ممن لم يمكنهم النظام إلا من تمدرس قصير الأمد، أو ممن يقرؤون الجريدة بواسطة شخص آخر. لذا كنت اكتب لأشخاص بدون تعليم يذكر، لكن من ذوي الحساسية السياسية العالية وعلى قناعة كبيرة تعكس تعطشهم الاستثنائي لفهم الأسباب العميقة لاستعباد شعبهم واكتشاف طرق الحرية. ولم يكن (بوعلام خالفة)، (عبد الحميد بنـزين)، الذي أتى لاحقا، أو (كاتب ياسين) مؤلف "نجمة" الذي لا ينسى، يفكرون بشكل مغاير.

فالمحررون الذين ساهمت في توظيفهم بالرغم من ضعف أدائهم اللغوي والمصطلحاتي والنحوي، وطريقة النطق والذين تكوّنوا بمرور الوقت، قد انخرطوا في هذه المعركة "باختصار" وهو ما يفسر بكل وضوح وتواضع وجود رجال أمام حقائق مؤلمة للوجود الاستعماري. فالكل يعلم أن الخطر يقربهم أكثر مما قد يقرب قارئ صحف "الجزائر الجمهورية"، لم يفهم مقاله، بسبب الكلمات المستعملة التي كانت غير معروفة لديه.

ففي عمق الأشياء، وعلى مستوى الخط العام للجريدة والموقف السياسي الذي يتعين اتخاذه، بخصوص مسألة معاصرة معينة قد تظهر، كان الاتفاق يتم بدون صعوبة تذكر وبدون اللجوء إلى تعليمات توجيهية من الخارج. لقد كان المتفق عليه أن "الجزائر الجمهورية" لن تكون ولا يتعين أن تكون جهازا للحزب، بل جريدة جميع المناهضين للاستعمار، مهما كان أصلهم أو انتماؤهم السياسي أو الديني.

كنا (خالفة) وأنا نشارك في اجتماعات المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري، فلا مسائل توجيه الجريدة ولا تلك المتعلقة بمحتوى المقالات كانت تطرح للنقاش في هذه اللقاءات. لقد كان من المتفق عليه أن من يتولون تسيير الجريدة يملكون كامل صلاحيات تسييرها سياسيا وإداريا.

وقد يحدث أن يتوجه عضو في الحزب الشيوعي الجزائري اليّ أو غيري من المسؤولين عن الجريدة لنقل معلومة أو القيام بانتقاد أو إبداء اقتراح، ولم يكن ذلك إطلاقا في شكل تعليمة فوقية، وفي بعض الأحيان، تصلنا ملاحظات من مسؤول في حزب وطني أو بعض سكرتيري النقابة. كما قد يحدث أن نرفض اقتراحا يبدو لنا منافيا لخط الجريدة، لقد وقع سوء فهم بمناسبة الإعلان عن تجمع كان مبرمجا من طرف الحزب الشيوعي الجزائري منذ زمن طويل، بمشاركة مدعو مشهور اندريه مارتي (André Marty)، نائب عن باريس ووجه أسطوري في الحركة الشيوعية، وكان قد سبق للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري إن قرر بصفة متأخرة، الدعوة إلى اجتماع عمومي في نفس اليوم ونفس الساعة.

إن تزامن انعقاد تجمعين كبيرين، يمكن أن يعني فشلا مزدوجا، لقد كانت مبادرة المنظمة الوطنية جد مزعجة، ولم يكن مردها بلا شك إلى مجرد «خطأ» بل على ما يبدو إلى إرادة معلنة لبعض قادة البيان، لتقليص عدد المشاركين في التجمع الشيوعي، وإضعاف صداه، إنه "تخريب!" يقول

(مارتي) باستياء. ولم يكن مخطئا ربما، غير أن غض النظر عن تجمع وطني يذهب عكس الموقف الموحد للجريدة، لذا تم نشر البيان المعلن عن تنظيم هذا التجمع. لقد وضع هذا الإعلان (مارتي) في حالة هيجان، غير أننا أصررنا على أننا على حق بالتصرف بذات الطريقة.

ولقد استعاد هدوءه لاحقا، وخاصة بعد حفلة استقبال جد ناجحة نظمت بمقر "الجزائر الجمهورية"، سمحت له بلقاء بعض الشخصيات من أصدقاء البيان المقربين من (فرحات عباس) الذين قدموا له تحية ودية.

ولم يعد ثانية حول هذه الحادثة، وربما يكون قد استخلص العبرة، أن القرارات لم يكن من السهل أبدا اتخاذها في بلد بهذه الدرجة من "التعقيد".

وكانت المعركة المتواصلة التي يخوضها فريقنا من أجل خلق علاقات أفضل مع الأحزاب الوطنية، وجمع أكبر عدد ممكن من المناهضين للاستعمار، تصطدم أيضا بحالات من سوء الفهم. وكان بعض القراء قد عبروا عن غضبهم من رفض الجريدة الدخول في جدالات، قد تظهر على سبيل المثال بين الوطنيين والشيوعيين، وخاصة بمناسبة الحملات الانتخابية. وجب القول أنه بالرغم من هذه الانتقادات النادرة نسبيا، أبقت "الجزائر الجمهورية" على خطها، وكنت من بين الذين يسهرون على ذلك بغيرة.. ولم يكن ذلك بموقف أملته عقلية الانتفاع بل من منطلق الحرص على مد القراء بمختلف الآراء.

كنت أفكر ببساطة على غرار بقية أعضاء الإدارة أن مهمتنا الأولى تكمن في المساعدة على تجميع مجمل القوى التقدمية، وللقيام بهذه المهمة، كان على الجريدة أن تسمح لمختلف الاتجاهات بالتعبير، وبالتالي السهر على أن لا تتحول أعمدتها إلى مجال مغلق للتناقضات والجدالات الحزبية، ولم يكن ذلك يمنعنا من عرض أفكارنا والدفاع عن قناعاتنا التي لم يكن من الوارد إخفاؤها أو تمويهها.

وحتى ولو أنها لا تتوافق مع قناعات هذه الحركة أو تلك، لكننا كنا نجتهد في القيام بذلك بدون أن ننسى ضرورة الحفاظ على الروابط القائمة وتدعيمها بين الجريدة وحلفائها. لقد كانت" الجزائر الجمهورية"، تتجه إلى الأوروبيين، بالتركيز على كون مصالح أغلبيتهم كانوا أجراء أو صغار تجار لا تتوافق مع مصالح أصحاب الملايير والمستبدّين وكون هؤلاء لن يقبلوا أن تحفظ المطامح الوطنية والاجتماعية للجزائريين،لا مستقبلهم ولا مستقبل أطفالهم في بلد يحبونه وينتمون إليه. إنه مفهوم يعارضه في تلك الفترة على الأقل، جزء من الوطنيين وخاصة أتباع (مصالي الحاج) وحزبه. لقد كانت الجزائر بالنسبة لهم منذ قرون أمة تتشكل من عرب ومسلمين، من ذلك تطورت لديهم منذ وقت طويل فكرة أن جميع الأوروبيين، معمرين أغنياء كانوا أم عمال مصانع، موظفين كبارا أو صغارا "يوضعون في نفس المرتبة" لأنهم مهما كانوا مع أو ضد، هم المستفيدون من النظام الاستعماري. إنه مبرر انتهى قادة جبهة التحرير الوطني إلى إهماله في الوقت الذي استعاده (فرانس فانون) لحسابه على النقيض.

لم تتأخر "الجزائر الجمهورية" في الإشارة في كل مناسبة إلى الارتباط الوثيق بين النضالات الجارية من طرف بلدان أخرى خاضعة للهيمنة الخارجية، وبين النضالات التي يخوضها الشعب الجزائري، مشيرة على سبيل المثال إلى موقف عمال موانئ الجزائر الذين يرفضون التعامل مع البواخر المحملة بالأسلحة الموجهة إلى الفيتنام أو حتى الاشتراك في الحملة التي أطلقت في فرنسا من أجل تحرير هنري مارتان (Henri Martin) البحري الشيوعي الذي حكم عليه بخمس سنوات سجنا من أجل معارضته للحرب الجارية ضد الشعب الفيتنامي. ولم يكن ذلك يروق بعض المسؤولين النقابيين، في الوقت الذي كان يقوم فيه أعضاء من حركة انتصار الحريات الديمقراطية بضغوطات بالرغم من كونهم أقلية، في الاتجاه المعاكس.

فالأهم بالنسبة لهم مثلما يقولون، خوض المعركة من أجل مطالب اجتماعية جزائرية محضة ويطالبون العمال بعدم الانصياع للمناورات الشيوعية التي تهدف إلى تحويلهم لأسباب غريبة عن المصالح الجزائرية.

فقد برزت بسبب قصر النظر هذا، مبررات قديمة مناهضة للشيوعية سيكون لها خلال حرب التحرير انعكاسات مأساوية كان يعبر عنها بطريقة أو بأخرى بوضوح عندما وجهت الجريدة نداءات من أجل مشاركة أوسع في الحملات الدولية من أجل الدفاع عن السلم العالمي من خلال منع الأسلحة النووية وضد مشروع المجموعة الأوروبية للدفاع وضد الحرب الكورية ومختلف تدخلات الولايا ت المتحدة الأمريكية في أمريكا اللاتينية وغيرها، وكان الزعماء الوطنيون يتظاهرون بعدم الاستماع أو الاستجابة بتردد.

وبالنسبة للذين عرفوا مثلي النقاشات التي ظهرت غداة الإنزال الانجلو ـ أمريكي، فإنه لمن الحقيقي أن تستمر الكثير من أوهامهم حول الدعم الذي يمكن للجزائر أن تتلقاه من أمريكا التي أعلنت نفسها بطلة للديمقراطية والحرية واستقلال الشعوب.

وعلى مدار أشهر، لاحظت التصريحات العلنية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري التي تتجه أحيانا إلى أن تصبح قريبة من المواقف التي ما انفكت الجزائر الجمهورية تدافع عنها، وهذا أمام الارتياح الكبير لفريقها الذي يشعر أن محتوى الجريدة وتأثيرها المتزايد في الرأي العام، قد ساهما في تغيير هذه المواقف.

بصفة عامة. فقد تأثرت للنوعية الجديدة للعلاقات التي كانت بصدد النشأة مع هذه الأحزاب وخاصة مع مسؤوليها من خلال المقابلات والتصريحات التي تجد مكانها أكثر فأكثر في الجريدة.

وفي 1951 وللمرة الأولى توجه وفد عن حركة السلم يضم وطنيين وشيوعيين وتقدميين أوروبيين إلى المؤتمر العالمي للسلام الذي عقد في فيينا وتحدث بصوت واحد. وندد التصريح المشترك الموقّع من طرف كبريات المنظمات الوطنية، على سبيل حركة انتصار الحريات الديمقراطية، الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، الحزب الشيوعي الجزائري، جمعية العلماء، الكونفيدرالية العامة للعمال بالقمع المسلط على مناضليها وبالحجز الذي تتعرض له منشوراتها مثل "الجزائر الجمهورية" التي ما انفكت تتعرض أيضا بصفة ملحوظة للحجز، المرادف للتقدم الذي تحققه.

وفي شهر أوت من نفس السنة، استقبل الجزائريون كوعد وأمل تشكيل الجبهة الجزائرية للدفاع واحترام الحريات التي تجمع جميع الأحزاب المناهضة للاستعمار، وبدا أن مرحلة حاسمة من أجل إنجاز اتحاد ضروري طال انتظاره قد تحققت. لقد كنا ندرك، أن ذلك كان انتصارنا أيضا ولو جزئيا، فقد أصبحت "الجزائر الجمهورية" نوعا ما الناطق شبه الرسمي لهذا التجمع. لقد كنت في قاعة سينما "دنيا زاد" من بين السبعمائة مندوب جاؤوا من جميع أنحاء الجزائر نتيجة هذا النجاح. كنت أتقاسم حماسهم وآمالهم وأصفق للشيخ (العربي التبسي) مسؤول جمعية العلماء التي كان يترأسها وحيث توجهت كلماته الأخيرة للأوروبيين وكانت بمثابة حدث جديد:

"إن هذه الجبهة، لا تسأل أحدا عما إذا كان مسلما أو مسيحيا أو يهوديا، إنها لا تطلب غير هذا : هل قررت أن تناضل من أجل الحق وأن تحارب من أجل الحرية ".

"إننا لا نفرق بين الجزائريين من حيث المولد والأصل ولا نفرق بين فاطمة وماري.. أنتم جميعا جزائريو المولد أو بالتبني، سواء من الجيل القديم أو الجديد، أنتم موحدون وهذا أمر جيد.. إذ أن الاتحاد هو القارب المؤدي إلى النجاح.. أحبائي الناخبين من المدرسة الأولى كاثوليك، أو يهودا

كنتم، تأملوا وتفهموا وضعية الجزائر! اعملوا على انتصار الديمقراطية وتعاليم الرسل وليس تعاليم الاستعمار، إن فاشية وعنصرية وأنانية السياسيين مسائل زائلة ولن تبقى غير الشعوب وحدها...".

غير أن الأفكار الشجاعة وحتى لو تم التعبير عنها بالأسلوب الشعري للشيخ (العربي التبسي)، كان يتعين أن "تختفي" بعد سنوات لاحقا، إذ تم اغتياله من طرف احد مضليي الجنرال (ماسيو) أو من طرف قتلة " الجزائر فرنسية" وهو ما لا يغير شيئا في الحقيقة.

ولم يسمع الأوروبيون الذين وجهت اللجنة هذا النداء شيئا منه، لقد كانوا مرعوبين بتزايد حدة الكفاح في تونس، وبالأعمال الدموية المترتبة عنه التي تستغلها الصحافة الاستعمارية قصد توجيه إنذاراتها، إذ سرعان ما اقتنع أغلبيتهم أن الإبقاء على الاستعمار يشكل حبل النجاة الوحيد لهم. ففي الكوليدج الأول لمدينة الجزائر وخاصة باب الوادي، خسر الحزب الشيوعي الجزائري 47 من الأصوات بين انتخابين متباعدين بستة أشهر تقريبا (بين جوان 1951 وجانفي 1952).

"ومهما تكن هذه الخسارة المؤسفة يعلق (العربي بوهالي) سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري، يجدر التذكير أن الحزب يتعين أن تكون له قاعدة أساسية تتكون من العرب البربر. إنهم بحكم وضعيتهم السياسية والاقتصادية أكثر صرامة وأكثر وفاء في الكفاح من أجل التحرير (...) فالطريق إلى الاستقلال لم يكن مزروعا بالورود. عندما نرى حجم انفجار قوة الغضب الجماهيري في البلدان المضطهدة مثل تونس، فانه لا يمكن أن يخطر على بال أي إنسان أن الجزائر واحة للهدوء..".

وعلى غرار رفاقي، كنت أشعر أنه بالرغم من جو الثورة المتولد عند المناضلين من خلال إنشاء الجبهة الجزائرية التي سنعرف حدودها قريبا، كان الوضع يتجه أكثر فأكثر نحو الخطورة بسبب الرفض المتعنت لباريس في عدم الاستماع إلى المطالب الوطنية والاستجابة بطريقة أخرى غير القمع.

وخلال الأشهر التي سبقت ولحقت انتفاضة نوفمبر 1954، تزايدت الصعوبات التي كان يتعين مجابهتها في الغالب، لقد كانت" الجزائر الجمهورية" على الدوام فقيرة. غير أن "الأحداث" وهي كلمة تهز مشاعر الصحفيين في (Echos, Dépêches) الصادرة في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة أصبحت تساهم في جعل وضعيتها المالية أكثر هشاشة، فكل صباح تقريبا وحتى قبل التطرق للمهام الروتينية لإخراج الجريدة كان اهتمامي يتجه لدراسة كيفية مواجهة الالتزامات المالية اليومية مع جاك صالور(Jack Salort) المتصرف الإداري، ومراقبة بالتالي ما إذا كانت لها أموال كافية في الصندوق لدفع مستحقات طباعة الجريدة لليوم الموالي.

فقد تلقى مدير المطبعة التي أصبحت تسحب فيها الجريدة - الفرع العاصمي للشركة الوطنية لمؤسسات الصحافة (SNEP) التي تتولى تسيير المباني والمطابع التابعة لصحف فيشي المحظورة - أوامر يتعين عليه تنفيذها حرفيا، الدفع نقدا ولا ساعة تأخير في تسليم شيكات الدفع، تلك كانت القاعدة.

وفي حالة حدوث العكس، يعطي الأمر بوقف العمل في المطبعة، مما يتسبب في تأخير صدور الجريدة بما يترتب عن ذلك من انعكاسات على إرسالها وتوزيعها.

وكان هذا الشخص قد احتل منصبا متواضعا كمحاسب في "الجزائر الجمهورية" قبل الحرب وكأنه يريد أن ينسى هذا التواطؤ القديم بإعلان موقف صارم إزاء المديرية الجديدة للجريدة. وبالفعل، فالرجل تربطه علاقات مع مالك (Journal d'Alger) جورج بلاشيت (Georges Blachette) المدعو "ملك الحلفاء" التي كان يحتكر إنتاجها، فهو رجل ملياردير ونائب عن الجزائر وله طموح بالتواطؤ مع أصدقائه السياسيين المنتفذين في الجزائر وفي باريس في إخراج الجريدة التي يمولها في المكان الذي

تخرج فيه جريدتنا في المبنى والمطبعة التي تمت استعادتها من جريدة la Dépêche algérienne سابقا والتي تتولى تسييرها الشركة الوطنية لمؤسسات الصحافة.

وهناك خطر آخر قائم يتمثل في إدارات (الضرائب والرسم الوحيد والضمان الاجتماعي) وهي المؤسسات التي لها ديون على "الجزائر الجمهورية" على غرار بقية الصحف. وبالرغم من الاتفاقيات المبرمة التي تمنحها آجالا، فان هذه المؤسسات وبناء على تعليمات شفهية من الحكومة العامة، يمكنها أن تشترط الدفع الفوري. وفي حالة عدم القدرة على الوفاء، يتم اعتبار الجريدة في حالة إفلاس.

وفي جويلية 1953 وبتواطؤ مع روجيه ليونارد (Roger Léonard) الحاكم العام، وبدعم من أرباب اليوميات الاستعمارية ومدير المطبعة، تم تدبير مؤامرة حقيقية للتخلص مرة واحدة من «الجريدة الممقوتة» وهو تعبير لأحد كبار الموظفين من محيط الحاكم العام.

وبدون إشعار مسبق، قطع مختلف مدراء الإدارات الاتفاقيات المبرمة معهم وطالبوا بتسوية المبالغ المستحقة على الجريدة (ثلاثة ملايين فرنك لتلك الفترة وهو مبلغ كبير بالنسبة لخزينتنا). وذلك في ظرف ثمانية وأربعين ساعة، وفي حالة عدم الدفع، سيتم الحجز والتوقف عن الصدور.

وقبل ذلك بأيام، قام عمال الكتاب ودعما للمطالب التي ندافع عنها، بالتوقف عن العمل في جميع المطابع باستثناء مطبعة الشركة الوطنية لمؤسسات الصحافة التي تسحب جريدتنا. وقد رد صاحبها الذي أسرع لإنقاذ الصحافة الاستعمارية، بمنع العمال من الدخول من 11 إلى 18 جويلية 1953، وبالوسائل البسيطة للمطبعة القديمة بشارع كوشلان بباب الوادي وبدفع من مديرها جول مولينا (Jules Molina) مناضل شيوعي من وهران كان قد غادر منصبا بأجرة محترمة لفائدة آخر دائم وبرفقة العمال، لتجاوز

العديد من المشاكل التقنية التي كانت تطرأ في كل وقت ونجحوا في سحب" الجزائر الجمهورية" من صفحتين ثم من أربعة صفحات، لقد كان إنجازا كبيرا للتوصل إلى هذه النتيجة بآلات مهتلكة وآلة سحب مهترئة يتعين تبريد بعض أجزائها في حاويات من الثلج من حين لآخر أمام ارتفاع حرارتها.

تم نقل جزء من طاقم التحرير والإدارة إلى هناك انطلاقا من مكاتب شارع Lafrrière، أين بقوا في حالة استنفار ليل نهار، وخلال ثمانية أيام، لم يكن لدي الوقت لزيارة منزلي ولو على غرار بقية طاقم الجريدة الذين انخرطوا في هذه المغامرة بالعمل ليل نهار ولأيام لا تنتهي كنت أعيش خلالها على شرب القهوة ونسيت تقريبا أنه من الضروري أن انام، لقد كنت أنام من وقت لآخر، اتمدد لمدة على الأقل وبكامل ملابسي على رزم الأوراق المكدسة في أرضية بهو المطبعة، وعندما استيقظ أضع راسي تحت حنفية الماء البارد، من أجل استعادة أنفاسي والعودة إلى العمل.

خضع أرباب الصحافة في الأخير أمام إصرار عمال الكتاب في إضراب والذين استمروا في تقديم مساعدة عملية للجريدة، وبالرغم من هذه النقائص، تم طبع الجريدة لقرابة أسبوع وبسبب غياب يوميات أخرى لم تستطع الصدور بسحب استثنائي وبفضل هذا، استفادت الجريدة من مداخيل مالية غير مسبوقة الأمر الذي سمح لها بتسوية ديونها دفعة واحدة وتخلصت من التهديد بالإفلاس المحدق بها. لقد كان ذلك انتصارا سياسيا، فقد فشلت الإدارة الاستعمارية وحلفاؤها في محاولتهم للقضاء على صوت الجريدة الوحيدة التي تعارضهم.

لم يكن بإمكاننا تذوق طعم النجاح الذي لم يكن ممكنا لولا التجنيد الاستثنائي حولنا من طرف عشرات الآلاف من القراء والأصدقاء ولولا التعب والحماس لما تم كسب المعركة.

وخلال التوقف عن العمل وجه نداء يشبه نداء النجدة إلى تنظيم اكتتاب وكان الرد ايجابيا وسريعا من مسيري الأحزاب الوطنية والمسؤلين النقابيين، النوادي

الرياضية، الفرق الفنية الذين انخرطوا علنا في الحملة من أجل إنقاذ الجريدة، وقرر عمال أوروبيون ومسلمون التخلي عن أجرة يوم عمل لفائدة الجريدة. زارت الجريدة عدة وفود من عمال المناجم والموانئ والسكك الحديدية والفلاحين وعمال الأرض لتقديم المبالغ التي جمعوها، مثلما فعل الحرفيون وصغار التجار.

كان مشهدا استثنائيا، إذ يصطف المكتتبون منذ الصباح في طوابير أمام خزينة الجريدة قصد تسديد مساهمتهم، ومن بين هؤلاء شيوخ بالبرنوس والقشابية وجزائريات ملتحفات قدمت بعضهن قطعا ذهبية قديمة وحلي مختلفة كانت محفوظة منذ عقود وأخرجت من الخزينة العائلية، وقد اقترح احد القراء الأوفياء رهن منزله وإقراض المبلغ الذي يحصل عليه للمدة التي تتطلبها هذه العملية، و أبلغت مجموعة من أصحاب المهن الحرة ومن بينهم يهود، عن طريق مرسول، عن استعدادها لوضع مائة ألف فرنك أو أكثر تحت تصرف الجريدة.

فقد انتظم فلاحون من دوار عين الزوي ببلدية عين مليلة المختلطة وبالرغم من أميتهم، غير أنهم واعون بالدور الذي لا يعوض" للجزائر الجمهورية"، للذهاب من مشتة إلى مشتة، لجمع أكياس الشعير، على أن يذهب عائد البيع إلى الجريدة. فلم يحدث أن تأثرت بعمق مثل تلك الأيام من خلال هذه المشاعر الاستثنائية والثقة التي عبر عنها هؤلاء الرجال والسكان "للجزائر الجمهورية" وفي نفس الوقت لجريدتهم وللناطق باسمهم.

ولم أشعر من قبل إطلاقا بتلك القوة وبمثل ذلك الفرح وبروح الأخوة التي توحد جميع العاملين في الجريدة وجعلها مكانا مفضلا وواحة للمحبة والإنسانية في جفاف ووحشية صحراء الاستعمار التي لاترحم. لقد كنت أرى الجزائر مستقلة وموحدة في هذا المكان الرائع، تشع صداقة وأخوة وتضامنا بين الرجال والنساء من أصول وثقافات مختلفة.

لقد اتخذ التاريخ مجرى آخر، ولم يكن الالتزام بالكفاح من أجل حلم عبثا، ولا زلت أعتقد بعد نصف قرن أنه لم يكن كذلك. فالذين يعملون في الجريدة كانوا عربا، قبائل، يهودا وأوروبيين، متحررين من جميع أنواع العنصرية (وحتى الذين لم يستطيعوا أقصوا انفسهم بأنفسهم).

لقد كانوا جميعا على اقتناع عميق بأهمية وعدالة القضية التي يدافعون عنها، قبلوا بأجور هزيلة وبدون تسبيق وفي جميع المرات يتلقونها متأخرة، ساعات عمل منهكة ومحملة بجميع الأخطار بما فيها من يتجرؤون على الوقوف في وجه النظام الاستعماري.

إنها معركة يومية شاركت فيها نساؤهن المناضلات أيضا واللاتي غالبا ما يقدمن للبيت أهم موارده ويقدمن حصتهن. ولم تكن المشاكل المالية هي الشغل الوحيد.

فابتداء من ربيع 1955 وحين بدأت الأعمال المسلحة تتضاعف عبر التراب الوطني، بدأت المتابعات القضائية، والغرامات والحجز تتابع بوتيرة تزداد اتساعا. وكانت عمليات الحجز أكثر ما نخشاه : فقد كانت تجبر الجريدة على الصمت وتزيد من هشاشة وضعيتها المالية.

إننا نعلم بحكم التجربة أن بعض المواضيع ومهما كانت الطريقة التي تعالج بها، تؤدي إلى الحجز لا محالة. وهناك مواضيع تثير نفس ردود الفعل: مثل كلمة «استقلال» على سبيل المثال، أنهم يرفضون أي تنازل حول الموضوع، وكنا نجتهد في استخدام جمل للتعبير عما نريد قوله بدون أن نعلم أن ذلك كاف لتفادي منع العدد من التوزيع والمتابعات ، وكانت الكلمات من نوع "مكافح" و"مجاهدين" لوصف من حملوا السلاح، أيضا كلمات ممنوعة.

وكنا نقصي بدورنا كلمات مثل "متمردون" عصابات أو (فلاقة) وهي الكلمات المكرسة في الصحف الأخرى. لقد أرغمنا عن الحديث عن الأعمال

المستمرة عبر البلاد من خلال كلمات مرادفة وغريبة "رجال مسلحون" غير أن القارئ لم يكن يخطئ وكان أيضا محظورا التطرق إلى المعارك الدائرة في تونس والمشاكل التي تمس الوضع السياسي في هذا البلد. ونفس الشيء بالنسبة للمغرب، وكان يتعين التخلي عن نشر التحقيقات حول هذين البلدين بعد طرد مبعوثينا الخاصين.

وهناك أيضا مسألة تؤدي هي الأخرى لا محالة إلى المحاكمة أو الحجز ويتعلق الأمر بالتنديد بالمصالح الأمنية الخاصة والتعذيب الذي يتعرض له المناضلون بعد توقيفهم. ويمكن لرؤساء مجالس الوزراء، ثم رؤساء الوزراء والحكام العامين الذين أصبحوا "وزراء مقيمين" مع (روبرت لا كوست)، أن يسمحوا لأنفسهم بإنكار هذه الحقيقة مع بعض الحظ في وجود من يصدقهم في فرنسا.

وفي الجزائر كانت الأمور مختلفة، فلم يكن هناك من يجرؤ على تكذيبهم، عندما يتطرق المعنيون لتلك الحقائق التي لا تغير شيئا. فالتعذيب ومنذ بداية الاحتلال كان جزءا من المشهد، ويمكن لأي أوروبي أن يتكلم وكأن الأمر يتعلق بشيء تافه، أن أقاربه الذين يقطنون خارج مدينة الجزائر يشتكون من الضجيج الذي يسببه لهم وجودهم بالقرب من وحدة للجندرمة.

فالصراخ الذي يخرج منها ويتردد صداه في محيطها يمنعهم من النوم. إن نشر شهادة ضحية هذه المعاملات يؤدي لا محالة إلى متابعات وأحكام وبالنسبة للسلطات، فالأمر يتعلق هنا بعبارات (استعمارية) تهدف إلى المساس بمصداقية فرنسا وشرطتها وجيشها وهو ما يعاقب عليها قانون الجمهورية بقوة. وكان المحامون الفرنسيون الذين يأتون إلى الجزائر للمرة الأولى للمرافعة يصابون بالذهول من وقاحة القضاة الذين يتعاملون معهم ورفضهم لشكاوى ممثليهم الذين تعرضوا للتعذيب.

وقد قص علي بيار بران (Pierre Braun) من مكتب باريس ما قام باكتشافه عن العدالة على الطريقة "الجزائرية" خلال أول لقاء له مع قاض للتحقيق يدعى بافولو (Bavoillot) متخصص في القضايا السياسية : "في هذه الحالة، إن التعذيب الأكثر استخداما هو التعذيب في حوض الماء" وأيضا استخدام العصا والزجاجة التي تدخل في مؤخرة الشخص تحت التعذيب. لقد علمت أن شخصا تم إيقافه وقد ذهبت لرؤية (بافولو)، وقد استطعت أن اعرف أن الشخص الذي ابحث عنه يوجد بمقرات شرطة البليدة، وقال لي (بافولو) وهو جد مسرور "هل تعلم ماذا يفعلون لموكلك إنهم بصدد اقعاده على زجاجة ويبدو أنه يحب ذلك! " إن هذا القاضي (على غرار أغلبية من يعملون في الجزائر) بامكانه بدون خوف أن يعطي موافقته على الطرق التي يستعملها "أعوانه" وحتى أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بالتلذذ بأشكال التعذيب التي يتعرض له الموقوفون.

وبعد هذا .. فإنه وزملاءه من القضاة والموظفين في مختلف هيئات الشرطة يعلمون جيدا حتى ولو أن الفرنسيين السذج يجهلون أن التعذيب في الجزائر كان على الدوام ممارسة عادية وأنه مع العرب لا يمكن إلا أ ن نمارسه ولا غنى عنه". ومهما يكن حذرنا اللغوي، لا تتفادى الجريدة الإجراءات القمعية.

وقريبا، تبتعد الحكومة العامة والسلطات في العمالات أكثر فأكثر عن الشرعية حتى أنهم أصبحوا لا يبررون عمليات الحجز ويرتبط هدفهم غير المعلن بالعلاقة مع الوضع السياسي وبخلق جو من الخوف والتوتر تحسبا للعمليات البوليسية مستقبلا، وهكذا وذات ليلة قدم محافظ شرطة في عجالة من أمره وأظهر قرارا بالحجز موقع من طرف عامل عمالة الجزائر، لحجز عدد تحت الطبع، لم يقرأ هو ولا مرؤوسه سطرا واحدا منه لأنه لم يطبع بعد. وبالرغم من الإلحاح المضحك لرجال الشرطة المهتمين بأخذ الدليل المادي عن جنحة لم ترتكب، رفض الفريق رفضا قاطعا سحب جريدة محكوم عليها بالحجز مسبقا.

وفي افريل 1955 تمت المصادقة على قانون حالة الطوارئ باقتراح من ادغار فور (Edgar Faure) الذي خلف بيار مونداس فرانس (Pierre Mondès France) في رئاسة مجلس الوزراء، تم إقامة مصلحة للرقابة على الأخبار في الجزائر. ويمكن لكلمة "رقابة" أن تصطدم أذان "الجمهور الرقيقة" ومنذ ذلك التاريخ والجريدة تصدر بمساحات بيضاء من جراء المقالات التي يتعين حذفها بأمر من الرقابة، غير هذه الفراغات البيضاء حيث تكتب بأحرف كبيرة كانت كلمة رقابة تثير شعورا بالغضب لدى القراء ولدى السكان الذين كانوا يساندوننا، لقد وصل الأمر بالمراقبين وبأمر من رؤسائهم إلى إبلاغنا بقرار جديد: ملء الفراغات البيضاء من الآن فصاعدا وتعويض المقالات التي تعرضت للحذف بالضرورة بمقالات أخرى لا قيمة لها، وبحجم مطابق.

لقد اكتشفنا استعراضا جد ضعيف في الواقع يتمثل في التأكيد على أن الجريدة لن تكون متواطئة مع الكذب، إذ كنا نضع مكان المقالات الممنوعة لوحة يتكرر ظهورها باستمرار: "الجزائر الجمهورية" تقول الحقيقة، غير أنها لا تستطيع قول كل الحقيقة. وقد أصبح هذا الشعار شعبيا ولا يزال بعد خمسين سنة في الذاكرة.

ولدى مروري بالجزائر في ربيع 2001 قابلت شيوخا جزائريين عايشوا تلك الفترة، تعرفوا علي وقالوا وهم يصرخون : "هل تتذكر جريدة " الجزائر الجمهورية"، تقول الحقيقة، ليس إلا الحقيقة...".

النضال السري

ضرب زلزال ليلة الأربعاء الثامن إلى الخميس التاسع من سبتمبر 1954 مدينة Orléansville التي أصبحت تدعى الأصنام فيما بعد الاستقلال. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحا تقريبا عندما وصلت إلى منزلي. وكنت لا أزال بعد في الرواق عندما رأيت المصباح يتأرجح فوق رأسي، وكان علي أن أستند إلى الحائط لكي لا أسقط. وتساءلت عما إذا كان ما أحسست به لم يكن مرده مجرد وعكة عابرة.

نزلت ثانية إلى الشارع الخالي والمظلم لألقي نظرة، عندها بدأت الستائر الحديدية للمحلات تهتز وكأنها تحرك بأيادي خفية، إنها الارتدادات الضعيفة للزلزال الذي يقع مركزه على بعد مائتي كليومتر غرب الجزائر. ويبدو أن لا أحد في البناية انتبه إلى ما حدث.

وفي صباح يوم الجمعة الموالي قدمت الجريدة تحت توقيعات عبد القادر شوكحال أصغر أعضاء الفريق وكان عمره ثمانية عشر عاما آنذاك والذي سيلقى مصرعه بعد سنوات في الجبل وإيفون لاتيغود (Yvonne Lartigaud) عميد الصحافيين أول حصيلة غير مكتملة للكارثة: ألف قتيل وآلاف الجرحى.

كان يتعين انتظار عدة أيام حتى نستطيع قياس الحجم الحقيقي للكارثة.

فقد كانت الدواوير الأكثر بؤسا وعزلة في الجبل هي الأكثر تضررا، فلم تسلم من الهزة جميع الأكواخ باستثناء تلك المبنية بالحجارة الكبيرة التي استطاعت وحدها المقاومة بفعل الوزن، لقد سقطت جميع الأكواخ في أول هزة، قتلت وجرحت بالمئات ساكنيها في حين لم تتضرر أغلب عمارات المدينة المبنية بالخرسانة.

كان دوار بني راشد هو الدوار الأكثر معاناة، توجه إليه صحفيونا، حيث وصفت مقالاتهم فداحة الضرر الذي لحق بالأكثر عزلة، داعية إلى التضامن ومنددة بتهاون الحكومة وممثليها في الجزائر، "الأكثر سرعة في إرسال دركيين لفبركة الانتخابات عنها في إرسال أطباء وإغاثة لمساعدة ضحايا النكبة" وهو جانب من الأشياء التي امتنعت الصحافة الاستعمارية عن التطرق إليه. لكن وأكثر من ذلك، كشفت الكارثة عن حقائق اجتماعية وسياسية، مجهولة أو أنكرتها السلطات الاستعمارية، وكان ذلك موضوع افتتاحيتي.

بالنسبة للكثيرين فإن زلزال أورليونفيل يكون قد مزق ستارا من الأكاذيب وكشف فجأة عمّا نجحت الشعارات الرسمية في إخفائه لمدة طويلة، كون الكارثة لم تخلف البؤس فقط، بل خلفت الرعب القاتل، الذي زاد من خطورة البؤس الذي نجده باستمرار وفي كل مكان من أريافنا الجزائرية.

فالأكواخ التي تنهار أمام أدنى هزة، والبؤس النفسي لأطفال منتفخي البطون من المجاعة وبأطراف عبارة عن هياكل عظيمة مثل من رأيناهم من بين الناجين في مستشفى مصطفى، و في الأرض البخيلة والقاحلة، في حين يتدفق الماء الملتقط في مزارع الكروم الغنية في السهل، ونقص الأطباء، والممرضين وأدنى الإسعافات الطبية في دوار على أهميته مثل بني راشد،

وهذا لا يعود إلى الأمس القريب. لقد ألقت الكارثة فجأة بهذه الصور الحاملة للحقيقة أمام أعين الذين يجهلون أو يتجاهلون.. فالمشاكل الأساسية لن تحل إلا عندما نكون قد انتهينا من "إعادة ترتيب جميع الأشياء". عندما تجف الدموع وتدفن الآلام في أعماق القلب سنستأنف "كما في السابق" طوق البؤس والمجاعة. بؤس ومجاعة "عادية" حياة بلا مدرسة، بلا أطباء، بدون حرارة، بدون حرية، حياة لا تحتمل مع الضرائب والقياد والوشاة ورجال الدرك.

حياة "عادية" لدوار "عادي" وها هو شعار "الجزائر، ثلاثة عمالات فرنسية" يسقط اليوم بكل قوة في الوقت الذي يستغلونه إلى أقصى حد. إنها إذن المشكلة الجزائرية برمتها التي تطرح وإن جاءت كارثة (أورليونفيل) لتنير الذين لا يشعرون بحجمها.

إن رفض الإجابة لا يحل مشكلة، فهنا في الجزائر، مثلما هو الشأن في تونس والمغرب، هناك ملايين وملايين من السكان في الأرياف والمدن متعطشون للعيش بطريقة أفضل، وللعدالة والحرية. إنهم يفكرون بمنطق لقد حان الوقت لتغيير بعض الأشياء.

وبعد ستة أسابيع جاءت "ليلة عيد جميع القديسيين" الليلة من 31 أكتوبر إلى أول نوفمبر 1954، حيث انطلقت الرصاصات الأولى لحرب التحرير الوطني الجزائرية "انفجار راعد في سماء هادئة" يعلق السياسيون والصحافيون الذين سدوا آذانهم سواء في فرنسا أو في الجزائر حتى لا يسمعوا شيئا عن الهدير الذي يسبق العاصفة.

وحقيقة القول، لم تكن هناك مفاجأة بالنسبة للذين كانوا على إطلاع بالنسبة للوضعية الحقيقية للبلاد، لأنهم يعلمون أن السماء توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون هادئة، هذا إذا كان ذات يوم هادئ.

عدت مرفوقا بالسيد (لحول حسين)، أحد أمناء حركة انتصار الحريات الديمقراطية الذي كانت تربطني به علاقات مودة، وقبل أن نفترق كنت قد اقترحت عليه عقد لقاء عمل جديد في شهر نوفمبر، إلا أن رده كان يوحي بالتهرب مما أثار حيرتي: "نوفمبر.. لا أدري.. إلى ذلك الحين.. يمكن أن تحدث أشياء كثيرة.." ثم علمت لاحقا أنه التحق بالقاهرة بعد وقت من آخر محادثة جمعتنا معا.. إذ كان يتأهب للمغادرة في تلك الأثناء.

وبالفعل.. لم يبق التحضير للانتفاضة سريا مثلما يعتقد من قرروا ذلك، ومثلما يشير إليه لاحقا مدير الأمن جان فوجور (Jean Vanjour)، لقد كانت المصالح الفرنسية على علم بما ينسج وذلك من طرف مخبر مندس على أعلى مستوى وبقي في الظل إلى يومنا هذا، وابتداء من أفريل 1954، كانت الحكومة العامة على علم بتشكيل اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA)[1] وبتحضيراتها.

لم نكن نعلم التاريخ المحدد للانتفاضة، إلى أن انفجرت مما جعلها بالنسبة لنا في سياق الأشياء وعلى عكس الذين يحاولون تزييف التاريخ، لم يكن لدى الشيوعيين الجزائريين أو الفرنسيين أدنى تردد في اتخاذ موقف حول الجوهر، بالرغم من أن الجذور والقوى الحقيقية في جبهة التحرير الوطني التي أعلنت مسؤوليتها عن الأعمال التي تم القيام بها لا تزال بعد مجهولة.

وبالرغم من وجود بعض المؤشرات، لم أكن أدرك حينها، إلى أن بعض الذين كنت أختلط بهم كانوا على علم بما كان يتم التحضير له. وكان رجال الشرطة ينتظرون فقط اللحظة التي تبدو لهم مناسبة أكثر للتدخل والحسم.

---

1. إن أغلب قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)، كانوا منقسمين منذ جويلية -اوت 1954 بين مصاليين و"مركزيين" أتباع اللجنة المركزية الذين قاموا بتحييد رئيسهم، ولم يحاطوا علما بما كان يقوم به فريق من المناضلين الذين لاحظوا المأزق الذي وصلت إليه الحركة الشرعية، لذا قرروا أن الوقت قد حان للانتقال إلى مرحلة أعلى من العمل.. بمعنى الكفاح المسلح.

تطرقت يومية "الجزائر الجمهورية" في عدد 2 نوفمبر على امتداد ثمانية أعمدة إلى الأعمال المسلحة التي وقعت عشية ذلك اليوم مذكرة بالمواقف التي ما انفكت تدافع عنها: وضع حد للنظام الكولونيالي من خلال مفاوضات مع الممثلين الحقيقيين للسكان الجزائريين، السبيل الوحيد الذي يمكن من تفادي تكرار مآسي ما حدث في مدغشقر والفيتنام.

"هنا، مثلما هو الشأن في بقية إفريقيا الشمالية، ونظرا لخاصيات كل بلد، هناك مشكلة، مشكلة حيوية بالنسبة للأغلبية الساحقة من سكان هذا البلد، مشكلة الأمر الواقع الاستعماري لكي نسميه باسمه" تقول افتتاحيتنا: "منذ سنوات طويلة، اعتقد رجالات السلطة، أنه يكفي تجاهل هذا المشكل حتى لا يطرح، وحتى لو طرح فإنهم يعتقدون أن العنف سيحل الأمور، غير أن لا شيء تم: لا سياسة النعامة ولا سياسة الرشاش. وأن لا شيء من هذا القبيل سيحل المشكلة، لا تعزيزات المظليين والشرطة المعلن عنها في البيانات الرسمية، ولا التوقيفات التعسفية للمناضلين التقدميين مثل ما وقع في باتنة، خنشلة، بسكرة، "لكن أين الحل إذن؟" "إنه في الاعتراف بوجود المشكل الجزائري، إنه في البحث عن حل ديمقراطي لهذا المشكل، إنه في إنهاء أساليب القمع والاضطهاد (...)".

جاء رد السلطات على الوضع بعد عشرة أيام ففي 12 نوفمبر عرض رئيس مجلس الوزراء (بيير منداس فرانس) أمام الجمعية الوطنية الفرنسية السياسة التي تعتزم حكومته إتباعها، وكان واضحا "أن لا ينتظروا منا أي تعديل إزاء العصيان والتمرد إذ لا حل وسط معهم وأننا لا نقبل بأي توافق عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن السلم الداخلي للأمة ووحدة الجمهورية، فالعمالات الفرنسية في الجزائر فرنسية منذ زمن طويل.. الجزائر هي فرنسا وليس بلدا أجنبيا نحميه..".

كان (فرانسوا ميتران)، وزير الداخلية الذي كان في زيارة رسمية لمنطقة (أورليونفيل) المنكوبة، قد صرح قبل أسابيع من ذلك "أنه وجد العمالات الثلاث للجزائر في حالة من الهدوء والازدهار" وسيعود والتفاؤل يحدوه وكان خطابه يكمل خطاب (مونداس فرانس) : "لقد انتشر الضجيج فجأة وأصبحت الجزائر تعيش في الدم والنار، وبذلك لن تكتمل الحلقة بعد تونس والمغرب لأن الجزائر هي فرنسا والفلاندر في الكونغو، فإذا كان هناك قانون واختلاف في تطبيقه، فالقانون يطبق في كل مكان.. إنه القانون الفرنسي أمة واحدة، برلمان واحد، إنه الدستور، إنها إرادتنا".

باستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي الذي حمل في تصريح لمكتبه السياسي بتاريخ 8 نوفمبر 1954 أي بعد أسبوع من "ليلة القديسين" مسؤولية الأحداث "للحكام الذين رفضوا المطالب الوطنية للأغلبية الساحقة من الجزائريين". وطالب بالاعتراف بجوهر القضية وبمطالب الشعب الجزائري في الحرية، باستثناء بعض الشخصيات التي عبرت عن قلقها وعن تحفظاتها، أجمعت جميع التشكيلات السياسية على جر فرنسا إلى نزاع دموي استعماري جديد يدوم أكثر من سبع سنوات وبقيت الأفكار سواء في فرنسا أو في الجزائر غامضة حول ما سيأتي بعد الهزة المرعبة لأول نوفمبر في الأوساط الحاكمة، لقد كان من مصلحتها ترك الانطباع، أن إجراءات فرض النظام والوقاية ضد الاضطرابات المستقبلية قد اتخذت وأن الجزائر الفرنسية تعيش في جو من استعادة الهدوء.

وبعد هذا.. لقد كان حكام البلاد ومعهم وسائل الإعلام يلحون على هذه الفكرة، على أنهم بصدد "حفنة من المتمردين"، حفنة معزولة تماما عن السكان الذين بقوا أوفياء لهم وكان خبراء تلك الفترة يقولون: سيتم القضاء عليهم بسهولة.. وأن المهم هو رصد الثمن، وعدم التردد في إظهار القوة وإذا ما دعت الضرورة فسيتم استخدامها بدون تحفظ ولا تردد. ومن الجانب الجزائري، يثير الذين حملوا السلاح في الأوراس وفقا للوضعيات، التفهم، أو

التعاطف أو الحماس، وكانت التساؤلات حول المبادرين بالحركة المسلحة وقدرتهم على قيادة الكفاح المسلح وقوتهم الحقيقية، ومدى تواجدهم ضمن سكان الأوراس ومناطق أخرى، لا تزال مهيمنة بعد أن شمل الدعم الفعال للانتفاضة جميع أنحاء البلاد.

إن واجب المناهضين للاستعمار مهما كانت جذورهم، هو مساندة الانتفاضة أو الالتحاق بها متى كان ذلك ممكنا وذلك بدون إهمال العمل السياسي الشرعي.

إنها التوجهات التي اعتمدتها قيادة الحزب الشيوعي الجزائري والتي تم تبنيها من طرف رفاقي الشيوعيين في الجريدة وأنا شخصيا والتي أصبحت قضيتنا. ففي الأيام الأولى لنوفمبر، اتصل مبعوث عن (شيحاني بشير) نائب (مصطفى بن بولعيد) أحد مؤسسي اللجنة الثورية من أجل الوحدة والعمل وأحد رواد جبهة التحرير الوطني وقائد الانتفاضة في الأوراس "بالجزائر الجمهورية" بواسطة (عبد الحميد بنزين) محرر بالجريدة وعضو سابق في حزب الشعب الجزائري.

تم الاتفاق على الإبقاء على الاتصال من خلاله وكانت علاقات مراسل الجريدة على غرار شيوعي منطقة باتنة والأوراس مع (مصطفى بن بولعيد) وراء تسهيل الاتصالات. لقد كنا كثيرين ممن كان يعتقد أن النزاع الذي انفجر لا يمكن مقارنته في شيء من حيث مدته بذلك الذي انفجر منذ أكثر من ثلاثة أشهر قبل ذلك (جويلية) والذي كان قد انتهى في الفيتنام بالتوقيع على اتفاقيات جنيف.

وكنا نعتقد أيضا أن الانتفاضة ستؤثر على تسريع تسوية المشكلة ودفع الحكومة الفرنسية للخروج في الأخير من جمودها السياسي.

لقد كنا نقول أن حكومة مسؤولة، لا يمكنها إلا أن تستفيد من دروس الهزيمة التي تعرضت لها في الفيتنام، ولا يمكنها بالتالي تجاهل الدور المتزايد لحركات التحرر الناشئة في أغلب بلدان العالم الثالث، وبالرغم من الدعاية الإيديولوجية السائدة، في سياق منطق الحرب الباردة، لإقناع الفرنسيين أن وراء كل حركة استقلال، يجب النظر إلى "يد موسكو" بالرغم من العقيدة التي تدرس والمعتمدة في المدرسة، كحقيقة أولى، أن الجزائر كانت وستبقى جزائرية، وأن حملات شوفينية وعنصرية من طرف اليمين وأقصى اليمين، أرادت الاعتقاد على عكس أصدقائي، أن اختيار المنطق والسلام سيفرضان قريبا.

لم يكن قراؤنا زيادة عن ملايين الجزائريين الذين يتقاسمون اختياراتنا يحتاجون إطلاقا إلى شروحات لقياس الذي حدث في سبتمبر 1955، وحتى بعد منع الجريدة، والتهديدات المحدقة بها إذ يشكل ظهورها استفزازا وفضيحة كبيرة بالنسبة لخصومها.

كيف يمكن السماح بمواصلة نشر "جريدة الفلاقة" مثلما أسموهم؟ إذ تحتوي هذه التسمية المرادفة للإهانة على جزء من الحقيقة. لقد كان بعض المبعوثين بالفعل يأخذون الجريدة من المدينة لإيصالها إلى الجبال، وكان محاربو الاستقلال ينادونهم دائما "بالجنود" الأمر الذي يعني عسكري أو "مجاهد" و"مجاهدين" بصيغة الجمع، وهي تسمية تعممّت لاحقا، وكانوا يجدون في الجريدة عددا من المؤشرات والمعلومات السياسية والعسكرية غير الموجودة في جرائد أخرى بالرغم من الرقابة.

وابتداء من ماي 1955، منع ولاة كل من قسنطينة ووهران توزيع جريدة "الجزائر الجمهورية" في عمالتيهما، وقد سبق إعلام السلطات بوصول أعداد إلى غاية بسكرة ليقوم رجال الدرك بحملات مداهمة وتفتيش نظامية في منازل القراء المعروفين أو المحتملين قصد حجزها واستعادتها وقد تم

ذلك خارج الشرعية وحتى قبل صدور قرار عامل العمالة حيث قرر رؤساء بلديات مختلف مقاطعات قسنطينة، عين مليلة، سدراته وطولقة اعتبار الجريدة خارجة عن القانون في إقليم بلدياتهم.

تولى أتباع ونشطاء "الجزائر الفرنسية"، مدعمين بالمتصرفين الإداريين للبلديات المختلطة، رجالات الشرطة، ومختلف قوى الأمن عن طريق الترهيب والتهديد بمحاربة استماتة الموزعين الذين استمروا في ضمان توزيع الجريدة في المناطق التي لم يشملها المنع.

وخلال صيف 1955، تم إشعار الجريدة من طرف أكثر من خمسين موزعا يتواجدون بقرى عمالة الجزائر وخاصة في القبائل - بوغني، تيزي الثلاثاء مشتراس، ذراع بن خدة، وغيرها عبروا عن أسفهم الشديد بتوقيف بيعها. وكان بعض المراسلين أحيانا من المناضلين السياسيين والنقابيين الملتزمين، وبالتالي فهم خطر مزدوج في أعين الإدارة.

وفي أوت 1955، أشار تقييم أعدته مصالح إدارة الجريدة أن 27 من المراسلين توقفوا عن ممارسة النشاط، منع 18 منهم من الإقامة بقرار إداري وإجبارهم على مغادرة مناطقهم ومغادرة ثلاثة منهم بدون ترك عناوينهم، وإدخال ثلاثة منهم إلى مركز الاعتقال بآفلو في الجنوب الوهراني وآخرهم (أعراب بداك) من أغوني إغران في القبائل الذي أغتيل من طرف "مجهولين".

وفي الجزائر، ومع حلول الليل، تتوقف سيارات الشرطة، الأضواء منطفئة، في الشوارع المجاورة لمقر الجريدة، تنتظر أوامر التدخل وبالتالي الحجز، إنه مجرد احتمال يتعين توقعه وبالتالي الاستعداد لليلة بيضاء جديدة، ويحدث أحيانا أن يقع الحجز بصورة مفاجئة، إذ يظهر رجال الشرطة على حين غرة عند بداية خروج الجريدة من المطبعة. عادة ما أعود إلى منزلي في حوالي الواحدة والنصف صباحا، وأحيانا وبمجرد أن أنام،

أسمع طرقا على الباب: "لا تدق الجرس حتى لا توقظ الأطفال.." يطلبون من السائق (أنطونيو) أحد قدماء الحرب الإسبانية، و(عميروش) مناضل سابق لا نعرف عمرهما: أحدهما يبقى متخفيا وراء الباب : "هنري جهز نفسك، إنهم هنا" رجال الشرطة، بعدما يكونون قد احتلوا المكان المخصص للتوزيع بمنع وضع رزم الجرائد في سياراتنا والقيام بالحجز، ويكون محافظ الشرطة بانتظاري لتسليمي الأمر الرسمي.

وكانت (جيلبرت) تقول لي : "الحجز ثانية" وقبل أن أخرج تقول : "إذن إلى اللقاء في المساء، لكن انتبه، رفقا بزوجي ...".

وهي طريقة لإفهامي بطريقة لا تخلو من المزاح أن الوضعية قد تصبح خطيرة. وكان رجال الشرطة ورؤساؤهم المكلفون بهذه الحملات الليلية يبدون تصرفات عدوانية لا تفسر فقط العدائية "العادية" لحراس النظام الكولونيالي إزاء جريدة وجدت من أجل محاربة هذا النظام وإنما يتعلق الأمر بنزاع قديم بينهم وبيننا، ففي مرات عديدة وأثناء إتمام إحدى العمليات، نجحنا في تحويل أنظارهم، بإخفاء جزء كبير من السحب وتوزيعه بالرغم من المنع.

ففي إحدى الليالي التي وقع فيها الحجز، وجهناهم نحو رزم أعداد قديمة، لكنها تحمل بيانات تاريخ يوم الحجز وبمجرد رؤية العلامة وبدون اثبات آخر شرعوا في وضع رزم الجرائد القديمة في شاحنتهم في حين نقلت الأعداد التي سحبت حديثا في شاحنتنا الخاصة، وعند قدوم الليل، وصلت الجرائد إلى مكان هادئ وكان (لعميروش) نزعة نحو تلك الفتحة التي نسميها غابة بولونيا القريبة من قلعة الإمبراطور ومنها تنقل لاحقا إلى موزعين متجولين في الشوارع.

ويدرك هؤلاء تماما الأخطار المحدقة بهم جراء توزيع جرائد ممنوعة، لذا أصبحوا يتصرفون بحذر إذ يدفعهم حماسهم النضالي إلى النشاط.

ويتتابهم فرح كبير بمجرد إتمام البيع، ليعلنوا لمسؤول المصلحة عن توزيعهم لآخر عدد من الكمية التي تلقوها.

ولتفادي خيبات جديدة، صمم رجال الشرطة في الأخير على غلق مدخلي الجريدة عند إجراء الحجز، المدخل الذي يفتح على قاعة الشحن المطل على شارع (باستور) والمدخل المطل على شارع (لفاريير) والذي نلج منه إلى مكاتب الإدارة والتحرير والمديرية. لا يرفعون الحبر بمجرد إتمام عمليتهم، إذ يستمر بعضهم في الزي الرسمي أو في زي مدني في طريقهم بعد ذلك لعدة ساعات وأحيانا إلى غاية بعد الظهر وخارج أية شرعية، يستجوبون كل من يخرج من المبنى، ويقومون بتفتيشه بحجة التأكد من أنهم لا يخفون تحت ملابسهم نسخا من العدد الممنوع.

يتعلق الأمر بمنع وصول الجريدة لمسؤولي المنظمات السياسية الوطنية، للنقابيين وللمنتخبين ومختلف الشخصيات التي تسهر على استلامها لإحدى نسخ السحب المحجوزة قصد جعلها تحتج على قرار الحجز التعسفي وهي تملك الدليل بيدها. وبالرغم من المراقبة الدائمة والتفتيش النظامي، نتمكن من تسريب الأعداد واجتياز حواجز الشرطة التي لا يفهم أفرادها إطلاقا كيف تمكنّا من ذلك.

كان أحد موظفي الإدارة، مقطوع الرجل ويحمل رجلا اصطناعية يدعى (محمد همراس)، يخفي في تجويفات الرجل الاصطناعية عدة أعداد يتم إخفاؤها بعناية فائقة.

تم اقتراحه للقيام بهذه المهمة التي نجح فيها بكفاءة، وقد أثار هذا الشخص المبتور الساق فضول رجال الشرطة بغدوه ورواحه، وكانوا يوقفونه أثناء خرجاته ليسألونه عن وجهته، وكان يجيب "لكي أتنفس بعض الهواء النقي" أو "لشراء سجائر" أو "لشرب فنجان قهوة".

إنهم لا يصدقونه ويقومون بتفتيشه تفتيشا دقيقا، لكن بلا نتيجة في جميع الحالات. وكانت الحكاية تتكرر وتضفي بعض الإنشراح على الجو الثقيل حيث نعيش. لكن وفي أحد أيام الحجز، قرر رجال الشرطة، وبناءا على أمر من فوق أن يذهبوا بعيدا.

كان مبرر الحجز افتتاحية عنوانها بدون أصالة كبيرة "ومع ذلك فهي مستمرة" حيث نددت من خلالها بوحشية رجال الشرطة الذين يستمرون في الاعتقاد أن الجزائر يجب أن تعامل مثلما عوملت في 1830، وعند خروجي حوصرت بقوة من طرف ثلاثة من رجال الشرطة كانوا متخفين إلى تلك اللحظة في رواق المبنى القريب. وكانوا في انتظاري بطبيعة الحال.

أرغموني وجروني بعنف نحو سيارة موقوفة كانت مركونة بالقرب. وفي تلك اللحظة تقريبا خرج (عبد القادر شوكحال) أصغر المحررين لدينا و (فانسنت إيفورا)، مستخدم بمصلحة المبيعات إلى الباحة رفقة أحد القراء جاء يبحث عن الأخبار لقد كانوا شهودا عن الواقعة وحاولوا التدخل، غير أنه تم القبض عليهم فورا من طرف رجال شرطة جاؤوا للنجدة.

وفي محافظة الشرطة التابعة للحي، أدخلوني على انفراد إلى أحد المكاتب حيث كان في انتظاري أحد مفتشي الاستعلامات العامة رفقة نائبه.

تظاهر أنه يقوم باستجوابي وبطرح أسئلة لا علاقة لها بمسألة توقيفي التي لم يذكروا لي بعد مبررها القانوني، وبما أنني كنت أرفض الرد على أسئلته، أغلق فجأة الملف الذي كان أمامه وقال لي قبل أن ينهض من مكانه "سأجدك وأعدك أنك ستتكلم حينها .." وقد فهمت تماما ماذا كان يقصد، إنه لوفردو (Loffredo) أحد الرجال الذين اشتهر اسمه عبر كامل البلاد جراء العنف الذي يستعمله مع المناضلين الذين يتم توقيفهم.

وفي 09 جويلية 1955، وبعد قضاء ليلة في المحافظة المركزية للشرطة، وقفت رفقة أصدقائي أمام محكمة القضاء الاستعجالي. كانت شهادات رجال الشرطة متطابقة، حيث تقول أني اعتديت بوحشية على أحدهم، وكدليل على ذلك أظهر شهادة طبية تبرز الآثار التي تركتها اللكمات التي وجهتها له، كما تشهد على عدم قدرته على استئناف عمله قبل ثمانية أيام، لقد كان ذا بنية تشبه بنية مصارع، ويفوقني طولا برأسين، وكان القضاة والابتسامة تعلو شفاههم، لا يصدقون كلمة من الحكاية برمتها.

المهم أنهم حكموا علي بثلاثة أشهر حبسا ولشركائي بخمسة عشر يوما لكل واحد منهم. أما الصديق الذي كان مارا صدفة بالجريدة فقد تم إطلاق سراحه، وهكذا تعرفت على سجن باربروس، حيث كان المعتقلون السياسيون أقلية ويستفيدون من بعض المزايا، ويتمتعون بمعاملة خاصة، لقد وجدت بول كباليرو (Paul Caballero) سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري، الذي تم القبض عليه قبل أشهر بسبب تحرير وتوزيع منشور للجبهة الجزائرية للدفاع عن الحريات، وحكم عليه بسنتين سجنا بتهمة المساس بالأمن الخارجي للدولة وبسيادة الإقليم الفرنسي.

وكان (بول) في الأصل عاملا في الحديد والصلب ومناضلا في السرية بوهران والجزائر بعد هزيمة 1940 حيث حكم عليه بالإعدام غيابيا. لقد كان رجلا متواضعا إلى أبعد الحدود وفي نفس الوقت مناضلا مثاليا ووفيا لقناعاته، ثم لشجاعته وانفتاحه على الآخرين.

فقد عوضت خلال الأسابيع التي قضيتها في نفس الزنزانة الانفرادية معه، جورج رافيني (Georges Raffini)، عضو سابق في الفرق الدولية، محرر "بالجزائر الجمهورية"، الذي تم توقيفه بالتزامن مع (كباليرو) بسبب احتجاجه على توقيف هذا الأخير، وهكذا تواصلت بيننا صداقة ما انفكت تتعمق من خلال محن أخرى استمرت إلى غاية وفاته.

وفي الجانب الآخر من القسم حيث كنت مسجونا قبل أن التحق به، كان يوجد بعض المناضلين الوطنيين، لم يكن بإمكاني تبادل بعض الكلمات معهم إلا عندما تفتح الشبابيك، ومن بين هؤلاء (رابح بيطاط)، أحد الستة "التاريخيين" للجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) التي قررت إعلان الانتفاضة.

لقد اكتشفت رتابة سجن باربروس، فلم نكن بعد في القاعات المكتظة التي أصبحت معيارا خلال سنة 1956، وكانت ظروف اعتقال السياسيين تختلف عن ظروف اعتقال سجناء الحق العام، لقد كانت الزنزانات عبارة عن محاشر عارية تماما، فلا وجود لمشجب لتعليق الملابس، ولا خزانة ولا كرسي ولا طاولة ولا حتى سرير، حصيرة من الحلفاء ملقاة على الأرض وحنفية ماء بارد فوق حفرة المرحاض، فلم تتغير التجهيزات كثيرا، منذ أن أصبحت القلعة التركية القديمة لبابا عروج كلمة حرفت إلى "باربروس" من طرف الفرنسيين والتي كانت تعرف دائما تحت اسم "سركاجي" من طرف الجزائريين، ويعكس نظامها الداخلي الذي لم يتغير منذ عقود الطابع الكاريكاتوري لجزائر الاستعمار. ويعامل السجناء منذ لحظة تسجيلهم عند كاتب الضبط بطريقة مختلفة وفقا لأصولهم "فالتحيز" للأوروبيين واضح في أبسط تفاصيله.

كانت الأشياء المصنوعة من الزجاج والخزف ممنوعة، وكنا نشرب في أكواب حديدية للجيش، وإذا كان الأوروبيون يتلقون أكوابا كاملة، فإن "الإنديجان" لم يكن لهم الحق إلا في استخدام أكواب منزوعة المقبض، كون "العرب يستطيعون استخدامه في صناعة السكاكين". وكان للأوروبيين الحق في صحنين، وللعرب في صحن واحد، حمامان وحلاقتان في الأسبوع للأوائل، مقابل حمام واحد وحلاقة للتوالي، أذكر الاضطراب الكبير الذي سببته لأحد الحراس، الذي يقبل بمخاطبته بدون مزاج، عندما أشرت عليه أن هذا النظام مهين للأوروبيين، إذ يعني ذلك أن المساجين من السكان

الأصليين كانوا أنظف مرتين من الأوروبيين، لكونهم يأخذون حماما واحدا يكفيهم. فقد كنت أستقبل (جيلبرت) مرة واحدة في الأسبوع ولعدة دقائق ومعها ابننا الأكبر (أندريه).

كان يفصل بين المساجين والزوار شباك مزدوج، وبين هؤلاء وأولئك رواق يؤطره حارس، لقد كانوا مختلطين وإدخال دزينة أو أكثر من المساجين من جهة، في حين تتدافع العائلات من الجانب الآخر للرواق، حيث الضجيج لا يحتمل لقد كان بإمكاننا أن نصرخ ببعض الكلمات بدون أن نتأكد من سماعنا.

ولم تكن جيلبرت في حاجة إلى تفسيرات كبيرة فهي تعلم أن هذا الاستفزاز الذي كنت ضحية له، لم يكن إلا مجرد وضع فجائي بل مجرد مناوشة في طريق طويل وخطير ينفتح أمامنا. كنت أسمع (أندريه) يصرخ وهو في العاشرة من عمره، أنه فخور أن يكون والده في السجن وقد ابتسمت (جيلبرت) وهي غير غاضبة على تربيته.

تم إطلاق سراحي في الأخير بعد حوالي ستة أسابيع من توقيفي، إذ منحتني محكمة الاستئناف عفوا، فقد أعطت حملة التنديد التي قامت بها الجريدة ضد اعتقالي ثمارها، وكنت أشعر أن جريدة "الجزائر الجمهورية" هي الأخرى مهددة بالتوقيف. وبعد فترة من خروجي من السجن، ذهبت إلى باريس لبحث مختلف المشاكل المرتبطة بالجريدة.

وقد علمت فور وصولي أنه تم وضع الحزب الشيوعي الجزائري (بما فيه فروعه) وجريدة "الجزائر الجمهورية" خارج القانون بمرسوم من حكومة (ادغار فور) وبالتالي منع الجريدة وتشميع مقراتها في الليلة بين 12 و13 سبتمبر 1955. وبعد أن تأكدت من أن الشرطة لم تشرع بعد في الاعتقالات دخلت على وجه السرعة إلى الجزائر. كان قرار منع الجريدة لا شرعيا على الإطلاق ولا يستند إلى أي نص قانوني، وكان المرسوم الحكومي يستهدف الحزب الشيوعي الجزائري وفروعه على وجه الخصوص.

لم تكن "الجزائر الجمهورية" على قائمة المنظمات الممنوعة ولا يمكن أن تكون كذلك قانونا، لقد وضعت على القائمة لأنها شركة مستقلة وأكثر من ذلك وجود عدد كبير من أعضاء مجلس إدارتها من غير الشيوعيين.

ولم يتأثر محافظ الشرطة، المكلف بتنفيذ القرار المدعوم من عامل العمالة والحكومة العامة باحتجاجات (جاك صالور) المتصرف المشرف على الجريدة الذي حذر من عدم شرعية الفعل الذي كانوا سيقدمون عليه، والذي أجاب بإضافة "الجزائر الجمهورية" بقلم الحبر إلى نسخة قرار المنع الذي يسلمه له، ثم أمر رجال الشرطة بالطرد الفوري لجميع المحررين والمستخدمين الذين يتواجدون في مقرات الجريدة، وفي الأيام التي أعقبت قرار الغلق، قرر كل عضو في الفريق والشيوعيون بالتنسيق مع تنظيمهم المحلي القيام بالدور الذي سيلعبونه في هذه المرحلة الجديدة.

قام البعض باتخاذ الاحتياطات للالتحاق بالجبال أو المشاركة في العمل السري، وفيما يخصني وبالاتفاق مع أصدقائي في الجريدة والحزب، قرروا أن أبقى في "الشرعية" أطول فترة ممكنة وتكليفي بالدفاع عن حقوق ومصالح الجريدة.

كان الهدف الأول هو الحصول بواسطة حكم استعجالي على الاعتراف بكون "الجزائر الجمهورية" ضحية وإزالة المنع من الصدور واستعادة المقرات، وكان المسعى يبدو عبثيا.

فقد كانت هناك في الجزائر الاعتقالات والإعدامات دون محاكمة والتعذيب معمم وتراجع أكثر فأكثر للقضاة عن وظيفة الدفاع عن القانون وإصدار أحكام أكثر عدلا ثم منذ متى كانت تلك وظيفتهم؟

وإلى هؤلاء القضاة توجهنا طلبا للانصاف.. ولم يكن الوقت ملائما لمثل هذه التساؤلات.. وكان المحامي الباريسي ليو متاراسو (Léo Matarasso) محامي الجريدة منذ زمن طويل يعتقد أن لا أحد من القضاة وحتى الأكثر

دفاعا عن الجزائر الفرنسية لم يتحمل مسؤولية إخفاء الشرعية على جريمة صارخة ولو من باب حماية بقية مساره المهني في ظرف قد تسمح فيه الوضعية السياسية الجديدة للمجردين من حقوقهم أن يطلبوا منه تقديم حسابات.

كان على حق، فقد كسبت "الجزائر الجمهورية" القضية بدون أن يغير إلغاء الإجراء اللاشرعي المتخذ في حقها بصفة عملية في وضعيتها، فقد كان فريقها قد تفرقت به السبل منذ عدة أشهر، بوجود عدد من المتعاونين معها والمراسلين في السرية أو موضوع بحث من طرف الشرطة وطرد البعض الآخر من المقاطعات التي يقيمون بها، وكان جميعهم بطريقة أو بأخرى تحت الرقابة ومن الواضح في غياب قرار سياسي يتخذ على أعلى مستوى، فإن الجريدة لا تملك أية إمكانية لاستئناف صدورها ثانية.

بالنظر لنتائج انتخابات جانفي 1956 وفي الوقت الذي تتضاعف فيه العمليات العسكرية كل يوم عبر البلاد وتتم فيه اتصالات سرية بين مبعوثين من الحكومة وممثلين عن الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني، لم يكن من غير اللائق تماما الاعتقاد أن حلا سلميا قريبا نسبيا للنزاع يمكن أن يحدث وهو التطلع الذي راود الزعيم الاشتراكي (غيو مولي) الذي أعلن خلال حملته أن هدفه كان تحقيق السلم في الجزائر الأمر الذي سمح له بالحصول على دعم الشيوعيين والفوز في الانتخابات.

وبعد وقت قصير من فوز اليسار في هذه الانتخابات وفي الوقت الذي كانت لا تزال فيه "الجزائرالجمهورية" ممنوعة من الصدور منذ سبتمبر 1955، قابلت (فرحات عباس) رئيس الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) ثم (بن يوسف بن خدة) الذي أصبح بعد القطيعة مع (مصالي) أحد مسيري جناح "المركزيين" في حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD)التي تم حلها ابتداء من نوفمبر 1954، وكان من المقرر أن يلتقى

عباس مع بن خدة قريبا في تونس، الأول بصفته رئيسا والثاني كوزير للشؤون الاجتماعية في أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA).

أردت معرفة رأيهما في المساعي المبذولة قصد استئناف محتمل، وقد شجعني (بن خدة) بحرارة على مواصلة المساعي. أما (عباس) فقد بقي مشككا في التوصل إلى نتيجة إيجابية، غير أنه كان موافقا على عدم إهمال هذه الإمكانيات. وبعد أسابيع غادرت إلى باريس، للتباحث مع (غيو مولي) مباشرة حول المشكل، وكنت قد طلبت رخصة المرور التي أصبحت ضرورية للسفر إلى فرنسا من عامل عمالة مدينة الجزائر والتي منحها لي بعد التشاور مع باريس بلا شك.

تمت المحادثات في إحدى صالونات استقبال رئيس المجلس. وبدا متسامحا مع أنصار بقاء الاستعمار في الجزائر الذين استقبلوه بالشتائم والرمي بالطماطم في فيفري 1956 في الوقت الذي كان يضع باقة من الورد أمام النصب المخلد لقتلى الجزائر.

وكان الذين لا ندعوهم بعد "بالمتطرفين" يطالبون بعودة الحكومة عن قرارها بتعيين "وزير مقيم" في الجزائر الجنرال كاترو (Catroux) الذي كان يشتهر بكونه "ليبيراليا" وفي الساعات الموالية استسلم (غيو مولي). وعلى وقع تصفيقات المتطرفين أعلن إقالة (كاترو)، ولم تستمر محادثتنا غير بعض الدقائق وانتهت بمجرد عرض هدف الزيارة على إثر سؤال تخللته ابتسامة ساخرة وبنبرة احتقارية: "لأن جريدتكم عندما ستعود للصدور، ستدافع عن سياسة الحكومة أليس كذلك؟" ولم ينتظر حتى ردي، موليا ظهره وكأنه يظهر لي بوضوح عداءه وكذا تفاهة مسعاي، ولم يكن هذا المسعى بالرغم من الاستقبال البارد الذي تلقيته غير مفيد بالكامل، إذ تم إشعاري بطريقة غير مباشرة، أنه يتعين عند العودة إلى الجزائر، السهر على أن لا أفاجأ ساعة الفطور بزوار في زي مدني أو رسمي يطرقون بابي ويدعونني لمرافقتهم.

ولدى عودتي من باريس، كنت أذهب من حين لآخر إلى مبنى الجريدة المهجور الذي أعادوا إليّ مفاتيحه، وكان (جورج كاتوني) الذي كان يشغل إلى ذلك الحين منصب رئيس المحاسبة لا يزال يسكن معي.

كنا ننام نحن الاثنين في مكتبي وأضواء قاعة التحرير الكبرى مضاءة ومرئية من الخارج، وكأننا نريد أن يعلم كل واحد منا أن جريدة "الجزائر الجمهورية"، لم تمت وأن البعض يعمل من أجل أن تعود للصدور، وكان ذلك كافيا لإثارة اهتمام المجموعات المتطرفة من دعاة "الجزائر فرنسية"، التي سبق لها وأن أعلنت عن نفسها بتلغيم العديد من المحلات المملوكة للجزائريين، وفي إحدى ليالي جويلية 1956 وضعوا عبوة ناسفة عند المدخل الرئيسي للجريدة التي نسف انفجارها الباب الحديدي وألحق أضرارا بالبهو والمكتب الذي ننام فيه جورج كاتوني وأنا. وفي نفس اللحظة هزت عبوة ناسفة ورشة مطبعتنا بشارع كوشلان والشقة التي تقع فوقها حيث تقطن سيلفي مولينا (Sylive Molina) وأطفالها وكان زوجها (جول مولينا) مدير المطبعة قد تم إيقافه من قبل وأدخل سجن باربروس. أصبت بجروح سطحية في الكتف والرأس من جراء شظايا الزجاج والحجارة التي تطايرت من الأسوار والسقف، ولم يصب (كاتوني) بأذى، لقد خرجنا من المبنى بسرعة ونحن نختنق من الدخان الكثيف والغبار. وجدت نفسي على رصيف الشارع بعد دقائق ووجهي ممتلئ بالدماء، ليصل ثلاثة من رجال الشرطة بعد حين. لقد كانوا فرحين، ألقوا نظرة دائرية في البهو وكأنهم يقيمون الخسائر وبدون أدنى اهتمام انسحبوا فور ذلك.

كان عمال شركة الورق من الأوروبيين والذين يتولّون طبع جريدة le Journal d'Alger والذين أعرفهم جيدا لأنهم ساهموا أيضا في طباعة جريدة "الجزائر الجمهورية"، قد غادروا الورشة مدفوعين بالخوف من انفجار ممكن لقنبلة ثانية يحتمل أن تكمل انفجار الأولى.

كنت أشعر من خلال تصرفهم هذا أن كل شيء قد تغير فجأة، وباستثناء رئيس الورشة الذي اقترب مني قائلا أنه لا يملك شيئا في علبة الدواء بمصحة الورشة يقدمه لي لكي يضمد جروحي ماعدا علبة من القطن المحب للماء، لا أحد جاء ليعرض علي مساعدته. وكان أحد الذين سبق وأن كانت لي معه في الماضي نقاشات ساخنة من أجل الفاظه العنصرية، يقول بصوت عال أنه يسخر من الذين قاموا بنسف هذه الجريدة القذرة ومن كانوا بالداخل، غير أنه يتعين على من يضعون القنابل أن يفكروا أن عليهم أن هناك أشخاصا مثلهم لا يعنيهم من في البيت، أما الباقي فقد بقوا صامتين، يستولي على أغلبهم بلا شك الحقد، وربما بسبب الخوف من خيانة الشعور بالتعاطف معي وبالتالي إزاء "الفلاقة".

كان يتعين عليّ مستقبلا مضاعفة الحذر والاستعداد للدخول في سرية تامة، لقد أصبح النشاط الشرعي للحزب الشيوعي الجزائري في الأشهر التي أعقبت إندلاع الانتفاضة صعبا أكثر فأكثر، وكانت جرائده Liberté و"الجزائر الجديدة" التي تصدر بالعربية تتعرض للحجز بانتظام.

وتم توقيف الكثير من أعضائها النشيطين وطردهم من المناطق والمقاطعات حيث يناضلون، وأرغم بعض قادتها أمثال (العربي بوهالي) و(بشير حاج علي) (1) على الدخول في السرية وذلك قبل الإعلان عن القرار الرسمي بمنع الحزب، وقد صممت إدارته على استعمال قدر الإمكان ولأطول مدة الإمكانيات التي كانت ولا تزال توفرها شرعية هشة ومحدودة.

كما فعل من جهته الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لفرحات عباس، قدم الحزب الشيوعي الجزائري مرشحين للانتخابات البلدية لشهر مارس

---

(1) انخرط بشير حاج علي (1920-1991) في الحزب الشيوعي الجزائري في 1945. عضو اللجنة المركزية في 1947 والمكتب السياسي في 1949 ثم سكرتيرا للحزب. دخل في السرية وقاد الحزب طيلة الحرب.

1955، وبالرغم من النتائج المزورة كما جرت العادة، فلم تمنع من انتخاب الدكتور (صادق هجرس) [2]. أراد بعض المعلقين، أسرى النظرة الخاطئة للتاريخ، أن يرى في هذا الالتزام الانتخابي للحزب الشيوعي الجزائري في الوقت الذي تتخذ فيه حرب العصابات بعدا في الأوراس ومختلف مناطق البلاد، دليلا جديدا على خوفه المزعوم من القطيعة مع الشرعية الاستعمارية وعن تردده في الانتقال إلى أشكال جديدة أكثر راديكالية في الكفاح وهي الأشكال التي تدعو إليها جبهة التحرير الوطني.

إنه الموقف ذاته الذي تفسره رواية أخرى شاعت طويلا لتتحول على مر السنين إلى حقيقة أولية، ومفادها أنه يتعين على الشيوعيين الجزائريين الخضوع للأوامر التي تأتيهم من الخارج وعلى الخصوص الحزب الشيوعي الفرنسي غير الموافق على الوقوف إلى جانب الوطنيين مثلما يقولون، في حين لا يمثل إلا ملحقة يتمثل دورها في إعادة نقل تعليمات موسكو.

في الواقع، وبالنسبة للشيوعيين الجزائريين، في هذه الفترة المضطربة فإن المشاركة في الانتخابات لا تتعارض مع التجنيد الشعبي لدعم الذين حملوا السلاح من قبل، بل على العكس تتيح الحملة الانتخابية إمكانيات عرض أسباب وأهداف كفاحهم على الرأي العام والدعوة للتضامن معهم.

وابتداء من نوفمبر 1954، أعطت قيادة الحزب الشيوعي الجزائري تعليمات لمناضليها بالأوراس وبصفة خاصة بواسطة الوسيط (محمد غروف) عضو لجنتها المركزية وهو فلاح من دوار لولاش بالقرب من أريس بالالتحاق بالكفاح المسلح في كل مكان حيث تتوفر الظروف السياسية وتطوير أكثر لعمل التوعية قصد العمل على نشره على نطاق واسع.

---

(2) ولد الصادق هجرس في (1928) انخرط أولا في حزب الشعب الجزائري في 1944، وانتخب رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا (AEMAN)، وانخرط في الحزب الشيوعي الجزائري في 1950، عضو اللجنة المركزية في 1952 والمكتب السياسي في 1955، وقاد رفقة (بشير حاج علي) الحزب الشيوعي الجزائري في السرية طيلة الحرب.

في 20 جوان 1955، وقبل أقل من ثلاثة أشهر من منعه، عقد الحزب الشيوعي الجزائري دورة لجنته المركزية في باب الوادي والتي شاركت فيها.

فقد اتفق جميع أعضائه من مسلمين وأوروبيين على اعتبار أنه من الآن فصاعدا، سيصبح الكفاح المسلح المعطى الأساسي في النزاع، وبالإجماع أيضا قرروا مضاعفة الدعم الذي سبق وقدموه للانتفاضة والمشاركة المباشرة حيث ما وجدت قوات الحزب الشيوعي الجزائري ومتى أتاح السياق السياسي له إمكانية ذلك.

وبدون الإعلان عن قراره للرأي العام، لأنه لا يزال بعد في الشرعية، قرر أيضا خلق وحداته المسلحة الخاصة به ومحاربي التحرير (CDL)، ليس من أجل وضع قوة منافسة لقوات جيش التحرير الوطني (ALN) لكن لكي لا يبقى على هامش المعركة، وكون هذا الحزب تم منعه بعد ثلاثة أشهر لاحقا، إلا أنه حيا عبر صحافته السرية ميلاد وتطور جبهة التحرير الوطني وأعلن عن إرادته في التعاون معها، غير أن القادة الوطنيين، ورثة المواقف القديمة لأحزابهم إزاء الشيوعيين، كانوا يبدون جد مترددين في الرد على المقترحات المؤكدة على التلاقي والعمل الموحد على غرار تلك التي تمت صياغتها، والقائلة بالخوف من "التنظيف الشيوعي" الذي يصنع توسع وتعميق علاقات الثقة والتعاون بين مناضلي القاعدة، إذا ما حاولوا إقامة عراقيل أمام التطور الممكن لنفوذ الحزب الشيوعي الجزائري بالإبقاء عليه على الهامش قصد تحييده وحصره في دائرته العاجية، حسب تعبير (عمر أوزقان)، مسؤول شيوعي سابق الذي أصبح أحد ملهمي ومحرري ميثاق الصومام، نص برنامج جبهة التحرير الوطني في أوت 1956. فقد كان مطلب جبهة التحرير الوطني الذي تبناه (فرحات عباس) عن الاتحاد الديمقراطي للبيان والزعماء المركزيون عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية، باسم الوحدة النضالية الضرورية، هو حل جميع الأحزاب حلا مطلقا والانخراط الفردي لأعضائها في الجبهة، وكان هذا يمثل

مسألة أساسية بالنسبة للحزب الشيوعي الجزائري يفرض استشارة لجنته المركزية ولأسباب أمنية وجيهة لا يمكن تصور عقد اجتماع لمناقشة عامة وجماعية. لذا كان عقد اجتماعات لمجموعات من اثنين إلى ثلاثة أو بصفة فردية، يدعى إليها أعضاء القيادة لإعطاء أرائهم حول هذه المسألة الوحيدة، من قبول حل الحزب – الشرط المسبق المقدم من جبهة التحرير الوطني لأي تعاون- أو رفضه للحفاظ على الاستقلالية الإيديولوجية والسياسية للحزب، مع الإبقاء على التزامه الوحدوي ودعم أكثر لتأييده في جميع الميادين للجبهة ولجيش التحرير الوطني.

ولمناقشة المشكلة، وجدت نفسي رفقة (نيكولا زيناتشي) الذي كان عضوا في اللجنة المركزية بسنوات طويلة قبلي.

لقد كانت حياته كلها نضالا، فقد عمل في مناجم الفحم والبناء. وكان عضوا دائما في الكونفدرالية العامة لعمال البناء وسكرتيرا للحزب الشيوعي الجزائري لمنطقة وهران، تم اعتقاله وترحيله وسجنه في معتقل بالجنوب طيلة سنوات حكم فيشي ثم انتخب رئيسا لبلدية وهران لدى إطلاق سراحه. وعلى إثر حل البلدية الشيوعية، التحق "بالجزائر الجمهورية" لكي يصبح صحفيا في الفريق الذي أتولى الإشراف عليه. وقد كان نقاشنا قصيرا، إذ أدركنا بعد تبادل الكلمات الأولى أننا نتقاسم نفس وجهات النظر. وكنا نعلم أن معارضة إرادة قادة الجبهة قد تكون لها انعكاسات خطيرة على الحزب وعلى كل عضو فيه وعليّ شخصيا.

وكان يتعين بالنسبة لي و(نيكولا) انطلاقا من المبدأ وضرورات المعركة الجارية والمصلحة الوطنية الجزائرية اتخاذ موقف، حيث بدا لنا من الواضح أنه لا يمكن حلّ الحزب الشيوعي الجزائري، الذي هو حزب للعمال يدافع في الواقع عن مطالب وآمال هؤلاء في مجتمع جديد خال في نفس الوقت من الاضطهاد الاستعماري والاستغلال الرأسمالي، بدون إثارة تساؤلات مخفية

في صفوف الذين يساندون الكفاح التحرري للجزائر عبر العالم وخاصة في البلدان الاشتراكية.

وبدا لنا واضحا أيضا، أنه حتى ولو أردنا تفادي الجدالات، لن نتطرق إلى هذا الجانب من المشكلة.. وأن إرادة القضاء على الوجود الشيوعي في المشهد السياسي تخضع هي الأخرى لرغبة خفية لبعض العناصر البرجوازية والبرجوازية الصغيرة في فرض هيمنتها على مجمل حركة التحرير الوطني. وكان أعضاء اللجنة المركزية، وبأصوات قليلة قد صادقوا ولو بأصوات قليلة على الموقف المتخذ من طرف مجموعتنا نحن الاثنين.

كما كان ذلك موقف (حاج علي) و (صادق هجرس) مما جعلني مسرورا. كلاهما سكرتير وناطق باسم الحزب الشيوعي الجزائري، التقيا (عبان رمضان) بعد انتظار طويل وكذا (بن يوسف بن خدة) وكلاهما قياديان في الجبهة ويتواجدان في مدينة الجزائر وعرض عليهما وجهة نظر الشيوعيين. وقد تمسك ممثلو الجبهة بمطالبهما الأولى، في حين أكد ممثلا الحزب الشيوعي الجزائري رفضهما لحل الحزب.

غير أن العمل المثير الذي خطط له (هنري مايو) بإحكام، والمتمثل في الاستيلاء على شاحنة أسلحة للجيش الفرنسي، منحت قيادة الحزب أهم محتوياتها لجيش التحرير الوطني الذي كان في تلك الفترة يفتقر إلى التسليح - فتح الطريق - إلى عمل موحد بين جبهة التحرير الوطني / الحزب الشيوعي الجزائري بالرغم من الخلافات القائمة.

وكان هذا العمل الموحد يتم على المستوى العسكري من خلال إدماج شيوعيين، فرديا أو جماعيا بواسطة تشكيل فرق من محاربي التحرير في جيش التحرير الوطني. وقد تم اتخاذ قرار بعد أسابيع من الوفاة البطولية (لمايو) في جبال الشلف رفقة (موريس لابان) وبعض الفلاحين الشيوعيين من الدواوير المجاورة، بإعلام المناضلين عن طريق بيان في بداية جويلية 1956.

وحسب نصوص هذا الاتفاق، فإن الشيوعيين المنخرطين في جيش التحرير الوطني، يلتزمون بقطع أية صلة عضوية مع حزبهم طيلة فترة الحرب، بدون أن يتخلوا عن قناعاتهم السياسية. كما تم التطرق أيضا إلى التعاون في ميادين أخرى على غرار الميدان العسكري، على أن يستمر هذا التعاون بصفة مشتركة على سبيل المثال من خلال العمل الذي سبق للحزب الشيوعي الجزائري أن شرع فيه والمتمثل في تحسيس الجنود الفرنسيين حول شرعية كفاح الجزائريين، من خلال إصدار وتوزيع نشرات سرية "صوت الجندي" (La Voix du Soldat).

وقد تولى (أندريه موان) الذي تقلد عدة مهام كبيرة في إدارة الحزب الشيوعي الجزائري ولوسيان هانون (Lucien Hanoun) أستاذ ثانوي ومناضل ملتزم تماما بهذه المهمة بدعم من عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي الفرد غسون(Alferd Gerson) الذي أرسل في سرية للقيام بهذا العمل في الجزائر كما قدم هذا الحزب نفسه أيضا لجبهة التحرير الوطني بعض الإمكانيات التقنية مثل الاستعمال المحتمل لمطبعته من أجل صناعة بطاقات تعريف مزيفة غير أن جبهة التحرير الوطني أصرت أن هذه المشاريع والرسائل التي تؤكدها يجب أن تبقى في السرية.

ففي شهر مارس 1957 تم نشر هذه الأخيرة من طرف الحزب الشيوعي الجزائري، غير أنه وبسبب السرية، بقيت مجهولة لدى الكثير من المناضلين بدءا بالمعتقلين في المحتشدات والمساجين والذين بقوا خارج أي اتصال بعد الطرد من المقرات التي يناضلون فيها. كانت هذه القرارات بالرغم من الجوانب المحدودة التي تتضمنها ذات آثار جد إيجابية على مجمل الحركة والشيوعيين، وهي قرارات تم احترامها بشدة ومع الأسف لم يكن الأمر كذلك في جميع صفوف جبهة التحرير الوطني.

فإذا كانت العلاقات بين الشيوعيين "المندمجين" والمسؤولين عن جيش التحرير الوطني تقوم على أساس قاعدة من الثقة والاحترام المتبادل في مديمة الجزائر والقطاع الوهراني فالأمر يختلف في مناطق أخرى من القبائل والأوراس على الخصوص. فقد بلغ الأمر ببعض المسؤولين مدفوعين بمشاعرهم المناهضة للشيوعية إلى إعطاء أوامر بإعدام أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري الذين التحقوا بالجبال من الذين يرفضون أن يتنكروا لانتمائهم كما اشترطوا عليهم أن يفعلوا.

وهكذا قتل (العيد العمراني) و (جورج رافيني) وهما عضوان في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري ومناضلون آخرون من المسلمين والأوروبيين وترك الانطباع يسود طويلا على أنهم قتلوا في المعركة.

كان يتعين انتهاء الحرب والحصول على الاستقلال حتى تعرف الحقيقة واليوم وبعد عقود أتساءل عما إذا كانت هذه الأعمال قد تمت بسبب الجهل أو اللاتسامح والحقد، هذه السلوكات التي لم يكن الشيوعيون وحدهم ضحاياها، وما إذا كانت مثل هذه الأعمال تعلن بدايتها عن هيجان العنف والجرائم الأصولية.

فقد أصبحت حياة السرية يوما بعد يوم أكثر تعقيدا وتوترا، وخاصة بالنسبة للمناضلين في مثل وضعيتي.. كانوا رجالا عموميين، يعرفهم عامة الناس منذ سنين في التظاهرات والتجمعات وفي الصور المنشورة في الجريدة، يعرفون وجوههم وهيئتهم.. وكانت الجزائر مدينة صغيرة نسبيا، حيث نتقاطع باستمرار، ولقد أصبح من الصعب عليّ المرور في شوارعها بدون أن يتعرف عليّ شخص أو عدة أشخاص ولم يتغير شيء حتى بعد المجهودات الجدية المبذولة لتغيير المظهر الجسدي وحتى ارتداء ملابس غير معتادة عندي: سترة من القماش، معطف، وقبعة تعطي ملامح موظف صغير أو موظف في البنك.

فقد غيرت لون شعري إلى اللون البني، يتناسب مع لون بشرتي الأسمر المدبوغ، والاحتفاظ بشنبات كبيرة ونزع النظارات، لم يكن بكاف للتمويه. لقد أدركت ذات صباح، حيث لم أستطع أن أغالط شابا يبيع الجرائد على رصيف شارع باستور، قبالة مكاتب جريدتنا سابقا التي أصبحت تحتلها جريدة "le Bled" وهي صحيفة قوات الصاعقة. وعندما كنت ألقى نظرة على العناوين المعروضة، كان الشاب يتأكد عما إذا لم يكن هناك أحد من المارة ليقول لي بصوت منخفض : "سيد علاق.. هل الأمور على ما يرام ؟".

كانت هناك مراقبة مستمرة للشرطة، والخوف من وشاية حارس أحد الجيران وحظر التجول، بالإضافة إلى الاعتقالات وعمليات الطرد والتوقيف المتزايدة أكثر فأكثر للمناضلين والمتعاطفين، الذين لم يعد بالإمكان اللجوء إليهم قصد الإيواء ولو مؤقتا ... أن تكون مرغما لكونك أوروبيا، أن لا تعيش إلا في الأحياء والأوساط الأوروبية، الأمر الذي يجعل من أي تحرك مخاطرة كبيرة ومن كل عمل أكثر صعوبة، لقد كان اعتقاد الذين يشاركون أو يساعدون بطريقة أو بأخرى في المعركة، كبيرا في عدم الإفلات من التعذيب في حالة تعرضهم للتوقيف، ويزيد بالتالي من إرادة الكثير اقتناعا ومن تردد وتراجع الآخرين.

أحد الذين طلبت مساعدتهم، وكان أوروبيا، يعمل مديرا لمكتب كبير للمحاسبة، ويملك فيلا غير مشغولة بالأبيار وقبل بإيوائي لتلتحق بي (جيلبرت) التي كانت شديدة الحذر أيضا وصادف أن أعلنت جريدة l'Echo d'Alger تحت عنوان عريض صباح ذات يوم من نوفمبر 1956 عن توقيف أكثر من مائة مناضل شيوعي ومتعاطف معهم في الليلة السابقة. وجاء في العنوان الفرعي للجريدة "هنري علاق، المبحوث عنه في حالة فرار".

كنت قد خرجت ذلك اليوم في الصباح الباكر، بنية عدم العودة إلا مع حلول الليل وقبيل موعد بدء حظر التجول، ولم أكن قد اشتريت الجريدة بعد، غير

أن الذي يأويني كان قد قرأها وقد سكنه هاجس إمكانية اكتشافي في مسكنه مما يؤدي إلى توقيفه بحجة التواطؤ. وفي نفس اليوم، قام بوضع سلسلة بها قفل نقال، أغلق بها باب الحديقة قصد منعي من الدخول، ولحماية نفسه، في حالة العثور عليّ في منزله عند مجيء الشرطة أو المظليين للبحث عني.

وجدت نفسي في الشارع، في ساعة متأخرة من المساء، ومعي المفاتيح التي قدمها لي ولم تعد مفيدة، كما لم يكن أمامي غير نصف ساعة من الوقت، للبحث عن ملجأ آخر قبل بدء حظر التجول. وكانت (جيلبرت) التي لا تزال تسكن مؤقتا في "لارودوت"، تريد التأكد قبل مغادرتي أنني عثرت على ملجأ. وبالقرب من منزل هذا الصديق المزيف، كانت تقطن إيفون (Yvonne)، زوجة إيتيان نيبلاز (Etienne Néplaz)، أحد رفاقي القدامى، يعمل في التعليم بقسنطينة، الذي كان قد طرد منها قبل أشهر، ليتم اعتقاله ثم الحكم عليه بخمس سنوات سجنا. لقد كنت أعرف (إيفون) وكنت متأكدا من مساعدتها لي، إلا أنه من الخطورة بمكان أن أذهب لأدق على بابها، بالرغم من عدم وجود أي خيار أمامي.. وسرعان ما تعرفت عليّ، وشرحت لها في كلمات قصيرة وضعيتي.. وبدون تردد منحت لي غرفة ابنها الذي كان غائبا مشيرة عليّ فقط إلى أن المكان غير آمن وقد بقيت في منزلها لمدة يومين، ريثما أجري اتصالات بواسطتها مع صديق كان لا يزال يستطيع وقتها التحرك بحرية، وبمساعدته أستطيع الحصول على مخبأ، لقد غادرت المكان مع غروب شمس ذلك اليوم – في الليل – ولم أعلم إلا بعد أسابيع لاحقا، بهجوم مجموعة من المظليين على المنزل وتفتيشه، حيث دخلوا بالقوة وعبر النوافذ والسطح بعد أن تسلقوه، وقد عادوا من غزوتهم خائبين مكسوفين. قاموا بتفتيش البيت حجرة بحجرة بقيادة أحد النقباء وكأنهم يبحثون عن شخص ما، كان يتشمم الهواء وكأنه يبحث عن رائحة السجائر من شأنها أن تكذب تأكيدات صاحبة المنزل. صرحت لهم أنها تعيش بمفردها مع ابنها الموجود

خارج مدينة الجزائر في تلك اللحظة وأنها لم تأو أحدا . وبلا شك فإنها تكون قد تعرضت إلى وشاية من طرف صاحب متجر الجزارة المجاور والتي كانت من زبائنه وهو من المتطرفين يعمل كعميل للشرطة مجانا .

كانت قبل ذلك وقد اشترت بمناسبة قدومي وكذا صديقي الذي جاء لزيارتي وقضى الليلة هناك أكثر من الكمية المعتادة من اللحم، ويكون هذا الجزار الواشي قد استنتج أنها تأوي وتخبئ لديها بعض شركاء زوجها (الفلاقة) ولم يتأخر في احاطة مستخدميه بشكوكه.. غير أنهم جاؤوا متأخرين.

قدم لي ملجأ آخر من طرف أحد الأصدقاء كان يعمل في إدارة الجريدة.. وكان يقطن في شقة قديمة ورثها عن والديه المتوفيين، وتقع في أحد الشوارع المعزولة نسبيا في باب الوادي. وكان هذا الصديق أعزبا ويعيش وحيدا وغير معروف كمناضل (وحتى كمنخرط في الحزب) استدعي للخدمة في الحرس الاقليمي ويرتدي الزي الرسمي أحيانا، وها هو يخبرني وهو يبتسم .. أن ذلك جعل العسكريين الذين يقابلونه في الشوارع يقدمون له التحية. أتاح لي مخبأ رائعا ولم أشك في المخاوف التي كانت تساوره.. وفي إحدى الليالي رأيته لدى عودته في ساعة جد متأخرة من عمله (مرفوقا في سيارة الخدمة لحراس الإقليم) بعد أن نهضت للحديث معه قليلا وكان وجهه متشنجا. وبالكاد كان ينظر إليّ قبل أن ينهض مسرعا نحو المرحاض أين سمعته يتقيأ، ثم عاد ليجلس على كرسي في قاعة الأكل، وهو يبدو في حالة إحباط وإرهاق كامل. وقال لي : "هنري ؟! يجب أن تسامحني، عليّ أن أغادر هذا المكان، إنهم يقومون بأعمال مقرفة.. أنا لم أطلق النار، لكنني لم أعد أحتمل" . لقد كان مذهولا بما تطرق إليه وغير قادر على مراقبة نفسه.

وأعترف وهو يختنق خنقا، أن مجموعته بقيادة ضابط قاموا الليلة بتوقيف عدد من المشتبه بهم من منازلهم وقادوهم بعد استنطاقهم إلى

محجرة في حدود المدينة وقاموا بقتلهم بكل برودة. لم أحاول إقناعه بالبقاء لكي يستمر في مدنا بدعمه، فقد أدركت أنه حتى ولو أنه يرغب في ذلك، فإنه لم يكن يملك القوة على البقاء. غادرت بسرعة شقته إلى شقة أخرى، وعلمت بعد ذلك بقليل أنه غادر إلى فرنسا.

فالعثور على مخبأ والإبقاء عليه سرا والمحافظة على الاتصالات والاستمرار في النضال مع احترام قواعد الأمن، التي تتطلب بقاء كل واحد في ميدانه بدون التدخل في ميدان الآخرين وبدون البحث عن معرفة المزيد إلا إذا كان ضروريا، كان بمثابة القاعدة الذهبية للسرية، أما في الميدان العملي، فقد أصبح من الصعب أكثر فأكثر إتباعها. فكيف لو كانت لنا شقة ولا نتقاسمها مع آخر في السرية، يتتبع المظليون خطاه وهو يحاول يائسا أن يكون في مأمن ؟ كيف يمكن رفض مساعدته في مهمة إن لم يقم بها بسرعة، يتعرض مناضلون آخرون للخطر؟

وهكذا قمت بمهام لم تكن من مهامي، بل كانت من اختصاص (أندريه موان) وهو مسؤول في ذات الوقت عن مطبعة الحزب وعن إصدار la Voix du Soldat. فقد غادر الأماكن التي كان يتواجد بها على عجل، بعد أن أحيط علما باحتمال تعرضها للتفتيش من طرف المظليين والذي طلب مني إيواءه، وكنت أسكن حينها مع (جورج كاتوني)، المحاسب السابق للجريدة وذلك في إحدى عمارات ملاكوف وهو شارع مواز يمتد على طول جهة البحر ويربط باب الوادي بسانت أوجان (بولوغين اليوم).

كانت الشقة تتكون من غرفتين مؤثثتين سطحيا، كان (جورج) قد أجرها تحت اسم مستعار. وبالنسبة لحارس العمارة، كان عليه أن يعلم الشرطة بالمستأجرين الجدد، وكان الوحيد الذي يشغلها في انتظار زوجته التي كانت قد أحاطته علما بوصولها في وقت لاحق من عنابة التي تنحدر منها. كان يتعين إذن تحديد عدد مرات الخروج ومحاولة عدم لفت الانتباه قدر الإمكان.

كان (جورج) يقوم بالتسوق الضروري، وبالرغم من هيئته التي لا يمكن إلا أن تثير الانتباه فان وجوده في العمارة كان لا يثير أي فضول، طالما أن شكله المستدير الذي يوحي بشجاعته ثم أن ملابس الموظف التي يرتديها ولهجته الخشنة كانتا عاديتين. وكان الاتصال مع أطراف أخرى، من بينها قطاع (أحمد عكاش)، أحد سكرتيري الحزب يتم بواسطة إيليات لوب (Elyette Loup)، شابة تبلغ من العمر حوالي العشرين وهي طالبة في كلية الاقتصاد وقليلة التواجد على مقاعد الدراسة بالجامعة منذ أن كرست نفسها كلية للعمل النضالي السري. جد واثقة من نفسها، تجتاز بدون مشقة حواجز المراقبة للشرطة والجيش الفرنسي وقد أصبحت فعالة بصورة مدهشة. من بإمكانه الاشتباه في هذه الشابة الأوروبية الأنيقة، المناضلة الشيوعية (المتواطئة مع الفلاقة)؟.

قبل أن تبدأ حياة الظل، لم أكن أعرف (إيليات) إلا من خلال مشاهدتها في الاجتماعات. كانت متكتمة ولا تظهر إطلاقا في الصفوف الأولى، ويكفي اسمها لمعرفتها كونها تنتمي إلى عائلة (لوب). كانت أمها (جان) مالكة لمزرعة وبستان للبرتقال في المتيجة.. فقد كانت محاطة بأترابها وجيرانها من الكولون، ومحبوبة من طرف العمال الذين يعملون بمزرعتها، إنها خاصية متفردة، كونها تختلف عن جيرانها من كبار المعمرين العنصريين، لأنها تحفظ كرامتهم وعلى استعداد لسماعهم ومساعدتهم وحتى ماليا إن اقتضى الأمر على بناء مسكن لأفراد عائلاتهم. كافحت من أجل أن يتمدرس أطفالهم، وإقامة وحدة صحية للعلاج الطبي مجانا تكون في متناول الجميع.. وتتمثل فضيحة الفضائح عند جيرانها في فتح بيتها للنواب الشيوعيين الفرنسيين لدى إطلاق سراحهم من السجن، وقبولها الترشح للانتخابات البلدية على لائحة التقدميين..

دفنت (جان) في مقبرة المسلمين مثلما طلبت في وصيتها وفي المكان الذي يدعوه السكان اليوم (حوش مدام لوب) ولا يزال قبرها يحظى بعناية

وصيانة أولئك الذين عرفوها شخصيا وقد كتب اسمها على لوحة قبرها بالفرنسية والعربية.

ويقول رئيس التعاونية التي أنشئت فوق أراضيها والتي منحت عند الاستقلال من طرف إيليات وأهلها للذين كانوا يعيشون ويعملون فوقها لمن يأتي من الزوار، أن أعز قبر أقرب إليه هو قبر (جان) بعد قبر أمه، التي توفيت وعمرها قرابة المائة سنة وكانت صديقة لها على مدار السنين وطلبت أن تدفن بالقرب منها.

كبنت أصيلة لهذه المرأة المعمرة والنموذجية، التحقت (إيليات) بالشيوعيين وبالمعركة من أجل الاستقلال. تم اعتقالها من طرف مجموعة من المظليين من اللفيف الأجنبي الذين كانت قد أفلتت منهم عدة مرات قبل أن يتعرفوا عليها ثانية وبالصدفة، عندما كانوا مارين على متن شاحنة في الشارع الذي تسلكه. واقتيدت إلى مركز الاستنطاق بفيلا (Sisini)، حيث يسود النقيب فولك (Faulques) وأعوانه من أصحاب القبعات الخضر، قبل أن تسلم إلى المختصين في الاستنطاق المدعم.

قاموا بتعذيبها لمدة أربعة أيام : الضرب، الماء، الصدمة الكهربائية، وكانوا قد قاموا بتوقيفها بالقرب من شقتنا.. بعد أن كانت قد خرجت قبل قليل.. واتهموها بالقدوم لزيارة.. أو بصدد القيام بزيارة إلى متواطئين يسكنون في تلك المنطقة.

تطل نافذة المخبأ الذي نحتله في الطابق الرابع على رواق داخلي حيث تتفرع عدة أروقة نحو مداخل مباني أخرى، وقد استطعت أن أرى من خلف ستار حجرتنا مجموعة من المظليين يدخلون بأوامر من ضابط.

استنتجت من الاجتماعات التي يعقدونها أنهم سيتوزعون على السلالم والعمارات للتفتيش والبحث.. وفي حالة عصبية.. كنت أنتظر قدومهم للطرق

على باب شقتنا قبل أن يكسروها، لأننا لن نفتح لهم الباب. ويبدو أنهم لا يحوزون على معلومات دقيقة وأنهم يفتشون بطريقة عشوائية، وكان يلزمهم عدة ساعات للقيام بمراقبة نظامية لشقق المجمع السكني، وأخيرا وأمام وهن عزيمتهم تراجعوا. تنفسنا الصعداء مرافقي الاثنين وأنا عندما رأيناهم يركبون سيارتهم من نوع جيب ويمرون بالقرب من عمارتنا. ولم تأت (إيليات) إلى الموعد المحدد في اليوم الموالي. لم يكن هناك من تفسير غير أنه تم إيقافها وأنه بالرغم من التعذيب الذي تعرضت له فلم تنطق بكلمة من شأنها أن تعرضنا للخطر.

يؤكد إيقاف إيليات وغيرها من المناضلين في السرية، النزول غير المثمر للقبعات الخضر في العمارة التي كنا نختبئ فيها ما كنا نعلمه من قبل: فالشرطة والمظليون كانوا يبحثون بعصبية عن كشف مقر الحزب الشيوعي الجزائري وتدمير المجموعات الشيوعية. فكل حركة، وكل خرجة بعيدة عن المخبأ الذي يختفي فيه أي مناضل، يمكن أن تؤدي إلى توقيفه. وقد أفلتت مرة أخرى عندما كنت أنقل أشرطة ستانسيل لنصوص سرية.

حينما كان الوقت مساء – فترة بدت لي أكثر ملاءمة للتحرك بدون لفت الانتباه – أخذت سيارة أجرة للتنقل إلى أعالي مدينة الجزائر، غير بعيد عن شارع Pirette حيث كان ينتظرني أحد الأصدقاء، وقال لي السائق أنه سيمر من شارع Lyre الواقع أسفل القصبة. وقد تركته يفعل ذلك على مضض، كون هذا المكان من أكثر الأحياء مراقبة والشارع الأكثر طوافا في المدينة من طرف دوريات الشرطة والعسكر.

لكنني كنت أخشى أن أطلب منه المرور على شارع جبهة البحر حتى لا أثير بعض التساؤلات حول الزبون الذي ينقله. وبدا لي أن التنقل في سيارة أجرة يقودها أوروبي قد يضعني بعض الشيء في مأمن من المراقبة المحفوفة بالمخاطر. وفي أعلى الشارع، كان هناك رجال الجندرمة مدججين بالأسلحة

الرشاشة ومزودين بمصابيح كهربائية قوية، يوقفون جميع المارة الراجلين الذين يعبرون تحت الأقواس ويسدون الطريق على السيارات ويرغمونها على التوقف عند حافة الرصيف قبل أن يقوموا بتفتيشها ومن على متنها .

وكنت أجلس في المقعد الخلفي للسيارة، وقد شعرت أنني أصبت بالعمى من قوة الضوء القادم من المصباح الموجه إلى وجهي. كانت الستنسيلات مخبأة في علبة كبيرة للحلويات مربوطة بشريط وأمسك بها على ركبتي، وكأنني مدعو همه الوحيد أن يحمي قطعة الحلوى الهشة التي اشتراها قبل حين. وانتقلت حزمة الضوء نحو العربة ثم ثانية نحو وجهي. استنجدت بشنباتي وبعيني قصيرة البصر وبدون نظارة، مستظهرا بمظهر الأكثر سذاجة وبراءة قدر الإمكان..

لقد ساعدتني علبة الحلوى، وهيئتي التي تكون قد أقنعت رجل الجندرمة بهذا المظهر "لا يمكن أن يثير شبهات.. "تفضلوا بالمرور" قال ذلك للسائق.. تنفست حينها الصعداء إلى غاية المرة القادمة، حيث لن يكون الحظ ربما حليفي.

الاستنطاق

تزامن مطلع سنة 1956 في فرنسا مع نجاح الجبهة الجمهورية في التشريعيات وبدت نتائج هذه الانتخابات كنقطة هامة سجلها أنصار الحل المتفاوض عليه حول المسألة الجزائرية، كون البرنامج المقدم للناخبين يتضمن البحث العاجل عن وسائل للسلام، بالرغم من النزعة المعادية للشيوعية التي جعل منها القادة الاشتراكيون عقيدة لهم.

ولقد سمعنا أيضا السكرتير الأول للحزب الاشتراكي وهو يتطرق "للشخصية الجزائرية" التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار.

إنه مفهوم جديد بالنسبة لقيادة الفرع الفرنسي للأممية العمالية (الاسم السابق للحزب الاشتراكي (SFIO) يذهب في الاتجاه المعاكس لعقيدة "الجزائر فرنسية"، مثلما هو الشأن بالنسبة للأطروحة الثمينة لـ (فرانسوا ميتران) والتي مفادها أن فرنسا في بلدها "من الفلاندر إلى الكونغو ومن السنغال إلى السودان".

زاد خضوع (غي مولي) المثير للشفقة الذي جعله موضوع سخرية أثناء قدومه للجزائر من مخاوف الاستسلام لضغوط أنصار الحرب بالرغم من رغبة أغلبية الناخبين. ولم يكن مع ذلك نقض الوعود المقدمة بالأمر الواقعي بالنسبة لأغلبية الفرنسيين، إذ يمكن لغموض الخطابات الرسمية أن يترك

انطباعا بوجود إمكانية تغيير هذا التوجه، وفي شهر مارس وخلال التصويت على الصلاحيات الخاصة منح الحزب الشيوعي الفرنسي صوته (لغي مولي) بهدف فرض "وقف إطلاق النار والشروع في المفاوضات والتي بدونها لا يمكن للمسألة الجزائرية أن تجد حلا لها" حسب مفهوم (جاك ديكوس) الناطق الرسمي للجمعية الوطنية. وكان الاستدعاء المكثف لاحتياطي المجندين "المتوفر" لاستعادة النظام في الجزائر، واختطاف الطائرة المغربية المقلة للمندوبين الخمسة لجبهة التحرير الوطني إلى ندوة شمال إفريقيا بتونس من أجل حل متفاوض عليه للمسألة في أكتوبر 1956 وفشل الحملة العدوانية المشتركة البريطانية والفرنسية والإسرائيلية على مصر لإسقاط (جمال عبد الناصر) المتهم بتأميم قناة السويس ومساندة جبهة التحرير الوطني بالإضافة إلى تدوين القضية الجزائرية في جدول أعمال دورة الأمم المتحدة بالرغم من معارضة فرنسا، بمثابة أحداث كبرى، تؤشر بوضوح إلى الأبعاد الجديدة التي اتخذها النزاع.

غير أن الحكومة الفرنسية ما انفكت ترفض حلا آخر غير الذي قررت فرضه بقوة السلاح.

ولإعطاء صدى أكبر لهذه اللوائح الداعية إلى الحرب، قامت المجموعات المتشددة بالجزائر بتواطؤ مكشوف مع الشرطة المحلية بعمليات ضد السكان المدنيين في منتصف شهر أوت 1956، وهي المجموعة التي قامت قبل ثلاثة أسابيع بتلغيم مبنى الجريدة ومطبعتها وكذا بمهاجمة حي القصبة ذات الكثافة السكانية، لضمان سقوط أكبر عدد من الضحايا ومن بينها القنبلة التي انفجرت في شارع تيباس وأسفرت عن تدمير عدة منازل وموت العشرات من سكانها.

لهذه الأسباب قررت جبهة التحرير الوطني، القيام بعملية استعراضية استهدفت مقهى "ميلك بار" وكافتيريا مركز المدينة خلفت العديد من الضحايا في صفوف الأوروبيين.

وفي جانفي 1957 دعت جبهة التحرير الوطني إلى إضراب عام، الأمر الذي جعل الفرقة العاشرة للمظليين بقيادة الجنرال (ماسو) التدخل فيما سيعرف بعد "بمعركة الجزائر" وهي تسمية خاطئة في الواقع، إذ لم تكن معركة في حقيقة الأمر، بل هي عملية بوليسية ضخمة ودموية قامت بها فرق من المظليين ورجال الشرطة مستعملة الرشاشات والقنابل ضد المدنيين العزل. وكان الأمر يتعلق من خلال استعمال الأساليب الأكثر وحشية، التعذيب، مضاعفة الاعتقالات التعسفية، القتل العشوائي، بخلق جو من الرعب في أوساط السكان الجزائريين على أمل عزلهم عن جبهة التحرير الوطني التي يدعمونها بصفة جماعية.

قال الجنرال (ماسو)، في لحظة صراحة، لرجاله من المظليين "إن مهمتكم الرئيسية هي مهمة رجال شرطة ولنا أن نفتخر أكثر بالقول أننا ربحنا المعركة"، لم يعجب هذا التعبير بعض المسؤولين الجزائريين.

كانت المدينة تختنق تحت وطأة الحواجز والأسلاك الشائكة وعمليات التفتيش والمراقبة الليلية المستمرة من طرف الوحدات العسكرية في الأحياء "العربية" في كل من القصبة وبلكور وكلوصلاميي (المدنية).. حيث تدخل رجال الشرطة والجنود إلى المنازل، وقاموا بتحطيم الأبواب التي يتباطؤ سكانها في فتحها غير آبهين بصراخ الأطفال والنساء المرعوبين، ليقوموا بإخراج السكان من منازلهم شبه عراة ويرغمونهم تحت تهديد السلاح والهراوات على ركوب الشاحنات ونقلهم إلى "مراكز الفرز" وهي تسمية لا تدل على معناها لإخفاء الوجه الحقيقي لها كمراكز للتعذيب أين لقي العديد من أصدقائي حتفهم تحت التعذيب مثل (موريس أودان) و (عمر جفري) الذي توفي من جراء التنكيل به من بين آخرين".

قتل صديقي (علي بومنجل) "منتحرا" بأمر من الرائد أوساريس الذي أفتخر لاحقا بجرائمه في حق مئات الضحايا.

ففي مدينة الجزائر وحدها، اختفى أكثر من ثلاثة آلاف شخص في ظرف عدة أشهر دون أن يعثر لهم على أثر. وقتل آخرون أثناء محاولة هروبهم "المزعوم"، أما الأكثر خطورة فقد تم الزج بهم في مراكز الاعتقال.

ولتفادي الأذان الحساسة، يقول عنهم الساسة أنهم تحت الإقامة الجبرية.

وكنت أعرف هذه القضايا حتى قبل اعتقالي.

في فرنسا كان (غي مولي) رئيس المجلس و(روبير لاكوست) الوزير المقيم في الجزائر، يقسمان أنهما يقومان "بحرب نظيفة" وهما الأكثر المعية في هذه اللعبة، وأن الاتهامات الموجهة للجيش الفرنسي لا تعدو كونها مجرد أكاذيب حيكت في دهاليز الدعاية لجبهة التحرير الوطني والشيوعيين حسب إدعاءات غي مولي ولا كوست.

وفي الجزائر وعلى العكس لا تكلف السلطات المدنية والعسكرية نفسها عناء القيام بالتكذيب بل بدا لهم من الحكمة السياسية القيام بالتعتيم خوفا من إطلاع الذين قد ينقلبون على فرنسا في حالة تجرئهم على كشف الأشياء المعلومة وغير المعلومة.. فماذا لو علم الرأي العام بحقائق التعذيب!

توقيفات وسجن لآلاف المواطنين المشتبه بهم بدون محاكمات، تعذيب نظامي واغتيالات واختفاء تحت غطاء محاولة الفرار أعمال تكمل عمل مجموعات "إعادة السلام" في البلاد، بإحراق المشاتي المتمردة وإبادة سكانها.

في نفس شهر جانفي 1957 تم تفجير ثلاثة قنابل على التوالي في مقاهي "الاوتوماتيك" و"الكوك هاردي" ومرة ثانية في "الكافيتريا" وهي مؤسسات يؤمها الأوروبيون فقط. وقد تتالت الانفجارات إلى غاية شهر سبتمبر، ومن بينها العملية الأكثر استعراضا في شهر فيفري والتي استهدفت ملعبي الأبيار ورويسو وفي جوان قاعة الاستعراض بكازينو الكورنيش في بوانت بيسكاد.

في تلك الفترة شهد شارع (الفرد لالوش) بالقرب من مفترق طرق آغا

انفجار عبوات مخبئة في القواعد الحديدية للأعمدة الكهربائية بمحطة الحافلات "لمولان" في وقت ذروة الازدحام أصابت قطعها المتناثرة العمال الأوروبيين والمسلمين الذين كانوا ينتظرون الحافلة. لقد كنت أتساءل ومعي آخرون حول الشرعية الأخلاقية والجدوى العسكرية والسياسية من مثل هذه الأعمال التي تمس المدنيين بالدرجة الأولى.

تمكنت أثناء تواجدي بالسجن من محاورة مسؤولين عن جبهة التحرير الوطني عن حي القصبة حول هذه المسألة، وقد فوجئت بإيمانهم الراسخ من أن جميع العمليات التي يقومون بها حتى ولو كان ضحاياها من الجزائريين، تخدم قضية الاستقلال.

لم أكن أشاطرهم الرأي بأي شكل من الأشكال، وكنت أرى انه يجب على المحاربين أن يحترموا بعض المبادئ وإظهار اختلافهم التام مع العمليات الفدائية حتى في زمن الحرب.

وأن يجتهدوا قدر الإمكان في انتقاء خصومهم الحقيقيين وأن أي تصرف آخر لا يمكن إلا أن يخدم دعاة العنف و"الجزائر فرنسية"، وزيادة الدعم الذي يتلقونه من الأوروبيين الذين ترعرعوا في مجتمع متشبع بالعنصرية ساهمت الحكومة صحافتها في تضليلهم أكثر.

كما طرح نفس السؤال أيضا على الحزب الشيوعي الجزائري وبالرغم من تنبّيه مسؤولي جبهة التحرير الوطني إلى العواقب الوخيمة لهذه الأعمال "العمياء" فقد أجمعت قيادتها بالرغم من التردد في الحسم في هذه المسألة على نقد علني للشيوعيين قد يساء فهمه ويفسر على أنه رفض للكفاح المسلح نفسه من شأنه أن يلحق الضرر بوحدة المكافحين.

بيد أنه يبقى من الواضح أن المسؤولية الأولى عن سفك الدماء وعن العنف وإظهار الكراهية، تقع على عاتق الحكومة الفرنسية التي ابت إلا أن تنتهج سياسة عبثية وإجرامية.

إن (ماسيو) وأتباعه وقواته الخاصة لا يعملون إطلاقا كما يزعمون من أجل حماية الأرواح البشرية وفي تحضير العودة إلى السلم. بل على العكس يتنافسون على إذكاء الروح العنصرية والاستعمارية للمتطرفين والقيام بعمليات قتل جديدة.

وفي آخر يوم سبت من ديسمبر 1956، كنت متخفيا وراء ستار إحدى نوافذ المخبأ السري في شارع ملاكوف أراقب الموكب الذي يتبع جثمان (أميدي فروجر) رئيس بلدية بوفاريك ورئيس فيدرالية أميار الجزائر، الذي اغتيل قبل أيام أمام مقر سكناه العاصمي من طرف كوماندوس لجبهة التحرير الوطني، وكان الضحية وجها بارزا من دعاة الاستعمار وكان على رأس مجموعة من الرجال المخلصين والمختصين في العمليات العقابية والتصفيات الجماعية لسكان البلدية المشتبه فيهم.

استقبل السكان الأهالي العملية التي وضعت حدا للأعمال الإجرامية لهذا المستبد كعمل شرعي، غير أنها أثارت لدى الأوروبيين الذين يتقاسمون مواقفه رغبة هيستيرية في الانتقام.

أشاهد الآن الجموع تتقدم ببطء وفي صمت نحو مقبرة سانت أوجين، ودون سابق إنذار تتوقف الحركة، عندما أطلت سيارة في بداية الشارع سرعان ما تم تجميدها من طرف عشرات الأشخاص المشاركين في الموكب الجنائزي، وقد لاحظت أن بعضهم كان يعطي إشارات تأكيد للبعض الآخر، على أن السائق عربي، وفي لمح البصر تطايرت شظايا زجاج النوافذ وبقر عجلات السيارة التي هبطت لترتطم بالرصيف، وقد اجتمعت العصابة في لحظات معدودة وهي تصرخ حول سيارة أخرى يقودها سائق من أصل عربي على غرار الأولى.

وقام "المنصفون" بفتح الباب وانتزعوا امرأة ملتحفة تحمل بين يديها رضيعا وألقوا بها دفعة واحدة على قارعة الطريق لينهالوا عليها ضربا في

حين قام آخرون بدفع سائق السيارة وبقية مرافقيه إلى غاية جهة البحر ليلقوا بها إلى قاع البحر وعجلاتها تعانق السماء وكأنها تتردد في اتخاذ طريقها إلى قاع البحر، أين وجدت مستقرا لها على بعد عشرين مترا نحو الأسفل فوق الصخور المترامية.. تم كل هذا تحت التصفيقات الهستيرية للقتلة والمتواطئين معهم، ثم انطلقوا بعد ذلك في البحث عن ضحايا آخرين، في حين كانت المرأة الملتحفة تنظر من أعلى الجدار الفاصل نحو البحر الذي سيبتلع أهلها.. ياله من منظر مرعب !

على طول الطريق المؤدي إلى المقبرة وحتى وسط المدينة بدأت حملة صيد للعرب بالمسدسات والسكاكين خلفت عشرات القتلى والجرحى.

تناولت جريدة la Dépêche quotidienne في اليوم الموالي وبالخط العريض على صدر صفحتها الأولى، الصيغة الرسمية لحوادث الصبيحة واجتهدت في تقليص الحصيلة الدموية: "عند مرور الموكب الجنائزي للرئيس "فورجر" وبحضور عدة آلاف من العاصميين، كتبت: "أسفرت استفزازات إرهابية عن رد فعل عنيف من طرف الحضور خلف ستة قتلى وستون جريحا" إنها مجرد بلبلة في الواقع كما حدث بعد ذلك في قسنطينة، بعد العملية التي نفذت قبل أشهر ضد محافظ الشرطة (سان مارسيلي) المعروف بمعاملته الوحشية للجزائريين الذين يقعون في قبضته.

وبمجرد انتشار خبر موته، قام ابنه وأصدقاؤه بحمل أسلحتهم والنزول للشارع وأطلقوا النار على المارة من المسلمين ورواد مقهى شعبي قريب أعقبوا ذلك بقتل مناضلين وطنيين ونقابيين وشيوعيين وأعضاء جمعية العلماء وشخصيات معروفة بمواقفها التقدمية.

ويمكن لكل واحد بعدها أن يقرأ في الصحف المحلية أن "الإرهابيين وشركاءهم قتلة المحافظ (سان مارسيلي) قد لقوا جزاءهم العادل".

وعندما بلغتني هذه الأخبار التي يفيد التعريف بها في الخارج، استعدت مهنتي كصحفي. كانت مقالاتي تحمل عنوانا واحدا: "رسالة من الجزائر" ولم أكن أوقع تلك المقالات. كان المراسل الباريسي الذي أبعث له بواسطة البريد المقالات المخطوطة، يعرف خطي ويقوم بإرسالها إلى جريدة l'Humanité. وكنت أجهل ما إذا كانت تصل إلى وجهتها وما إذا كانت تنشر كون الجريدة ممنوعة من التوزيع في الجزائر.

صدفة وخلال "جلسات التعذيب" علمت من طرف أحد جلادي، بدون أن تكون له نية إعلامي، أن بعض هذه المقالات وصلت فعلا، وإنها لم تمر بدون لفت الانتباه وبالرغم من أنها غير موقعة، فقد علمنا أنك كاتبها: "كتبت مقالات حول التعذيب، أليس كذلك أيها الحقير، ثم ماذا الآن، إنها الفرقة العاشرة التي ستكتبها في جسدك".

وما انفكت ظروفي في السرية، على غرار ظروف رفاقي تزداد تدهورا، ومهما كان حذر كل منا، كنت أشعر جيدا أن لا أحد منا كان بمنأى عن الاعتقال الذي قد يتم بين لحظة وأخرى.

كان أطفالنا في فرنسا، أندريه الابن الأكبر الذي كان يسكن لدى أخي وزوجته وجون لدى جدته وخالته التي تسكن في جنوب فرنسا. كنت أشعر بارتياح كبير، أنه مهما يحدث لنا، فإن الأطفال لن يكونوا في خطر، وكانت (جيلبرت) قد غادرت مسكننا في لارودوت لتسكن في شارع شارل بيغي في قلب مدينة الجزائر في شقة أعطتها أمها مفاتيحها حيث كنا نلتقي فيها من حين لآخر.

بقيت على اتصال مع الحزب، حينها كان لا يزال في الشرعية، وكانت زوجتي تواصل عملها كأستاذة للآداب في ثلاث مؤسسات خاصة ومختلفة، ومنذ أن لاحظت الإدارة على إثر إضراب "تغير حالتها الفكرية" أعلمتها أنها لا تستطيع من الآن الاعتماد على منصب في مؤسسات التربية الوطنية.

لكن هل ستبقى الشرطة والمظليون طويلا بدون الاهتمام بها ؟ لقد وضعنا في الحسبان إمكانية اعتقالها ووضعنا معا الإجابات التي ستدلي بها عندما يطلب منها معرفة مكان تواجدي وكيف ستتصل بي.

وقد اتفقنا أن تصرح، أنني موجود في فرنسا حيث ذهبت للحصول على الدعم للحفاظ على مصالح جريدة "الجزائر الجمهورية". غير أن الأمور جرت على عكس ما تصورنا، ففي اللحظة التي دخل المظليون إلى الشقة التي تحتلها كنت بين أيديهم منذ اليوم السابق يوم 12 جوان 1957 وقد أبقوا ذلك طي الكتمان، ليطرحوا عليها الأسئلة التي توقعناها على أن تقدم لهم الإجابات المعدة سلفا.

بدت لهم هذه الوضعية مضحكة، ولم تعلم (جيلبرت) أنهم كانوا قد قاموا بخلع قفل علبة البريد حيث وجدوا رسالة من رفاقي يحيطونها علما باعتقالي، وبينما كنت لا أزال مشدودا إلى لوحة التعذيب قال لي أحدهم وهو يضحك: ستختفي ولن نكون مسؤولين.. أنت في فرنسا.. إنها زوجتك من قالت لنا ذلك.."

في هذه الأثناء وفي الشقة التي تحتلها (جيلبرت)، كان المظليون يتداولون زوجيا على حراستها، فقد كانوا يقيمون بها لعدة أيام يأكلون ويشربون وينامون في الرواق الكبير على أمل أن يزورها أحد من ذوي الشأن وهو ما لم يحدث لحسن الحظ، لقد كانوا من الشباب المجندين الذين قدموا من الريف الفرنسي على ما يبدو، وكانوا يقضون يومهم بلا جدوى وبدون قناعة في تصفح المجلات والرسوم المتحركة، لكن وخاصة في اللعب بمسدساتهم وهم يمثلون بالإيماء هجومات محتملة على الأبواب ويتخيلون أعداء وهميين.

وفي المساء الخامس أخذت الأمور منعرجا آخر فالمظليان اللذان جاءا لاستخلاف من كانا في المناوبة، كانت لهما ملامح القتلة، إذ بمجرد الانتهاء

من تناول وجبتهما، لم يقوما ببسط أفرشتهما للنوم مثل الآخرين، وإنما بقيا قابعين على الكراسي، وبديا كمن ينتظر أوامر تأخرت في الوصول.

فمنذ البداية، كانت (جيلبرت) مقتنعة، أنني كنت من يريدون القبض عليه وهذا "صحيح" إلى حد الآن، وهي تعتقد أنه لإتمام الاستنطاق الذي أخضعت له من طرف ملازم ونقيب (الذين كانا بالأمس ضمن مجموعة الجلادين الذين يتولون تعذيبي) كانا سيقودانها إلى "مركز للفرز".

وحتى لا تتعرض للاختفاء بدون ترك أثر، حاولت من خلال نافذتي الحمام والمرحاض اللتين تقعان في نهاية البهو وتطلان على رواقات داخلية.. المناداة بدون لفت انتباه حراسها، اثنين من الجيران اللذين تعرفهما لكي تطلب منهما إعلام وكيل الجمهورية أن المظليين يستعدون لأخذها إلى مركز للتعذيب.

ونظرا لجو الرعب الذي يخيم على المدينة، جعل الجيران يردون عليها بعدم القدرة على فعل شيء ما. عندها قام أحد حراسها وهو يتهددها بمنعها من إتمام حديثها، وأقفلت النوافذ وكانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلا.

كان أحد المظليين في الرواق يتحدث في الهاتف إلى رؤسائه: إذن.. هل سنحضر لك الرزمة ؟ قطع المكالمة وهو يزبد وذهب ليجلس من جديد.

طال الانتظار وفي حدود منتصف الليل، رن الهاتف من أجل رسالة جد قصيرة، وضع الحارسان إثر ذلك عتادهما قبالة مدخل الباب استعدادا للنوم.

أمر مضاد، لقد حدث شيء ما في المركز جعل القيادة تغير مخططاتها. وفي اليوم الموالي أطلقوا سراحها.

لقد تم توقيفي عند بيت (موريس وجوزيت أودان) وهما شيوعيان. وكان (موريس) أستاذا مساعدا في مادة الرياضيات بجامعة الجزائر، و (جوزيت) أستاذة للرياضيات بالثانوية. كانت مهامنا السرية مستمرة التواصل، إذ من المفروض أن لا أذهب إلى منزلهما، غير أن الأمر استدعى في اللحظة ذاتها،

أن أحيطه علما بالاعتقالات الأخيرة والتي يمكن أن تهدد أمن قطاعات أخرى، إذ لم يتم إشعار القائمين عليها في الوقت المناسب. وصلت إذن إلى منزل (موريس) في عمارة بحي المناورات (أول ماي حاليا) حيث يسكن مع (جوزيت) وأطفالهما. كان قد تم اعتقاله بالأمس وكنت أجهل ذلك.

دقيت الجرس وفهمت على الفور أن من جاء ليفتح لي الباب كان شرطيا. لقد وقعت في مكيدة، وفي الظلام خلفه تعرفت على جوزيت وبيدها رضيع لا يتعدى عمره عدة أشهر.

أدخل، يقول الرجل.

- "السيد (أودان) غير موجود هنا.. إذن غير مهم.. سأعود، لقد جئت من أجل توقيع بوليصة التأمين.."

- "أية شركة؟"

- "شركة *Soleil*، شارع إيزلي، قلت ذلك بسرعة، لكن عفوا، علي أن أذهب، لدي عمل .." لقد أمسكني من ذراعي وجرني إلى داخل الغرفة.

"لا إبقى.. أنا مفتش الشرطة، ولدي أوامر بالاحتفاظ بكل من يأتي إلى هنا إلى غاية عودة الرؤساء.."

دخلت وأنا أحتج ضد الوقت الذي ضيعوه علي وجلست على الأريكة المقابلة لمدخل الدار، وكان الشرطي ينظر إليّ بعناية وكأن وجهي يذكره بشخص آخر لا يستطيع استذكاره.

لم أكن قد نزعت قبعتي بعد ولم يكن قد تعرف عليّ هو الآخر. استقر على كرسي وظهره إلى الباب وقد لاحظت فوق رأسه مفتاح معلق في مسمار.

وبينما نهض لترويض ساقيه، التقطت نظرة (جوزات) التي تظاهرت بعدم معرفتي، وكنت أنظر إلى المفتاح ثم إلى القفل.. وردت علي بإشارة إيجابية.

وبعد لحظة انسحب المفتش إلى المرحاض، أسرعت إلى المفتاح، فتحت وأغلقت الباب ورائي ونزلت السلالم بأقصى سرعة ممكنة، وبدوره فهم الشرطي الذي سمع صوت المفتاح يدور في القفل المغلق بدورتين فورا بماذا يتعلق الأمر، وبمفتاح آخر سلم له وهو ما كنت أجهله فتح الباب على عجل، ليمسك بي في السلالم والمسدس بيده مصوب نحوي وعلى استعداد لإطلاق النار، لقد كانت يده ترتعش وكان أول رد فعل مني هو محاولة تهدئته.

"حسنا، هيا بنا، لا تغضب، سأصعد من جديد"

وبمجرد عودتنا إلى الشقة وسلاحه لا يزال بيده ويراقبني، أمسك الهاتف وقام بإعلام القيادة. وصل دركي واثنان من الكوماندوس من بينهما واحد برتبة ملازم، سأعرف لاحقا اسمه: شاربونيه (Charbounnier) الذي تكفل بي، نزعت قبعتي وقد عرفني فورا، "صيد ثمين، يقول شاربونيه إنه (هنري علاق)، المدير السابق لجريدة " الجزائر الجمهورية"

ثم استدار نحوي :

– " من يأويك ؟ هذا.. لن أخبرك بذلك"

– " أما هذا السؤال فلن أوجبك عنه ..!"

يبتسم وهو متأكد من نفسه إذ يقول: سنقوم بتحضير استنطاق صغير بعد حين سيكفيك، ستتكلم، أعدك، ضعوا له الأصفاد.."

لقد أخذوني إلى غاية عمارة في طور البناء بشارع Clemenceau بالأبيار، حيث يتواجد أحد مراكز الجنرال (ماسيو) "للاستنطاق المشدد" ولم تمض ساعتان حتى كنت مقيدا إلى لوحة التعذيب، وبقيت في هذه الأماكن لمدة شهور مسجونا في حمام غير مكتمل يستخدمه المظليون كسجن إنفرادي، ففي الأيام الأولى عرفت الآلام المعتادة للماء والنار والكهرباء مع اختبار خاص، اختبار استنطاق يتم بعد أخذ حقنة من "مصل الحقيقة" تجربة فهمت

أنها جديدة على جلاديي، لم تكن مثمرة بالنسبة إليهم أكثر من محاولاتهم السابقة لانتزاع الاعترافات مني. ولم يعد جسدي المرهق من الاختبارات يتفاعل ليتركوني في الأخير، بيد أنهم طلبوا مني إذا كنت أعتقد أن زوجتي التي أكون قد تعرفت على صوتها في خضم الصراخ من الألم الذي يردد المركز صداه على مدار الليالي "استمر في التماسك". وذات مساء وفي ساعة متأخرة، ظهر (شاربونيه) أحد جلاديي وطلب مني أن أكون على استعداد. ثم نادى رجاله لتحضير (موريس أودان) والدكتور (جورج حجاج) أحد رفاقنا الذي تم اعتقاله وتعذيبه من طرف نفس فرقة المظليين.

وسمعت بعدها صوت محرك في الباحة وبعد لحظات طلقات رشاش في الليل، ولم يعد (شاربونيه) للبحث عني، إنها تلك الليلة التي زعم أحد قتلته لاحقا.. أن موريس هرب. لقد تطرقت إلى كل هذا في "الاستطاق".

وبعد أيام من الحادثة، وفي الصباح الباكر نبهني أحد المظليين أنني سأغادر المكان، وقد نزلنا إلى بهو المبنى حيث تركن سيارة نفعية مغطاة، كان يجلس على أحد مقاعدها جندي شاب، مجند بلا شك، ينتظر وبندقيته على ركبتيه، إنه فولك (Faulqus) نقيب في المظليين، من القبعات الخضر للفيف، رئيس الفريق الذي يعمل في فيلا Sésini هناك، لقد أشار علي بالصعود لأجلس على الكرسي الآخر، لكنه لم يذهب وقبل أن يعطي الأمر للسائق بالإقلاع، طلب من الجندي المكلف بحراستي ما إذا كان يعرف التعليمات، وقد أجابه الآخر بإيماءة برأسه ولكن بحركة يمكن أن تعني أن هذه "التعليمة" لا تعجبه إطلاقا. عندئذ فهمت الدوافع بعدما رأيت الاتجاه الذي نسلكه.

لقد كنا نتجه نحو البليدة لنلتحق قريبا بالطريق الملتوي في أعماق منعرجات وادي شفة.

فما من يوم يمر بدون وقوع عمليات تستهدف الدوريات أو قافلة من المجاهدين الذين سرعان ما يختفون في دروب الجبال القريبة، وحسب

جميع الاحتمالات، فإن التعليمة كانت تتضمن قتلي في حالة هجوم أو محاولة فرار أو أي حادث، وكان لدي انطباع أن الذي يحرسني لم يكن يشعر بالارتياح طيلة عبوري بالمنعرجات.

تمنيت شخصيا أن نصل بسرعة إلى وجهتنا وكما فكرت فيه، فالأمر يتعلق بمحتشد Lodi، قرية قريبة من المدية حيث يحتجز العديد من المناضلين لقد حاولت أن أجر الجندي المكلف بحراستي إلى نقاش قد يساعد على الحيلولة دون إتمام المهمة التي كلف بها في حالة تعرضنا إلى هجوم أو حاجز لجبهة التحرير الوطني، غير أنه بقي صامتا يتفادى نظرتي ويدير رأسه جانبا عندما أخاطبه. قد يكون تلقى تحذيرات صارمة أو تم اختياره بعناية.

وأخيرا.. توقفت الشاحنة الصغيرة عند مدخل المحتشد وفتح طاقم الشرطة المكلف بالحراسة الأبواب. تنفست وقتها الصعداء وارتميت في أحضان رفاقي.

وخلال الشهر الذي قضيته في مركز التعذيب، لم يتم تزويدي بالطعام على غرار بقية المساجين، إلا بحصة يومية من البسكويت وبمغرفتين من بقايا تصب في قدر معدني للمطبخ الخاص بالمظليين. كنت أعثر في هذا الحساء المنفر الذي لم أكن ألمسه في البداية، لكني اجتهدت لاحقا في بلعه على نواة حبات الزيتون وقشور وأعقاب السجائر وأعواد الثقاب تسبح فيه. لقد وصلت منهكا مرتخي الساقين وجائعا.

بدت لي أولى الكلمات التي سمعتها أنها قادمة من عالم آخر، وقال لي رونيه زكان (René Zaquin)، عضو سابق في الشبيبة الشيوعية، وأصبح سكرتيرا لنقابة الكونفدرالية العامة لعمال المستشفيات، ورقي إلى مرتبة رئيس الطباخين للمعتقل : "هل تريد أكل شريحة لحم وبعض البطاطا؟ سيكون مفيدا لك".

لقد اعتقدت لحظة أنها مداعبة سيئة.. لكن كلا. ففي مذاق طبق عادي، استعدت لذة الحياة وحرارة الأصدقاء التي تعودت عليها. ستكون ليالي غير تلك الليالي التي قضيتها في دار التعذيب بالأبيار، حيث صراخ الرجال والنساء من الذين يئنون تحت الضربات ولسعات التيار الكهربائي. كان أغلب المعتقلين (وعددهم حوالي مائة وأربعون) من المناضلين الشيوعيين، كانت لأغلبهم مسؤوليات نقابية، وكان أغلبهم من أصول أوروبية، وتضم المعتقلات الأخرى وهي أكثر اتساعا من معتقل Lodi، آلاف المسلمين، والمناضلين الوطنيين والشيوعيين المتعاطفين أو المشتبه في تعاطفهم مع قضية "المتمردين" وكان هؤلاء تحت الإقامة الجبرية في مركز للإيواء، التسمية التي تفضلها الإدارة عن تلك التي قد تقدم ترجمة أفضل للواقع غير أنها ذات وقع سيء "محجوز في محتشد".

كانت السلطات تفضل أحيانا إرسال لجان تفتيش إلى معتقل Lodi. وكان الزوار يلاحظون إيواء المعتقلين في ثلاثة مراقد بها أربعة صفوف من الأسرة ويعيشون في ظروف مقبولة، تنظيم دروس وأمسيات ترفيهية وأكل معقول، ولا يعانون من الإهانات ولا من سوء المعاملة من طرف التأطير البوليسي وبالتالي فإن كل شيء كان من أجل الأفضل قدر الإمكان من أحسن "إقامة مراقبة".

لا يمكننا أن نقول نفس الشيء عن بقية المعتقلات وخاصة تلك التي تجمع المحاربين الذين يطلق عليهم بالتعبير العسكري (أمسك والسلاح بيده) حسب تعبير الإدارة العسكرية وهي عبارة عن سجون حقيقية للأشغال الشاقة، غير أن هذه الأخيرة غير مشمولة بمسار زيارة لجان التفتيش.

وفي Lodi، وجدت بعضا من رفاقي في "الجزائر الجمهورية"، بول عمار Paul Amar، جون بيار سعيد (Jean Pierre Said)، فانسان إيفوار(Ivorra Vincent)، رونالد رهايس (Rolland Rhaïs) وغيرهم من الأصدقاء مثل الرسام

رونيه دوفاليه (René Duvalet) زوجته دونيسDenise، وهي أيضا من قدماء الجريدة، والتي ستطرد قريبا من الجزائر ثم يحكم عليها غيابيا والتي جلب لها منصة التعذيب وروبير مانرانش (Robert Manaranche) صاحب الندوات التربوية الأخاذة لقلوب رجال لم تسمح لهم الحياة بالحصول على ثقافة أكثر اتساعا من ثقافتنا.

وعلى غرار أغلبية الموجودين تحت الإقامة الجبرية وبالرغم من الأيام والأشهر التي يقضونها منفصلين عن أهاليهم كانت تصلهم أخبار الحرب الدموية، والقصف وحرق المشاتي وإشعال الغابات بقنابل الفوسفور في الجبال المجاورة، كانوا يتعايشون في جو من الإخاء فيما بينهم، أكثر صلابة في قناعتهم مما كانوا عليه عندما كانوا يناضلون بحرية.

يعود الفضل في هذا الموقف السياسي والأخلاقي للذين انتخبوهم كمسؤولين في المعتقل والذين يقومون بدورهم على الوجه الأكمل بدءا من رونيه جوستاربو (René Justrabo) أستاذ الآداب، ورئيس بلدية سيدي بلعباس في الأصل، الذي لم تكن تدخلاته في الجمعية التي كان العضو الشيوعي الوحيد بها لا تمر مرور الكرام. كان يضع الذين يقوم بالتنديد بهم بتهكم في حالة سعار يجعلهم يعضون على أصابعهم وخاصة كبار الكولون، أصحاب المطاحن والبواخر وكبار موظفي الحكومة العامة وجميعهم خبراء في "تعريق البرنوس" بتواطؤ من مندوبي "بني وي وي" (béni-oui-oui) الذين يعود الفضل في الحصول على مقاعدهم إلى انتخابات مزورة.

على عكس ما تريد تقارير اللجان الرسمية اعتماده، لم يكن معتقل Lodi كنوع من الواحات الأمنية المريحة لا يملك نزلاؤه إلا أن ينتظروا نهاية الحرب لإطلاق سراحهم. ولم يكن الهدوء إلا مسألة ظاهرية، فالمعتقلون يوجدون في وضعية أسرى يتوقف مصيرهم ومستقبلهم على العوامل السياسية والعسكرية التي لا يتحكمون فيها. فهم ليسوا بمنأى عن الاستفزاز وكمثال عن هجوم

خارجي وهمي أو تمرد مزعوم في المعتقل نفسه، يؤدي إلى عملية قمع دموية. ولا يتعلق الأمر هنا بكوابيس بدون محتوى، إنهم يديرون الحرب ومعهم حلفاؤهم من المتشددين الذين أظهروا بعد أنهم قادرون على مثل هذه المناورات. فهناك تهديدات مباشرة تحوم حول المناضلين التي يجهل رجال الشرطة مسؤولياتهم ونشاطهم السري لحظة اعتقالهم.

يكفي أن يوجد أثر يؤدي إليهم أو شك يحوم حولهم حتى يتقدم المظليون إلى المعتقل ليأخذوهم للاستنطاق، ويحكى أحد رفاقنا مارسيل لوكيمان (Marcel Lequément)، أحد سكرتيري نقابة السكك الحديدية بمدينة الجزائر، الذي اعتقل ونقل تحت الحراسة عن الساعات الجهنمية التي قضاها بين أيديهم، وهكذا عندما يدق جرس شباك الدخول، يسكت الجميع، كل شيء يتوقف في المعتقل الذي تخيم عليه في لحظة واحدة طبقة من الصمت والقلق والخوف الرهيب على الجميع : المظليون؟ لمن جاؤوا؟ وعلمت في Lodi أن (جيلبرت) قد تم طردها إلى فرنسا، لأنها لا تلتزم "الهدوء" مثلما نصحوها.

وبمجرد أن أطلق سراحها من طرف حراسها، حتى توجهت إلى فندق Aletti حيث يقيم المحامون الفرنسيون الذين يتناوبون بطريقة تكاد تكون متواصلة على ضمان الدفاع عن السياسيين الجزائريين، ففي هذا المكان اكتشفت أمر وجودي بين يدي المظليين منذ 12 جوان.

وقامت بعدها بإرسال برقيات لأهم الصحف الفرنسية ورسائل إلى النواب المعارضين للحرب، وبنشر الخبر على نطاق واسع، وأحاطت الجميع بالخطر المحدق بأصدقائي وبشخصي في هذه الحالة. وفي نفس الوقت قامت بحضور محام أحيانا بمضاعفة المساعي، لدى ممثلي مختلف الديانات (القس دوفال، أسقف مدينة الجزائر) البروفيسور شارل ريشي (Charles Richet) مندوب لجنة حماية الحقوق والحريات الفردية، لويس

مارتان - شوفييه (Louis Martin-Chouffier) الذي يقيم هو الآخر في الجزائر رفقة وفد مكلف بالتحقيق في مراكز الاعتقال، بيار ميسوناف (Pierre Maisonneuve) رئيس الديوان المدني والعسكري للحكومة العامة، بول روليكيه (Paul Reliquet) النائب العام بالجزائر، وقامت بجولة ليست بالضرورة مثمرة إلى جميع مراكز الفرز المعروفة في الجزائر وضواحيها للعثور علي. وقد توجهت في الأخير إلى مقر القيادة العامة للجنرال (ماسيو).

وخلال نقاشاتها قالت أن الجميع في الجزائر وفرنسا أنني كنت بين يدي العسكريين في الفرقة العاشرة وأن هؤلاء ورؤساءهم سيتحملون المسؤولية لو حدث لي شيء ما.

وقد اهتدت في الأخير إلى مقابلة العقيد ترانكي (Trinquier) أحد المقربين من الجنرال (ماسيو)، المسؤول عن الجزائر الكبرى ومنظر "الحرب ضد الدعاية"، الذي شرح لها أنه ما كان يتعين تحميل المظليين بلوائح قانونية ثقيلة. ولإثارة رد فعله، حملت بعض الملابس الداخلية لإيصالها لي وبارتياح كبير سمعته يقول "أجل.. إنها قضية خلقت الكثير من البلبلة، سترسل هذه الملابس إلى زوجك يا سيدة، أعدك بشرفي كضابط فرنسي".

وبعد يومين من هذا اللقاء، طرق شرطي باب منزلها في حدود الساعة التاسعة ليلا، ليطلب منها مرافقته إلى المقر المركزي للشرطة حيث سيتم إبلاغها ببعض الأمور، لكنها ومن باب الحذر رفضت فتح الباب قبل أن تتصل هاتفيا بالنائب العام جول بوركر (Jules Borker) المحامي الباريسي المتواجد في فندق Aletti.

أثار عدم استجابتها للأوامر غضب الشرطي الذي باءت جميع محاولاته بالفشل رغم إلحاحه، وما كان عليه إلا أن يقضي الليل عند عتبة الباب بعد أن أحضر له كرسي طويل، وتكون أوامر قد صدرت قصد عدم إثارة فضيحة

في هذه العمارة التي يقطنها أغنياء عند محاولة كسر الباب المدرعة الموصدة بأحكام وبعدة أقفال. وفي الصباح استطاعت (جيلبرت) الاتصال بالمحامي (بوركر)، وعندها فتحت الباب للشرطي وهي على استعداد للذهاب معه إلى محافظة الشرطة حيث تم تسليمها قرار الطرد. لقد منح لها مدة ربع ساعة لأخذ بعض لوازمها، ثم اقتيدت إلى أول باخرة متجهة إلى مارسيليا.

وبمجرد وصولها إلى باريس، استأنفت المساعي، من خلال الأحاديث الصحفية، والرسائل الموجهة للصحافة، وزيارة مختلف الشخصيات الإعلامية، وكانت تلح على تخوفها من أنني أكون قد "هربت" مثل (موريس أودان) وغيره، وبمجرد ما علمت بأمر نقلي إلى Lodi، جددت تحذيرها لدى السلطات العسكرية. "أنني أشعر بخطر الموت" مادام المظليون يملكون إمكانية نقله إلى مركزهم للتعذيب وهو ما يستطيعون فعله في أية لحظة مادام في المعتقل، وكانت تلك نيتهم الأولى وأذكر تهديدات (فولك) قبل مغادرتي الأبيار.

"أنت لا تريد أن تقول لنا شيئا.. أنا أجعل الناس يتكلمون عندما أضع السكين على حنجرتهم، سأواصل معك بالليل".

ولم تكن كلمات جزافية، وأعتقد أن (ماسيو) وأتباعه يكونون قد ندموا على قرارهم بطرد (جيلبرت).

وفي باريس زاد حجم التنديد والمطالبة بالحقيقة من طرف الحزب الشيوعي الفرنسي ومناضليه والمتعاطفين معه والكونفدرالية العامة للعمال والمثقفين والجامعيين والصحافيين وعمال الصحافة الذين يعرفونني في النضالات الكبرى السابقة "للجزائر الجمهورية"، مثل (جان فرانسوا دومنيك من جريدة Libération، (روبير لامبوت) من جريدة l'Humanité، (مادلين ريفوا

من الحياة العمالية، (جون دورفال)، (برنارد ليون كايان)، (جان فيدو) من الاتحاد الفرنسي للإعلام، الذين بدأ يلتحق بهم محرروا جريدة le Monde وبعض الأسبوعيات مثل l'Expresse، France observatoire، Témoignage chrétien، في قلب فرنسا التي تزداد قلقا أكثر فأكثر حول انخراطها في حرب يصرون وبإلحاح على إخفاء وجهها المرعب، وهذا زاد صوتها قوة، حيث لم أكن أشك شخصيا في أبعاد صداه.

وبموازاة ذلك، بدأت في الاستجابة لدعوات جمعيات الشباب والنساء والمشاركة في التجمعات الشعبية الكبرى (حركة السلم، المؤتمرات النقابية، اللقاءات الدولية) وكذلك في اجتماعات النساء وأمهات الجنود أو فروع الحزب الشيوعي الفرنسي قصد التنديد العلني بعمليات التعذيب وويلات هذه الحرب والتعريف جيدا بمصير الشعب الجزائري وأسباب معركته.

كان من السهل التمييز في المعتقل بين المتفائلين والمقتنعين بالهزة الاقتصادية والسياسية والعسكرية لفرنسا وبتزايد الانتقادات الموجهة لها على الصعيد الدولي على أنها ستتفاوض بسرعة مع القادة الجزائريين حول وسائل السلم، وبين المتشائمين الذين يعتقدون أن حماة المصالح الاستعمارية و"الجزائر فرنسية" ليسوا على استعداد إطلاقا للقيام بأية تنازلات مهما كانت، وكان محيط هذين التيارين غير مستقر، إذ غالبا ما يتوقف الانتماء إلى هذا أو ذاك الفريق سواء على مزاج كل واحد وحالته النفسية للحظة، أكثر مما يتوقف على الاختلافات الجوهرية لتقييم الوضع.

وفي خضم هذا، قام رونيه جوستاربو (René Justrabo) وآخرون ممن يتولون معه مسؤولية إدارة المعتقل، بالسهر على تفادي المواجهة الحادة بالالتزام بالحكمة والتوازن المفيد للمجموعة في النهاية.

وفي هذا النوع من عبور الصحراء الذي لا يتوقع أحد نهايته، وللحفاظ على الانسجام، تم تنظيم دروس ومحاضرات حول مختلف المواضيع

بالتزامن مع الانعقاد المنتظم للاجتماعات الإعلامية التي يتخللها أحيانا تحليل وثيقة سياسية تم إدخالها إلى المعتقل خلسة.

ولم يكن رجال الشرطة الذين يحرسون المعتقل يخطئون فقد كانوا يتهمون الشيوعيين بتحويل المعتقل إلى "جامعة ماركسية" في التقارير التي يرسلونها إلى رؤسائهم. فقد رفضوا منح أصدقائي المحامين الترخيص لزيارتي. وكنت قلقا بشأن الكيفية التي يمكنني من خلالها تفجير الحقيقة انطلاقا من المعتقل، ولم أعتزم الانتظار جامدا قدوم المظليين لأخذي. ففي باريس كانت (جيلبرت) ومن يحيطون بها، يقومون بحملة من أجل أن توجه لي تهمة لكي يتم تحويلي إلى السجن بالجزائر، حيث يكون من الصعب إخراجي بطريقة غير شرعية. ومن جهتي قررت توجيه شكوى بالحجز والتعذيب لوكيل الجمهورية أصف فيها بدقة ما تعرضت له في الأبيار من طرف المظليين للفرقة العاشرة مع ذكر أسماء الذين قاموا بتعذيبي.

لم أكن أمني نفسي بالمتابعات القضائية التي يمكن أن تسفر عن هذا المسعى، إذ لم يكن ذلك يشغلني إطلاقا، لقد كان هدفي هو عرض الوجه الحقيقي للحرب الدائرة في الجزائر وكشف الجلادين والتعذيب في آن واحد. كنت أعلم أنه في حالة إتباع القاعدة التي تفرض المرور على رجال الشرطة في المعتقل، سيحفظون الشكوى وستؤول بالدرجة الأولى إلى مصالح الجنرال (ماسيو).

كان يتعين إذن أن تستقبل وتنشر في باريس قبل أن تطلع عليها القيادة العسكرية والحكومة العامة. بمساعدة بعض الأصدقاء الذي تطوعوا للقيام بالرقن، كون المعتقل لا يوفر آلات كاتبة - وكانت الرسالة طويلة، قمت بعمل أربع أو خمس نسخ، تتولى زوجات بعض المعتقلين اللواتي يأتين لزيارة أزواجهن، نقلها سرا وإرسالها بالبريد من مختلف أحياء مدينة الجزائر.

وقد لاحظت لاحقا أن الرقابة على البريد، التي لم تكن موجودة بصفة رسمية، أصبحت جد منظمة، كون مراسلاتي "ضاعت" باستثناء واحدة، لكنها كانت كافية، وبواسطة (جيلبرت) قدمت نسخة من الشكوى وبسرعة إلى الصحافة الفرنسية والدولية. وكانت l'Humanité وLibération الصحيفتين الوحيدتين اللتين نشرتا النص الكامل مما أدى لاحقا إلى حجزهما. غير أن حقيقة التعذيب والجرائم التي ترتكب باسم التطهير التي يستمر في تجاهلها المسؤولون عنها، قد عرضت على رأي عام كان على علم بها.

وقد علمت من خلال قصاصة صحيفة وصلت إلى المعتقل أن وكيل الجمهورية بمدينة الجزائر الذي تم الاتصال به هاتفيا، قد رد على صحفي من باريس بأنه لم يتلق أي شكوى من طرفي، وكما كان متوقعا، اتفق العسكريون والشرطة على الاحتفاظ بها إلى غاية اللحظة التي أصبح فيها التنديد علنيا، إلى أن يجبروا على إيصالها إلى الجهة المرسل إليها.

كنت في Lodi منذ قرابة شهر، عندما استدعاني مفتش الشرطة القائم بأعمال مدير المعتقل إلى مكتبه لإطلاعي أن العدالة تطلبني وأنني سأنقل إلى مدينة الجزائر. وهو الأمر الذي ما انفكت (جيلبرت) وأصدقائي يطالبون به. لقد أرغمت السلطة أمام الأثر الناجم عن اختفاء (موريس أودان)، واتهام الجلادين والحملة القائمة حول الشكوى المقدمة لوكيل الجمهورية التي اتبعت بحجز الجرائد التي نشرتها، والاحتجاجات الشعبية المتزايدة ضد الحرب ذاتها، على الإعلان عن فتح تحقيق. ويعتبر تغيير وضعي حتى ولو تعلق الأمر بمغادرة مركز الاعتقال إلى سجن نوعا من الانتصار.

ومنذ البداية، كنت أدرك أن الترتيبات قد وضعت من أجل العودة إلى مدينة الجزائر (وخاصة عبور منعرجات شفة) التي ستتم بطريقة لا يمكن معها اتهام السلطات بعدم اتخاذ الاحتياطات الضرورية لضمان أمني.

وبالفعل، فقد كان ذلك نتيجة للحملة الدائرة في باريس ولمسعى خاص قامت به (جيلبرت) لدى السلطات العسكرية. ومع طلوع النهار غادرت Lodi، ولم يتم نقلي كما في المرة الأولى بواسطة سيارة عادية وبرفقة جندي واحد. لقد كان في هذه المرة دركيان في مرافقتي وجنود يتبعوننا في سيارة جيب وعربة شبه مدرعة مسلحة ومجهزة بهوائي راديو، تقوم بفتح الطريق.

وصلت إلى قصر العدالة في بداية الصبيحة وقدمت إلى قاضي التحقيق بافوالو (Bavoillot) المعروف بتخصصه منذ سنة في القضايا ضد المناضلين الوطنيين والشيوعيين. وقد أبلغني بالتهمة على أن يتم التحقيق في الشكوى ضد الجلادين لاحقا.

كنت أرى خلف جمجمة القاضي الخالية من الشعر ومن خلال النافذة المفتوحة في الجانب الآخر من نفس الطابق الذي يوجد المكتب حيث أتواجد، شرفة إحدى الشقق حيث اختبأت لبعض الوقت رفقة صديقي (كاتوني)، لقد أمسكت ابتسامة وأنا أفكر في هذا التفصيل الذي أصبح غير ذي أهمية، وما قد يثيره لدى المظليين والقاضي نفسه قبل أشهر عندما كانوا بصدد البحث عني.

وصلت إلى باربروس والأغلال في يدي، وهو السجن الذي قضيت فيه عدة أسابيع في صيف 1955، وبعد استفزاز بوليسي إثر حجز الجريدة، مررت بالتفتيش عاريا وأخذ البصمات التي وضعت على سجل الدخول ووضع جرد بالملابس والأشياء المحجوزة التي بقيت لدى كاتب الضبط وتلقي رقم الحجز الذي كان يحمل رقم 923 المطبوع على قطعة قماش رمادية، - "أحذر من ضياعه.. إنه هنا بمثابة بطاقة تعريف" قال لي ذلك هامسا أحد سجناء الحق العام يعمل موظفا في المصلحة ويدعى "سباغيتي" وقد شعرت فجأة بالرائحة النفاذة للحساء الممزوج بمبيد الحشرات التي تعم البناية، حيث الملاحقة بالأوامر والصراخ المتقاطع للحراس، كل ذلك ليس بجديد عندي، ولم يكن

السجن تماما كما كان عليه من قبل، بدا لي مكتظا ونسبة السجناء السياسيين أكثر بكثير من نسبة سجناء الحق العام، على عكس المرة الأولى.

هذا بدون أن أعرف السبب إذ كان ذلك واضحا من خلال لباس وسلوك السجناء كانت الحراسة مكثفة وشديدة حيث كان لبعض أفرادها أن بعضهم قد شاهدني قبل سنتين، وعاملني باحترام نسبي، يتظاهرون الآن بعدم معرفتي. وفي مساء يوم وصولي، تدخل أحدهم الذي أصبح شرسا بشكل خاص لدى زميله الذي طلب مني مرافقته لاستلم قبل مجيء الليل الأفرشة والكأس الحديدية والملعقة والغطاء وهي أشياء تشكل متاع كل قادم جديد "دع عنك، غدا سيطلع النهار" قال للآخر، وهو يبتسم. وعليه قاموا بحبسي في قاعة بدون فراش ولا غطاء لأنام على أرضية من الاسمنت غير مغطاة، إنها طريقة للترحيب بي.

بدا لي هذا أمرا ثانويا، لأنني خرجت حيا من سجن الجلادين لقد ساهمت في تعريتهم أمام الرأي العام وبالتالي تمكين الحقيقة على رؤية النور، ولم أكن اتصور أيضا أنني سأبقى ثلاث سنوات في هذا السجن وأنه عندما أغادر إلى سجن آخر، لا رفاقي من الأحياء ولا حتى أنا، نكون قد رأينا نهاية الحرب وجميع المآسي التي تترتب عنها في طريقها إلى الزوال. لقد بدأت رحلة طويلة وسط مناظر القضبان والشباك والجدران الصماء وكامتداد صوتي لها الهمسات المتقاطعة لآلاف المساجين، الصلاة الجماعية للمؤمنين في القاعات، الأوامر، الشتائم، الكلمات النابية التي يطلقها الحراس، قضاء الليالي أحيانا في غرف معزولة، آنات المعاناة لبعض المبتهلين الذين فقدوا عقولهم. رحلة تخللتها محطات مأساوية عندما تنتزعنا عند الفجر من النوم أصوات صاخبة مدعورين، تنبعث من أعماق زنزانات المحكوم عليهم بالإعدام ومن بينهم أصدقاء مقربون، (عبد القادر قروج)، المحكوم على زوجته (جاكلين) التي تتواجد بسجن النساء هي

الأخرى بالإعدام) (جورج أكامبورا)، (يحي بريكي)، (عبد الحميد غيراب)... وكان هذان الأخيران محررين سابقين بالجريدة. لقد كنا نسمع صخب خطوات تتقدم في دهاليز جناحهم، ويصلنا أصوات المفاتيح، وكجميع الرفاق كنت واقفا خلف الشباك المغلق للزنزانة شاعرا بالانقباض والضيق يقبض علي وأنا أفكر في ذلك الذي يقوده الحراس مكبلا إلى رواق الشرف أين ينتظره الجلاد والمقصلة.

وهذا مناضل جزائري أعرف صوته، كوننا كنا نتحاور أحيانا من خلف القضبان ولم يسبق لي أن رأيته عن قرب يستعد للموت. وحسب التقاليد يطلب من رفاقه ولمن يسمعونه العفو عما يكون قد بدر منه أو ظلم أحدهم، ينطق بالشهادة ويعلن أنه بعد كل هذه المعاناة والأحزان سيأتي يوم الانعتاق.

وفي لحظة واحدة يتوحد السجن بكامله في أغنية واحدة، وتنضم إليه زغاريد النساء من السجن المجاور تقطع الليل مثل سكين، ومن خلف الجدران، وفي حيّ القصبة القريب تصعد الأمهات والنساء والأخوات إلى السطوح ليرددن الأغنية بصوت واحد يرافق المحكوم عليها أو عليه وفي أغلب الأحيان اثنين أو ثلاثة في آن واحد إلى غاية أن تنزل المقصلة ويقضى الأمر.

كان السجن صورة مصغرة للجزائر التي كانت ماضية في دربها نحو الحرية، ومن شباك الزنزانة 72 - القسم الثالث - التي كنت أتقاسمها مع اثنين من رفاقي، أرى مرور المعتقلين في القاعات المشتركة يقودهم الحراس إلى المطبخ أين يقفون في طوابير هندية ليحصلوا على حصتهم من الطعام ومن بينهم قادمون من جبال منطقة القبائل من ذوي الشعر الأشقر، رجال من الجنوب طوال القامة وبلون نحاسي، فلاحون وعمال أراض، سمر البشرة ومن الحضر وعمال وحرفيون وتجار، نحييهم بإشارة بالرأس وإذا كان الحراس بعيدين فبكلمة أخوية عندما يمرون أمام زنزانتنا.

"صحا.. صحا.. " وهو ما يعني أدبيا "الصحة" غير أنه يأخذ في باربروس معنى جد ثري، أنه "الشجاعة" .. "الصداقة" .. و"الثقة" ويقولون "قريب، قريب .." وهو ما يعني تلميحات يمكن تفسيرها كما نشاء.

كان هناك بعض المساجين صغار السن، إنهم أطفال تقريبا، مثل ماسح أحذية لم يتجاوز سنه الرابعة عشر، تم توقيفه بسبب إلقائه قنبلة في بهو المحافظة المركزية للشرطة بالجزائر، لقد كانوا مجمعين في قاعة خاصة "قاعة الأطفال" وكانت هناك قاعة أخرى تدعى "قاعة الكهول" ومن بينهم عميان ومعطوبون ومعوقون، وفي الرواق الواقع أسفل رواقنا، شاهدت في صف المساجين شخص ذا وجه قوي يتألم بعينين حادتين وسوداويين، يمسك بكلتا ساعديه رقبة رجل أسود مفتول العضلات الذي كان يحمله، يرفع رأسه نحو شباكنا والابتسامة تعلو شفتيه وكأنه يبعث بتحياته الخاصة لهؤلاء الأوروبيين الذين يتقاسمون نفس المحن والآمال مثله وغيره من أهلنا، ومن الشباك طلبت من أحد السياسيين الذي يخرج أحيانا في نفس الرواق مثلنا ويقبع في زنزانة قريبة، من يكون هذا الرجل، الذي لا يملك ساقيه؟

"إنه الرجل الذي يتولى الإشراف على جمع الأموال لجبهة التحرير الوطني في كامل منطقة القبائل".

لم يعد أحد يبدي استغرابا، إذ أصبح التزام شعب بكامله من الشباب إلى الشيوخ وإلى غاية الذين تقصيهم ظروفهم البدنية من أية مساهمة في المعركة المشتركة القاعدة الأساسية المتبعة إلى درجة أن مساجين الحق العام الذين أصبحوا أقلية الآن وتستخدمهم إدارة المؤسسة العقابية كموظفين، يجتهدون في الارتقاء إلى مستوى السياسيين بتجشم المخاطر وتقديم الخدمات التي تطلبها منهم المنظمة السرية في السجن.

يعود الفضل أيضا في هذا الانسجام إلى الحماس الديني. فأغلبية المساجين وهم في الغالب من أصول ريفية كان إيمانهم عميقا، فهم يحاربون القمع من أجل الحرية، إيمان لا ينفصل عن قضية الاستقلال وهو ما يعني أيضا الشجاعة والأخوة والتضامن والافتخار بالانتماء إلى ثقافة وحضارة تتكالب الهيمنة الاستعمارية على تجاهلها. فقد كان في السجن الإسلام والتسامح والانفتاح.

ففي الرواق الذي نخرج إليه كل يوم (ثم يومين لاحقا) قبل أن تسمح إدارة السجن باختلاط مناضلي جبهة التحرير الوطني بالشيوعيين والذين يوجد من بينهم مسؤولون مثل (أحمد عكاش)، (بول كباليرو) و(أندريه موان)، الذي يقاسم معي الزنزانة رفقة ثالث هو (جورج كاتوني) المحاسب السابق للجريدة وذلك بعد مغادرة (فيرناد بويلات) و(كريستيان بونو) رفاقي الأوائل.

وفي هذا السياق تعرفت على (يوسف) الذي تم إيقافه بسبب مشاركته في أعمال مسلحة والذي ينتظر محاكمته رفقة ثلاثة أعضاء من الجبهة. كان شابا يوشك على مغادرة سن المراهقة، غير أنه على درجة كبيرة من النضج، سألني عن ماذا تعنيه "الاشتراكية" وما هي الشيوعية. لقد كانت له أفكاره الخاصة حول الحاضر والمستقبل.

وعلى غرار الجميع، كان مؤمنا، وكان يقول بعدم المزج بين الدين والسياسية، وبالنسبة إليه فإن من يقومون بذلك، هم في أغلب الأحيان من ذوي الأفكار المسبقة ولا يخدمون لا الإسلام ولا الجزائر. وقد تناقشنا حول عما ستكون عليه الجزائر في المستقبل، وقد سمعته يستعيد عبارة تستهويه بلا شك كونه يعبر بطريقة عادية وبصورة واضحة عن مخاوفه وآماله: "إننا لا نحارب من أجل استخلاف بورجو (Borgeaud) الفرنسي (كبار الكولون وأحد واسعي الثراء الذي أصبح اسمه رمزا للاستغلال الاستعماري) "ببورجو" العربي، بل من أجل أن لا يكون بورجو إطلاقا"، وقد سانده البعض.

ولاحقا.. سلكت الجزائر طريقا آخر بدا أكثر غطرسة وأذى عما كانت عليه في العهد الاستعماري، من خلال "بورجوات" من السكان الأصليين. ولازلت أتذكر مناقشات رواق سجن باربروس إلى اليوم.

فلا (يوسف) ولا رفاقه يراودهم الشك أنه سيكون من الصعب عندئذ إقامة أسس مجتمع جديد عادل وأخوي يحلمون به إلا بتدمير القديم. وبعد وقت قصير من وصولي إلى باربروس، كنت قد نقلت مؤقتا مع بعض من رفاقي إلى السجن المركزي بـ (Maison-Carrée)(الحراش) ولم أمكث به إلا خمسة عشر يوما، كانت كافية لأتعلم الكثير من الأشياء. كنا أكثر من مائة شخص في قاعة ثلاثية، كانت أفرشة المساجين تحتل أكبر جانبيها وكانوا مجتمعين حسب انتماءاتهم أو ببساطة لأنهم من دوار واحد أو من نفس الحي. مسلمون في مجملهم وحوالي دزينة من الأوروبيين جميعهم من الشيوعيين.

كان بعضهم فلاحين جاؤوا من دواوير بعيدة، على عكس عمال المدن، لم تكن لهم اتصالات حقيقية بالأوروبيين ولا حتى مع المناضلين الشيوعيين أو النقابيين، وفي المرات القليلة التي سمحت لهم بالاحتكاك معهم، كانت مع رجال الجندرمة الذين يصعدون إلى دواويرهم للبحث عن الفارين من الخدمة العسكرية أو مع حراس الغابات الذين يأتون ليحرروا لهم محاضر لقيامهم باقتلاع الأشجار أو تنظيف الغابة في منطقة ممنوعة.

كان التعايش مع الأوروبيين على الرغم من قلتهم والمنخرطين مثلهم في المعركة من أجل الاستقلال، في الوقت الذي يقوم فيه الجنود الفرنسيون بإغراق الجزائر في دوامة من الدم والنار، يبدو لهم أمرا لا يصدق ويشكل اكتشافا استثنائيا، تعلموا في نفس الوقت ما تخفيه هذه التسمية الغريبة "الشيوعيون" وبناءا على توصية من مسؤولي القاعة (أعضاء جبهة التحرير الوطني، الحزب الشيوعي الجزائري وأيضا الحركة الوطنية الجزائرية MNA

- حزب مصالي الجديد- وبالرغم من الحرب المفتوحة لرئيسه ضد جبهة التحرير الوطني، فإن الجميع كان يدرك الآثار السلبية لأية مواجهة في السجن. فقد وجد كل سجين أوروبي لنفسه معلما لكي يعلمه اللغة العربية أو لتطوير معارفه. وهناك بعض "المعلمين" كانوا يجهلون اللغتين معا، كانوا يكتفون بالقيام بأحاديث بسيطة مع تلامذتهم، أما البعض الآخر من الذين ذهبوا للمدرسة القرآنية، فلم تكن لهم فكرة واضحة عما يجب نقله لتلامذتهم.

وقد جاء أحد رفاقي، لويس ريفز (Louis Rives) مدير بنك سابق في عنابة ثم محرر "بالجزائر الجمهورية" يطلب مني المشورة. وكان معلمه فلاحا يقوم بالتعليم في المدرسة القرآنية في قريته، كان يريد أن يجعله يردد بعده ويحفظ عن ظهر قلب ما يقوله بدون أن يفهم معنى الآيات القرآنية، مثلما اشترطوا عليه شخصيا عندما كان طفلا صغيرا.

وكان (ريفز) يخشى أن يصدم "معلمه"؛ إن صارحه بعدم جدوى معرفة هذه الصلوات لكونه غير مؤمن وليست له ديانة ويفضل أن يبقى كذلك، وها هو يقرر في الأخير ويتقبل الآخر وبقيا أصدقاء أوفياء.

ومن جهتهم شرع العمال من أصل عربي أو قبائلي الذين يتكلمون الفرنسية، ممن لا يعرفون القراءة ولا الكتابة في تعلم العربية بحماس، وقد كنا نراهم جالسين على افرشتهم يضعون كراساتهم على ركبتهم والقلم في أيديهم وهم منهمكون في إتمام الفروض التي كلفهم بها أصدقاؤهم الجدد من الأوروبيين الذين أصبحوا مؤطرين. وللقيام ببعض التمارين، كنا نخرج للرواق الرئيسي للقاعة وهو كالعادة يكاد يكون شبه مظلم، بسبب قلة النوافذ الصغيرة في أعلى الحائط، وكثيرا ما كنت أتلقى مفاجآت مرحة، فقد وجدت أحد أصدقائي، أنطوان رينود (Antoine Reynaud) الذي كان يشغل منصبا رفيعا في إدارة البريد قبل توقيفه، يتحدث إلى أحد القرويين من المناضلين

في جبهة التحرير الوطني، الذي علم منه أنه ينحدر من ذراع الميزان بمنطقة القبائل.

ورد عليه (رينود)، "أعرفها جيدا، لأنني أنا من أشرف على مراقبة أعمدة التلغراف لذراع الميزان وبوغني وأبعد من ذلك.. آه.. أنت من قام بتركيبها، أنا سعيد بمعرفتك، لكن أنا من قام بقطعها بعد أول نوفمبر..".

وهذا فلاح ذو شنبات من بوسعادة لم يتوقف عن إبداء استغرابه، كيف أن هؤلاء الأوروبيين لم يتراجعوا أمام مخاطر السجن والموت لينظموا إلى قضية الاستقلال وكيف أصبحت قضيتهم وهم يحاربون من أجل ما حرم هو وأهله منه؟ وأخبروه أيضا أن أغلبهم لا يتبع أية ديانة وبالرغم من ذلك يتصرفون بطريقة مثالية. وفي أحد الأيام وكأنه يتوصل إلى خلاصة بعد تأمل طويل قال لهم بعد أن طلب منهم ترجمة ذلك بالنسبة للذين لا يعرفون العربية حتى يفهموا جيدا: "نعم، أعلم أن من بينكم أخوة لا يؤمنون، لكن شئتم أم أبيتم، فإن جزاء ما قمتم به هو الجنة وستكونون من السابقين قبلنا" وكان يقصد بذلك أنه سيكون هناك وهو متأكد بأنه سيلقاهم وعندها سيكون سعيدا أن يسمعهم يعترفون أنهم كانوا على ظلال لشكهم في وجود الله. فقد قبل (ليو متاراسو) وأعضاء آخرون من المكتب الفرنسي وأغلبهم من الفرنسيين بالمهمة الخطيرة المتمثلة في الدفاع عن المعتقلين سواء الذين ينتمون لجبهة التحرير الوطني أو الأعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري.

وخلال أولى زياراته إلى مكتب المحامين في باربروس، اقترح علي كتابة وتلخيص كل ما شاهدته وعشته في مركز التعذيب بالأبيار، وكان يلح على الأهمية التي يمكن أن تمثلها مثل هذه الشهادة قصد التنديد بقوة بالجلادين وقتلة (موريس أودان) وغيره وأن مثل هذا المنشور سيساعد على إظهار الوجه الحقيقي لحرب لا يزال جزء كبير من الفرنسيين يجهلها، وفي نفس الوقت إعطاء دفع جديد يساهم في تسريع التفاوض وإحلال السلام. وقال

لي: "أكتب من أجل هؤلاء الآلاف من الجزائريين الذين لا يستطيعون فعل ذلك والذين مروا أو قد يمرون بالمحن التي عرفتها[6].

وقد بدأت بالرد عليه أنه في ظروف باربروس، لا يتعين التفكير في الكتابة، فالحراس عندما يرونني منهمكا في الكتابة ينتابهم القلق لمعرفة ما تتضمنه نصوصي..

إن عمليات التفتيش متكررة ولا وجود لمكان يمكن استخدامه كمخبأ آمن، وقد كنت أحتفظ بالأوراق التي أكتبها معي لأيام وأسابيع تفصلني عن لحظة زيارته هو أو أحد المدافعين، وكان يتعين علي لإرسالها، أن أخضع للتفتيش مثل بقية المساجين قبل الوصول إلى قاعة المحامين.

وتتكرر هذه العملية بما تحمله من مخاطر عدة مرات، إذ لا يمكن أن أكتب مجمل المخطوط دفعة واحدة، (لصعوبة إيجاد مكان لإخفائه) وحتى لإخراجه من السجن دفعة واحدة، لقد كنت أمرر النصوص بطريقة مجهرية ولا تتعدى أربع صفحات من كراسة تلميذ، أقوم بطيها وإعادة طيها حتى يمكن إدخالها في كعب أو نعل حذاء أو في طيات الملابس حتى يمكن تهريبها لأحد المحامين الزائرين، لقد كانت هذه التقنية الوحيدة لتفادي حيطة الحراس ولكن بدون التأكد من التوصل إلى ذلك. وأعود إلى وحدتي وأنا في حالة توتر بسبب المحادثة التي كانت لي والاقتراح الذي قدم لي من طرف (متاراسو)، لذا قررت أن أتحدث إلى رفيقاي في الزنزانة اللذين كنت أثق فيهما ثقة مطلقة، وهما كريستيان بيونو (Christain Buno)، معلم وصهر (موريس أودان) وفيرنو بوالات (Fernaud Boillat)، عامل سابق في البريد ومناضل منذ زمن طويل ذو شجاعة وإخلاص في جميع الأوضاع والمحن الذي كثيرا ما كان يأويني في منزله العاصمي، وكان يجب عليهما أن يعلما أنهما يتقاسمان الأخطار المحدقة بي، وكذا في حالة الفشل والعقوبات المحتملة التي تترتب عنه، إذ سيتم اتهامهما بالضرورة بالتواطؤ معي، وفي تلك اللحظة وبنوع من

الحماس الظاهر، منحا لي موافقتهما وأعلنا عن استعدادهما لمساعدتي وقد فعلا ذلك وخاصة (كريستيان بيونو) الذي كان أول المنبهرين بكتاباتي أو كمستمعين لأنني كنت أقرأ عليهم الأوراق التي كتبتها.

وكانت اللحظة الحرجة لإخراج الأوراق هي لحظة التفتيش فكل شيء يتوقف على طريقة الحارس في التفتيش المكلف بحراسة قاعة المحامين.. إنها عملية تتم أحيانا بطريقة روتينية وسريعة وتكون أحيانا أخرى حقيقية وتتخللها الشكوك. كنت أشعر بارتياح كبير عندما يخبرني من سبقني إلى قاعة الزوار، أن المكلف بالحراسة اليوم اسمه أنطونا (Antona)، إنه أحد الحراس النادرين ممن يبدي تعاطفا مع السياسيين.

كان (أنطونا) الوحيد من بين الحراس الذي تغرورق عيناه بالدموع عندما يجر أحد المناضلين إلى المقصلة على عكس بقية الحراس الذين يقومون بإهانة المساجين وهم في حالة سكر شديدة، أما هو فيبقى صامتا وسط الصخب، وكانوا يقولون في السجن لقد بكى (أنطونا) أثناء تنفيذ حكم الإعدام في الأخوة. كان حذرا من زملائه، إذ يوجد من بينهم وشاة، غير أنه يعرف كيف يظهر تعاطفه مع مجموعتنا من المناضلين، فهو ينحدر من كورسيكا وكان راعيا قبل أن يتم توظيفه كحارس في المؤسسة العقابية وشارك في المقاومة ويتذكر ذلك عندما يخاطبنا، أما فيما يتعلق بي فله سبب آخر لإظهار تعاطفه معي.

كان الرجل رياضيا أحرز على كأس البطولة في السباحة في مسابقة نظمت بميناء مدينة الجزائر، وقد أبرزت "الجزائر الجمهورية" إنجازه ونشرت صورته وما انفك يذكرني بذلك كلما مر أمام شباك زنزانتي.

لم يكن التفتيش في وجوده أمرا سيئا، وفي نهاية ديسمبر 1957 وصلت آخر الأوراق التي كتبتها دون حادث يذكر إلى محفظة المحامي الذي يتكفل بنقلها إلى باريس أين تتلقاها (جيلبرت). ولتفادي أي تسريب تقوم برقن النص بنفسها.

وفي منتصف فبراير 1958 نشرت الصحف "La Questin" وقد أخبرني بذلك ليو متاراسو الذي جاء لزيارتي في قاعة المحامين حيث أصبحت أذهب إليها بدون خوف، ولم أكن أتصور أن النص قد يطبع في شكل كتاب، فقد ألح (متاراسو) على أن يكون كذلك ومن الأفضل نشره من طرف دار نشر لا علاقة لها بالحزب الشيوعي قصد توسيع دائرة تأثيره.

قامت (جيلبرت) و (متاراسو) باستشارة عدة دور للنشر من بين أهمها وقدما نسخا من النص، وقد ردت هذه الأخيرة بضرورة نشر هذه الشهادات وتسليط الضوء عليها، إلا أنها ترى أن الظرف غير ملائم وبالتالي لا يستطيعون المغامرة بنشرها. وقرر (جيروم ليندون) مدير إصدارات Editions de Minuit.. الذي بقي وفيا لروح مؤسسي الدار التي ولدت في خضم المقاومة، أن ينشر النص ويختار عنوانه.

وبالرغم من الأصداء التي وصلتني من (ليو متاراسو) و(هنري دولوزون)، (ميشال بورغيه)، (نيكول دريفوس) و(بيار برون) و(بيار كالادور) و(انجلين دومنيك) وغيرهم من مجموعة محاميي الدفاع المشكلة في باريس لم أكن أتوقع الاصداء الحقيقية للكتاب ولا الدعم الذي سيقدمه للحملة التي شرع فيها من أجل التفاوض والسلم.

وهكذا سيساعد الكتاب بطريقة غير مباشرة على تجمع مئات الجامعيين والمثقفين حول لجنة (موريس أودان) التي أنشئت قبل أشهر من ذلك.

ويشرف عليها لوران شوارتز (Laurent Schwartz)، بيار فيدال ناكيه (Pierre-Naquet)، البير شاتليه (Albert Chatellet)، هنري مارو(Henri Marrou)، جان دورش (Jean Dresh)، مادلين روبيريو (Madeleine Rebérieux)، ولم تتوقف هذه اللجنة بالرغم من المتابعات والتهديدات عن النشاط قصد كسر صمت الجلادين القتلة والمتواطئين معهم في أعلى المستويات.

لقد حظي الكتاب بتأييد كتاب من ذوي الأسماء الذائعة الصيت مثل فرانسوا مورياك (François Mouriac) وروجيه مارتان (Roger Martin) وكلاهما حاصل على جائزة نوبل في الآداب، جان بول ساتر (Jean - Paul Sartre) وأندريه مالروا (André Malraux)، اللذين ساهموا أيضا في نشر الوعي الجماعي بالاحتجاج ضد حجز الكتاب والمطالبة في رسائل رسمية موجهة لرئيس الجمهورية بتسليط كل الضوء حول طرق التعذيب وحتى حول مفهوم الحرب الاستعمارية وكان رفاقي وجميع المساجين معي شديدي التأثر وأكثر وعيا بالرعب الذي سيثيره هذا الكتاب في الأوساط الحكومية وفي أوساط حلفائها المدنيين والعسكريين، عندما قام قبل منتصف الليل ذات يوم من فيفري 1958 عشرات من الحرس المتحرك بتفتيش السجن فجأة وقد كنت أشاهدهم من وراء قضبان الزنزانة يتقدمون في الرواق أمام أعين حراسنا غير الراضين عن تهميشهم في ميدان حرك عليهم من طرف هؤلاء الأجانب الذين يزعمون ربما قدرتهم على تعليمهم حرفتهم.

لقد قادوهم وهم مكسورون إلى الغرف المشتركة للمساجين، وقاموا بإخراج جميع السجناء بدفعهم باتجاه السلالم، لقد قمت بمساعدة (كاتوني) بالصعود إلى كتفيه لأراقب من خلف قضبان نافذة الزنزانة حيث رأيت من خلال الضوء الباهت مئات المساجين في حالة انبطاح وبطانياتهم على كتافهم في صمت رهيب تحت تهديدات حراس يمسكون رشاشاتهم، في الوقت الذي يتم فيه تفتيش مختلف نقاط السجن وجمع كمية من الأوراق التي تم حجزها. وبعدها بقليل جاء دور زنزانتنا.

لقد فتح الحراس الأبواب حيث يقف وراءهم في الرواق في شبه عتمة عشرات من الرجال الغلاظ الجثة يرتدون الزي الأسود ومدججين بالسلاح وكأنهم ذاهبون لاقتحام قلعة. هكذا أعطى مساعد من صنف القدامى أمرا يتسم بالصرامة الاستعمارية "انزعوا ثيابكم واخرجوا جميعا" لقد كنا حوالي دزينة من الرجال عراة في مواجهة أبواب الزنزانات لم تتم زيارتها بعد.

ننتظر التفتيش الذي سيقوم به شخصيا، وهو يحمل مصباح جيب بيده، فتحنا أفواهنا، وتفقد ثنايا أداننا وجيوب أنوفنا، بعد أن مرر يده على شعرنا ولم تسلم من التفتيش حتى ملابسنا المتواجدة بالزنزانة، في الوقت الذي كان البعض الآخر يقوم بفحص الأوراق التي عثروا عليها، إلى أن أصابهم التعب وأدركوا الوقت الذي يتطلب ذلك، ليقرروا أخذ جميع الأوراق وفي الطابق الواقع أسفلنا شاهدت الأجسام العارية والنحيفة للمجانين الذين يقطنون بالجزء المجاور لنا.

تردد الحارس بعض الشيء في فتح الباب الخاص بهم، غير أن المكلف بالتفتيش كان صارما.. افتح... إنها الأوامر. وخلف أحد أبواب الزنزانات التي لم يتم تفتيشها بعد والتي كنت مستندا إليها سمعت صوتا يهمس لي متسائلا.. ماذا يفعلون: إنهم يدقون؟ كلا إنهم يفتشون، إنهم يحملون جميع الكراسات، جميع الأوراق..

لقد سمعته يضحك بهدوء ويقول: (ربما يبحثون عن "استنطاق" آخر..)

محاكمة كولونيالية

فقد كان كل المعتقلين على علم بخصوص صدور هذا الكتاب كما أنهم رحبوا به كثيرا على الرغم مما كان سيسببه لهم هذا التعاطف من أذى، وذلك كنت أستشفه عن طريق تحياتهم لي وهم يمرون مبتسمين أمام باب زنزانتي. فقد كانوا حقا مسرورين من أن تلك الأساليب القمعية المنتهجة في حرب التحرير والتعذيب الذي مورس على الكثير منهم، وأحيانا على أيدي أولئك الذين سبق لي ذكرهم، ليتم هكذا التنديد بها، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الشهادة التي هي شهادتهم أيضا قد تم التعبير عنها كتابيا في سجن باربروس وهاهي اليوم تخرج إلى العلن.

لم يتم في الحقيقة استدعائي مثلي مثل رفاقي كما كنا نتوقع للوقوف أمام محكمة السجن التي كان يديرها المدير ؛ هذا الأخير الذي وجّه له مسؤوله توبيخا بسبب تهاونه وفقدانه لليقظة اللازمة، فإنه من دون شك يكون وقد تلقى أمرا بعدم أخذ أي إجراء قمعي ضدي أو أي قرار بإمكانه أن يجعل القضية تصل إلى الصحافة وإلى الرأي العام. رسميا ولا شيء قد حدث، وذلك الاستعراض للقوة الذي ميزه العدد الكبير لرجال الدرك لحفظ الأمن كان يبدو وأنه لن يحدث، ولا أي مراقب قد أشار إلى ذلك أبدا، إلا أنه تم إقرار عقوبة جماعية. ففهم كل واحد منا أن ذلك مرتبط "بقضية الكتاب" :

هكذا أصبحت الكراسات ممنوعة ولا يمكننا أن تباع مرة أخرى داخل المطعم. فأصبح الورق مادة نادرة وثمينة مما يستوجب الاستعمال العقلاني. أما بالنسبة للملاحظات والنقاط التي كنا نستخلصها من مختلف قراءاتنا وللتحضير للمحاضرات حول مواضيع سياسية وتاريخية وعلمية التي كان كل واحد منا نحن الثلاثة، كل حسب دوره، يجهد نفسه لتقديمها لرفيقيه الاثنين الآخرين وهو يجمع معارفه ويستعيد ذكرياته كما وأنه يضبط أموره للدفاع عن نفسه، من أجل تحقيق كل ذلك كنا نستعمل أظرفة الرسائل التي كانت تصلنا وكذا ورق المراحيض الذي كان يباع في المطعم، ملفوفا أو مبسوطا على الكيفية التي كان النساخ القدامى يستعملون رقوقهم.

بعد أيام قليلة من التفتيش العام يأتي إلي مراقب ويقودني خارج القسم باتجاه ناحية أخرى من السجن لا أعرفها، ثم يدخلني إلى مكتب حيث كان هناك رجل أنيق ينتظرني مبتسما.

"أنا نائب وكيل الجمهورية. فقد كلفت لمساءلتك حول الكتابات التي خرجت من السجن بطريقة غير شرعية. حتى أكون واضحا أريد منك أن توضح لي كيف تم لك إيصال هذه الكتابات إلى غاية دار النشر. أرى أنك ستجيبني بأنك لن تقول شيئا؟"

- ذلك هو بالضبط..

- حسنا.. شكرا لك ! أرى أنه من العبث الإلحاح في الأمر..".

ينهض من مكانه مبتسما كعادته ثم يغادر القاعة في حين يأتي إلي الحارس ليأخذني إلى زنزانتي، وهكذا يتم هذا الاستنطاق بسرعة البرق.

هناك شيء ما غير عاد وقد حصل بين أوساط المراقبين ؛ حتى ولو كان معظم هؤلاء ينخرطون إلى سياسة الحكام، فالبعض منهم تخالهم يبدون مظاهر توحي بأنهم بعيدون عن مشاعر العنصرية والأفكار البليدة التي يتميز

بها الكثير من زملائهم. ذات صباح، أحد هؤلاء ممن كان يقوم بالتحري نصف اليومي لقضبان زنزنتنا والذي كان من عادته لا يحرك لسانه بكلمة، يتوقف لبعض الثواني قبل الخروج ثم يتوجه إلي بالكلام قائلا:

"عمل جيد الذي قمتم به. خذ هذا.. اقرأه ثم مزقه سريعا بعدما تنتهي.." يخرج من جيبه ورقا مفروكا ويرميه على فراشي ثم يغلق الباب بسرعة من ورائه.

كان ذلك قصاصة مقتطعة من جريدة من فرنسا تعلن ببعض التعاليق عن صدور كتاب "الاستنطاق – la Question " وعن الانعكاسات التي يثيرها. لأول مرة نجد حارسا يخاطر بحياته هكذا، فقد اندهشنا كثيرا لهذا الأمر.

ولقد كان لصدى قضيتنا -التي لم تكن في الواقع تتميز عن الآلاف من القضايا الأخرى، لكن ضحاياها من الذين عذبوا أو قتلوا رميا بالرصاص عانوا وقاسوا كثيرا أو رمي بهم هكذا صرعى دون أن يسمع بهم أحد- انه وقف مانعا لأن تنحو منحى "عاديا" بختمها هكذا سريعا بحكم استعجالي ثم تحويلها إلى مؤسسة عقابية مركزية.

كان وقد أبلغنا في السابق رئيس لجنة حماية الحقوق والحريات الفردية، تنظيم رسمي أسس للتخفيف من قلق الفرنسيين المتصاعد إزاء أساليب التهدئة، إلا أن نشأته جاءت خصوصا لإنقاذ المظاهر، أبلغنا أقول أثناء زيارته للسجن أنه من غير الممكن أن تتم محاكمتنا بمدينة الجزائر في جو من الاضطرابات وذلك "بالنظر إلى الأجواء التي كانت تميزها وكون حالتنا ذات ارتباط بقضية أودان [*l'affaire Audin*] ".

فمنذ أمد بعيد لم تعد تلك التي يسمونها قوانين عادلة أو استقلالية القضاة لتخدعني. فقبل اندلاع الثورة المسلحة وحينما كان يحدث وأن أقدم بيانات لمن يهمهم ذلك، لم يكن الأمر يتطلب الكثير من الشروحات لبيان معنى عبارة "عدالة الطبقية" في بلد حيث النظام الاستعماري والعنصرية

زادا من فقامة وخطورة المثل القديم إلى درجة التشويه الكاريكاتوري والذي يقول : "حسبما تكون : قويا أو بئيسا...".

فلم يكن "للتهدئة" إلا أنها زادت من حدة هذا الانحراف، وأمام من كانوا سيقومون بمحاكمتهم، يظهر القضاة أنفسهم وبدون مواربة كرجال قمع لهم مهمة متابعة وتكملة عمل المظليين ورجال الشرطة. أتذكر أن أحدهم، وهو قاضي التحقيق تمت ترقيته بعد ذلك إلى رئيس للمحكمة العسكرية لمدينة الجزائر، مراع ومنضبط، كان يستقبل المتهمين والمحبوسين الذين يخرجون مباشرة من غرفة التعذيب وهم لا يتماسكون على سيقانهم، بهذا السؤال العادي :"لكم أن تؤكدوا التصريحات التي قمتم بها أثناء الاستنطاق الأول، أليس كذلك؟ وإلا فإن هؤلاء الرجال (الجلادون الذين أوكلت لهم مهمة التعذيب) ستجدونهم ينتظرونكم هناك". ثم يخاطبني آخر بأسلوب طريف وساخر حيث يقول :"هيا، فأنت رجل عاقل.. التعذيب؟ فذلك شيء طبيعي ! في رأيك إذن حينما نوقف عربيا فمن الواجب علينا أن نقول له : "تفضل بالجلوس على هذه الأريكة وأخبرني بكل شيء". هيا، لا تكن أبلها ! فلن نعرف شيئا أبدا".

نوع من الممارسة التي أدت طيلة كل سنوات الحرب (وبعدها، ما دامت قوانين العفو العام تمنع اتهام المسؤولين عن الأعمال الوحشية والفظيعة) إلى كون أنه لا أحد من الجنرالات والضباط السامين ممن ثبتت جرائمهم وقد تجده قلقا أو متابعا قضائيا. والغريب في الأمر أن الوحيد الذي تم استدعاؤه للمحاسبة والمساءلة هو الجنرال باريس دو بولرديار(P. de Bollardi) ؛ بطل المقاومة الفرنسية، هذا الضابط الأكثر حيازةً لوسام الشرف في كل فرنسا، كونه تجرأ وندد بالجرائم المرتكبة باسم بلده ونادى بأعلى صوته أمام الجنرال ماسيو (Massu) مستنكرا العمل الذي كان يقوم به والأساليب التي كان ينتهجها في الحرب.

وأمام الاستنكار المتصاعد الذي كانت تثيره الحقائق حول الأساليب والطرق المنتهجة في إحلال التهدئة، كان يستلزم "فعل شيء ما"، وأولئك الذين كانوا يتربعون على مناصب عليا في الحكومة والإدارة وقاموا إلى حد تلك الساعة بإخفاء كل شيء، يقررون من أنه يكون من حسن السياسة الإعلان على أنه سينظر في شكواي وشكوى جوزات أودان (Josette Audin)، حتى ولو كان يبدو متفقا عليه على الأقل ضمنيا أن هذا الإجراء لن يذهب بعيدا.

فقد أوصاني أصدقائي المحامون بوجوب الإلحاح أمام القاضي العسكري المكلف بالقضية، المقدم ميصوف (Missoffe)، ليرافقني هو بنفسه وينزل إلى الأماكن التي وصفتها بدقة في شكواي. كنت وقد قدمت تفاصيل حول غرف لم يسبق لي وأن دخلتها أبدا حسب مقولة المظليين طبعا، ما دام هؤلاء يصرون على أنه ولمدة شهر بقيت في ذلك الحمام غير المكتملة أشغاله حيث قاموا بسجني داخله والذي سميته "بالخزانة الحائطية" في شكواي. وقرر أخيرا القاضي القيام بهذه الزيارة إلى مركز الفرز بالأبيار والعودة معه مرفوقا برجال الشرطة والدرك وكاتبه. على كل حال فقد تم التحضير لكل شيء قبل مجيئنا. إذ بهدا المكان – على الأقل لزمن التحقيق – شبيها بإقامة عسكرية عادية ؛ وبمرورنا أمام الباب منفتحا قليلا على قاعة مظلمة تم غلقه سريعا، أبصرت مع ذلك خمسة جزائريين متربعين على البلاط، فذلك كان واضحا أنهم كانوا ينتظرون للمرور إلى "الاستنطاق". كل شيء مستمر. لكن لو أتيح لأي غريب ودخل هذا المكان لتشكك وارتاب من أن كل طوابق العمارة شهدت في أوقات عادية رجالا ونساءا يعذبون أحيانا إلى الموت وصدى أصواتهم يتردد في فضاء هذه الدار التي تظهر هادئة ؟ من بين المظليين الذين كانوا واقفين في الساحة أو على السلم، ولا أحد منهم من الجلادين ممن كنت أعرفهم كان يظهر للعيان، باستثناء النقيب دوفيس (Devis) الذي لمحته للحظات.

أكيد وأنهم وصوا بعدم الظهور أثناء الزيارة. كان القاضي مستعجلا وقلقا، فقد وصاني حينما كنا لوحدنا بأن أبقى إلى جانبه طيلة الزيارة وبعدم الاستجابة لأي كان مهما كان الأمر. كل المجموعة كانت تتبعني على مر الطوابق.. وصلت إلى الشقة التي تم اقتيادي إليها بعد توقيفي و إلى مختلف الغرف التي سجنت فيها، "المطبخ" الذي شهدت فيه العذاب باستخدام الماء وحيث أحرقوني بالنار، "الخزانة الحائطية" حيث كانوا يتناوبون عليها لإدارة آلة التعذيب ؛ أشرت بيدي إلى أسفل الحائط حيث ذلك الأنبوب الذي اتخذته وأنا أعاني ويلات الحمّى كأداة جديدة من أدوات التعذيب، وإلى الجانب، تلك النقوشات حيث قمت برسم قلب يخترقه سهم وشحته باسم "صافية"، والمحجن الذي كان مثبتا إلى النافذة حيث كان بالامكان أن أشنق فيه.

قلت كل هذا في رسالتي إلى وكيل الجمهورية في حين لا يزال المظليون يؤكدون على أني لم أغادر "الخزانة الحائطية" أبدا. أصبح الآن بين يديّ القاضي الكثير من الدلائل المادية مما كان يلزم، ليعلم من هو الكاذب ومن هو المحق وكذا لختم القضية.

وعند رجوعي إلى مكتبه بالمحكمة أشرت إلى ذلك وطلبت منه متى يمكنه أن يقوم بتجريم الجلادين. كنت أرى أن هذا كان سؤالا محرجا. وقبل أن يأمر رجال الدرك باقتيادي مقيدا بالأغلال إلى سجن باربروس، همس إلى قائلا: "سأنهي التحقيق.. وآخرون يتحملون مسؤولياتهم".

أسابيع قليلة من بعد يقوم القاضي باستدعائي، وخارجا عن سجن برباروس ألتقي ثانية بالمظليين والضباط برتبة ملازم ونقيب من الذين أجروا معي الاستنطاق وقمت بذكر أسمائهم في شكواي. الواحد تلو الأخر، وكل وطريقته يقسم بأن كل ما كتبته وقلته ما هو إلا أكاذيب ودعاية و"اختلاقات صحفي". فقاموا بمساءلتي، وكوني رفضت أن أجيب عن

أسئلتهم يقومون بزجي في زنزانة لم يتح لي مغادرتها طيلة الشهر الذي بقيت فيه سجينا لديهم، وكل ذلك تم دون ارتكاب أدنى عنف. "لا كهرباء ؟ لا ضرب؟ ولا حتى صفعة واحدة؟ يسأل القاضي" ولا حتى صفعة؟" يجيب شاربوني (Charbonnier) الذي مثله مثل كل الآخرين متوترا ومستعجلا لإنهاء الأمر، كان يتجنب النظر إلي. في حين كان فولك (Faulques)، وهو صاحب الفيلا "سيسيني" (villa Sésini)، يبدو غير متحكم في أعصابه. كنت اشعر من وراء هذا الإنكار من أن الحقد يخنقه، في أول الأمر باتجاهي أنا مما كان يبدو عاديا – وتلاءم هذا الحقد من دون شك مع تأسفه لماذا لم يقم بإسكاتي إلى الأبد حينما كانت له الإمكانية لفعل ذلك – لكن أيضا ضد هذه "السياسات "التي كانت تسمح بفتح تحقيق ضده حول ممارسات لم يقم بها إلا بموافقتكم وبإيعاز منهم.

كانت الحرب لا زالت مستمرة ولا أحد، سواء في باريس أو في مدينة الجزائر، كان يمكنه التجرؤ للحديث عن "الربع الساعة الأخير" قبل الانتصار النهائي على "المتمردين" مثلما قام بذلك وبسفاهة روبير لاكوست (Robert Lacoste) في أيامه الأولى لحكمه. كانت الأيام من وراء القضبان تتولى لا متناهية ونحن نعيشها.. دائما متشابهة وحزينة وهي تتضاف مقحمة إلى الذاكرة وعلى مر الزمن.

من دون أي تحسن يذكر بخصوص الظروف غير اللائقة التي كنا نعاني منها ونحن في السجن، إلا أن نظام المعتقل سمح لنا بعد حادثة "الاستنطاق la Question " بالحصول من جديد على كراسات عن طريق مصلحة المطعم، وبترخيص من المدير يمكننا تلقي بعض الكتب من الخارج. فضلت حينها أن أحسن من مستواي في اللغتين العربية والروسية اللتين كنت أهتم بهما لمدة طويلة وأنا أتمتع بحريتي، كما وأن جيلبرت كانت وقد أرسلت لي كتبا خاصة تساعدني على ذلك.

فكرة اهتديت إليها، وهي كوني الوحيد من دون شك الذي بامكانه قراءة وكتابة نص باللغة الروسية (باستثناء رفيقي في السجن أندريه موان الذي أقام وعمل في الاتحاد السوفييتي سابقا بداية سنوات 1930) فجعلني ذلك أرى أنه بامكاني وأنا أكتب بالفرنسية لكن باستعمال الأبجدية السيريالية دون مراعاة للأخطاء الإملائية، من أخذ نقاط وتدوينها دون الخشية من أن تقرأ أو تحجز أثناء عملية تفتيش مفاجئة. فعلى رأس كل نص كنت ألزم نفسي بوضع بوضوح "التمرين المصحح رقم .." أو "ملخص الصفحة .." في حالة ما إذا حز الفضول أحد المراقبين ويأتي باحثا عما أكتبه في كراستي ولأول مرة يحدث وأن بعض الحراس خاطروا بأنفسهم بحيث توقفوا للحظات أمام الزنزانة حائرين ومتعجبين. في أحد الأيام دخل أحدهم الزنزانة بغرض التفتيش وتفقد القضبان فلاحظ بعد تصفح الأوراق أن ما يراه لا يمكنه قراءته : "تبدو هذه اللغة صعبة حقا! " لم أكذبه.. ثم يضع باحترام كراستي على فراشي.

فباستعمالي "هذه اللغة" نفسها أني سجلت في كتاباتي نهاية شهر أفريل 1958 أن المدينة كان يميزها صخب كبير معلنا بوقوع "أحداث خطيرة"، وعلى الرغم من أن كل الإجراءات اتخذت للحيلولة دون علمنا لما كان يجري خارج الأسوار، إلا أن صداها كان يصلنا إلى السجن. كنا نعلم أن المراقبين كانوا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع وأنهم كانوا يحضرون لمشاركتهم في إضراب من أجل "الجزائر فرنسية"، الإضراب الذي جاء بمبادرة المتطرفين وبسند من الإدارة : "سنرى فاليوم يوم صخب.." يهمس (أنتونا)، المراقب الذي كنا من حين إلى آخر نتبادل معه بعض الكلمات : "الكل مضجر.. سوف ينفجر الوضع !".

وبأسلوب آخر، بيار برون (Pierre Braun) الذي كان قد وصل حينها من فرنسا كان يؤكد : بالفندق الذي نزل فيه، الكل كان يتكلم علانية عن "ضربة"

جديدة، وكان أحد الصحافيين النادرين في الصحافة المحلية وهو يتجرأ بقلق وباستمرار لمحاورة هذا "المدافع عن الفلاقة" وقد تلفظ قائلا له : "أنهم يريدون الدم!"

من الزنزانة التي كنا فيها، ومن خلال النافذة الصغيرة التي تطل على الساحة وبعيدا إلى السور الذي يفرق سجن باربروس عن الطريق، كانت تصلنا أصوات دوي غير عادية استمرت تقريبا طيلة نهار 13 ماي 1958 ولم تتوقف إلا في ساعة متأخرة من الليل : صخب مروع لعدد كبير من العربات كانت متجهة نحو نفس الاتجاه، نحو مقر الحكومة العامة، أزيز مصمم لمروحيات أغرقت سطوح مباني حيّ القصبة بمنشورات كانت ترمي بها، أصوات مدوية حادة لمنبهات السيارات موقعة نغمة مترتبة (Algérie-française) (الجزائر فرنسية)، ومن فوق هذه الفوضى المذهلة إعلانات تطلق عاليا بمكبرات للصوت ثبتت على شاحنات لم نتمكن من فهم منها إلا مقاطع غامضة: "... انتصرنا !لقد انتصرنا ! .. لقد سقط !".

رفعت صوتي مناديا حتى يسمعني (حبيب رضا)، الممثل في فوج تابع لمسرح مدينة الجزائر وجارنا في السجن المحكوم عليه بالإعدام بتهمة انتمائه إلى مجموعة مسلحة، باحثا عن إجابة لسؤالي الذي رفعته عاليا : "ما (من) الذي سقط ؟ " فيردون بصوت عال : "سقط النظام! ".

ولكن ماذا كان يعني هذا ؟ كانت هنالك عبارات أخرى سمعت أيضا في الليل من أعلى سور العسعس لكنها لم تضف إلى معرفتنا للأمر شيئا :

"لقد غودر بنا! الكل إلى الساحة، الكل إلى الساحة!"

في مساء اليوم الموالي، أي 14 ماي دعيت إلى قاعة المحامين رفقة (أحمد عكاش)، هنالك التقينا بمحامينا (بيار برون) الذي كانت تربطني به صداقة متينة منذ مدة طويلة، بدون مقدمات وبرصانة تامة يقوم بعرض

علينا سيرورة الأحداث وتسلسلها محاولا إيجاز ذلك بقدر الإمكان : شن المتطرفون إضرابا.. المظاهرة في الساحة تحشد جمعا غفيرا من الأوروبيين، مستثارين إلى درجة قصوى ومطالبين بتصيب سلطة تلتزم "أخيرا" إلى جانب كل القوى الفرنسية بخوض حرب دون هوادة "للتخلص من الفلاقة نهائيا" ؛ مقرات الحكومة العامة تم اقتحامها ونهبها ؛ تحت قيادة الجنرال ماسيو يتم مصادرة الحكم من قبل لجنة للخلاص العام المدني والعسكري مكونه من سياسيين متطرفين - البعض منهم فاشي علنا - وضباط من اليمين المتطرف ؛ في باريس بيار بفليملين (Pierre Pflimlin) كلف ليلا بتكوين حكومة جديدة باستناده إلى الأصوات التي كان يمنحها إياه الشيوعيون لإحباط المكيدة. هذا يفسر صرخة "لقد غودر بنا" التي سمعت عشية الأحداث، ومنظمو الانقلاب يعتمدون على استمرارية الأزمة التي أصبحت مفتوحة بعزل فيلكس قيار (Félix Gaillard) من منصبه كرئيس للمجلس ومنذ هذا الصباح ظهر شعار جديد "دوغول في الحكم ! " (De Gaule au pouvoir) كما أن صحافة مدينة الجزائر أصبحت تنادي بتكوين لجان محلية للخلاص العام في الأحياء والنواحي والمؤسسات.

بعد فترة قصيرة يتم استدعائي مجددا إلى قاعة المحامين لمحادثة جيزال حاليمي (Gisèle Halimi) التي كانت حينها متواجدة بمدينة الجزائر، لم تكن محاميتي بالشكل الرسمي المعروف لكن قبل مغادرتها باريس كان وقد طلب منها ليو (متارسو) بأن تقوم بزيارتي، فقد لقيت بعض المشاكل للوصول إلي كون إدارة المعتقل لم تكن البتة مستعدة لمنحها الرخصة، كانت هي الأخرى قلقة حول مصير المساجين، فماذا كانت تخبئه لهم الأيام القادمة في مدينة ترضخ تحت أيدي ألد أعدائهم؟ كانت المنشورات شديدة التداول في المدينة منادية " بالثأر لدماء الجنود الذين قتلوا من قبل جبهة التحرير الوطني (FLN)". فقد عين سجن باربروس المكان الأكثر مناسبة

يمكن قصده "لتصفية حساباتهم مع الفلاقة (fellaghas)". من جهة أخرى لم يكن أصدقاؤنا المحامون المدافعون تطوعا عن المتهمين التابعين لجبهة التحري الوطني وعن الشيوعيين في مأمن من المخاطر. وفي الساعات التي تلت يتم توقيفهم ثم يحتجزون في زنزانات هيئت بكازينو الكورنيش (casino de la corniche) الذي وبعد الاعتداء المهول الذي تعرض له سابقا، حولت مرافقه إلى مركز "للاستنطاق الشديد" على غرار العديد من المراكز الأخرى التي تستخدمها فرق (ماسيو) لذات الغرض. أما (جيزال حاليمي) (وبيار برون) فقد تم نقلهما إلى فندق بمدينة الجزائر لكن هذا المكان الجديد لم يكن أكثر آمنا بالنسبة لهما من الكازينو ولم يكن إلا بعد خمسة عشر يوما، حيث الظروف السياسية المساعدة، حتى يتم إطلاق سراحهما ويمكنهما العودة إلى باريس.

في قاعة المحامين أراد (بيار برون) أن يعرف منا كيف يمكن أن يكون موقف الحراس في حالة ما إذا قام المتطرفون باقتحام السجن، لا سبيل للانخداع في هذا الأمر: أكيد وأن معظمهم لن يبدي أي مقاومة تذكر، والبعض الآخر، مبحوحين من كثرة الصراخ أثناء المظاهرات، على استعداد لفتح لهم الباب برحب بل ومساعدتهم لتصفية الحسابات المعلنة.

لم يعد مسموحا لنا الخروج من زنزاناتنا لأن الإدارة ولأسباب أمنية كانت وقد ألغت الساعتين اللتين كان يسمح بهما للتجوال اليومي الذي كان يمنحه لنا نظام السجن ؛ كان تفكيرنا على مر الأيام التي كان يميزها الصمت الدائم يدور حول تلك العواقب التي بامكاننا مواجهتها في حالة اقتحام السجن. فباتفاق ضمني أو بتواطؤ فاحش بين الحراس والمدير من الذين انضموا إلى لجنة الخلاص العام بامكان المقتحمين بعد اجتياز الحواجز أن يبدأوا أولا بمهاجمة المحكوم عليهم بالإعدام كون تاريخ تنفيذ العملية بقي غير محدد، فأصبح هذا من أولى مطالب المتطرفين ؛ ثم يأتي الدور بعد ذلك لقياديي جبهة

التحرير الوطني والمناضلين الشيوعيين. كما بامكان "المنصفين" أن يذهب بهم تفكيرهم - لإنهاء الأمر سريعا - إلى رمي قنبلة يدوية في كل زنزانة من زنزاناتنا أو رمينا بالرشاش من خلال الشبابيك المطلة على الأروقة. في حالة الاستنفار اتفقنا على أنه يجب سد مداخل زنزاناتنا باستخدام الأفرشة المصنوعة من القش والأغطية والملابس بتكديسها على الأبواب؛ واحتفظنا إلى متناولنا ببعض الأواني المستعملة للأكل فارغة لاستخدامها عند الاقتضاء كسلاح للدفاع عن النفس حتى ولو كانت لا تفي بالغرض المحتمل.

أوامر تنظيمية أضحت منتشرة في القاعات : في حالة هجوم وعند فتح أي شباك من الشبابيك من قبل حارس واحد أو من قبل حراس كثيرين يجب المحاولة والسعي مهما كلف الأمر إلى الخروج بقوة باتجاه الأروقة. لكن لو يحدث وأن ربع عدد مساجين القاعات يتمكن من الانتشار داخل السجن، فلن تكون الحملة بالنسبة للمقتحمين عبارة عن لعبة صيد كما كان يتمنى هؤلاء. ربما كانوا يقررون أيضا إعدامنا بالرصاص جماعات جماعات في الساحة وحينها كنت أفكر في وجهة واحدة أنه لو كان ولا بد من الموت لكان أيضا بهذه الكيفية "النظيفة" إذ ليست من طريقة أخرى أفضل من هذه.

كنا نعلم إلى أي مدى كان بامكان هؤلاء الرهط العنصريين أن تصل بهم وحشيتهم حينما يطلق لها العنان، فلا يزال البعض يحتفظ في ذاكرته بتلك الحملات الشرسة التي هم شهود عليها. بمدينة قسنطينة كان القتلة المجرمون يرمون بضحاياهم من أعالي الجسور لتسقط في شعاب "روميل" مهشمة على صخور الوادي. كنت أتذكر أيضا ما قاله لي الملازم الأول للمظليين (شاربونيي) بدقائق قليلة بعد اعتقالي، فكان لا يزال حينها يخاطبني بصيغة الجمع (أنتم) : "الشيء الذي أتمناه هو أني الصقكم لافة على مستوى رقبتكم تبين للناس من أنتم ثم أطلقكم في حي ميشلي (*la rue Michelet*) ...فيقطعونكم اربا إربا".

كانت الأحداث تتسارع ؛ أحد المراقبين لم يعد يفصل بينه وبين إحالته على التقاعد سوى بعض الأشهر طاعن في السن من مدينة كورسيكا، ينادونه "بالفأر الأبيض" لشحوب وجهه وللون الفضي للشعيرات الصغيرة المتناثرة عليه، يخبرنا وهو لا يكاد يخفي حماسه أن جاك سوستال (Jacques Soustelle) الحاكم العام السابق القادم إلى الجزائر بسمعة المثقف الليبرالي لكن سرعان ما انقلب إلى مناصر شديد التزمت "لجزائر فرنسية" ليصبح محبوب المتطرفين، بأن هذا الأخير يعود إلى مدينة الجزائر بصفته مبعوثا رسميا للجنرال دوغول بعدما انفلت كما قيل عن أعين رجال الشرطة الذين كلفوا بمنعه مغادرة مدينة باريس.

كانت الاتصالات مع فرنسا مقطوعة : لا تواصلات عن طريق البريد ولا اتصالات عن طريق البحر أو الجو. وكان المظليون قد انتهوا من "تحرير" كورسيكا، والآن هم ينتظرون النزول قريبا إلى مدينة الجزائر "لتنظيفها من العفن" وإيصال الجنرال إلى الحكم : "ومعه أي (دوغول)، يتنبأ الفأر الأبيض، ستنتهي الحرب في الثلاثة أشهر القادمة" .

تمر خمسة عشر يوما، فقد أصبح مسموحا لنا بالخروج من زنزاناتنا. أن تجد نفسك طليقا في الساحة.. لك القدرة على المشي أكثر من ثلاث خطوات وتجري .. تتنفس قبالة الشمس.. ترى عصفورا يقطع بضربة جناحيه سماءنا المربعة، فكل ذلك كان شبيها تقريبا بطعم الحرية، حتى ولو كان الأفق باق هو نفسه الصخرة الرمادية لهذا المكان المسور.

لوحظ على سور الحراسة أن الحارس الذي اعتدناه هناك استبدل برجال CRS حضور طارئ كان يوحي بأن هناك شيء ما يحدث.. الأمور تتغير دون أن تجد تفسيرا واضحا لما يحدث، فإن الوضع الجديد كان يدل على أنه قد تم اتخاذ القرار لحماية السجن ضد القتلة المتطرفين الذين برمجوا لاقتحامه، ومن بين أولى الإجراءات التي اتخذت في ذلك سحب كل مسؤولية عن المراقبين في الدفاع عن البناية ضد أي هجوم خارجي محتمل.

إن رجال CRS مكروهون لدى الأوروبيين الذين كانوا وقد واجهوهم من قبل في شوارع المدينة، كما يتهمهم المتطرفون "لجزائر فرنسية" بأنهم يبدون دائما أكثر استعدادا لصد مظاهراتهم من الذهاب إلى "كسر الفول في البادية" وكلما يظهر هؤلاء إلى العيان إلا وتسمع شعار: "CRS في الأوراس !" يخلف صداه. فتفويضهم أمر الدفاع عن سجن باربروس بإبعاد عن الأماكن الاستراتيجية المراقبين الموالين تقريبا إلى المتطرفين والمسؤولين عن الحراسة، كان له معنى خطير. رجال الـ CRS – الذين كانوا يبادلون نفس مشاعر الكره للأقدام السود - كانوا أنفسهم واعين لما كان يجري. فقد قام احدهم من أعلى سور الحراسة حيث تم تنصيبه بتحية رفاقنا السياسيين عندما التقينا به في الساحة لأول مرة منذ يوم 13 من شهر ماي بعد أيام من العزلة التامة، مادا يده نحو الخارج مشيرا بإصبعه إلى المدينة ثم يرفع سلاحه وهو يوجه لنا القول صارخا : "نحن في انتظارهم !".

مساندة غريبة ! لأول مرة في حياتنا يظهر لنا رجال CRS على الأقل من الذين كانوا يحرسون سجن باربروس، يستحقون مشاعر التعاطف. الأمر الذي كنا نجهله هو أن نساء زوجات لمسجونين ومعتقلين جزائريين (تم إبعادهن إلى فرنسا) كن وقد أنذرن الصحافة حول الخطر الذي كان يحدق بالمساجين، وتم استقبال هؤلاء النسوة من قبل كل من رابطة حقوق الإنسان، جمعية CIMADE البروتستنتية، الحاخام الأكبر، المفتي العام والكاردينال-المطران لمدينة باريس السيد فيلتين (Mgr Feltin). كان المتطرفون يهددون، كما أكدت (جيلبرت)، بالدخول إلى السجون لقتل بأنفسهم المحكوم عليهم بالإعدام والمساجين الآخرين، "مما يعتبر جريمة"، رجل الكنيسة يفكر لحظة ثم يعود ويستدرك: "مما يعتبر خطأ".

مهما يكن فإن الكل سارع للتدخل من أجل تجنب أي "عاقبة وخيمة".

شيئا فشيئا قل ضجيج وصخب أيام المظاهرات ولم يعد الشارع يبعث لنا سوى إشاعات اعتدنا عليها يوميا، موقعة من حين إلى آخر على وتيرة النوطات الخمس (Algérie-française) "الجزائر فرنسية" التي كان يرسلها منبه لسيارة سائق الذي وهو يعبر إلى جانب سجن باربروس أراد أن يتلذذ بفعل استثارة مشاعر "الفلاقة" الذين كانوا محبوسين بداخله.

وصلتنا معلومات عن طريق سجين محكوم عليه بالإعدام الذي كان محاميه، الأوروبي من مدينة الجزائر، وقد أفاده بمجرى الأحداث الأخيرة : الجنرال (دوغول) يتولى الحكم بتدعيم من اليمنيين أصحاب "جزائر فرنسية" ومن اليساريين المعتدلين الذين استسلموا في خضم الهلع إزاء التهديد لقدوم مظليي الجنرال (ماسيو).

استقبل (دوغول) بحفاوة من قبل أنصار سياسة القوة الذين ألقى عليهم كلمته أصبحت بعدها مشهورة "لقد فهمتكم ا " (je vous ai compris) لكنها للغاية مبهمة، غير أن الجمع الغفير المتجمع في الساحة قد تلقاها كوعد منه يلزمه شن حرب دون هوادة إلى غاية سحق "المتمردين".

مع ذلك فإن بعض مقاطع خطابه أثارت نوعا من التساؤلات لدى هؤلاء أنفسهم على سبيل المثال حينما ذهب يحي شجاعة المقاتلين الجزائريين.

ومن جانب مناضلي جبهة التحرير الوطني، فقد لاحظ هؤلاء أنه ولأول مرة أن رجل دولة فرنسي يتكلم عن الجزائريين بالاحترام المستحق لأصحابه المقاتلين والوطنيين ؛ إنها لغة تصلح لخلق في أوساطهم أوهاما بالتمام عكسية لتلك التي يتغنى بها إلى حد النشوة مناصرو "الجزائر فرنسية" وفكرة "الحرب إلى النهاية". فبالنسبة لهؤلاء الآخرين فليس هنالك من شيء أهم كانوا يريدون الاحتفاظ به من التأكيد على جزائر أراد لها القدر أن تبقى فرنسية.

أما بالنسبة لجبهة التحرير الوطني فمثل هذه الكلمات وهذه النبرة الجديدة المستعملة في حق المقاتلين في الجبال كانت وقد تركت الكثير يفكر أنه مع الجنرال (دوغول) الأمر يسير سريعا نحو التفاوض ونحو حل سلمي للقضية ؛ وأولئك الذين كانوا لا يخفون ارتياحهم وتشككهم أمام موجة التفاؤل هذه، كانوا يظهرون في أعين رفاقهم أنهم يرتكبون خطأ بعدم فهمهم أصلا للوضع الجديد الذي طرأ منذ قدوم الجنرال (دوغول) إلى الحكم.

ومع ذلك فلا شيء تغير في تسيير الحرب ولا في الأساليب المنتهجة، الأوامر التي أعطيت إلى الجلادين كانت تنصح بالسهر على "العمل" في هدوء وصمت "دون إثارة للزوابع". كان يقال أن (دوغول) قام بمنع التعذيب ولكن لا أحد يريد سماعه، غير أنه لم نسمعه أبدا يصرح علنا ورسميا أنه يندد بكل قواه بسلوك مخز وغير شريف سواء يدين أفراد الجيش أو فرنسا التي من الواجب على هؤلاء خدمتها.

ولا شيء أيضا قد تغير في حياتنا نحن كمساجين على الرغم من الزيارة الأخيرة التي قامت بها لجنة حماية الحقوق والحريات الفردية إلى المعتقل والتي خلصت إلى حكم أن الظروف التي يتم فيها اعتقالنا ظروف غير لائقة. كل شيء كان باق على حاله.. حتى المقصلة المنتصبة في ساحة الشرف عند فجر الأيام التي يتم فيها تنفيذ الحكم.

لكن في شهر جانفي 1959، ستة أشهر بعد قدوم الجنرال، خبر طارئ أثار البلبلة بين أوساط المساجين : قد تم العفو عن المحكوم عليهم بالإعدام وخفف الحكم إلى إدانتهم بالمؤبد مع الأشغال الشاقة، وكان وقع ذلك وكأن السجن كله تحرر فجأة من القبضة المميتة التي كانت تخنقه ؛ فلم يكن يعني هذا أنه لن يكون هناك تنفيذ للإعدام، فقط يمكن للذين سيعدمون مستقبلا ألا تقطع رؤوسهم بالمقصلة كمجرمين لكن رميا بالرصاص كجنود.

وعلى الرغم من كون أن وطنيين آخرين سيتعرضون للموت أيضا أضحت التوقعات تتسارع من جديد : ألا يعتبر هذا التفاتة طيبة ؟ أصبحت فرنسا بعد الآن تعترف أن الجزائريين الذين قبض عليهم حاملين السلاح ليسوا قطاع طرق أو لصوصا وإنما مقاتلون. أليس هذا دليلا على أن الأمر كان يتجه نحو حل للقضية ؟

قرار يكشف أيضا يقول الداخلون الجدد إلى السجن وهم يروون ما سمعوه بالخارج، أن باريس أصبحت ملزمة من الآن فصاعدا بأخذ بعين الاعتبار وجود على الساحة "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" التي كان لنشأتها في سبتمبر 1958 وقع كبير صحبه الكثير من البهجة والسرور وصل مداه إلى غاية السجون والمعتقلات.

في الواقع أن فرنسا الرسمية لم تكن تتقدم في القضية سوى بخطوات جد محسوبة، لا تتنازل عن أي شيء بكامل إرادتها كما ولو كان لا يمكنها الوصول إلى التخلي عن الأمل الكاذب القائل بالحل العسكري الذي بإضافته بعض التنازلات الحتمية بامكانه الحفاظ على الجزائر في الحجر الفرنسي وتجاهل "غرور القادة المتمردين". ومع ذلك فإن الجنرال كان أكثر واقعية حتى لا يفهم من أن عهد "جزائر الأمس" قد ولى. فقد صرح هو نفسه بذلك ذات يوم من شهر أفريل سنة 1959، ولكن لم يهتد إلى استخلاص النتائج من ذلك إلا بتوان، وباستخدام لعبة التوازنات والخديعة التي عطلت من جديد وقت التفاوض مع أولئك الذين كان يناديهم "بقادة العصيان المسلح" هكذا لتجاهل جبهة التحرير الوطني والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فقد جاء في تصريحه في سبتمبر 1959 أنه يعترف للجزائريين حقهم في تقرير مصريهم بأنفسهم، وكذلك كان لاحقا لحديثه عن "جزائر جزائرية" أنه جاء لا يتماشى وخطاب المناصرين "لجزائر فرنسية" المتصلبين. لكن الشرط الذي كان يريد توفره هو أن يضع المقاتلون الجزائريون السلاح قبل أي

تفاوض، بالإضافة إلى رفضه مناقشة الضمانات المرتبطة بقضية تقرير المصير مما أدى إلى إطالة من عمر الحرب وإلى زيادة في المجازر والتعذيب؛ سياسة غامضة جديرة أيضا بتغذية حقد كبار الكولون (les colons) والأوروبيين الذين يتبعونهم مدعمين من قبل العسكريين المتطرفين في تحقيق أهدافهم من الذين يرون أنفسهم وقد تعرضوا للخيانة والآن هم يتآمرون لقلب الأوضاع.

إن سجن باربروس يشهد تغيرات مستمرة في تعداده البشري، فالأفواج الداخلة من المعتقلين الجدد تحل محل الخارجة بعد محاكمتها وإدانتها من الذين سيتم نقلهم إلى المراكز العقابية إلى : Lambèse، Bourrouaghia، Maison-Carrée وإلى مراكز أخرى أو إلى أحد "المعتقلات الإيوائية" العديدة التي أنشئت في الهضاب العليا وفي الجنوب.

نحن في شهر أفريل من سنة 1960 وكنا على مقربة من دخول الحرب سنتها السادسة، والجنرال (دوغول) مشغول في "مناقشة القضايا" منذ أقرب من السنتين، وبما يقرب الشهرين من قبل (نهاية جانفي - بداية فيفري 1960) كنا وقد عشنا "أسبوع المتاريس" التي نصبت هنا وهناك على طول أكبر شارع في مدينة الجزائر.. على سبيل طبعة فاشلة لتلك التي وقعت في يوم 13 ماي، لكن هذه المرة ضد (دوغول). البعض من الفاعلين والمسؤولين على هذه الأحداث ومنهم من كان عضوا في جماعات إرهابية متطرفة - هؤلاء أنفسهم الذين قاموا بتفجير قنابل البلاستيك بحي القصبة وبمقر جريدة "Alger républicain" كان وقد تم القبض عليهم ثم اعتقلوا بسجن باربروس. كنت وقد التقيتهم ذات صباح بعيادة السجن حيث كانوا يظهرون في أبهى ملابسهم وبربطات العنق وهم يتأهبون وقتها لملاقاة أعضاء لجنة جاءت في زيارة إلى السجن، فقد كانوا يتمتعون بمعاملة لا علاقة لها البتة بتلك التي كنا نحن نعامل بها، مما جعلنا نفهم من أنه لا يمكن للمدير ونوابه

ومعظم المراقبين أن يعاملوا هؤلاء إلا كضيوف من النوع الرفيع، لأنه في نظرهم، كل هؤلاء القتلة المجرمين للمنظمة السرية المسلحة (l'OAS) اضحوا الآن أبطالا. وكون السجن لا يليق من دون شك بالإطار القانوني الذي كان يراد وضعهم فيه ولا بوسائل الراحة التي كانوا يطالبون بها يتم نقلهم سريعا إلى مستشفى مصطفى باشا حيث يمكنهم هناك دون أي عائق من الاستفادة من نظام يتماشى و "منزلتهم".

كان التحقيق القضائي لقضيتنا وقد تم منذ ستة عشر شهرا وكل شيء باق على حاله ؛ أصبحت مجموعتنا الصغيرة المكونة من بول كباليرو (Caballero Paul)، أندري موان (André Moine)، احمد عكاش (Ahmed Akkache)، جورج كاتوني (Georges Catogni) وأنا من "القدامى" وبالشكل الرسمي أيضا لأن قلم المحكمة أضاف إلى جانب أرقامنا للتسجيل الأصلية الحرف "A"، هكذا بهذه الصفة "Ancien" حتى لا نختلط بالطبع مع الداخلين الجدد الذين تعطى لهم أرقام مشابهة لأنه وفي كل مرة يصل عدد المعتقلين إلى حد معين يتم فتح سلسلة أخرى جديدة لأرقام التسجيل بداية من واحد، ابتداء من الآن أصبحت أحمل الرقم "A 923"، شبيه بوسام الشرف.

البعض من الجفاة والنصابين من الحجم الخفيف ممن أطلق سراحهم بعدما مضوا عقوبتهم ويعودون مرة ثانية إلى باربروس بعد شهور قليلة بسبب جنحة أخرى قاموا بها، كانوا يندهشون حين يلاقوننا لا زلنا قابعين في السجن : " عجبا ! لا زلتهم هنا !".

"نعم دائما هنا" وبدون محاكمة وقد مرت ثلاث سنوات من تاريخ توقيفنا، وكنا نعرف لماذا كل ذلك، فقضية (موريس أودان)"المفقود" الذي كان ضمن المتهمين المكونين لمجموعتنا، تفسر تردد وتحفظ النيابة العامة لمثولنا أمام القضاء ؛ هذه القضية التي أضحت الآن بالنسبة للملايين من الناس في فرنسا وفي العالم تثير حقيقة الرعب الذي أنتجته الحرب الكولونيالية ضد

الجزائر وأكاذيب القادة من الذين كانوا يزعمون أنهم إنما هم فيها للدفاع عن الحضارة والديمقراطية وحقوق الإنسان، لكن ببسط حمايتهم - حينما لا يأتون في صفهم - للمجرمين والجلادين. فاتفق على أنه لم يكن من الواجب الحديث عن هذا والمحاكمة ستكشف حتما عن مسائل وقضايا لا يرى الجنرال (دوغول)، على نهج الذين سبقوه إلى الحكم من يوم اندلاع الثورة، من اللائق تركها تفضح على العلن. فإثارة قضية موت (موريس أودان) من شدة التعذيب وعمر جغري (Omar Djeghri) شاب شيوعي من قسنطينة، قتل هو الآخر "سرا" تحت التعذيب في فيلا (Sésini) المشهورة، والآلاف الآخرين من "المفقودين"، لا تخدم أبدا لما يسمى "اعتبارا لمصلحة الدولة" (raison d'Etat) الذي يقتضي موجبه أن يبقى الصمت والتستر مستمرين على الجرائم المرتكبة. لكن كان من الواجب أن نمتثل أمام القضاء يوما ما لا محالة. وتم اتخاذ القرار لمحاكمتنا باتخاذ كل الإجراءات الضرورية حتى لا يتسرب شيء مما سيقال أثناء المحاكمة سواء من قبل المتهمين أو من محاميهم إلى خارج قاعة المحكمة.

وقبل عشرة أيام فقط من تاريخ مثولنا أما القاضي، تم إبلاغنا على أن المحاكمة حددت بتاريخ 12 جوان 1960 (ثلاث سنوات، يوما بيوم بعد توقيفي بمنزل (جوزات) و (موريس). كلاسيكيا كانت عناصر الاهتمام في حقي تتمثل فيما يلي: "المساس بأمن الدولة الخارجي" و"إعادة تأسيس رابطة تم حلها". ودون أن يعلم المعنيون بالأمر ما هي الأسباب يتم إقرار ضد رفاقي المتهمين في نفس القضية تهم إضافية "كالمشاركة في مجموعة أشرار". بالإضافة إلى عكاش (Akkach)، كباليرو (Caballero)، موان (Moine)، وأنا الذين كنا نمثل أعضاء قياديين في الحزب الشيوعي الجزائري (PCA)، وأودان (Audin) المغتال ولكن رسميا يعد فارا - وبدون حياء تم استدعاؤه للمثول - و(جورج كاتوني)، فيرنو بوالات، (كريستيان بيونو) المشارك في

نشاطنا السري، بالإضافة إلى كل هؤلاء تنسب النيابة العامة تهما في حق مناضلين لا تربطهم أي علاقة بمجموعتنا. وبالمقابل نجد أن مساجين آخرين معروفين بانضمامهم إلينا لم يتم ذكر أسمائهم في هذه المحاكمة.

كان القاضي الذي عين لرئاسة المحكمة العسكرية هو نفسه قاضي التحقيق السابق كاتيرينو (Catherineau) الذي كانت لنا معه كلنا تقريبا قضايا في السنوات التي سبقت الثورة في إطار المتابعات ضد جريدة (Liberté) أو الحزب الشيوعي الجزائري ؛ كان في الحقيقة يمثل نموذجا للعدالة الكولونيالية، يحمل ضغينة شديدة ضدنا ؛ وكله قناعة من أن الجواب الوحيد الذي يمكن تقديمه "لمطالب الأهالي" (revendications indigènes) هو عدم السماع إليهم ، كان يرى أن واجبه يتمثل في تجنب الارتباك إزاء الشرعية حينما يتعلق الأمر بإزالة الخطر الآتي من أعداء فرنسا. كان هذا القاضي يعمل بالتعاون الدائم مع رجال الشرطة للاستخبارات العامة (RG) ومع الجهات الأخرى الخاصة بحراسة الإقليم (DST)، المعروفين بقدرتهم على استخراج المعلومات من أفواه من يقومون باستنطاقهم. جول مولينا (Jules Molina)، أحد أقرب الرفاق لي وعضو اللجنة الإدارية لجريدة "الجزائر الجمهورية" كانت له تجربة سابقة في ذلك. فكان مفتشو الـ DST يتناوبون المحاولة بغية جعله يتكلم ويخبرهم عن آلة الطباعة للحزب الشيوعي الجزائري التي كان وقد ساهم في تركيبها وإخفائها في مكان سري. فلم يتلفظ بكلمة ولكنه في الوقت الذي كانت الضربات تتوالى عليه، كان يسمع كلام رجال الشرطة وهم يجيبون (كاتيرينو) الذي نفد صبره على خط الهاتف لعدم تلقيه في أسرع وقت نتائج الاستنطاق الشديد الذي يتم: "لا سيدي القاضي.."، "ليس بعد سيدي القاضي"، "أكيد، سنعيد الاتصال بك في حينها، سيدي القاضي.." (جول مولينا) لم يقل شيئا وبقي ملفه فارغا، ومع ذلك فقد حكم عليه بسنة سجنا.

وحينما أصبح الجنرال (ماسيو) بعد أشهر المسؤول الأول على حفظ الأمن في مدينة الجزائر، لم يتردد (كاترينو) بتقديم موافقته للمظليين، خلافا لما ينص عليه القانون، لإخراج من سجن باربروس يحي بريكي - محرر بجريدة "الجزائر الجمهورية" ثم عضو في مجموعة مقاتلة تحررية متهمة في محاولة اغتيال (ماسيو) - لربطه من جديد على طاولة التعذيب، طريقة أكثر نجاعة كما كان يتصور من أن يتم الاستنطاق بمكتبه. بعدما علم أحد محامينا أن هذا القاضي هو الذي سيترأس المحكمة العسكرية التي تمت دعوتنا للمثول أمامها، لم يتردد من طرح ملاحظته قائلا: "لقد تم اختياره لكم حسب المقاس بالتمام !".

لم يكن هذا الإجراء الوحيد الذي تم اتخاذه حتى تجري المحاكمة حسب أهواء النظام والعسكر ؛ لو كان الأمر يجري في أية محكمة كانت، لأمكننا قانونيا رفض مثل هذا القاضي بسبب تحيزه الظاهر لمتهمين سبق له وأن تابعهم ثم أدانهم، لكنها الحرب ونحن في الجزائر. في هذا الإطار قام محامونا : ليو متاراسو (Léo Matarasso) هنري دوزان (Henri Douzon) وروجير دوس (Roger Dosse) بتقديم عريضة، لكن تم رفضها رفضا باتا. من جهة أخرى يتم إخطار محامي جوزات أودان (Josette Audin) الأستاذ جول بوركر (Jules Borker) الذي منع الدخول إلى مدينة الجزائر الأمر الذي أدى نقيب المحامين ويليام تورب (William Thorp) ليحل محله.

(كاتيرينو) يمنع (جوزات أودان) الكلام بعدما أبدت استنكاراها حول موقف المحكمة التي اكتفت فقط بإثبات غياب زوجها دون تقديم الأسباب، كما يقوم بنفس الشيء مع نقيب المحامين (تورب). "فأنتم تريدون جلسة سرية لإدانة ميت!" يرد عليه (ليو متاراسو) دون وأن يجرا أحد من أعضاء المحكمة ليعقب على ذلك.

افتتحت المحاكمة إذا بمقر المحكمة الدائم للقوات المسلحة ليس بعيدا عن البريد المركزي في شارع Cavaignac الصغير المزدحم صباح هذا الاثنين من شهر جوان برجال الشرطة والدرك المسلحين بالرشاشات. داخل القاعة المكتظة - صحافيون، عائلات وأصدقاء المتهمين، فضوليون - لمحت وجوها أعرفها : مادلين ريشو (Madeleine Richaud) من جريدة "l'Humanité" التي كثيرا ما كانت تأتي إلى مقر جريدة "الجزائر الجمهورية" حتى اعتقدنا أنها أصبحت واحدة من فريقنا، ومادلين جاكوب (Madeleine Jacob) من جريدة "Libération" إلى جانبها جون مارك تيولبير (Jean-Marc Théolleyre) من جريدة "le Monde" والمبعوثين الخواص لمعظم اليوميات الباريسية سواء من اليمين أو اليسار ؛ كل هنا جاء ليحرر تقريره حول "محاكمة سياسية هامة" حيث سيتم الحديث كما كانوا يظنون عن الحرب الواقعة والسلم المستقبلي، عن تقرير المصير، عن جبهة التحرير الوطني ودور الشيوعيين، عن موت (أودان)، عن منع ومصادرة كتاب "la Question"، عن أولئك الذين اتهمتهم فيه، باختصار عن كل ما كان يهم فرنسا ويستهويها، لكن أيضا عما هو في مهمة المحكمة أن تفرض عليه الصمت. كل هذا الحضور سيخيب أمله، لأن المحاكمة التي كانوا ينتظرونها لن تتم.

منذ البداية، محافظ الحكومة برتبة عقيد اسمه فرانشي (Franchi) وبعد استناده إلى حادثة مزعومة تقول بأنه ثمة توزيع لمنشورات من قبل الشيوعيين تنادي بالتظاهر في الشوارع ضد هذه المحاكة (لو أن حقيقة كانت هذه المنشورات موجودة، لكان الأمر يتعلق بعملية تزييف)، يطلب بأن تتم الجلسات بأبواب مغلقة "سريا" لأسباب تتعلق بالنظام العام. طبعا فهذا يمثل جزءا من السيناريو الذي دبر حتى تبقى تصريحاتنا حبيسة القاعة وتمنع المناقشات والمرافعات عن الإعلام. كان من واجب محامينا أن يدلوا أولا بآرائهم حول هذا الالتماس ويشرحوا لماذا عدالة حقة تطالب بأن تجري

دون متابعة من أحد لحيثياتها، فقد رافعوا ودافعوا بحماس لكن دون غرور، كنا نعلم مثلهم وأنه في كل الأحوال لا شيء يمكنه أن يغير من قرار المحكمة الذي تم اتخاذه لفرض علينا الصمت.

لدى مرافعته، صرح (متاراسو) علنا أنه على الرغم من القرار المتوقع لإجراء المحاكمة بأبواب مغلقة مما يعني منع الصحافيين والجمهور من الدخول إلى القاعة، فسيمكنه إلزام نفسه ويمعية زملائه لتنوير الرأي العام الفرنسي والدولي بكل ما يمكنه أن يقال أثناء هذه المحاكمة الغريبة والفاضحة.

ثم يأتي الدور من بعده للمتهمين ليدلوا بتصريحاتهم الموجزة ؛ قال لي (متاراسو) على انفراد أنها الفرصة الوحيدة بالنسبة لنا يمكننا التعبير بحيث يجب علينا إذّا التركيز على الأهم فيما يجب قوله في قليل من الكلام. يمنح القاضي الكلمة أولا (لأحمد عكاش) الذي و على الرغم من المقاطعات الفظة يؤكد ثانية باسم أولئك الذين كانوا إلى جانبه وباسم الحزب الشيوعي الجزائري انخراطه وانضمامه الكليين إلى نضال وكفاح الشعب الجزائري. ثم حان دوري بعد ذلك، احتججت بداية ضد تهديد سرية المحاكمة، "المعيبة لمنع ظهور الحقيقة". وما كدت أنهي كلماتي القصيرة المنددة بأساليب الحرب الكولونيالية وأتلفظ بكلمة "التعذيب" حتى أشار إلي (كاتيرينو) بيده غاضبا يأمرني بالتزام الصمت، إلا أني انتهزت الفرصة لذكر أسماء لبعض الجلادين قبل أن يأتي الحراس لتقييدنا بالأغلال ثم جرنا، عكاش وأنا، خارج المحكمة لحبسنا في زنزانة مجاورة.

كان من المفترض أن تستمر المرافعات لمدة ثلاثة أيام غير أنها توقفت عند هاهنا.

وبعد فترة الاستراحة واستئناف الجلسة يتم الإعلان عن إتمام المحاكمة في سرية وبعيدا عن الأنظار، وعلى إثرها يسرع محامونا بالتصريح على أنهم

لا يمكنهم المرافعة في مثل هذه الظروف وكذلك كان الحال بالنسبة لنا حيث أبدينا رفضنا صراحة ونحن في قسم الاتهام للإجابة عن الأسئلة الممكن طرحها علينا، وهذا حتى لا نقدم أي ضمانة أو مصداقية لهذه المسخرة.

لم يكن للجلسات التي تم انعقادها لاحقا - بغياب الصحافة والجمهور - إلا للمخادعة والتستر لجعل المتابعين بالخارج يؤمنون بأن محاكمة ومرافعات "حقيقية وجدية" تجري داخل القاعة المغلقة، في حين ولا شيء في حقيقة الأمر يحدث أو يكاد.

لمدة ساعات وبصوت بهيم لا يكاد يسمع (لكن هذا لم يكن مهما لأن لا أحد كان يستمع، وإنما كان همه الوحيد شغل وقت الجلسات) أخذ (كاتيرينو) كل وقته في قراءة قصاصات لبعض الجرائد بخاصة ما كان منها لجريدتي "Alger républicain" و"Liberté" اللتين لم تكن لتربطهما أي علاقة بالقضية، لكنهما مجتمعتان كأدلة في ملفه، قدمتا كوثائق إثبات. وبينما كان مستمرا في لجلجة هذه النصوص غير مكترث البتة بالعسكريين الذين تم ترقيتهم إلى قضاة الذين كانوا يجلسون إلى جانبه، كانت المحادثات جارية في مجلس المحامين وفي قسم المتهمين، كما وأن لا شيء يهمهم من كل هذا.

في صباح اليوم الثالث والأخير، وفي الوقت الذي انعزلت فيه المحكمة للتداول والتشاور وحيث شرع في فتح الأبواب من جديد للجمهور وللصحفيين، انتصبا واقفين على اندفاع واحد وكلنا رافعا صوته بنغمة واحدة "فلتحي الجزائر مستقلة !" على الأقل وبالرغم من الكمامة التي فرضت دوننا إلا أننا عرفنا كيف نحافظ على موقفنا المحفز بحيث يبقى نفسه.

وحسب ما ينص عليه القانون العسكري، لا يحق للمتهمين أن يحضروا ساعة النطق بقرار المحكمة، فيتم النطق بالحكم إذن في غيابنا: عشرون سنة سجنا مع الأشغال الشاقة في حق كل من (أحمد عكاش)

وأندري موان (André Moine) وخمس عشرة سنة وبنفس العقوبة في حق كل من بول كباليرو (Paul Caballero) وجورج كاتوني (Goerges Catoni) وخمس سنوات في حق كريستيان بيونو (Christian Buono) ؛ كما تم الإفراج عن فرنون بوالات (Fernand Boillat) وكونستان تيفو (Constant Tiffou) أما الحكم الذي صدر في حقي فكان عشر سنوات سجنا وثلاثة آلاف وستمائة فرنك فرنسي غرامة. قضاتنا لم تذهب بهم الجرأة إلى حد اكتمال مطبة العار بإدانة "الفار" (موريس أودان) غيابيا، فيفضلون بكل نفاق فصل قضيته عما يجري.

وبعد مرور ساعات قلائل عن ذلك يتم القبض على (ليو متاراسو) من قبل أربعة مفتشي شرطة وهو عائد إلى الفندق، فيخطرونه بأمر يقضي بترحيله ثم يقتادونه إلى غاية المطار بل إلى غاية الطائرة التي تنطلق ليلا باتجاه باريس. هكذا تختتم إحدى مهازل القضاء التي تأتي لتؤكد ما كنت اعلمه عن عدالة الأقوياء والأغنياء، أكثر طيشا.. أكثر وقاحة.. وأكثر صلابة أيضا كونها في بلد استعماري.

كما أصبحت هي العادة في سجن باربروس، حينما يرجع المناضلون من المحكمة بعد إدانتهم والحكم عليهم، فقد استقبلنا السياسيون بالهتافات، متجمهرين إلى شبابيك قاعاتهم يتحدون تهديدات العقاب للمراقبين، وكانوا يحيوننا كمقاتلين عادوا من معركة منتصرين. فقد تأثرنا كثيرا بمثل هذه الشهادات التي كانت تنم عن الصداقة والمساندة ؛ فلم نكن في حقيقة الأمر محتاجين إلى كل ذلك حتى نشعر بالراحة التامة بعد مهزلة هذه المحاكمة.

أيام من بعد، وأنا أنتظر دوري للمرور إلى الحلاق أمام صف من المساجين، يأتي أحد المسؤولين، نائب مدير السجن شخصية فظة غضوبة، ويقف أمامي، يحدق في وجهي ثم يقول لي ساخرا :

"إذن عشر سنوات !إنها طويلة عشر سنوات .."

"بالتأكيد ! لكن لن أمضي هذه المدة لا أنا ولا أصدقائي !"

فامتقع غيظا كما وأني شتمته ؛ وبفظاظة شرسة يصرخ تقريبا على وجهي ليقول : "أما أنا فأرى أنك ستمضيها كلها !"

وجدت أن هذه الحادثة قد كشفت لي مدى قلق المتطرفين الذين كان يمثل جزءا منهم، من جهة أخرى فقد كانت بعض مواقف الحكومة تطمئن هؤلاء وتريحهم.

تنفيذ حكم الإعدام على الجزائريين - الذي بقي مطلبهم الوحيد - كان لا يزال مستمرا حتى ولو عمد بعد الآن إلى استبدال المقصلة بالبنادق (رميا بالرصاص) وأصبحت وتيرة عمليات التنفيذ أقل سرعة مما كانوا يأملون. من جانب آخر، ومن خطاب إلى خطاب، ومن تراجع إلى آخر، كان هؤلاء يخشون من أن الجنرال (دوغول) الذي أمر بإزالة المتاريس في جانفي 1960 وبتوقيف البعض من الزعماء النشطين، سيتخلى عنهم مثلما أنهم كانوا يتساءلون قلقين حول ما إذا كانت الأرض ستنهار من تحت أرجلهم يوما.

وعلى عكس ذلك كان هناك ما يدعو إلى التفاؤل بالنسبة إلى المساجين، وأسباب أخرى أيضا دعت إلى ذلك، فبعد أيام قليلة من نهاية محاكمتنا علمنا أن قادة جبهة التحرير الوطني صرحوا من تونس أنهم على استعداد لقبول الدعوة التي قدمت لهم لملاقاة ممثلين عن فرنسا. كان الطريق نحو السلم والاستقلال لا يزال طويلا وملغوما بالمكائد، إلا أن الأمور كانت تتقدم. فالأخبار التي كانت تصلنا من رفقائنا ممن كان يواصل الكفاح بالخارج كانت مشجعة هي أيضا ؛ كنا مسرورين - وفخورين أيضا - لنعلم أنه وعلى الرغم من المطاردة المستمرة المنظمة ضدهم بدعم من المئات من رجال الشرطة والمظليين، وعلى الرغم أيضا من السلوك المتعصب لبعض القادة المجاهدين إزاء بعض المناضلين الشيوعيين (الذي أدى إلى حد القتل، لكن لم أكن لأعلم

بهذا (إلا لاحقا)، أن الحزب لم يتم تهديمه ولا إسكاته، كما أن مسؤولي الإدارة المركزية (بشير الحاج علي) و(الصادق هجرس) لم يغادرا البلد، وعلى الرغم من المشاكل والمخاطر اليومية فقد أمكن لهما الحفاظ على التواصل مع المناضلين الذين كانوا ينشطون في السرية وكانوا أنفسهم على اتصال بشبكات جبهة التحرير الوطني، وبالعمل الميداني بكل أشكاله. وانطلاقا من تجاربهم وتبصراتهم كانوا يبعثون إلى قادة جبهة التحرير الوطني المقيمين بتونس، ومن الأماكن السرية التي كانوا يختبئون فيها في مدينة الجزائر، ملاحظات واستنتاجات واقتراحات بخصوص سير القضايا العسكرية والسياسية. حتى ولو كان أولئك الذين كانت تصلهم هذه الرسائل يتظاهرون يجهلون ما جاءتهم من أخبار، كان من الواضح عند قراءة النصوص التي كانوا ينشرونها والتصريحات التي يقدمونها أن تلك الرسائل كانت تفيدهم كثيرا.

لم يكن سوى بعد الاستقلال أن بعض هذه الرسائل الممضاة باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري والموجهة إبان الحرب إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) -التي كثيرا ما نجدها مجهولة لدى المؤرخين - يتم نشرها لتكشف عن مدى المساهمة السياسية العظيمة لقادة الحزب الشيوعي الجزائري في سير الكفاح.

في إحدى هذه الرسائل، سجلت لأشير بإلحاح إلى أنه إذا كان بديهيا من أن "مصير الجزائر يتقرر قبل كل شيء في حرب العصابات الدائرة رحاها في الأرياف والبوادي"، وأن "جيش التحرير الوطني يبقى اليد الحديدية الضاربة للثورة"، فإن الاهتمام الذي كان يجب توليته "للنضال السياسي في المدن" كان ضروريا. فقد كان لهذه الفكرة تأكيد قوي في المظاهرات الشعبية الهائلة التي شهدتها لاحقا مدينة الجزائر ومدن أخرى مختلفة.

كان القادة الشيوعيون يقترحون أيضا إقامة "مراقبة واسعة وصرامة كبيرة" في عملية توجيه الأعمال النشطة المدبرة في المدن ؛ فلا يمكن لهذه

الأفعال أن تكون إيجابية، يؤكد الشيوعيون، إلا بشرط ألا تكون عمياء وأن الأهداف يجب أن تظهر واضحة للجميع.." كما كانوا يلفتون الانتباه إلى "أهمية دور الرأي العام الفرنسي" وضرورة أخذه بعين الاعتبار. جانب آخر من النضال كان قادة الحزب الشيوعي وقد أهملوه، مكتافين باتصالات وعلاقات تم عقدها مع شخصيات معادية للاستعمار التي كانت بكثير من الشجاعة والتضحية تقدم مساندتها لجبهة التحرير الوطني، إلا أن تأثيرها كان ضيق النطاق على مستوى الفرنسيين. بقدر ما هو من العدل وضروري لأن نكون حازمين حول حقنا في الاستقلال وحول حقنا في تسوية قضايانا دون تدخل أي أجنبي، بقدر ما هو من غير العدل أو من غير الحذاقة فضلا عن ذلك، يكتب قادة الحزب الشيوعي الجزائري، لجعل كل الفرنسيين على مستوى واحد.

عشرة أيام بعد محاكمتنا، يأتي إلي مراقب ويقودني إلى غاية مكتب مدير السجن الذي بغرابة وجدته لطيفا معي، يخبرني بأنه سيتم نقلي إلى فرنسا، ولكن لا يمكنه أن يخبرني بأكثر من ذلك أي عن المكان بالضبط، هذا الشخص قد عرفناه وعرفنا تمكنه في تكييف سلوكاته مع الحالات غير المتوقعة أو الطارئة. جعلني أسلوبه هذا المهذب أتصور أنه كان يريد أن ينسينا تلك الوحشية في التعامل التي فرضها على سجن باربروس خلال الأشهر التي مضت حينما كان يظن أن أصدقاءه النشطين المنادين "بالجزائر الفرنسية" كانوا منتصرين قطعا. فلم تكن هذه المجاملة المفاجئة لتطمئنني ولم أخف عنه ذلك.

"ألا تحضرون لي مكيدة الأب فرانسوا، أليس كذلك ؟

يرد عليّ بسلوك أحد أحسّ بالإهانة : "كيف ! ماذا تقول ! أنت تعرفني أليس كذلك ؟

فخطر على بالي بأن أردّ عليه بمثل : " هذا بالضبط ما.." إلا أني لم أرد أن أعقد الأمور.

بعكس ما كنت أخشاه، فقد تم اتخاذ كل الإجراءات كما قال لي، حتى يتم سفري في أحسن الظروف الأمنية ؛ سأكون مرفوقا بمراقبين "ممن تم اختيارهما" إلى غاية الطائرة، ويسافران معي بالزي المدني بأسماء مستعارة ولن أكون مقيّدا. وفي النهاية وعلى نبرة مدير ثانوية يودع تلميذا نجيبا يهم بمغادرة مؤسسته، يختم حديثه بنصيحة أبوية : "لقد مضيت ثلاث سنوات في باربروس، وأمر السجن لم ينته بعد. حينما تخرج منه نهائيا فلن تكون أنت الرجل نفسك..".

دون أن يظهر عليه ذلك كان يحاول أن يثير في مخاوف عميقة، فلم أهتم بذلك. لم يخطئ مع ذلك حينما قال أن سنوات السجن تكون وقد غيرتني ؛ ليس في الاتجاه السلبي والسيئ الذي كان يقصده لكن بالعكس - مثلما مازحتني (جيلبرت) لاحقا - فقد زادني ذلك "تطورا". بل كان لهذه السنوات أنها جعلتني لأكون أكثر انتباها وانفتاحا مع الآخرين، أقل قطعية في أحكامي، أكثر قناعة كذلك "بالضرب صفحا" عن مجتمع القمع والاضطهاد بهدف خلق علاقات أخوة وتضامن جديدة بين الناس، وأكثر من أي وقت مضى عازما على تكريس كل قواي من أجل تحقيق هذا المبتغى.

و في اليوم الذي ذهبت فيه لمقابلة المدير، قمت بتوديع الكل وبصفة مطولة مع موان (Moine) وكاتوني (Catogni) رفيقاي في الزنزانة ؛ باليوم والليلة قضينا بما يقرب ثلاث سنوات معا في فضاء لا يتسع حتى لغرفة حمام، كما عشنا معا ليال معا كلها قلق مما شهدته من إعدامات، وخوف من اقتحام المتطرفين السجن، وكذلك العديد من الإضرابات عن الطعام من أجل تحسين ظروف الاعتقال وبالدرجة الأولى المعاملة باحترام للمساجين السياسيين. فقد دام الإضراب عن الطعام الأخير عشرة أيام، من يوم السبت 19 إلى 29 ديسمبر 1960 ؛ ولعظم الاستجابة التي لقيها هذا الإضراب بقي هذا الأخير راسخا في أذهاننا لأننا لم نعد نعتد إثرها بإضرابات الثلاثة أو

الأربعة أيام. معا بالرغم من الاختلاط الخانق والتفتيشات، والإهانات اليومية والضائقة المادية وفقر الوسائل المتاحة لنا، توصلنا إلى تنظيم عملنا الدراسي، إلى الزيادة من معلوماتنا بالاستفادة من تجارب ومعارف كل منا، وعلى مر الأيام والأسابيع والشهور لم يحدث ولو مرة واحدة وأن قام واحد منا ورفع صوته على الآخر.

ولكنه حان الوقت لأن نفترق : "إلى أن نلتقي ثانية مع الحرية" يقول لي (كاتوني). نظمت أغراضي وأبقيتها محفوظة بداخل كيس صغير صنعته من مادة محفظة الحمام، وضعت بداخله كل ما كان ثمينا بالنسبة لي : رسائل (جيلبرت) التي كانت لا زالت تبدو لي حية، مليئة بالمعاني والروح، غنية بالأخبار والأفكار من كل نوع أحيانا بصياغة غير كاملة حتى لا يعبث بها المراقبون، مشجعة ومحمسة للثقة بنجاح نضالنا المشترك. هذه الرسائل التي كنت أنتظرها بفارغ الصبر، المقروءة لعدة مرات، وأحيانا تتوقف بسبب الأحداث السياسية أو بقرار من إدارة السجن، أمدتني طيلة هذه السنوات بنفس طويل زادني أملا في الحياة، كما كان لها أيضا أن زادت من دعامة توافقنا؛ شعور لم يكن لدينا أبدا في السابق ميل للتحدث فيه هكذا علنا ولا حتى تقديمه بعد اعتقالي عرضة للفضول المنحرف للمراقبين المكلفين بمراقبة البريد.

أطلقت آخر تحية للمحكوم عليهم بالإعدام الذين تم ملء زنزاناتهم من جديد، إلى كل مساجين المجموعة، وقمت بمعانقة أصدقائي في الزنزانة مودعا، ثم وبعد فتح الشبابيك أصعد إلى السيارة التي كانت تنتظر في ساحة الشرف حيث قبل زمن قصير، كانت تنتصب ذات أيام المقصلة.

لا اعتراض في المطار ونحن متجهون نحو سلم الطائرة، لقد تم ضبط الأمور المتعلقة بمراقبة الشرطة والجمارك مسبقا من قبل إدارة المعتقل ومن أحد الحارسين اللذين كانا مكلفين بمرافقتي إلى غاية نهاية السفر. أكثرهما سنا حارس قديم بسجن باربروس، رئيس مجموعة، قصير القامة

وسمين وأسمر البشرة، عرف منذ مدة طويلة بخشونته وغلظته وعنصريته. أما الآخر فكان نحيف الجسم لا يملك أية تجربة بعد وخجول، فهو حديث العهد بهذه الوظيفة. وقبل أن نصعد إلى الطائرة التي كانت لا زالت فارغة من المسافرين وأنا مفكوك القيد، يقول لي القائد بأننا نسافر سرا دون تحديد الأسماء، "كرفاق" يضيف دون استهتار. كان قائد الرحلة الوحيد الذي تم إخباره عن هويتي وعن مهمة اللذين كانا يرافقاني، فقد طلب منا بالجلوس عند المقدمة على الأرائك في الصف الأول.

لم تكن التنقلات الجوية وقتها مألوفة مثلما هي عليه اليوم، وكان لأول مرة بالنسبة للمراقب الشاب أن حصل له وأن ركب الطائرة، كان جد منفعلا لما كان يرى ومندهشا لما كان يلقاه من ملاطفة من قبل مضيفة الطائرة التي كان يبادلها الابتسامة، في حين كان زميله يظهر سيمات مكفهرة وعابسة، فقد فهمت لماذا، لأن هذا الأخير وزميله كانا وقد ارتديا ثيابا وكأنهما ذاهبان إلى حفلة زفاف، كنت على وشك أن أفعل مثلهما إلا أن خزانة ملابسي لم تكن أبدا تفي بالمطلوب منذ إقامتي بـ (Lodi)، ومع ذلك - كوني كنت أرتدي نظارات وأتحدث بلهجة غير محلية - فقد كان أفراد طاقم الطائرة يبدؤون بالحديث معي أنا أولا، كما ولو كنت أنا المسؤول عنهما، وهذا ما جعل "قائدنا" يغضب نوعا ما، كما حدث عند نهاية فطورنا عندما عادت إلينا المضيفة تطلب مني إذا كنا نريد بعض الشراب، يتدخل بالرد بجفاء : "لا، هذا يكفي !" مؤكدا بسلوكه هذا سلطته ومذكرا إيّاي ضمنيا أن الخمر ممنوع على المساجين. لم أشرب منذ ما يفوق الثلاثة أشهر وكنت أكتشف بلذة مذاق وشذا نبيذ بوردو "أما أنا فبكل سرور" أرد على المضيفة، وعندها اشتد احمرار وجه "القائد"، كنت أشعر وأن الغضب يتمالكه لعدم امكانه التدخل ضد سلوكي هذا المخالف للنظام، أما الشراب فقد أصبح يبدو لي أكثر لذة.

"حذار ! يقول لي أخيرا، أنت لم تشرب منذ مدة.."

وجدت الوضع مسلّ فانتهزت الفرصة : "على كل حال، سيدي القائد، أنت الذي كلف بمرافقتي، فلا خوف إذًا من التيه.."

لا هذا ولا ذاك كان على استعداد لتقبل مثل هذا النوع من المزاح، وبقي الاثنان صامتين طيلة السفر كله بينما كنت أنا أتمم كأسي بكل اطمئنان.

حطت الطائرة في مطار أورلي (Orly) وكنا آخر من ينـزل بعد دقائق قليلة من نزول كل الركاب، صعدت رفقة المراقبين في سيارة الإسعاف التي كانت تنتظر بعيدة ببعض عشرات الأمتار، ولم أكن لأعرف الوجهة إلا والسيارة تسير : إلى سجن الصحة (prison de la Santé).

بعد التفتيش والتسجيل يتم اقتيادي بين شبابيك مشابهة لتلك في باربروس، نحو الزنزانة التي هيئت لي، كنت جد متعبا. أول ما قمت به هو فك المحجن الذي كان يشد السرير الصغير على الحائط لأستلقي عليه باحثا عن الراحة. لحظة من بعد ألمح عين الحارس لاصقة إلى ثقب الباب تلاحظني، فيفتح بغتة ليشعرني أنه ممنوع استعمال السرير خلال النهار دون ترخيص من طبيب السجن ثم يأمرني بالوقوف ؛ فلم يبق لي سوى الطاولة والمقعد حيث جلست، وبمرور عشر دقائق انتابني نوم عميق والرأس على الأيدي.

لم أمكث كثيرا في سجن (الصحة) حتى يمكنني مقارنة نظامه بنظام سجن سركاجي، إلا أنه كان يظهر أكثر هدوءا : لا تعنيف ولا شتائم موجهة للمساجين، لا صراخ ولا صياح داخل الأروقة كما هي العادة في السجن الذي غادرته، والهواء الذي كنا نستنشقه لم يكن تميزه تلك الرائحة المقززة المثيرة للغثيان من الحساء الكريه ومن المواد المطهرة رخيصة الثمن التي كانت تعمّ سجن باربروس. وأنا ذاهب إلى الساحة حيث كنت أتجول لوحدي، التقيت في الدرج بعض الشباب الفرنسيين الذين رموني بتحياتهم، أعطاني أحدهم – ولم يكن يحمل إلا ذاك – فاكهة الليمون تعبيرا عن الصداقة. علمت بعدها أن هؤلاء

كانوا ينتمون إلى مجموعة حمّالي الحقائب وأنهم أخبروا بمجيئي إلى السجن من دون شك من قبل القسّ زائر السجن الذي مرّ في زيارتي لحظات من قبل.

كنت أتساءل كيف يمكنني إبلاغ (جيلبرت) أنني كنت في باريس ؛ يلزم ثلاثة أيام لتصلها الرسالة، إذا ما افترضنا أن الإدارة تقوم بإرسالها دون تأخر. غير أن الأمور تيسرت أخيرا إلى أحسن مما كنت أنتظر. كان على متن الطائرة التي كنا فيها بمدينة الجزائر صحفي من جريدة (France-Presse) كان يظهر لي أني أعرفه، أما هو فقد يكون على ما كنت أتصور قد علم بالوضع الذي كنت فيه وأنا مرفوق بذانيك المراقبين. وعند الوصول إلى أورلي (Orly) يقوم بمكالمة وكالته هاتفيا التي أذاعت الخبر سريعا. وعند الصباح لليوم الموالي الذي كان يوم أحد، بعض الجرائد من بين التي تظهر في مثل هذا اليوم ومنها جريدة (L'Humanité-Dimanche) تنشر الخبر نفسه في عدد من الأسطر. كان ابننا (أندريه)، حينها في سن الثالثة عشر واخوه (جون) الأصغر منه بست سنوات وقتما رحّلناه من مدينة الجزائر نحو باريس الذي أصبح يعيش في منزل جدته وخالته بجنوب فرنسا) أول من قرأ الخبر. وفي الحال تقوم (جيلبرت) بإبلاغ (ليو ماتراسو) وتتحصل بواسطته بترخيص بزيارتي.

رأيتها تدخل الرواق حيث قاعة المحامين في وقت مبكر. كنت جد مضطرب مما لم يسمح لي ذلك على قول كلمة ؛ يقوم المراقب الذي كان لطيفا معي بإشارة نحوي طالبا مني الانتظار حتى ينتهي من إنزل اللوحة الزجاجية التي تفصل الحجرة إلى قسمين وتحول بيني وبين زوجتي. لقد بقينا لمدة طويلة بعيدين الواحد عن الآخر، مررنا بكثير من المصاعب والمحن التي جعلتنا، على طول الشهور والسنوات، نطرح نفس السؤال : "هل سنعود ونلتقي يوما ما ؟ " على أننا هنا معا جد قريبين .. كان ذلك يظهر لنا بعيدا عن الحقيقة. وبعد لحظات يظهر (أندريه) منفعلا ومتأثرا مثلنا، طفل ذو قامة

معتبرة فقد نضرة وجنتيه، عاش كل هذه السنوات التي كان يميزها القلق وكان قد أخذ حقه فيها بكل شجاعة. " آ ١ ١ لا ١ لا لا ١ ١أما هذا فلا ١ ". كان هذا الصوت الجهوري لقائد المراقبين الذي وهو مارّ في الرواق الذي تتفتح إليه أبواب الحجرات، رآني ثم نادى الحارس يستجوبه بقسوة. كان البعض الآخر من المساجين ينتفعون بهذه المزية الخاصة داخل قاعة الاستقبال والمكالمة حيث لا حواجز تفرق بينهم وبين أهاليهم، طبعا فالأمر يخص بالدرجة الأولى البعض من المتطرفين الموقوفين بمدينة الجزائر وتم نقلهم إلى مدينة باريس بعد "أسبوع المتاريس".

يكون المراقب اللطيف يكون وقد حسبني أحد هؤلاء مما جلب لنفسه زجر مسؤوله، ثم يدخل كالإعصار إلى الحجرة حيث يقوم بسرعة بتصحيح خطئه، فلم أفهم لحظتها أسباب هذا التغير ولا حتى (جيلبرت) فهمت ذلك، وكلنا سعادة بلقائنا وبتكملة أيضا حوارنا، ولو من وراء هذا الحاجز الشفاف ذي الثقب، لم تأتنا الفكرة للبحث عن تفسيرات.

بعد يومين غادرت سجن (الصحة) تحت حراسة اثنين من رجال الدرك، قام أحدهما بتثبيت سلسلة إلى الأغلال التي كانت تضيق على معصمي، ليجعل منها حبلا يجرني به مثل الكلب عبر محطة القطار لـ (Mont-parnasse) وإلى غاية العربة التي خصصت لنا في القطار المتوجه إلى رانس (Rennes) المدينة حيث سيتم بدء التحقيق في شكواي وشكوى (جوزات أودان) ضد المجرمين والجلادين ؛ كنت أحد الشهود ممن سيستمع إليهم قاضي التحقيق.

الستائر مسدولة.. ودون توجيهي أي كلمة.. يجلس الدركيان براحة والقطار يسير الهوينا ثم يفتحان حقيبتهما ليخرجا منها سندوتش، ولا شيء كان يحق لي في هذه الأكلة، وبينما هما يأكلان كنت أشاهد المناظر تتتابع وتتوالى بالصفة التي توحي وأني لم أتفطن إلى أنه قد نوسي -قصدا أم بغير قصد - بأن السجين الذي أمامها له الحق في أن يأكل هو أيضا.

وفي لحظة من اللحظات، أحد الدركين الذي كان يبدو لي يتلذذ وهو يجرني بتلك السلسة عبر المحطة، يقف ثم يخرج تاركا إيّاي مع زميله. وبعد ما أصبحنا لوحدينا يقول لي هذا الدركي : " أتريد شيئا من هذا السندوتش ؟ لكن كل بسرعة، لأن مع ذاك الرجل.." شكرته على صنيعه، لم أكن جوعان. فيسألني حينها إذا ما كان لدي أفراد من عائلتي بمدينة باريس : "يمكنني إذا أردت الذهاب إليهم عندما أعود من مدينة رانس وأنقل إليهم عن أخبارك..".

أعطيته حينها عنوان أهلي واسم أخي وطلبت منه أن يبلغهم أن كل شيء على ما يرام. وبعد قليل يظهر زميله من جديد لتعود العلاقات - على الأقل في الظاهر - باردة مثلما كانت في السابق.

وبعد مضي عديد من الأيام، أخبرت من قبل أمي التي أتت في زيارتي أن "سيّدا في الزي المدني يقول أنه دركي" أتى إليهم ليخبرهم أنني كنت في مدينة "رانس" وأني بخير ويطمئنهم بأن إطلاق سراحي سيكون قريبا.

الفرار من السجن

لزمني البقاء ستة عشر شهرا بسجن (رانس) قبل أن أهرب، وبما يفوق الأربعين سنة من بعد لازلت أتذكر تلك الأيام التي مضيتها هناك واعتبرها مرحلة شبه مريحة من مراحل حياتي كلها نضالات في السرية ومخاطر محدقة وقلق واعتقالات.

كان للاستقبال الهادئ واللائق الذي خصّ به السياسيون أن جعل المساجين ممن تم نقلهم من سجن باربروس ومن سجون أخرى مختلفة من الجزائر، يندهشون كثيرا هؤلاء الذين لا زال يتردد في أذانهم صراخ وشتائم المراقبين المكلفين باستقبالهم.

من أساليب وعادات الاستقبال في بعض المراكز العقابية مثل ما كان الشأن في سجن البرواقية هو أن يتم إقامة صفين متوازيين من الحراس ("لجنة الاستقبال" مقدمين أنفسهم) على طول الرواق حيث وعلى ضربات الهراوة أو باستعمال كمشة المفاتيح كأداة للضرب، يريدون إفهام المساجين الجدد على أنه من مصلحتهم في هذه الأماكن الرضا دون همس أو تمتمة بالحساء العفن، والإهانات العنصرية، وأساليب العنف التي كانت كلها تمثل جزءا من النظام العادي. ولا شيء من هذا القبيل وجد في مدينة رانس حيث أولئك الذين عرفوا السجون الكولونيالية كانوا أحيانا يتساءلون إن كان هناك

خطأ وقع بنقلهم إلى مؤسسة كانت تظهر لهم، بمراعاة كل الفوارق، مخيّما صيفيا.

الفكرة نفسها كانت لديّ حينما فتح لي المراقب، بعدما دعاني لأن أتبعه، باب الزنزانة التي خصصت لي، فقد كانت بما يقرب ثلاث مرات أوسع من تلك الـ 72 حيث كنت أعيش رفقة (موان) و (كاتوني) بالقسم الثالث بسجن باربروس، كان فيها كوة كبيرة يدخل منها الهواء والضوء، و زيادة على ذلك - وهذا بدا لي قمة الرفاهية - فقد كانت الغرفة مزودة بسرير وأغطية وطاولة ومقعد ورف جداري ومغسل بمرآة، هذه الأخيرة التي كانت ممنوعة بسجن باربروس والتي تقريبا ما نسيت وجودها، فألقيت نظرة فيها لأرى وجهي وأطّلع إلى ملامحي التي أصبحت أجهل شكلها فاكتشفت من خلالها نحالتي وكبر سني ؛ أصبح الآن في إمكاني حلاقة ذقني كل يوم والجلوس عند تناول الطعام، وعند القراءة والكتابة، كما أخبرني الحارس أن مصالح السجن تتكفل بغسل الثياب، وأنه بامكاني شراء أطعمة من سجن المطعم إذا كنت احتفظت ببعض المال عند الإدارة، والتزود أيضا بالصابون ومعجون الأسنان والورق والكراريس والأقلام والسيالات. أما بالنسبة للمراحيض التي هيئت على شكل حجرات صغيرة تنفتح إلى الدهاليز فقد كنت أشعر وكأني أقيم في فندق عائلي مريح.

يطلب مني المراقب مبديا تعاونه معي قبل أن يغلق الباب عليّ : " أتود أن تأخذ رقاقات بالزبدة صباحا ؟ ظننت أنها النكتة التقليدية التي تقال للأطفال لقياس درجة سذاجتهم، فقلت بنبرة توحي وكأني أتابع المزاح : "لأنكم تقدمونها مع القهوة كل صباح " ؟

- " كلاّ، فقط يوم الأحد ! لكن يجب تقديم الطلب مسبقا والباقي أيضا. سأذهب لآتيك بالقائمة التي تساعدك على اختيار ما يمكنك اقتناؤه في المطعم ..".

ثم يعود بعد قليل مصحوبا بأحد المساجين المتهمين في قضايا عامة الذي أوكلت له مهام متعددة تحت مسؤولية مراقب يسمى في لغة باريروس (corveyeur) بمعنى المكلف بتسخير المساجين للقيام بأعمال معينة، كلمة لا تعرفها سجون مدينة Bretagne. سجلت على القائمة التي قدمها لي أنه بإمكاني اقتناء شرائح من لحم البقر والبطاطا المقلية، ومن بين عناوين القائمة المقدمة يوجد اختيارات لأنواع الفاكهة، فذهبت عيني مباشرة إلى كلمة (banane) موز. أحسست حينها برغبة ملحة إلى الأكل ليس إلاّ لكون هذه الفاكهة التي جعلني سجن باريروس أنسى مذاقها لمدة طويلة، فطلبت اثنتي عشر موزة للأسبوع والمندوب يسجل رغباتي، كان هذا الأخير في سن الخمسين، نحيف الجسم وأصلع، بهيئة غريبة إلى غاية التميز بالنظر إلى المكان الذي هو فيه، و يتكلم فرنسية مهذبة ؛ أخبرت لاحقا أنه كان من أصل إنجليزي وخريج مدرسة رفيعة، وعلى انقطاع مع عائلته البورجوازية من يوم ما اختار الاختلاس والسرقة كوسيلة للعيش، فقد اختصّ في عمليات السطو على ممتلكات المسافرين الأغنياء الذين ينزلون في الفنادق الفخمة للمدن الكبيرة حيث كثرة الكازينوهات، فقد كان يقدم نفسه بتلك الأماكن على أنه سائح ذو مال، ثم يذهب ويستولي على المجوهرات والأموال وعلى كل ما هو ثمين بالغرف ثم يختفي دون أن يترك أي أثر. فقد جعلته هذه المهنة الرائعة والمريحة ولكن مليئة بالمخاطر، يكتشف العديد من السجون سواء في انجلترا، فرنسا، بلجيكا أو هولندا ؛ وكان ذلك يسمح له بإقامة المقارنة ما بين الأنظمة بصفته عارفا وخبيرا. حسب تجربته، فإن سجون انجلترا هي الأسوأ، وسجون هولندا لائقة، وسجون فرنسا لا يمكنك توقع أي شيء بشأنها، أما سجون رانس فيمكن القول أنها لا بأس بها على العموم.

أيام من بعد يعود إليّ ليسلمني السلعة التي طلبتها، هذه المرة بالإضافة إلى الحارس كان مصحوبا بسجين آخر يظهر في سن الشباب ويحمل طبقا

يزخر موزا، وبينما هو يضع حمله على الطاولة يلتفت إليّ المراقب بوجه ساخر بل ويفخر بما كان سيتلفظ به من كلام بارع : " ما هذا ! يمكننا القول أنك تتبع نظام الحمية ! " وعندها فقط علمت أن كل الحمولة هذه كانت موجهة لي.

" لكن يبدو أن هنالك خطأ ! أردت إلا اثنتي عشر، ولم أطلب كل هذا ! " يردّ فأر الفندق بسرعة : " بل نعم ! فقد قلت اثني عشر ! سجلت اثني عشر، فقد تم تسجيل ذلك ! هنا الحساب بالكيلو، فتلك الاثنا عشرة كيلو التي طلبت، وعندما يطلب الشيء فلا يمكن تغيره، إنه النظام.. ".

"لكن ماذا يمكنني أن أفعل بكل هذا، فأنا لست بحاجة إلى هذه الكثرة ! "

بقي المراقب مصرا على صمته كما وأن الأمر لا يعنيه. " كما تعلم، يقول الآخر أخيرا، يوجد الكثير من المساجين من لا يملك فرنكا واحدا، يشتهون هم أيضا أن يأكلوا موزا من حين إلى آخر..".

فأتضح لي الأمر كله حينها، لمت نفسي كيف لم أتفطن إلى أنه هو وصاحبه كانا يعاملانني كمخادع و أنهما دبرا الأمر للقيام بذلك. وعلى الرغم من الضرر الضئيل الذي نقروه على مالي المدخر، رأيت أنه يكون من غير اللائق الاحتجاج وإثارة الصخب، فواجهت الأمر من جانبه الإيجابي لكنهم فهموا مع ذلك أنني لم أكن أبلها.

" أنتم على حق، أجبت الجميع، يجب دائما التفكير في الآخرين، اتركوا لي اثنتي عشرة موزة ووزعوا الباقي ..".

وكذلك فعلوا – ليس كما أعتقد دون أن يقتطعوا جزءا لصالحهم – لكن من وقتها أصبحت أتمتع بشعبية كبيرة داخل السجن. كنت ذاك السجين الجديد الذي كان لا يزال الكثير من المعتقلين يجهلونه، لأن حقيقة أمره لم تتبين بعد لكنه – على طريقة بعض الأمراء المسلمين الذين يفضلون توزيع الهدايا على

سكان المدن التي يفتحونها - اختار وهو حديث العهد بهذه الأماكن أن يهدي موزا إلى كل أفراد قسمه بالسجن.

المراقبون هنا يبدون أنهم ليسوا من نفس المعدن الذي تعودت عليه مع نظرائهم في سجن باربروس، أما في مدينة الجزائر فإن المدير ونوابه يضرّون في التكرار مرارا أننا كنا "أشرارا" وكان من الواجب أن نعامل بهذه الصفة، في حين تجد هنا أن لأفراد مجموعة المستخدمين في هذا السجن مواقف أخرى مغايرة، يبدو من السهل معرفة أسباب هذا الاختلاف في السلوك.

فيما يخص أولئك الذين يعملون بالجزائر، فقد التزم معظمهم صف المتطرفين "les ultras" ويرون في السياسيين أنهم يجسدون العدو و"الفلاقة" أو شركاءهم. أما في رانس فتجد موقف الحراس يعكس وجهات النظر والآراء المختلفة للفرنسيين والكثير منهم في هذه السنة 1960 لم يكن يؤمن بخرافة "الجزائر فرنسية" ولا حتى بنصر قريب ينتزع بقوة من "مجموعة من المتمردين" التي كان يتحدث عنها في بداية الثورة. البعض من المراقبين كانوا نقابيين، منخرطين في الـ CGT (اللجنة العامة للعمال)، وكان بامكاني دون خطأ تقريبا معرفتهم من خلال موقفهم المتعاطف باتجاهي، كلهم جميعا مهما كانت آراؤهم يتمنون أيضا، لمجرد أسباب مهنية، نهاية قريبة للحرب تسمح لهم "بالعودة إلى العادي" وإلى الروتين الذي يعرفونه في الوقت الذي كان الداخلون إليهم ممن هم متهمون في قضايا عامة فقط. أما مع السياسيين - على الرغم من أن صفة السياسي هذه لم يتم أبدا الاعتراف بها رسميا - فقد كانت مهمتهم بالفعل جد معقدة وخطيرة، حتى ولو كانت السجون لم تكتظ بعد بالمساجين.

معظم هؤلاء السياسيين - بما يقرب الخمسين - كانوا عمالا في المهجر، أوقفوا بتهمة انتمائهم إلى جبهة التحرير الوطني وهم ينتظرون الآن مثولهم

أمام المحكمة، عشرة منهم جاؤا مباشرة من الجزائر، تم القبض عليهم في أوساط الجبال والمداشر ثم نقلوا إلى منطقة Bretagne دون علمهم السبب. وبمجرد أن علموا أن السجين الذي يخيم عليه السر كان هو أيضا مناضلا من أجل استقلال الجزائر وعرفوا من أكون بالضبط، أصبحوا يزعجون الإدارة - البعض تحدث عن شن إضراب عن الطعام - للوصول إلى رفع هذا النظام الاستثنائي المفروض عليّ الذي يبقيني معزولا عن الآخرين. قرار تم اتخاذه دون شك لتجنب العدوى الإيديولوجية التي بامكاني إيصالها إليهم وأنا مختلط بهم. تأخر رد الإدارة لعدة أسابيع - كان ذلك يتطلب تشاورا - إلا أنها كانت في الأخير ايجابية، ومن غاية ذلك اليوم أصبح مسموحا لي وأبواب قسمنا تبقى مفتوحة طيلة النهار أن أتكلم بكل حرية مع رفاقي في السجن وملاقاتهم في زنزاناتهم وفي الساحة.

كثيرا ما كانت تعودني إلى الذاكرة هذه المساندة وهذه الثقة وهذا الحب حتى .. كل هذه المشاعر التي كان هؤلاء العمال البسطاء حيث معظمهم كان أميًا يبادلونني إياها أثناء إقامتي في رانس. سلوك كان يتناقض مع الموقف الحازم لبعض المسؤولين الوطنيين إزائي غداة الاستقلال، للسبب الوحيد غير المعلن أني لم أكن مسلما، وأيضا كوني شيوعيا وبقيت أؤكد انتمائي هذا، الأمر الذي لم يكن ليقبله هؤلاء.

كانت مرارة الحديث عن الحاضر والمستقبل، عن الكفاح الذي كان في الجزائر وفي فرنسا، عن حالة المفاوضات الجارية وآمال السلم، كانت تأتيني أيضا من مصدر آخر : من قاعة المحامين حيث كنت جد مسرور، على الرغم من الشبّاك وحضور الحارس الدائم، للحديث إلى (جيلبرت) التي مرة أو مرتين في الشهر عندما يسمح لها جدول توقيتها ذلك كأستاذة، تركب قطار (رانس) لزيارتي في السجن، هذه الملاقاة التي كانت تتم أحيانا رفقة ولدنا (أندريه) أما الصغير (جون) فلا يمكن، فكان يجب تجنب إزعاج جدته وخالته

حيث أخبر " أني في سفر "، - سفر لا ينتهي- كانت في الحقيقة تقوم بتكملة ما لا يمكن الحديث عنه عن طريق البريد حول قضايا سياسية. أو أمور عملية قامت (جيلبرت) بتنظيمها بمفردها - ولم يكن بوسعها إخباري عنها كتابيا-. فلم يكن إلا في قاعة المحامين حتى علمت أنها قد قررت - باسمنا نحن الاثنين - بإحالة كل حقوق التأليف لكتاب "la Question" إلى صندوق التعاون للدفاع عن المعتقلين والمساجين الجزائريين.

هذا الوضع المميز عن الذي هو في مدينة الجزائر والذي أضحينا نتمتع به ها هنا في مدينة رانس، لم يكن سببه يرجع إلى اختلاف في القوانين المنظمة للمعتقلات والسجون بين فرنسا المستعمِرة (la métropole) والجزائر المستعمرة (la colonie)، فالتحركات المستجدة التي شهدتها الساحة السياسية منذ جانفي 1960 بعد "أسبوع المتاريس" وهزيمة المتطرفين النكراء، أدّت إلى فتح باب الحوار بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرير الوطني، اتصالات حتى ولو كانت تتسم بالفشل إلا أن الرأي العام الفرنسي كان يرى فيها مؤشرا ايجابيا للعودة إلى السلم. لكن لتحقيق ذلك كان يجب انتظار أكثر من سنتين أيضا التي ستميزهما، في ديسمبر 1960 وجويلية 1961، المظاهرات الشعبية الحاشدة التي ستنظم تحت نيران قوات القمع بشوارع مدينتي الجزائر ووهران، من "أجل جزائر جزائرية" التي تكلم عنها الجنرال (دوغول) ومن أجل الاستقلال بكل وضوح.

كانت هذه التجمعات الضخمة تدل على أن الجزائريين، وبعد سنوات من التضحيات الجسام والآلام والمجازر وبعكس تكهنات السياسيين والعسكريين الفرنسيين، لم يكونوا أبدا مستعدين لتسليم السلاح مقابل بعض الوعود وبغياب ضمانات حقيقية.

كان يلزم الكثير من الوقت قبل أن يقتنع بذلك الجنرال (دوغول) هو بنفسه، لكن الفكرة القائلة في خضم هذا الوضع الشائك بأن باب

المفاوضات الجادة سيفتح، بدأت تتجسد ميدانيا مدعمة بعديد من التظاهرات من أجل السلم وبالحركات العمالية الكبيرة كإضراب يوم أول فيفري 1960 ضد المشاغبين. كنا نلاحظ أن هذه التطورات كان لها آثار ايجابية على مستوى نظام السجن نفسه.

وبمجرد وصولي فكرت في كتابة كتابي "Prisonniers de guerre" (سجناء حرب). كنت لا زلت أحتفظ بالمذكرات التي سجلتها في سجن باربروس التي نكّرتها تحت عناوين مزعومة على سبيل تمارين في اللغة الروسية مثلا. حتى ولو كانت التفتيشات في رانس لا تتميز بالطابع الرقابي الصارم مثلما كان جار في باربروس، إلا أن ترك الأوراق هكذا مكشوفة للعيان وفي متناول المراقبين يشكل خطرا ؛ والمخطوط الذي يبقى غير مكتمل يمكن أن يحجز وتمنعني الإدارة بمواصلة التحرير. كنت لا زلت أبحث كيف يمكنني أن أحفظ عملي في مأمن من كل خطر في الوقت الذي جاءني الحل في غاية من البساطة ؛ بعد أيام من دخولي السجن، يأتي مراقب القسم ويفتح باب زنزانتي لشاب يرتدي ثوبا أبيض، ذي ملامح ظريفة ليخبرني على أنه معتقل سياسي جزائري، كان يشغل منصب نائب لدى عيادة السجن، وكلّف بطرح بعض الأسئلة عليّ حول حالتي الصحية. وبينما كان انتباه الحارس موجها نحو الحديث إلى زميل له لبعض الوقت، يطلب مني أن أناديه باسمه (محمد) ثم يكمل تقديم نفسه ويهمس لي أنه عضو في فدرالية فرنسا للحزب الشيوعي الجزائري، وتم القبض عليه بسبب انتمائه إلى شبكة تابعة لجبهة التحرير الوطني، وينصحني بتسجيل اسمي للزيارة الطبية في أقرب وقت : " قل أنك تشعر بالتعب، فإن الطبيب سيوصف لك فيتامينات ومقويات ؛ فلن يضرك ذلك، بالعكس. فأنا الذي أتكفل بوضعك الحقن وهكذا يمكننا الحديث، وأخبرني أيضا إذا ما احتجت إلى شيء ما..".

كان لي ثمة إحساس قوي أنه بامكاني أن أثق فيه. من بعد ذلك طلبت منه كيف يمكنني وضع نصوص كتاباتي في مأمن من أي تفتيش أو حجز

محتملين. "إلى أسفل الحائط أمام الباب، يوجد هذا التجويف الذي من خلاله نخرج الفضلات، تقوم بوضع أوراقك في الحفرة لآتي أنا بعدها لآخذها، سأخبئها في العيادة حيث لا تفتيش أبدا، وأجلب لك الكل أو جزءا حينما تحتاج إلى ذلك.

سارت الخطة من دون أي خلل طيلة أشهر إلى الوقت الذي طلبت فيه من (جيلبرت)، وحينها كان نص الكتاب مكتملا، أن تخبر (ليو متارسو) بشأنه. وبعد أسابيع يتحصل على الرخصة لزيارتي ؛ وبعد تفتيش سطحي بمدخل قاعة المحامين، أسلمه المخطوط الذي كنت وقد أخفيته تحت ثوبي الداخلي ليسرع به داخل محفظته.

وفي شهر جوان من سنة 1961، بمنشورات "Minuit et Jérôme Lindon" يتم نشر الكتاب، ويقوم مدير النشر لهذه الدار بارسالي نسخة منه إلى السجن، كان رئيس المراقبين بشخصه هو الذي سلمني إيّاه. كان لموقف الإدارة أنها لم تتخذ أي قرار للتحقيق حول القضية، لا بلبلة مثيرة للسخرية مع تجنيد الحراس، ولا متابعات قضائية يتم إجهاضها مثلما كان الشأن مع صدور كتاب "la Question" فقد بات من المؤكد أن الأمور قد تغيرت بتغيّر الزمان والمكان. كما كان لرئيس المراقبين الذي كان همّه الوحيد تجنب المشاكل، أنه احترس من أن يطلب مني كيف تمكنت من تمرير مخطوطي إلى الخارج بالرغم من التفتيش والرقابة هكذا بخرق القانون. فقد أشار إليّ مع ذلك – دون توضيح منه إن كان ذلك بفضول شخصي أو بواجب مهني – أنه قد احتفظ بنسخة من الكتاب ليقرأه ويجده مهمّا.

هذا الحدث الطريف يعكس في الواقع التناقضات التي كان ينطوي عليها وضعنا القانوني ونحن في السجن، لا نحن ينظر إلينا كسياسيين ولا كمتهمين في قضايا عامة ؛ فكان ذلك أيضا إحدى العواقب الثانوية الناتجة عن الغموض الدائم لسياسة الجنرال (دوغول) منذ إعادة تنصيبه على رأس

الحكم إلى غاية تصريحه الصارخ في شهر نوفمبر 1960 : "الجمهورية الجزائرية ستوجد يوما ما " الذي يتناقض كلية مع تصريحاته السابقة. وبالنظر إلى الاتصالات السياسية تم تسجيل خطوات إلى الأمام نحو حل للقضية على هذا الأساس، متبوعة بمناورات قصد الإبطاء مثل الرفض بالاعتراف لجبهة التحرير الوطني كونها الناطق الرسمي المتحدث باسم الشعب الجزائري المكافح وأيضا الاقتراح الذي ينصّ على الاحتفاظ بمنطقة الصحراء تحت الهيمنة الفرنسية أو تقسيم البلاد. الكثير من المساعي السلبية والخطوات الخاطئة التي أدت إلى فشل المفاوضات الفرنسية-الجزائرية التي جرت في ملون (Melun) في جوان 1960، ثم تلك في ايفيان (Evian) في شهر جوان سنة 1961، معبرة بذلك عن صعوبة قبول النهاية الحتمية لفكرة "جزائر الأمس" (l'Algérie de papa).

الكثير من التأجيلات والمماطلات التي زادت من حدّة النزاع الدموي، المدمر بالنسبة للجزائر، والمضرّ بالنسبة لفرنسا، سواء على الصعيد الداخلي أو الدولي، والتي غذت بطريقة مباشرة مقاصد المتطرفين المتآمرين والضباط المثيرين لبؤر التوتر، الذين انتهت محاولتهم للانقلاب لشهر أفريل 1961 بالفشل الذريع، ثم سرعان ما تجمعوا تحت لواء المنظمة السرية المسلحة (l'OAS) لينادوا بعدها بالتمرد والعصيان ضد النظام.

المحادثات الطويلة مع (جيلبرت) في قاعة المحامين، الإمكانيات التي أصبحت لديّ الآن للحصول على جرائد ومجلات، السماع إلى أخبار وتعاليق من جهاز الراديو - لكن بشكل متقطع لأن الإدارة تمنح ثم تلغي الترخيص باستعمال جهازنا الوحيد، مستجدة اندهش لها الجميع - كان ذلك كله يعطيني الإحساس أني وبعد هذه السنين من الحبس في الظلام " كنت أخرج من الثقب " وأنه كان لا يزال بامكاني المتابعة مجددا وبأعين متفتحة تطور الاحداث. وقد كان رفاقي في السجن حيث معظمهم لم يشهد مقاعد

المدرسة أبدا، مهتمين للغاية بالوضع السياسي الذي ليس فحسب بات تحقيق السلم القريب مرهونا به بل مصيرهم الشخصي أيضا، كنت ألاحظ باندهاش وإعجاب لتلك السرعة التي كان هؤلاء العمال حيث كان أغلبهم بن بادية وأميّا تقريبا يفهمون ويستوعبون هذا المعنى الخاص لهذا التصريح، وذلك المدلول لذاك الحدث. كنت الشخص الذي كان يظهر لهم، باعتبار نشاطه السابق، الأكثر فطنة وتجربة فيما يتعلق بالأمور السياسية، وغالبا ما كانوا يقصدونني شخصيا لمناقشة الوضع الراهن. كما كانوا يطلبون مني أحيانا تفعيل نقاشات حول أحد أحداث الساعة التي كانت تثير تساؤلات وروايات.

فكان للهزيمة التي ألحقها الجيش الثوري الكوبي بالمرتزقة الذين نزلوا إلى مدينة بلايا جيرون (Playa Giron) بمساندة من المصالح الاستخباراتية الأمريكية في جوان 1961، أنها أثارت في نفوس هؤلاء الرجال الحماسة والتفاؤل لأنهم كانوا يعرفون ما معنى الاستغلال في المصانع والمناجم والورشات، لكنهم بقوا كذلك منتمين إلى العالم الثالث. ودون الحاجة إلى كثير من الشروحات فقد كانوا يرون أن انتصار الكوبيين - انتصار داوود على جالوت - وكفاحهم وآمالهم على غرار شعوب آسيا وإفريقيا، كانت تخصّهم هم أيضا، فقد كانوا بالفطرة يعرفون أي "جانب من المتاريس" كان يجب اتخاذه، ولم تكن الافتراءات والملاحقات المضادة للشيوعية لتثبطهم. فقد حدثمع ذلك مرة حيث أثارت أقوالي التي أدليت بها خلال اجتماع في قاعة جعلت تحت تصرفنا لإلقاء دروس في القراءة والكتابة والحساب والعروض التي كنت أشرحها أحيانا، ردود أفعال سلبية لأحد المساجين تم نقله حديثا من الجزائر، جدّ منغلق حول معتقداته التي اكتسبها وقليل الثقة إزاء العالم الخارجي، فقد صدم يوما وهو يسمع إلى التعليقات التي أوردتها حول رحلة (يوري غارغرين) إلى الفضاء الخارجي وعن الآفاق التي سيفتحها للبشرية

هذا الاختراق في الفضاء البعيد ؛ ما حكيته في الحقيقة - بالخصوص حول وجود مجموعات شمسية أخرى - كان يتناقض، كما كان يقول، مع ما جاء في النصوص المقدسة وجدير بجرّ الإخوة إلى سبل الشيطان وإلى الكفر، لذلك شنّ ضدّي حملة قوية. فلم يدم هذا طويلا، فسرعان ما قام مسؤولو المجموعة بحل المشكلة بحيث تم ذلك دون علم مني، فيخطرونه بالشكل الصارم المعتاد على أنه من مصلحته التوقف عن حماقاته هذه التي من شأنها تعرضه إلى الضرر، في حين أن "الكل كان راضيا على نوع التعليم الذي كان يقدمه الأخ هنري (Henri) ". كان هذا بالنسبة لي الحادثة الحقيقية الوحيدة التي طبعت مساري في تجربتي كمعلم مبتدئ في وسط سجنيّ.

أصبح يربطني بثلاثة من " تلاميذي " تقارب متين، الأول باسم موحند الأكبر سنا في المجموعة، الآتي من منطقته الأم بالقبائل قبل خمس عشرة سنة، سبق وأن إشتغل دون انقطاع في نفس المصنع للمنتجات الكيماوية في مدينة ليل (Lille) إلى غاية توقيفه ؛ مشورب ذو بنية قوية ضخم الصدر، يمتاز بدوام الهدوء غريبا، حتى ولو كان في مجلس ذي المناقشات الصاخبة، ولا يقحم نفسه أبدا في وسط تميزه ضوضاء الصغار. (موحند) لم يسعفه الحظ للذهاب إلى المدرسة، فهو كله عزم اليوم لتعلم القراءة والكتابة، كما كنت بدوري أشجعه على مجهوداته المبذولة. كان الاستقلال يعني بالنسبة له، كما أفضي إليّ بذلك شخصيا، هو قبل كل شيء العودة إلى بلدته بالقبائل. " لي ثلاثة أبناء لم أرهم يكبرون بوجودي ويكادون لا يهتدون إلى معرفتي. أكيد وأنه بعد الاستقلال ينتظر الكل عمل كبير في البلد، سأمكث في بلدي حيث يمكنني أخيرا العيش باعتزاز، كما أود أن تأتي لتزورني في قريتي فأنا أملك بيتا وقطعة أرض صغيرة ".

أما الثاني فهو (عمر)، أحد اثنين ممن كانا محكوما عليهما بالإعدام اللذين كانا يتقسمان معا زنزانة بالطابق الأرضي من السجن. لا يمكن في

شيء مقارنة ظروف اعتقالهما بتلك القاسية التي يعيشها سجناء معتقلات مدينة الجزائر، لا أغلال ولا عزلة مثلما هو الشأن بالنسبة للمحكوم عليهم بالإعدام في القسم الأول بسجن باربروس على الرغم من الرقابة الصارمة والتعسف المسلطين على هؤلاء، كما هو ليس ممنوعا عليهما التواصل بالحديث مع السجناء الآخرين من خلال بوابة صغيرة تنفتح إلى رواق بالسجن. ذو الخمس والعشرين سنة، كان (عمر) يعمل كدهّان بمدينة كاين (Caen) وقت اعتقاله بعد قتل أحد الوشاة اندسّ في المنظمة المحلية لجبهة التحرير الوطني ؛ صعب عليّ التصديق من أن هذا الشاب ذا البشرة السمراء والشعر المجعد وبالمظهر المتراخي تقريبا، يمكنه أن يقوم بتنفيذ هذه المهمة الدموية.

"كنت أكره للتعرض لفكرة قتل أحد، حتى و لو كان خبيثا، لكن كنت أعلم أنه كان من الواجب القيام بذلك". يقول لي يوما.

"كنت أعرف هذا الشخص منذ زمن ليس ببعيد، كان خطيرا وقد اختارتني المنظمة للتخلّص منه. حينما التقيته كان الليل وقتها يسدل بظلامه. ذهبنا لتناول القهوة معا ثم اقترحت عليه بأن أوصله إلى بيته، فيصعد دون ارتياب إلى خلف دراجتي النارية، وعند مرورنا بجانب من الأحراش كنت وقد عاينته، توقفت لأقول له انتظرني لبعض لحظات .. فكان لا يزال مطمئنا .. ينـزل من الدراجة .. يتقدم ببعض خطوات إلى الأشجار فأطلق عليه النار، سمعت حينها رأسه ينفلق مثل حبة البطيخ فسقط للتو صريعا. عدت إلى دراجتي .. كانت يدي ترتجف إلى درجة صعب عليّ مسك المقود. فتمكنت مع ذلك من قطع بعض الكيلومترات ؛ إلى جانب الطريق لاحظت حانة كانت لا تزال مفتوحة .. كاد ريقي يجف من شدة القلق في تلك الليلة المظلمة .. ولا أحد لمحته في الحانة .. طلبت شرابا من الكونياك .. صاحب المحل متعجلا، يقوم بخدمتي دون أن يرفع رأسه للنظر إليّ. ففي

هذه اللحظة بالذات تفطنت إلى أن معطفي كان ملطخا بالدم من جانبه الأمامي .. دمُ القتيل أنتضح عليّ، فاسرعت بالخروج دون انتظار ".

حكى لي (عمر) قصته وهو جد متوتر، كان من مدينة بسكرة وقد اسعفه الحظ في متابعة دروس بمدرسة ابتدائية، لكن ليس إلى النهاية. كان وقد طلب في السجن ترخيصا بتعلم اللغة الإنجليزية معي فلبت الإدارة رغبته. مرتان أو ثلاث في الأسبوع يفتح لي المراقب باب زنزناته لأذهب إليه بغرض مراجعتي له دروسه، إلى غاية اليوم الذي سمح له ولرفيقه في الزنزانة، شاب من مدينة الجزائر حكم عليه هو الآخر بالإعدام كعضو في جماعة مسلحة، بالالتحاق بالسجناء الآخرين والمشاركة في النشاطات التربوية المنظمة بمعاونة مني.

تكون الحرب وقد انتهت قبل أن تؤكد محكمة النقض والإبرام حكم الإعدام الذي صدر في حق (عمر) ورفيقه أو لتنقضه. فيعفى عنهما الاثنان بعد اتفاقيات أيفيان.

التقيت ثانية بـ (عمر) في الجزائر، وجدته وقد تغير تماما سواء من حيث هندامه أو من حيث سلوكه في التعبير. قال لي وقتها وبكل افتخار أنه قد غيّر من مهنته ليصبح بعد الآن مفتش شرطة.

وثالث أحسن أصدقائي كان اسمه (موسى) الذي كان لا يزال صبيًا تقريبا، كان وقتها وقد بلغ السابعة عشر من عمره ليلتحق مباشرة من الثانوية بالجبال مع المجاهدين حيث تعلم الكثير من الأمور الحسنة وغيرها غير اللائقة نوعا ما. من بين هذه الأخيرة لاحظت أنه كان غير مبال وهو يحكي لي مبتسما بل غير مكترث بالبشاعة التي كان شاهدا عليها، كيف قامت مجموعة من المجاهدين بأسر جندي سينغالي تابع لفصيلة عسكرية كانت شاركت في نهب قرية ثم تدميرها، كيف قاموا بحفر له حفرة قبل أن يرجموه

حتى الموت ثم يدفنوه تحت الحجارة. أحسست بنوع من الاستغراب لديه لمّا قلت له أن جنود جيش التحرير لا يعلو قدرهم حينما يقدمون على مثل هذه الأفعال إذ بالعكس فهم شأنهم ينحدر إلى مستوى الجلادين المستعمرين. كان لمصارحتي هذه إيّاه أنها هزّته لكن دون أن تصل إلى قناعته، كنت أتصور أنه كان يفكر في ذلك لكنه لم يعد ليكلمني في الأمر بعد ذلك أبدا.

كان (موسى) يمتاز بحدة الذكاء والفضولية، شغوفا جدا بما كان بامكاني قوله له حول تاريخ الجزائر القديم وأيضا حول المجتمعات الإنسانية الأخرى، وحقيقة ومعنى كفاح الطبقات، وأصول الاستغلال واضطهاد المستعمر للآخر، وحول مستقبل الاشتراكية الذي كنت أؤمن به. اعترافا لكفاءاته، كلّف القادة العسكريون في الجبال (موسى) بمهمة تصليح أسلحة الجنود المعطوبة المنتمين إلى مجموعته والأسلحة التي يتم اغتنامها بعد المعارك. لم يسبق له أبدا ولا لرفاقه أن غادروا بلدهم من قبل، وقد يطرحون عليّ أسئلة حول فرنسا ومواطنيها مبدين اندهاشهم لسلوك هؤلاء الآخرين بخاصة عندما يقارنونه بذلك الذي لدى الأوروبيين بالجزائر. على سبيل المثال فقد اندهشوا كثيرا يوم نزولهم إلى مدينة Port-vendres لمّا رأوا من خلال نوافذ القطار الفرنسيين مشغولين بحرث حقولهم - عمل في نظرهم لا يقوم به إلا الأهالي "les indigènes" - وأيضا على رصيف المحطة وهم يشاهدون تلك "الرومية" وهي تجر عربة محملة بالسندوتش والمشروبات لتبيعها للمسافرين، امرأة خارج بيتها وتعمل وسط الرجال، لم يحدث وأن رأوا مثل هذا المشهد قطّ، ما جعلهم يسألونني لمعرفة إذا ما كان ذلك أمرا استثنائيا أم هو الطبع المميّز لهذه الضفة الأخرى من البحر المتوسط.

في الوقت الذي كنت أرى أن المؤونة التي كانت (جيلبرت) تزودني بها في السجن تزيد عن الحاجة، أقوم بدعوة هذا أو ذاك من بين رفاقي ليتقاسم

معي طعامي، الأكثر حضورا كان (موسى) ؛ وفي أحد هذه الأوقات حيث كنا جالسين إلى شبه طاولة من اللوح كنت استعملها كمكتب أيضا، يفاجئني بالقول من حيث لم أكن أتوقع : " ألا تعلم، يمكننا الفرار من هذا السجن .. " فانتفضت حينها لهذه الفكرة لأنني كنت أنا نفسي وقد فكرت من قبل في هذا الاحتمال حيث كان قراري الأول ألاّ أخبر أحدا بشأنه. فقمت بعد ذلك بإبلاغ (جيلبرت) لتستشير الرفاق من الجزائريين والفرنسيين حول إمكانية هذه المحاولة. إذا كان وقد تحصلت على موافقتهم فسأكون بحاجة إلى مساعدتهم.

وكما أخبرتني (جيلبرت) فإن إيلي ميونيو (Elie Mignot) وهو أحد معاوني ليون فيكس (Léon Feix) مسؤول العلاقات بين الأحزاب والحركات المناهضة للاستعمار، قد "طار فرحا" لمّا بلغته رسالتي ؛ فقد كان ذلك ينبئ بالخير إلى ساعتها. كنت أعرف (مينيو) لمدة طويلة، فقد بدأ النضال في سنوات الثلاثينيات بمدينة الجزائر حيث ذهب هناك بعد خدمته الوطنية ليمتهن صناعة الخشب، ليصبح بعد عودته إلى فرنسا عضوا دائما بالحزب اشيوعي الفرنسي ثم ينضوي أثناء الحرب ليقاتل في صفوف الجنود غير النظاميين ويدخل مركزية Eysse ومعسكر Dachau. عرف بالشخص الفجّ والصلب قليل الانفتاح من حيث تعامله مع الآخر لكن أقدر فيه جديته وشجاعته وديناميكيته وبخاصة مساندته التي كان يقدمها لمن يطلبه العون، ومهارته في حل المشاكل ذات الطابع العملي التي كان يطرحها عليه النشطاء السرّيون سواء من الجزائر أو من تونس أو من أفريقيا السوداء أو من جهة أخرى.

وبعد ملاقاته بقليل تطلب مني (جيلبرت) بأن أفيده على وجه الدقة بالمعلومات حول المساعدة العملية التي أنا بحاجة إليها. وبعيدا من هنا، من مدينة الجزائر (بشير حاج علي) و (الصادق هجرس) اللذان وبالرغم من أنهما كانا مطاردين من قبل الشرطة ومثابرين في ضمان إدارة الحزب

الشيوعي الجزائري، يقومان بحسب ما كانت تستدعيه ظروف التحرك بإرسالي موافقتهما الحارة.

وبينما هي الأمور كذلك، أقوم بإخبار (موسى) أنه بامكاننا ربما الذهاب معا، إذ بامكان الفرار أن يكون أسهل على الاثنين منه بواحد، فلم أتلق أي معارضة من قبل رفاقي خارج السجن مادمت قد ضمنت إحكامه، كان وقتها فترة العطلة المدرسية و(جيلبرت) التي كان يسمح لها الظرف بزيارتي، جاءتني هذه المرة مصحوبة بـ (أندريه). كان نظام السجن يسمح للأطفال الذين لهم أقارب في السجن أن يمروا من وراء الشبابيك ليقبّلوا ذويهم، فجعلني ذلك أنتهز الفرصة من تمرير الرسالة التي حضّرتها إلى (أندريه) خلسة، بحيث أثنيتها بالشكل الذي يجعلها لا ترى. كنت أطلبهم فيها أن يوفروا لي شفرات صالحة لقطع الحديد ومعلومات مدققة عن المكان حيث بامكاننا (موسى) وأنا الالتحاق به بعد ابتعادنا عن نطاق السجن. فقد كان ألبير أوزولياس (Albert Ouzoulias) -العقيد أندريه أثناء المقاومة - هو الذي كلّف بالمتابعة الميدانية برانس لمختلف مراحل العملية.

فكل هذا لم يجد شيئا أخيرا. غيرنا الآخرون من مجموعة السياسيين، كانوا أيضا يخططون للهرب حيث كانوا في مجموع ثمانية يتقاسمون نفس الزنزانة الواسعة بالطابق الأرضي من السجن وقد نجحوا في نزع واحدة من الحجارة من البناء مما يسهل على فتح ممرّ نحو الساحة الخارجية، وبالاستعانة بمشكاك وحبل من صنعهم يمكن لهم تسلق حائط السجن ثم الوصول إلى شارع Jacques Cartier الذي بجانب نطاق السجن. كان صاحب المشروع جنديا تم أسره في إحدى المعارك كالذين يتأهبون للفرار معه والذين مثله لم يكونوا يعرفون من فرنسا غير السجن أين تم نقلهم إليه. مجندا قبل اندلاع الثورة، يتم إرساله إلى الفيتنام، وبمجرد عودته سرعان ما يلتحق بجبهة التحرير الوطني وحمل السلاح. أثناء الأيام التي قضاها هناك،

لا يزال يحتفظ بإعجابه الكبير للمقاتلين الفيتاميين وفي نفس الوقت باللقب الذي كان يطلق عليه "سي النّحي" والذي كان يعجبه كثيرا. كان يبدو لي الرجل طريفا على الرغم من أن علاقتنا - بالنظر إلى جهله شبه التام للفرنسية وفقري أنا للعربية - بقيت متعرجة ؛ نحيف الجسم، ذو قامة قصيرة لكن متين العضلات وبخفة خارقة، هو الذي كان في ساحة السجن بتدابيره الاحترافية يقوم بتوجيه التمارين الرياضية الجماعية في رفع الأثقال. اتصل بي عن طريق أحد أعضاء المجموعة ليقترح عليّ الفرار معهم. "إذا كان هنالك حبل يكفي الثمانية، فهنالك ما يكفي التسعة"، يخبرني رسوله.

كان هذا دليلا قويا على الثقة والتقدير اللذين خصّني بهما (سي النّحي) ورفاقه، إلاّ أنهم خيّبوا كثيرا لسماعهم أنه لا يمكنني المشاركة في هذه المحاولة، وإني بالإضافة إلى ذلك كنت أنصحهم بإلحاح بعدم الإقدام على مثل ذلك كونهم لم يفكروا ولو لحظة ماذا سيكون بامكانهم أن يقوموا به بعد اجتيازهم الحائط حيث سيجدون أنفسهم هكذا معزولين دون سند من الخارج، في مدينة وبلد غريبين عنهم، مما يستوجب أخذ الوقت اللازم للوصول إلى تخطيط أفضل حيث يمكنهم بالتالي الحفاظ على كل الحظوظ إلى جانبهم في إنجاح العملية. متحمسين للتحرك بسرعة ومعتبرين إيايّ من دون شك بأني كنت جد حذر إزاء الأمر، ترى الجماعة أن ملاحظاتي واقتراحاتي لا تهمهم، إذ يجيبني مبعوث (سي النّحي) ببساطة على أنهم قد فكروا في هذا الجانب من الأمور : حال تمكنهم الخروج، يمشون باتجاه باب المدينة حيث من المفترض أن يغادروها قبل طلوع الشمس ثم يتسللون بسرعة إلى الحقول والجبال أين سيختبئون. كان صعبا عليهم، كما كنت أقول لهم، ليفهموا أن Bretagne ليس فيها جبال يمكنهم اتخاذها كملجأ لهم.

ليلة الهروب - كانوا وقد أخبروني بتاريخها - كنت أراقب الساحة المظلمة والهادئة وأنا من على أنبوب التدفئة الذي كان يمرّ تحت نافذتي

بخمسة عشر سنتيمترا من الأرض. رأيتهم على ضوء القمر الباهت لتلك الليلة يتجمعّون إلى أسفل حائط الحراسة.

يقوم (سي النّحي) بتدوير المشكاك المثبت إلى طرف الحبل ليرمي به إلى الأعلى بدقة عجيبة ؛ وعند المحاولة الأولى يتمسك المحجن بأعلى الحائط، وفي بضع ثوان وبخفة النمر يجد (سي النّحي) نفسه في الأعلى متبوعا برفاقه الذين ساعدهم في النزول إلى الجانب الآخر من نطاق السجن ليختفوا بعدها في شوارع رانس النائمة.

مثلما كان متوقعا فإن العملية تمت بسرعة وفي وقت وجيز، ولما اكتشف أمرهم من قبل مراقب كان يقوم بدورية، يتم في الحين الإعلان عن هذا الفرار في الإذاعات التي ذهبت تحذر المواطنين من "إرهابيين خطرين" فرّوا من السجن ؛ كما يتم إبلاغ رجال الدرك الذين كانوا حاضرين في الضواحي من قبل جزار يبدأ عمله مبكرا عرفهم من خلال الوصف الذي أذيع بشأنهم. كانوا مختبئين بداخل حفرة إلى جانب الطريق أين يتم اكتشافهم ليعاد اقتيادهم إلى السجن صباحا. وهم مارون مصحوبين بالحراس نحو زنزانات فردية مخصصة للعقوبات، يرمونني بتحياتهم من بعيد. المجموعة كلها كانت هنا إلا واحدا حدث وأنه لم يمكنه متابعة رفاقه.

لم أكن أعرفه إلا قليلا لكني كنت ألاحظه يمتاز بضخامة جسمه، إذ بالأحرى كانت جسامته هذه هي التي منعته على الرغم من كل الجهود الخروج من الزنزانة من خلال الحفرة التي هيئت والتي كانت جد ضيقة بالنسبة له، كلّفه هذا بأن يكون أول من يتحمل غضب وسخط المراقبين الشديدين : بضرب وعزلة ليتم اختتام محاولة فرار فاشلة لم تسمح له حتى التمتع مثل رفاقه ببعض الساعات من الحرية في حقول منطقة Bretagne.

إلا أنه وبالأقل كان أحدهم وقد استمتع بهذه الخرجة : إنه (عليّ) الأصغر سنا من بين كل مساجين السجن حيث كان يبلغ السادسة عشر سنة وقتها.

ثمانية أيام من قبل العملية، يعود من المستشفى بعد عملية جراحية أجريت له لاستئصال الزائدة الدودية، الأمر الذي جعل (سي النّحي) الذي كان يخشى عليه اتساع جرحه الذي كان لا يزال لم يندمل، يطلب منه تجنب المشاركة في المحاولة، غير أن احتجاجه العنيف أدى إلى قبول مشاركته أخيرا. رأيته ليلة الفرار يتسلق الحائط بنفس السهولة والسرعة اللتين تميز بهما الآخرون على الرغم من الأشواك المثبتة. كنت أعرفه جيدا لأني كنت أقدم له دروسا في القراءة والكتابة حيث كان يطيل معي الحديث بمساءلتي حول مختلف المواضيع مما زاد من تمتين صداقتنا.

كانت تعجبني ابتسامة هذا الشاب الدائمة والجريئة، هذا "الولد" مثلما كان الأوروبيّون يفضلون استعمال هذا "اللقب" وهم ينادون أطفال الشوارع : أبناء عمّ Gavroche الجزائريين. وقبل أن يقيّد ويدفع مفضوبا عليه لاقتياده إلى السجن، كان وقد أخذ كل وقته في جمع بعض الأزهار اقتطفها من الحقول التي كانت تحاذي الحفرة أين كان مختبئا هو وأصحابه. ومن دون شك فكان لرجال الدرك كلهم تسلية وهم يرون هذا الطفل يحمل انشغالات غير متوقعة، يسمحون له بالاحتفاظ بها. وفي اللحظة التي مرّ فيها أمام زنزانتي يرميني بباقة أزهاره من خلال البوابة الصغيرة؛

"خذ (هنري)، فأنني قد قطفتها من أجلك "

هذه الأزهار التي كانت لا زالت مبلّلة بندى الصباح، كانت تفوح شذا رائعا يشبه شذا الحرية .. وكونها أهديت لي من قبل أصغر رفاقي، كنت أقرأ فيها .. بعيدا عن الكلمات .. أزكى معاني الأخوة التي كانت تربطنا.

صحب عودة (سي النّحي) ورفاقه تفتيش واسع وصارم أجري في الحال على مستوى كل السجن من قبل المراقبين المدعّمين برجال الـ CRS ؛ كما شهدت الأيام التي تلت تعزيزا لتدابير الحيطة لإفشال أيّ محاولة أخرى

للفرار. مثلما أصبحت دوريات الحراس أكثر كثافة، وفي أول ساعات الليل يطلقون الكلاب على مستوى الساحات التي تفصل بين بناية السجن والنطاق المسيّج. في نفس الوقت تعود الإدارة بإعمال القوانين القديمة لتعزيز النظام الذي بات يفقد من صرامته نوعا ما منذ قدوم السياسيين.

خلصنا (موسى) وأنا، من كل هذا إلى نتيجة محزنة إذ أصبح من الواجب علينا في مثل هذا الوضع الجديد، التخلي عن خططنا وتأجيل إلى وقت لاحق التفكير في الفرار الذي لم يعد ممكنا بالكيفية التي رسمناه بها ولن يتم ذلك لمدة طويلة.

وبعد كل ما حدث، تعود (جيلبرت) التي كنت وقد أخبرتها بهذه التطورات، حاملة اقتراحا جديدا. يلزمني إذن التداعي بالمرض حتى يتم نقلي إلى المستشفى، هناك حيث إذا تبيّن الأمر قابلا للتحقيق، يمكن ربما توفر بعض التسهيلات ثم النظر وقتها في كيفية استخدامها. ولهذا كان يجب من أن طبيب السجن يحكم بضرورة نقلي إلى المستشفى وأن حالتي الصحية تجعله يتخذ هذا القرار. كنت أجهد نفسي حتى أظهر مريضا وأحرمها من الأكل. ومن فحص إلى آخر تبيّن للطبيب أن هزالا لحق بي، إذ كنت في الليالي التي سبقت الزيارات الطبية أغلّف جسدي بمنشفات مبللة بالماء البارد، مثل هذه الطريقة غير المستحبة جعلتني أبقى يقظا وأظهر محموما. وفي غضون أسابيع قليلة يصل الطبيب بسيماته الطيبة إلى قرار أن حالتي تستدعي نقلي إلى المستشفى وبسرعة.

فأنقل على متن شاحنة السجن الصغيرة إلى غاية مستشفى مدينة رانس حيث ولأسباب أمنية – من دون شك بطلب ملح من مصالح السجن – يتم عزلي في إحدى ثاني زنزانتين خصّتا للمرضى ذوي الهيجان العنيف.

في أعلى السقف تظهر فتحة صغيرة تسمح بالتهوية على مسافة تبعد بينها وبين الأرض أربعة أمتار. كان من الزنزانة المجاورة يصدر صراخ أصمّ

من رجل مختل عقليا – مجنون– كانت ممرضة مصحوبة بمعين تأتي من حين إلى آخر لتهدّئه بالحقن. أمام بابي كلّف شرطي لضمان الحراسة، لا يوجد أية فرصة للهرب من هذا المكان. طلبت رؤية الطبيب المسؤول عن القطاع وألححت على إعادة نقلي إلى السجن في الحال.

بعد اكتمال الفحوصات المختلفة والأشعة وجدت نفسي بالسجن في اليوم التالي من بعد، وبعد أيام ألحق بعيادة الطبيب الذي اندهش كثيرا وهو يراني أعود بهذه السرعة ؛ شرحت له أني لم أرد البقاء مطولا بالمستشفى بسبب الظروف التي وجدتها غير لائقة، وكسجين سياسي لا يمكنني القبول بأن أعامل كمجنون. "سأبعثك إلى جهة أخرى، إلى *Pontchaillou*، يقول لي، سترى سيليق بك الأمر هناك".

يقع هذا المستشفى في مساحة خضراء شاسعة حيث يوجد أيضا مأوى للأيتام ودار للعجزة. عينت إقامتي بغرفة بالطابق الأرضي بها نافذة مغلقة بشباك من الحديد الغليظ، تطل على حقل شاسع ومحفوفة إلى طرفها بسور يحيط بكل البنايات ويفصلها عن الشارع.

ثلاثة من رجال الشرطة متواجدون على مستوى الرواق يتناوبون على حراستي ليل نهار. ومن حين إلى آخر يدخل غرفتي أحدهم ممن يكون في الخدمة ليشعرني بحضوره ويتأكد من أن لا شيء غير عادي يحدث بالداخل، بالطبع فقد حذّروا من إمكانية حدوث محاولة فرار كما أمروا بأن يبقوا بالخصوص يقظين. أيام من بعد وصولي، لاحظت أنهم يحملون رشاشا إلى جانبهم بشكل ظاهر للعيان، شعرت أنه ثمة إنذار يقدم لي وكما لو جازفت بالتظاهر بعدم فهم ذلك، يتنقل مسؤولهم المحافظ حتى إليّ ليوضح لي : "لا تتصرف بحماقة ! رجالي هؤلاء قدمت لهم أوامر .. فلا يترددون من إطلاق النار !".

من جانب آخر وفيما يتعلق بالظروف السياسية الراهنة آنذاك - استئناف المحادثات الفرنسية-الجزائرية بـ Lugrin في جويلية 1961، تصريحات الجنرال (دوغول) في سبتمبر الرامية إلى التحرر من الالتزام و المانحة الموافقة على صحراء جزائرية، التصعيد من الأعمال الإرهابية للمنظمة السرية المسلحة (l'OAS) وانتشارها إلى غاية فرنسا والحذر الشديد للرأي العام الذي كان يظهر على (جيلبرت) وهي تخبرني بأن مجهولين يظهرون لها تعاطفهم ويسألونها عن أخباري - كنت أتصور بالعكس انه كان يراد تجنب كل عارض يمكنه مناقضة الصورة الجديدة، السلمية المنفتحة إلى التفاوض، التي كانت الحكومة الفرنسية تريد أن تعطيها لنفسها. كان الهدف إذن من ملاحظة محافظ الشرطة هو تخويفي، وكنت أتصور على أنه قد أصبح في فرنسا على الأقل فيما يتعلق بإطلاق النار من قبل الشرطة أو الجيش على أناس عزل أمرا يحبذ تجنبه ؛ فقد كنت مخطئا للغاية وبفرط من التفاؤل حيث دلّ على ذلك تلك المجزرة التي ارتكبت في حق المتظاهرين الجزائريين بباريس..

علىً الرغم من السبع سنوات التي مضت كلها في الحرب، كانت الحالة النفسية المميزة للمسؤولين على حفظ النظام والأمن باقية الواحدة من أحسن ما شهدته أي مرحلة من مراحل الاستعمار.

أعطى محافظ الشرطة أوامر لرجاله بالتّحلي باليقظة على الاّ يقترب أحد من شباك الغرفة التي تم عزلي فيها، فقد أخبر بأنه لوحظ حضور لبعض الصبيان الأيتام ممن كانوا يخاطرون بوصولهم إلى غاية الحقل الذي تطل عليه نافذتي، بل كان هنالك ما هو أسوأ من ذلك ولكن كان يجهله. فقد جاءني طفل في العاشرة من عمره كان يبدو أكثر جراة من الآخرين إلى غاية السياج الذي راح من ورائه يسائلني لماذا أنا هنا و"ماذا ارتكبت" حتى أوقفوني. قلت له أني لست لصا، وسبب وضعي في السجن هو أني ضد

الحرب المقامة ضد الجزائريين. " ولماذا لا تهرب" يرد عليّ متسائلا. "ترى الشجرة التي في طرف البستان المجانبة للحائط ؟ تتسلقها ثم تقفز إلى الحائط، ثم تنزل إلى الجانب الآخر وتسكت !" اقترحت عليه.

هي الخطة بالضبط التي كانت تجول في رأسي وأن هذا الصبي اللطيف لكن الثرثار من بعد بكل براءة، يمكنه أن يشوش عليّ تدبيري.

"أنت مجنون ! إنها حماقات ! أولا فأنا لست راغبا في الهروب، أجد نفسي مرتاحا هنا. وأنا مريض وهم يعالجونني جيدا !" يرد عليّ ثم يغادر المكان خائبا. وأيام من بعد يعود وهو مارّ عن قريب إلى النافذة حيث سمعته يقول للآخر الذي كان يصاحبه إذ ثمة يرفع صوته لأسمعه جيدا ولأعرف موقفه الاحتقاري مني : "لا يريد الهرب، إنه يفضل البقاء في السجن !".

كان يجب حتى تصلي إليّ مساعدة أصدقائي أن يعرف هؤلاء وبدقة مكان المستشفى الذي أنا متواجد فيه، ولتحقيق ذلك قمت بوصف المكان في رسالة إلى (جيلبرت) ؛ الأسلوب الذي استعملته على غير العادة كان شعريا غنائيا. كنت أقول لها كم هو عذب ومريح، بعد سنوات وبدون آفاق أخرى سوى قضبان من حديد وأسوار منتصبة وعارية، أن يلمح المرء حتى ولو كان ذلك من خلال شباك يقطع فضاء نافذتي إلى أجزاء، اخضرارا ينتعش نداوة ونضارة. كنت أحدثها عن الحقل القريب، عن الأراضي الزراعية المختلفة التي كنت أتصورها هناك، عن العصافير وهي تزقزق في النواحي، عن روضة كبيرة غرست جزرا حيث ينبعث منها نسيم لا يفتأ ينعش الأزهار حركة. كنت أقول لها أيضا وحتى ولو كان هذا المنظر الشعري الخلاب قد أفسده ذاك السور وهو يقطعه حيث تكبر شجرة وحيدة ضامرة وحزينة، فأنا لا أتهاون للنظر إليه لمدة ساعات من خلال الغرفة التي يحتجزونني فيها ولا يمكنني الخروج منها أبدا. فقد كان هذا جد كاف حتى يتمكن أصدقائي من تحديد المكان بسرعة.

لاحقا غداة عملية الفرار، يأتي رجال الشرطة ويقتحمون الشقة التي كانت تشغلها (جيلبرت) و(أندريه) للقيام بتفتيش. أحدهم ممن كان يبحث لإيجاد شيء ما بين الأوراق ورسائل (جيلبرت)، تصادفه هذه الرسالة، وأكبر مكرا من المراقبين الذين سبق لهم وأن قرؤوها قبله، يرفعها ملوحا ليقول متعجبا : "برسالة مثل هذه سيدتي، فأنا أرسم لك تخطيطا للهرب .."
- " آه !أو تظن ذلك ؟!. وضحكنا لهذا الأمر معا، لكن بعد مرور مدة من بعد ذلك.

كانت الأيام تمر في Pontchaillou، والرسائل التي كنت أرسلها كانت تمر على رقابة السجن ولم أكن أعلم إذا ما كانت المعطيات والمعلومات التي قدمتها لتحديد مكاني قد وصلت. والفحوصات التي كنت أتلقاها قد انتهت، وزاد وزني وأصبح مظهري يوحي بأني في صحة جيدة، وكنت أرى بقلق اقتراب اليوم الذي سأقتاد فيه ثانية إلى السجن دون إمكاني بالقيام بأي محاولة للفرار.

وفجأة بدأت الأمور تتحرك، ذات مساء رجل في الخمسين من عمره قوي البنية يظهر وكأنه جاء لزيارة مريض، يقطع في رمشة عين الطريق الذي يمر ببضعة أمتار إلى غرفتي ؛ ومن خلال شباك النافذة المفتوحة يرميني بجزء من الورق ملفوف، إنها رسالة موجزة : "تحتاج إلى ماذا ؟" فأقطع الورق بسرعة ثم أكتب له جوابا : "مقراض لقطع الحديد المشبك ؛ المكان الذي نلتقي فيه ؛ مخطط يساعدني للوصول هناك "، ثم أخفي ورقتي الصغيرة في عمق جيب المبذل الذي قدم لي في المستشفى. ثيابي الشخصية صودرت كلها باستثناء صدرية صوفية -وهذا يدخل ضمن التدابير الأمنية -.

وبعد فترة طويلة، أرى نفس الرجل - أحد المناضلين كما علمت لاحقا، ممن كان يسيّر مطبعة الحزب بمدينة رانس - يتقدم بسرعة نحو الممر،

فأرمي له كلماتي التي حضرتها من قبل. ثم يظهر ثانية بعد أيام قلائل ومعه حزمة مغلفة بوق - مقراض قاطع للفلاذ من الحجم الكبير صلب ويفي بالغرض - ليتقدم قليلا ثم يمررها لي سريعا دون التلفظ بكلمة - بين الشبّاك وفتحة النافذة، فقد كانت اللحظة الأكثر خطورة. كان بإمكان أي عامل بالمستشفى أن يضبط أمره على غرة وهو مار في هذا المكان الممنوع التواجد فيه إلاّ على عمال المصلحة ومن هو مكلف بحراستي، أو كان بإمكاني أنا نفسي أن يكتشف أمري من قبل أي من رجال الشرطة يدخل فجأة إلى الغرفة ؛ إلا أن الأمور جرت بدون حدوث أي مكروه.

كنت أظلّ طوال النهار أخفي هذه الأداة الجسيمة والثقيلة نسبيا تحت مبذلي بمسكها بخيط قمت بربطه بإحكام على مستوى خصري ؛ وحتى تبقى غير مرئية كنت ألزم نفسي بالقيام في كل مرة يدخل عليّ شرطي أو ممرض، كما كنت اذهب لأنام في وقت مبكر حيث أقوم بإبعاد هذا المقراض إلى طرف السرير، هذا وأنا أتمنى أن يظهر أصدقائي من جديد لأنه لم يعد بإمكاني إخفاء هذه الآلة الثقيلة لمدة طويلة. فكان الانتظار وجيزا ؛ في اليوم الموالي رسالة أخرى ملفوفة تحطّ بغرفتي .. لأقرأها بسرعة : "في ليلة الأحد والاثنين، ما بين الواحدة والثانية صباحا. تجاوز السور بالاستعانة بطول الشجرة".

عند المساء المعهود تأكد لديّ ومن دون شك أن شرطي الحراسة لهذه الليلة - من الأول إلى 2 أكتوبر 1961- هو الأكثر غلظة ووقاحة وبلا شك الأكثر تحمسا ضدي من بين كل أولئك الذين توالوا على الحراسة ببابي. كنت لأغضب لو حدث أني سأكون سبب معاقبة أحد غيره من الحراس ... الوحيد الذي يكون وقد أبدا لي تعاطفه وأسرّ لي أنه يحوز على كتابي "la Question"، هكذا بالفرار أثناء خدمته. عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF) في الوقت الذي كان لا يزال فيه موظفا في الشرطة بالصفة المدنية، ثم يستوجب

عليه الأمر بأن يتخلى عن الحزب ما دام يشغل منصبا في الشرطة وكذلك كانت القاعدة ؛ وهذا لم يكن ليمنعه، كما قال لي، للاحتفاظ بأفكاره التي يؤمن بها.

كان يجب عليّ المحاولة في حدود الإمكان من النيل من يقظة الحارس، ففي حدود العاشرة ليلا، في الوقت الذي كان الهدوء يسكن Pontchaillou، أطرق على الباب ليأتي إليّ متسائلا : "لم يأتيني نوم، ألا تنادي لي الممرض؟ " قلت له. بعد دقائق يأتي هذا الأخير ويسلمني قرص دواء لأنام الذي قمت أمامهم برميه في فمي وكأني أبلعه ولكن من لحظة ما أغلق الباب وأطفئ الضوء أقوم بلفظه في الحمام. ساعة من بعد، أعيد النداء من جديد : "إني لا اعرف كيف أنام .. فأنا لا أستطيع، اليس هنالك دواء منوّم أقوى من هذا؟ " فيعطيني الممرض قرصا آخر لأعيد لفظه مثل الأول ؛ وبينما هو يبتعد في الممشى سمعته يقول للشرطي مازحا : "أمّا الجرعة التي ابتلعها، فلن يستيقظ من إثرها حتى منتصف نهار الغد على الأقل، أنت أيضا يمكنك الذهاب لتستريح ..".

بقيت أنتظر ايضا قبل أن أبدأ في العمل ؛ إذا كان المقراض يعمل جيدا فيلزمني ساعة على الأقل لقطع الشباك الحديدي والتسلل إلى الخارج لأكون في الموعد المحدد.

نهضت بهدوء ووضعت إلى جانب النافذة سطلا كان بالغرفة، ذلك إذا ما دخل الشرطي فجأة باحثا عن مصدر الصوت المنبعث عن حركة المقراض، أتظاهر حينها بالقيام المفاجئ في الظلام وأني دون انتباه صدمت هذا السطل الحديدي محدثا هذا الصوت. كان نور القمر البدري ينير جزءا من الغرفة، سأقوم بعملي دون حرج ؛ انتهيت من الحلقة المعدنية الأولى التي كانت واسعة وصلبة، أما الآلة فكانت في المستوى المطلوب، حيث وجدتها مزودة بنظام نوابض من شأنه أن يخفف من القوة ويزيد من النجاعة إلى

درجة أن الحديد كان يبدو يتقطع بسهولة كالورق المقوى ؛ لكني لم أحسب حسابي لتلك الضجة التي كنت أحدثها في كل مرة كنت أقطع قطعة من الحديد الصلب، فكان ذلك بمثابة انفجار في وسط الليل حيث السكون ... أيّ اهتزاز ما يحمله الصدى منتشرا في كل البناية. يأتي الشرطي ويفتح الباب على عجل لتنار الغرفة، كنت حينها أمام السطل حاملا المقراض من أمامي حتى لا يراه، أدرت إليه رأسي مبديا له نعاسي وعيناي وقد خطفهما النور المشتعل فجأة ؛ يلقي بنظرة فاحصة على كل أنحاء الغرفة وبعدما ظهر له أن كل شيء عادي يعيد غلق الباب بعد إطفاء النور. سمعت في الممشى الممرض يطمئن المرضى الأكثر قلقا وعصبية في قاعة مجاورة ممن أيقظهم الصوت، ويقدّم لهم أقراصا من الدواء تساعدهم على معاودة نومهم. انتظرت لما يقرب الساعة، حيث عاد الهدوء من جديد واستأنفت مهمتي في تقطيع الحديد لكن هذه المرة بكل حيطة وحذر.

ولتجنب أي اهتزاز أو ارتجاج محتملين، كنت أضغط على قميصي الملفوف مكوّرا على الشباك في الوقت الذي أهمّ فيه لكسر قطعة الحديد، فكانت العملية رائعة .. فقد تمكنت بسرعة - وبهدوء - من قطع ما يشبه شكل المثلث بدا لي واسعا للخروج من خلاله .. نزعت ثيابي كلها حتى لا أتعلق بها إلى نتوءات الحديد الباقية محيطة للفتحة .. فكان عليّ أن ينسلخ جلدي بعض الشيء، لكن ذلك سيكون أقل خطورة من إثارة إنذار جديد .. فأجد نفسي سريعا بالخارج، ألبس منامتي وباحتراس مني وحتى لا أترك أي شيء من ورائي مما يسبب خداعا لمن اهتم بتوفيره لي، أحمل المقراض وألفّه بقميصي .. وبدون انتظار لحظة أنطلق جاريا سريعا خلال الحقل كما وأني لم أجر أبدا من قبل. كنت أستشعر روعة نداوة الأرض الرطبة من تحت قدمي العاريتين، رائحة الحشيش الفتيّ والناعم، نور القمر السحري في ليلته البدرية، الإحساس العظيم باستعادة الحرية المسلوبة، كنت أجد في كل هذا

نشوة وحماسا مثلما ولو كانت الليلة نفسها وقد تحالفت معي ؛ أصل إلى الشجرة ثم أتسلقها بسرعة .. فأتمسك بيدي إلى أعلى السور وللحظة اسمع من الجانب الآخر صوتا شبانيا دافئا يهمس : " هيا هنري! نحن في انتظارك" ثلاثة أعضاء لإحدى خلايا الحزب في رانس : سائق السيارة الذي كنت أظنه هو من سلمني المقراض، امرأة كبيرة في السن وشاب. فقد سقطت بين أذرعهم. كنت متأخرا عن الموعد بما يقرب الساعة والنصف إلاّ أنهم بقوا في انتظاري على الرغم من المخاطر التي كان بالإمكان أن تلحق بهم ؛ فقد جاؤوا مزودين بأكياس من الفلفل الأسود لينثروها هناك من كل جهة لمنع الكلاب تتبع آثارنا.

بما يقل النصف الساعة عن ذلك، وبعد توقف للحظات على جسر فوق نهر حتى يتمكن الشاب من رمي المقراض الذي جلبته معي، كنت في مأمن بمنـزل هذه الرفيقة المسنة - كانت تدعى أليس (Alice) - معلمة سابقة وزوجها غيوم (Guillaume) متقاعد عن مهنته في السكك الحديدية، محنك في العمل السري مثلها منذ عهد "المقاومة" ؛ الزوجان بيرون (Perron) -علمت اسمهما لاحقا - مناضلان من بين المناضلين الشيوعيين.

تعطيني بيجاما زوجها وتطلب مني ارتداءه لكي يمكنها في الحال حرق المنامة التي كانت لا زالت عليّ وتحمل علامة المستشفى ؛ كان النهار يوشك بالطلوع، وكاد الجوع يقطع أمعائي، فتطلب مني السيدة إذا كنت أرغب في أكل نوع من الحلوى مصنوع بالدقيق والزبدة والبيض ثم تذهب في الحين لتحضّرها لي .. لم أتناول قطّ مثل هذه الحلوى إذ كنت أتناولها بكل لذة وشهية ؛ ثم شربنا نخبا على آمال نهاية الحرب وعلى المستقبل الأخوي للشعبين الجزائري والفرنسي، كنت حرّا .. وكل شيء كان رائعا.

كان يجب الانتظار حتى تهدأ الأمور مما خلفه فراري هذا ما بين مختلف الأوساط، وحتى يمكنني التنقل دون ما خطر. فمعظم الجرائد اليومية من

بين تلك التي كانت تخصص ما هو أهم بالنسبة لعناوينها لما كان يطرأ على المستجدات بخصوص المفاوضات حول السلم الذي لا يفتئ يتأجل ولاعتداءات المجرمين التابعين للمنظمة السرية المسلحة (l'OAS)، تقوم بنشر بعض المقالات المسترعية للانتباه حول الكيفية التي تمكنت بها الفرار من (Pontchaillou)، كنت أشعر باللذة وأنا أقرأ وأسمع لمختلف الافتراضات التي طرحت بخصوص التواطؤات التي كنت أنا قد استفدت منها والأماكن التي التجأت إليها. فهذه جريدة Ouest-France تذهب لتكشف أن وولف (Wolf)، الكلب المشهور لدى رجال الدرك الذي أطلق لمطاردتي، أظلّ الطريق في البحث عن أثري في شارع Verdun ، في حين أنا لم أسلك هذا الطريق. كنت أتساءل عمّا إذا لم يكن نثر الفلفل الأسود الذي قام به رفاقي تلك الليلة، في غير نجاعته شيئا ما.

على شاشة التلفزيون، يأتي ليون زيترون (Léon Zitrone) المقدّم المعروف بنجوميته آنذاك ليعلن من جانبه وباستناده إلى معلومات مختلفة أخذت في الرواج، أني قد تجاوزت الحدود إلى بلجيكا وأن وجودي هناك تم الإعلان عنه في مدينة بروكسل.

كانت المرحلة القادمة – التي تتضمن إبعادي من رانس – تتطلب بعضا من الاستعدادات والتحضيرات ؛ تقوم (أليس) بأخذ كل قياساتي لتشتري لي ما يلزمني من الثياب، معطف، بذلة، أقمصة، ألبسة داخلية وأحذية .. بمعنى خزانة ملابس جديدة. كما أخبرتني بتعليمة أتتها من باريس : عدم التحرك من المكان الذي أنا متواجد فيه .. ويلزمني الإعفاء عن شاربي. وتصلني أيضا رسالة من إدارة الحزب الشيوعي الجزائري التي كانت تعمل في السرية، ممضاة من قبل (صادق هجرس) الذي يهنئني فيها بالمناسبة على حريتي المستردة، وتقترح عليّ الكتابة وبسرعة لعريضة إلى أوروبيي ويهود الجزائر لتحذيرهم من الحملات الجنونية لأفراد الـ OAS، في حين وفي

الظرف نفسه، كان الشيوعيون وقادة الحكومة المؤقتة (GPRA) من تونس يدعونهم لعدم مغادرة بلد هو بلدهم وذلك للمساهمة مع الجميع مهما كانت أصولهم في بناء جزائر جديدة مخلّصة من الوصاية الكولونيالية، وبكل روح أخوة تتوق في إطار الاحترام المتبادل ومصلحة الشعبين إلى إقامة علاقات جديدة مع فرنسا. كانت هذه السياسة نفسها التي كان رفاقي وأنا شخصيا ما فتئنا الدفاع عنها في جريدة "الجزائر الجمهورية"، وبقيت الأصدق رؤية من أي وقت مضى بينما كان الحل يلوح قريبا وأنه في نفس الوقت وبسبب المتطرفين عسكرا ومدنيين وقتلة الـ (OAS)، كان الكابوس يهدد بخطر الانتهاء إلى حمامات أخرى من الدم مرعبة ومروعة.

فبدأت العمل لتحرير النص الذي طلب مني القيام به، وشعرت بالقلق كوني لم أتوصل إلى إيجاد ولو كلمة، ولا حتى تنظيم أفكاري للإمكان من الوصول إلى تركيب واضح ومقروء. فخلال كل سنوات السجن هذه وعلى الرغم من الممنوعات والتفتيشات والمشاكل من كل نوع، استطعت مع ذلك كتابة كتابين وبعضا من النصوص والعديد من الرسائل ؛ فقد كنت أبذل جهدا أكبر من الكثير من رفاقي، لكنه شيء ضئيل إذا ما قورن بالحجم الساعي اليومي فيما يتعلق بالإنتاج المقام بالجريدة، وكنت أتساءل بنوع من الانشغال إذا لم يكن السجن وقد حوّلني إلى عاجز فكريا ؛ كنت وقد استأت من أولئك الذين اقترحوا عليّ هذا العمل من دون أن يفكروا ولو للحظة إن كنت جديرا بالقيام بذلك. إلا أنه وفي واقع الأمر فقد كان تحرير هذا النّداء الذي سيتم تحويله إلى منشورات توزع توزيعا واسعا بالجزائر، مفيدا إليّ كما كان ليكون نوعا من العلاج المرّ لكن نافع وناجع. كلفني ذلك ساعات طوال لإنهائه ولأبرم بارتياح وأنا أعيد قراءته في كل مرة بأنه متماسك وأن سنوات السجن لم تعطل فيّ بشكل بالغ ميكانيزمات الكتابة.

كنت أمضي معظم النهار بمرآب مضيفيّ، فإذا طرق أحد على الباب يمكن للسيدة (أليس) أو لزوجها (غيوم) فتحه هكذا دون أن أجد الحاجة لمغادرة قاعة الاستقبال فجأة باحثا التستر في مكان آخر. كان المرآب واسعا ومضيئا جيدا، إنه المكان الذي كان الزوجان يخزّنان فيه الجرائد القديمة ومنها اليومية الجهوية وجريدة "l'Humanité". كانت الأعداد المشكلة لمجموعات الجرائد غير مكتملة إلاّ أني كنت أتفحصها بشغف إذ كنت أكتشف فيها هكذا بدون ترتيب ما كان يصنع الحدث في فرنسا والجزائر وفي العالم خلال السنوات الممضاة في الظلّ حيث تلك المعلومات المعدودة التي كانت تصلني مجزأة ومتقطعة في قاعة المحامين، لم تكن جديرة بفكّ العزلة التي كنت أعيشها إلاّ جزئيا.

كنت أحتاج مع ذلك إلى الوقت الضروري لاستدراك ما كان ينقصني، كان بعض الأصدقاء يأتون من مدينة باريس إلى زيارتي حتى أتهيأ للرحيل ؛ كانت البداية مع المناضلة الحلاقة التي قامت بتغيير لون شعري وشاربي بصبغه أسود وتنوّع من تسريحة شعري، فكان لكل هذا أنه غيّر من مظهر وجهي العام، ليصبح لون شعري داكنا مكفكفا إلى جبهتي، الشارب كثيف إلى حد ما، وربطة عنق إلى قميص متميز .. كل ذلك كان يعطيني هيئة رجل ثريّ ذي شخصية على الأصح صارمة وليس تبدو بالكثير ماكرة وإنما تفضل أن تعطي شعورا بالجدية. بدا لي هذا التحوّل الكلّي ناجحا. وبعد ما تم ذلك يأتي مصوّر - يعمل بجريدة l'Humanité - ليأخذ بعض الصور بغرض إعداد وثائق مزورة. الآخر الذي جاءني لاحقا بدا لي مترددا حينما لزم ملء الخانة التي تشير إلى ذكر مهنتي على وثيقتي الشخصية ؛ ينعم النظر إليّ يمينا وشمالا ويقلب الصور من جهة إلى أخرى .. ليصل إلى : "أعتقد أن مهنة "صيدلي" توافقك جيّدا ". أحسست حينها بالرغبة في الضحك، لكن الظرف لم يكن ليسمح شرح أسباب ذلك. في الواقع تذكرت أبي الذي كان يتمنى كثيرا

لأحضّر نفسي لهذه المهنة وأني خيّبت آماله هذه باختياري طريقا آخر. كنت اتساءل كيف كان يقدّر الأمر لو أخبرته كيف كان لحلمه وللحظة ما بعض الشيء من الحقيقة فيما يخصني.

ذات صباح يخبرني (غيوم) بأنه كلّف بمهمة إيصالي إلى غاية مكان محدد أين يأتي أحد آخر ليتكفّل بي في اليوم نفسه. كان مبرمجا أن نغادر البيت في آخر المساء، وفي العشاء الذي كان بمثابة عشاء الوداع تقوم (أليس) بتزيين الطاولة بالفطائر المحلاة ذات الطابع المحلي كلها من أجلي. وأخيرا أغادر المنـزل بصحبة (غيوم) الذي كان يقود السيارة ؛ كان المطر ينـزل دون انقطاع وبغزارة إلى درجة صعب على إنارة السيارة أن تخترق السّتار المبلّل الذي كان الليل يزيد باستمرار في اتساعه أمامنا : "إنه وقت مثالي" يليق بمثل هذا العمل .. " يقول لي.

سارت السيارة لمدة قطعت فيها مسافة حوالي خمسة عشر كيلومترا على طريق يؤدي نحو Dinard لنتوقّف إلى حجر نصب كعلامة للمسافات، كان الليل جد مظلم والمطر لا يزال يهطل دائما غزيرا .

- "هنا نفترق، تذهب مباشرة في هذا الاتجاه .. ستجد صديقا ينتظرك هناك بعيدا. لا أعرفه مثلما هو لا يعرفني .. يجب أن تسير الأمور هكذا ..".

لقد حافظ هؤلاء المناضلون على تصبرهم الذي اكتسبوه إبان "المقاومة". على بعد المئتي متر إلى جانب الطريق المغمور بهطول المطر كانت سيارة من نوع (CV2) متوقفة ؛ وعند وصولي بالقرب منها تشعل الأنوار، يفتح الباب وإذ بالسائق الذي كان لوحده ولم أشاهد منه ملامحه يقل لي:"اصعد! " هكذا دون أن يزيد بكلمة عن ذلك طول الطريق لما يقرب الساعة تحت المطر دائما، ليتوقف أخيرا إلى منخفض ربوة حيث يوجد منـزله في الأعلى، بيت من الخشب صغير حيث يمكنك الوصول إليه عبر درب

معتم موحل وزلق. يصعد أمامي .. رأيته رجلا ذا بنية قويّة يظهر عليه بعض الكبر، كان يمشي بتمهل وصعوبة.

"تجمّدت قدماي" إبان حرب الـ *14*، فلزم قطعهما وأنا الآن أمشي بالاستعانة بجهاز، يقول لي، كما وأنه يعتذر لما سببه تباطؤه ونحن نصعد المرتفع تحت المطر.

ينفتح الباب على غرفة واسعة ذات إنارة باهرة بالنسبة للذي يقدمها في ليلة مظلمة، كانت مؤثثة على الشكل القديم وإلى هناك رفوف عليها أسطوانات – موسيقية – تغطي كل الحائط من السطح إلى السقف. يستدير مضيفي إليّ فجأة ليضمني إليه بين ذراعيه قائلا لي : "إنه أسعد يوم في حياتي !" لم أفهم ماذا كان يقصد من ذلك.

زوجته التي استقبلتني بالعناق كانت وقد حضّرت مأدبة غداء وبقيت تحرص على ألاّ يفرغ صحني من الطعام أبدا. حينها بدأ يشرح لي كيف سأعيش خلال الأيام التي سأقضيها معهما، أسبوع أو أسبوعان ربما. "ستنام في السقيفة، يوجد بها سرير وكل ما يلزم. يجب ألاّ تتحرك كثيرا، فالمنـزل مصنوع من الخشب، وأرضية السقيفة تصرّ عند اهتزازها .. وهذا يسمع .. ويوجد ناس في الأسفل في النهار".

كان اسمه لويس بيدو (Louis Bideau) يعمل في نجارة الأثاث، وإذا كان لم يكمل بناء منـزله إلى آخره، فيمكن القول أن كل الأثاث تقريبا هو من صنعه. "سأصعد لأزوّدك بالمؤونة. ولملء الفراغ فلديك الكثير من الكتب في الأعلى ؛ لا تشعل النور .. فلا أحد هنا يمكنه أن يتسلق إلى غاية السقيفة مما يجعل الناس يتساءلون عن وجود النور. يمكنك النـزول إلينا في المساء لنتناول العشاء سوياً ويمكننا عندها الحديث والاستماع إلى بعض الأسطوانات إذا كان ذلك يليق بك".

كانت السهرات تتقسم ما بين الحديث عن السياسة والسماع إلى الموسيقى ؛ كان (لويس) من أكبر الهواة للغناء والنشيد الجوقي بمعنى المجموعات الصوتية ذات الطابع الشعبي - الروسية منها بالأخص - وللموسيقى الكلاسيكية التي كان يتكلم عنها بصفة العصامي العارف.

كانت إقامتي هناك قصيرة بما يزيد عن الأسبوع. في اليوم الأخير وعند نهاية العشاء الذي كان أكثر وفرة عن العادة يتحول (لويس) إلى جدّيته فجأة، وهو الذي كان يمازح إلى غاية تلك اللحظة.

"اليوم الذي أتيت فيه إلى هنا قلت لك أن هذا اليوم هو أسعد يوم في حياتي، وقد كان لك من دون شك أن تساءلت عمّا كنت أقصده. خلال الحرب، البعض من رفاقي في الزنزانة في *Dinard* - يخبرني على أن هذا اسم المكان الذي تلاقينا فيه، وبالضبط في *la Richardais* إلى مصب نهر *Rance* - تم نفيهم ومعظمهم لم يرجع، وكوني كنت معطوب حرب لم أوخذ معهم. ورأيت بعدها أنه كان هنالك ممن استغرب الأمر وانتابتهم شكوك وخلفيات. هكذا حتى دخلتني فكرة أن رفاقي لم يعودوا بل ولن يثقوا فيّ أبدا. هذا وعندما طلب مني أن أخفيك عندي فكان ذلك وكأنه حررني من عقال، فكان هذا دليلا على أنه منذ سنوات وأنا أتبرّم من لا شيء حاملا أفكارا مخبولة ! لا تتصوّر كيف جعلني ذلك سعيدا لأن يصل بي الأمر إلى هذا الحد ! نعم إنه أسعد يوم في حياتي !".

كانت إقامتي على ضفاف نهر Rance وقد انتهت، لأنتقل سريعا باتجاه قرية تتواجد بـ Cher. كانت تعجبني الاحتياطات التي كان يتم اتخاذها لتجنب أيّ ملاقاة غير مرغوب فيها. سيارة أولى تتقدم السيارة التي كنت فيها ببعض الكيلوميترات حتى تفتح الطريق بهدف الاستطلاع والتحقق من أنها خالية من رجال الشرطة والدرك ممن يقومون بالمراقبة. كانت علامات مما هو موجود في مواضع مناسبة - غصن مكسور إلى جانب لافتة أو موضوع على حجر المسافات - تشير إلى أن الطريق آمن وأنه يمكننا المتابعة.

في المساء يتم استقبالي من قبل زوجين متقاعدين باسم ديلورم (Delorme). بدا لي بول (Paul) قصيرا وسمينا ذا بشرة حمراء وبشوشا بصدريته الصوفية القديمة، كان عاملا سابقا في السكك الحديدية. قضى كل حياته تقريبا في قيادة القاطرات قبل أن يقوم بتفجير واحدة في عهد "المقاومة". أما زوجته، ذات القامة القصيرة ونحيفة الجسم وفي حركة دائمة، فكانت هي أيضا مناضلة. كانت تحب كثيرا التذكير بسلوك زوجها المثالي في عهد الاحتلال، وذلك ماكان هو نفسه يكرهه، فلم يكن ليتكلم عن ذلك أبدا، إلاّ ليقاطعها لحظة تناولها للموضوع : "لا ! ! أرجوك توقفي ! كنت أرتجف من الخوف في كل مرة تكون فيها عملية مبرمجة، وإذا كنت أذهب للتنفيذ، فلأنه كان من الواجب القيام به..".

كان هدوؤه وتلقائيته المرحة يناقضان اليقظة البليغة لمضيفيّ السابقين مما سبب لي بعضا من الانشغال، فقد عرض علي الذهاب إلى حانة قريبة "لتناول قليل من الشراب " ورفضت. "لا تقلق ! ولا أحد يعرفك هنا !" لكنه نسي أن التلفزيون وكل الجرائد أظهروا صورتي، فقد ذهب به الأمر إلى حدّ تقديمي إلى جاره الذي كانت تربطه معه علاقة طيبة والذي دعاه لتناول مشروب فاتح للشهية : "قريبي جون (*Jean*) .. بلى ! فقد سبق لي وأن كلمتك عنه، فهو آت من مدينة *Lille*، جاء باحثا عن الراحة وعن هواء البادية النقي. أما المدينة .. فالكل سيلحقه تسمم دخانها".

وبعد أيام قلائل من وصولي، يقوم كل من ليون فيكس (Léon Feix)، وهو عضو في إدارة الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF)، وأحد من الأخوة شاريّ (Cherrier)، أمين الفيدرالية لمنطقة Cher، بزيارتي رفقة آرجاليس (Arjaliès)، مناضل من مدينة باريس جد ملتزم في قضية الكفاح ضد الحرب الكولونيالية، الذي أوصلهم إلى غاية عندي. عرض عليّ (فيكس) بشكل إجمالي كيف كان يرى الوضع السياسي بفرنسا وبالجزائر ويمنحني رسالة

من مدينة الجزائر : كان يريد رفاقي بداية وكمرحلة أولى أن أنطلق إلى براغ (Prague) حيث يعمل الوفد الخارجي للحزب الشيوعي الجزائري تحت إدارة السيد (العربي بوهالي).

وقد اتفق على أن تكون جوزات (Josette) زوجة (أرجاليس) التي التحقت بنا والتي بلباسها ذاك الفاخر وهيئتها المتميزة لا يمكن لأي أحد أن يشك أن مثل هذه المرأة تسافر مع سجين هارب، هي التي سترافقني إلى غاية المطاف.

بعد تجاوز الحدود السويسرية، دون الدعوة إلى إظهار الوثائق بفضل من مساعدة من أحد حراس الحدود، مناضل من منطقة Haute-Savoie الذي جنبني هكذا اللحظة الحساسة التي كانت لتكون مراقبة لجواز سفري المزوّر، ألتقي مع (جوزات) بمدينة جنيف (Genève). كان علينا بعدها أن نتجه نحو مدينة زوريخ (Zurich) عبر القطار ومن ثمة إلى مدينة براغ، عن طريق الطائرة. فقد تم كل شيء دون أي خلل يذكر وكما خطط له، فقط وجب علينا الانتظار يومين بمدينة (زوريخ) حتى ينقشع الضباب الكثيف الذي كان يغطي أوروبا الوسطى ويمنع كل حركة جوية.

على الرغم من نفاد صبري للتحرك – ومعرفة بما سأبدأ – فلم أكن مستاءا لهذا الانقطاع. فقد كانت (جوزات) مرافقتي في السفر تفهم ذلك، وكنت أذهب لوحدي تحت المطر أمشي في شوارع (زوريخ) سعيدا بتواجدي في مدينة كبيرة مفكرا في ضبط الأمور حول مستقبلي في جزائر جديدة التي كانت تولد، وفي الحالة الحاضرة حول الكيفية الأحسن التي سأندمج بها في المعركة الكبرى التي كانت تلازمني. منذ فراري من السجن، وبما يقرب الشهرين إلى الوراء تسارعت الأحداث، فقد كانت المحادثات بين وفد الحكومة الفرنسية ووفد جبهة التحرير الوطني تغذي في نفس الوقت الآمال في تحقيق سلم قريب، والخوف من رؤيته مرة أخرى يتأجل إلى تاريخ غير مسمى.

وأنا أغادر فرنسا، كنت أفكر في رفاقي في الحزب الشيوعي الفرنسي، في أولئك العاملين بجريدة l'Humanité التي صودرت لعشرات المرات خلال السنوات السبعة الماضية، في هؤلاء العمال، في هؤلاء المحامين، وفي هؤلاء المثقفين، الجامعيين والصحافيين من الذين اختاروا الكفاح من أجل تحرير الجزائر والجزائريين، في هؤلاء البسطاء والأبطال من المناضلين الذين قدموا لي يد المساعدة حتى تمكنت من الفرار وآووني عندهم إلى أن استرددت حريتي كاملة وهم واعون بالمخاطر التي كانت تحدق بهم.

وبعكس بعض الأقاويل، التي تقول بأن الحزب الشيوعي الفرنسي لتلك الفترة كان للغاية حريصا على الحفاظ على الشرعية مما أدى به إلى منع أعضائه كل عمل يرمي إلى التضامن الفعلي مع المقاتلين من أجل استقلال الجزائر، فإن آخرين غيري (شيوعيون وجبهويون) قد استفادوا من نفس السند.

العودة إلى جزائر مستقلة

يستقبلني (العربي بوهالي) في مدينة براغ عند سلم الطائرة رفقة مسؤول عن الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، يتكلم لغة فرنسية سلسة. وبعدما قدم لي عبارات الترحاب، يخبرني هذا الأخير أن مهمته هي التكفّل بالمسائل المتعلقة بإقامتي في تشيكوسلوفاكيا. حييّت (جوزات آرجاليس) التي كان يبدو أني لن أراها ثانية قبل سفرها إلى باريس، حيث ستدخلها عبر سويسرا من جديد تجنبا لإثارة فضولية رجال شرطة مطار Orly على ألا يتم ذلك وصولا عبر خط مباشر انطلاقا من مدينة براغ.

لم ألتق بـ (العربي) ثانية منذ تواجدي في مدينة الجزائر، كنت وقد التقيته للمرة الأخيرة بعد وقت قصير لماّ استنفد كلّ الطعون القضائية ضد إدانته بالسجن بتهمة المساس بالأمن الداخلي والخارجي للدولة، حيث يختار في ديسمبر 1953 العمل في السّرية. وفي خريف 1956، حيث كان مكلّفا بتمثيل الحزب الشيوعي الجزائري في المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني، الذي كان مقررا في مدينة بيكين (Pékin) في متوسط شهر سبتمبر، يغادر مدينة الجزائر سرّا نحو فرنسا بتواطؤ من بحّار شيوعيّ قام بإخفائه في حجيرته طيلة الرحلة البحرية. كان لموريس أودان (M. Audin) ولكريستيان بيونو (C. Buono) – الذي كان وزوجته يأويانه في بيتهما – يد المساعدة

لإنجاح هذا الإنزال السرّي. كان (العربي) وقد برمج دخوله الجزائر بعد نهاية المؤتمر مباشرة.

كان في طريق العودة حينما وصلته رسالة من إدارة الحزب تطلبه فيها بعدم مغادرة أوروبا، كما عُرض إليه تكوين وفد خارجي للحزب الشيوعي الجزائري يكون من مهامه التعريف خارج الحدود بمواقف الشيوعيين الجزائريين وجلب كل العون الممكن لجبهة التحرير الوطني. طالت الحرب أكثر ممّا كان يتوقع الفرنسيون والجزائريون على حدّ سواء، ومرت خمس سنوات من قدوم (بوهالي) إلى مدينة براغ أين تمت استضافته من قبل الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. كما تمّ تعيين بعض المناضلين القادمين من الجزائر والمغرب لتقديم له المساندة، فلذلك كنت أرى - بكثير من الغرابة لأنني كنت أجهل وجودهم بالخارج - ولمرات متكررة أصدقاء قدامى من بينهم (عبد الحميد بوضياف)، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري، مختص في القضايا الفلاحية وقريب (محمد بوضياف) رئيس الجمهورية الجزائرية المستقبلي الذي مات مقتولا. بعدما قاتل كضابط في جيش التحرير الوطني (ALN) بمنطقة وهران، اضطر (بوضياف) مع مجموعته إثر ضغط الجيش الفرنسي أن يذهب لاجئا إلى المغرب، لتكلّفه بعدها جبهة التحرير الوطني أن يواكب بعض الجرحى إلى غاية الإتحاد السوفييتي حيث التقى بـ (بوهالي) الذي دعاه لأن يأتي إلى تشيكوسلوفاكيا للعمل معه.

كما سررت بملاقاتي بـ (مصطفى سعدون) الذي كنت أعرفه منذ الفترة التي كان فيها عضوا في الإتحاد الديمقراطي للشبيبة الجزائرية، فقد قاتل في وادي Chélif في نفس المجموعة التي كان ينتمي إليها هنري مايو (Henri Maillot) وموريس لابان (Maurice Laban) ورفقاؤهما من فلاحيّ المنطقة الذين حملوا السلاح وماتوا هناك. كان (مصطفى) وقد نجا

بأعجوبة إذ يتمكن بعد حصار أقامه الجنود الفرنسيّون أن يمرّ خلال صفوفهم رفقة (عبد الحميد غراب) محرّر سابق بجريدة (républicain Alger) و (محمد بوعلام) مسؤول بنقابة عمال ميناء (dockers) وهران. ثم ينضمّ إلى قسم في جيش التحرير الوطني حيث يبقى هناك إلى أن لم يجد هو بدوره أي خيار آخر سوى تجاوز حدود الغرب ؛ ففي المغرب تمّ اخباره أن قيادة الحزب الشيوعي الجزائري تطلب منه الالتحاق بـ (بوهالي).

كما التقيت أيضا ببول (Paul) وسيمون بوعزيز (Simone Bouaziz)، مناضلين نشطين من مدينة وهران، كلاهما محاميان يدافعان عن الوطنيين الجزائريين، أجبرا على مغادرة البلد للانفلات من الأمر بالقبض الذي صدر في حقهما ؛ ولأسباب مشابهة، مناضل آخر من مدينة وهران باسم (عبد القادر صافر) معلم وعضو في الإدارة الجهوية يقوم بنفس العمل. كانت جيلبيرت طالب (Gilberte Taleb) هنا أيضا حيث تضطلع كما هو الحال بمقر الحزب الشيوعي الجزائري بالجزائر بمهام سكرتيرة إدارة، كان وقد تم إبعادها إلى فرنسا بينما كان (بوعلي طالب) زوجها وقد التحق بجيش التحرير الوطني ؛ أخبرت بموت زوجها في ميدان الشرف هنا في مدينة براغ في سنة 1959 – بسنتين من التأخير – .

الكل استفاد مثلي من سند الشيوعيين الفرنسيين ثم من الآخر الآتي من الشيوعيين التشيكوسلوفاكيين، فقد ساعدوهم على إيجاد المأوى والعمل و في نفس الوقت توفيرهم الوسائل التقنية لسحب وإيصال المنشورات التي كان الوفد الخارجي يأمر بإعدادها . وكذلك كانت تنظيمات أخرى تتصرف مثل الحزب الاشتراكي الموحد لجمهورية ألمانيا الديمقراطية (RDA) والحزب الشيوعي للإتحاد السوفيتي بالخصوص ؛ ولا تسمع كلمة شكر إلا قليلا طالما كان هذا السلوك يظهر طبيعيا، فقد كان هذا ضمن العلاقات العادية ما بين الشيوعيين حيث كل واحد يعتبر إذا ما كان يتقاسم نفس

الغايات والمقاصد الأساسية مع الآخرين ويسعى إلى خدمة نفس المثل، فإنه يصبح من الواجب فرض تضامن دولي دائم.

كنت مسرورا لإمكاني الحديث مجددا مع كل هؤلاء الرفاق القدامى وبالخصوص مع (العربي بوهالي) ؛ ودون أن يحدث أبدا وأن أعتلى إلى هذه المرتبة رسميا فقد كان هذا الأخير يمثل في الواقع أول أمين للحزب مثلما كان قبله (عمّار أوزقان). بعد انخراطه في جبهة التحرير الوطني، على أمل تجاوز ونسيان الانتقادات اللاذعة للقادة الوطنيين، يظهر هذا الأخير عدوانيا للغاية اتجاه رفاقه القدامى واتجاه (بوهالي) بالأخص، الذي لم يتقاسم معه ابدا أراءه المتعصبة وكان يحقد عليه أيضا كونه حلّ محلّه على رأس الحزب.

كانت معرفتي للرجلين عن كثب وكان بامكاني مقارنة سلوكاتهما وطباعهما. فبالقدر الذي كان (أوزقان) يعبّر عن أرائه بحماسة وبراعة .. يجد ويقدّم تصريحات برّاقة .. محبّا للتواجد في الطليعة وتلقّي التصفيق والاستحسان، بالقدر الذي كان (بوهالي) يظهر متواضعا، رزينا، طموحا ليس إلا ليفهمه الآخرون ويقنعهم عمّا يريد ؛ وبقدر ما كان الأول غضوبا وميّالا إلى النّزق حينما يجد معارضة أو صلابة تعاكسه، بقدر ما كان الثاني يعرف كيف يستمع إلى معارضه ليجيب بكل هدوء ويختار كلماته في كل الحالات. بعكس (أوزقان) الذي ترعرع في مدينة الجزائر ومن أصل عائلة ثريّة نسبيّا والذي لم يذق أبدا ويلات الجوع، فإن (بوهالي) قد عاش طفولته في الفقر والحرمان بالقنطرة في قرية بالجنوب القسنطيني رفقة عدد كبير من الأخوة والأخوات الذين لم يعش معهم إلا قليلا لأنهم توفوا كلهم صغارا بسبب سوء التغذية والأمراض والفقر. لا أبوه الفلاح البسيط صاحب بقّالة صغيرة في القرية ولا أمه بقيا على قيد الحياة حتى يعرفهما حق المعرفة ؛ عند وفاتهما، يتكفّل به عمّه الذي كان يملك قطعة أرض ثم يسجله – وهو في سن الثانية

عشر - بمدرسة القرية الفرنسية أين أخذه معلمه تحت رعايته. قبل أن يغادر القسم النهائي تحصّل على منحة للتسجيل في المدرسة الابتدائية العليا لمدينة قسنطينة. وبفضل الإصرار العنيد لمعلمه يتمكن من التغلّب على معارضة عمّه الذي كان يريد أن يبقى إلى جانبه ليساعده في دكانه. تابع دراسته في قسنطينة، حيث كان يسكن في غرفة شبيهة بالكوخ ويعمل بها على نور شمعة، لمدة سنتين قصيرتين.

ففي مدينة الجزائر أين تمكّن من إيجاد شغل كمساعد محاسب، ليصبح شيوعيّا، عضوا دائما "بالإغاثة الشعبية" ثم بالحزب الشيوعي الجزائري. كما عرف تحت حكومة (Vichy) معتقلات جناين بورزق (Djenien Bou Rezg)، وبعد محاولة فرار يدخل سجن وهران أين كاد يموت بمرض التيفوس. كان (بوهالي) يمتاز بخبرة سياسية طويلة وواسعة، وبثقافة ماركسية متمكنة بالإضافة إلى كونه رجلا ليّن الجانب. على الرغم من الفارق في السن بيننا - كان يكبرني بعشر سنوات - فقد تعمقت صداقتنا أثناء عملنا الجماعي وخلال السنوات التي تلت عودتنا إلى الجزائر.

قامت إدارة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي بوضع تحت تصرف الوفد مقرّا واسعا يقع بشارع Krijikova الذي يحظى بكونه لم يكن بعيدا عن الساحة المركزية للمدينة الـ Vaclavska Namesti وعن الفندق Paris الذي كنت مقيما فيه بعد وصولي إلى براغ.

وضع تحت تصرف (بوهالي) - الذي جاءت زوجته تبحث عنه - بالإضافة إلى مكتبه الخاص، غرفة ومطبخ بمقر الوفد حيث تم استخدام القاعة الواسعة كأمانة وفضاء للاجتماعات في نفس الوقت.

كان (بوهالي) ومن معه يقومون بمهمتهم الإعلامية على أتم وجه لدى الأحزاب والنقابات وحركات التضامن للبلدان الاشتراكية ؛ كانوا مواضبين

على نشر مذكرة بالفرنسية تحت عنوان أخبار جزائرية "algériennes Informations"، التي ومن عدد إلى آخر كانت تأتي بتقارير حول التطورات التي كان البلد يشهدها من كفاح ومعارك دبلوماسية ذات الصلة بالقضية الجزائرية في العالم. كما كانوا أيضا يعيدون نشر النصوص السياسية والنظرية التي كانت تصلهم من الجزائر، والتي بعد طبعها في كتيبات بورق رقيق حتى يسهل إخفاؤها وتوزيعها، يعاد إرسالها ثانية إلى الجزائر وإلى أماكن أخرى عبر طرق مختلفة من طرق العمل السريّ.

هذا الحضور للشيوعيين ضمن الكفاح سواء في الجزائر أو خارجها -حيث نكاد ألا نجد أحدا من المؤرخين يذكره- لم يكن ليرضى به على الإطلاق قادة جبهة التحرير الوطني الذين أعلموا بعد اندلاع الثورة مباشرة أنهم لن يتسامحوا بوجود أية سلطة أخرى غير سلطتهم. إذا كانوا وقد توصّلوا أخيرا بعد محادثات شرسة مع الحزب الشيوعي الجزائري إلى قناعة من حقيقة رفض هذا الأخير لإعلان حلّه، فإنهم لم يغيّروا من موقفهم المبدئي ولا التخفيف من عصبيتهم التي كانت تترجم في مختلف أماكن الكفاح المسلح، إلى عمليات إقصاء وحتى إلى إعدامات دون أية محاكمة في حق المقاتلين الشيوعيين.

فإن مصدر هذا النّبذ وهذا الإبعاد لم يكن موجودا قطعا في حذر ما أو بأكثر من ذلك في معارضة أساسية سواء صريحة أو ضمنية تكون الجماهير الشعبية وقد غذتها إزاء الشيوعية بصفة عامة وإزاء الشيوعيين الجزائريين بصفة خاصة.

بل بالعكس، وحتى ولو كان للأخطاء الخطيرة في سياسته الوطنية، إذ تم تجاوزها مع ذلك أخيرا، أنها أخّرت من تقدم الحزب، فإن التزامه وتدعيمه لكل كفاح ضد الاستعمار، تفاني وشجاعة مناضليه لم تكن محلّ شك، وفي السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الثورة كان هذا الحزب مدفوعا نحو

النجاح مثلما كان يدلّ على ذلك على حدّ سواء توسيع سلطته السياسية الثابت والعدد المتزايد للمنخرطين الجدد في معظمهم من أصل عربي-بربري. فهذه الخشية من رؤية تزايد تأثير الحزب الشيوعي الجزائري، والتي كانت ظاهرة بوضوح في ميثاق مؤتمر الصومام، تشرح بالأساس المواقف المعادية للشيوعية لجبهة التحرير الوطني حيث عدد من القادة بقوا على الرغم من تصريحات جدّ راديكالية أكثر تمسكا بالدفاع عن مصالح وطموحات طبقة جديدة من البرجوازية منه بتحقيق النصر "للثورة الديمقراطية والشعبية" التي كانوا يتخذونها مرجعا لهم.

فيما يتعلق بالخارج، فإن قادة جبهة التحرير الوطني لم يكونوا يريدون على أية حال إظهار هكذا بشكل مفتوح مواقف بإمكانها الإساءة إلى علاقاتهم مع هذه البلدان الاشتراكية التي كانت تمدّهم بالدعم السياسي والمادي الكبير، وعلى وجه الخصوص توفير السلاح لهم. ومهما كانت نظرتهم الحقيقية للأنظمة الاشتراكية نفسها، فإنه كان يبدو لهم من حسن السياسة وذلك لإثارة أكثر قلق الأمريكيين، رؤية القومية الجزائرية تتجذر "في الاتجاه الخاطئ" وإبراز التأكيد على مصداقية جبهة التحرير الوطني التي كانت تتمتع بها لدى الإتحاد السوفييتي. وكان هذا من شأنه دفع واشنطن (Washington)، يروج البعض، للزيادة في ضغوطها على فرنسا لتحكم لصالح الجزائريين في مطالبتهم بالاستقلال.

أما باتجاه الحزب الشيوعي الفرنسي، فإن موقف الجبهة لم يكن هو أيضا خال من الغموض، على الرغم من الدعم الذي لم يفتئ هذا الحزب يقدّمه لقضية الجزائر ؛ من جهة كان يتم قبول مساعدته - في الوقت الذي لا يبحث عنها - ومن جهة أخرى لا يترك أي فرصة تمر دون انتقاده ؛ ليس بالقدر نفسه، كما أصبح شائعا للقيام به لاحقا لدى العديد من المثقفين الفرنسيين، فما كان يتعلق بانتخاب النواب الشيوعيين منحهم لغي مولي (Guy Mollet)

الصلاحيات الخاصة التي كان يطالب بها وأنه عكس توقعاتهم يذهب هذا الأخير لاستخدامها لإذكاء نار الحرب، لكن الأمر كان يتعلق في كون قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي لم تكن ترى أنه من الصواب والفائدة تخطيط سياسته ونشاطه الفعلي على أساس سياسة جبهة التحرير الوطني والتهيؤ لخدمته عمليا، كما كان يقوم به بشكل فردي بعض المناضلين الملتزمين وذوي الشجاعة الذين كانوا لا يستطيعون في خضم الوضع السياسي الفرنسي آنذاك، سواء منخرطين أولا في شبكات مختلفة مثل شبكة فرانسيس جونسون (Francis Jeanson)، أن يساهموا في تفعيل انخراط جماهيري واسع. فقد كان من أولى مهام الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي طالب بعض نواب اليمين اعتباره خارجا عن القانون، إقناع الملايين من الفرنسيين - بما فيهم أفراد الجيش - للنضال ضد الحرب الاستعمارية التي كان المتطرفون (les ultras) يريدون مواصلتها "حتى النصر" ولمساعدتهم فهم ودعم، وذلك في مصلحة شعبهم أيضا، طموحات الشعب الجزائري الوطنية.

مضت سبع سنوات منذ اندلاع الثورة ورفاقي يتساءلون عن أوضاع ما بعد الحرب، كيف ستكون جزائر المستقبل وإلى أي درجة تكون حرية الجزائريين في التعبير والعمل السياسي ؛ حتى ذلك الحين وطالما أن الروابط كانت تتأكد ما بين مناضلين بسطاء ووطنيين وشيوعيين في الكفاح اليومي الجاري في المدن والقرى، في السجون والمعتقلات، فإن التنظيم الرسمي لجبهة التحرير الوطني كان يتظاهر بتجاهله للحزب الشيوعي الجزائري، بينما كان للأعمال الاستعراضية لبعض من أعضائه - مثل ذاك الذي قام به (هنري مايو) - واستقبلها الجزائريون بترحاب وحماس، أنها تتصدّر عناوين الصحف، أما جريدة "المجاهد" (El-Moudjahid) لسان حال جبهة التحرير الوطني، فلم تقم إلا بإشارة موجزة حول الموضوع، مثلما كان الحال بالنسبة للقادة

السياسيين المقيمين بتونس في تصريحاتهم، كما كان الشأن بالنسبة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) التي كانت تقابل رسائل قادة الحزب الشيوعي الجزائري بالصمت العنيد ذاته.

بعد أيام من وصولي إلى مدينة براغ بواسطة سفير تونس بتشيكوسلوفاكيا، قمت ببعث رسالة إلى (بن يوسف بن خدّة) الذي أصبح رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خلفا لـ (فرحات عباس) ؛ كنت أعرفه شخصيا وقلت له كوني هاربا من السجن وإذن حرّا في تصرفاتي وتحركاتي، فإنني مستعد للتنقل إلى تونس في أقرب وقت للالتحاق بالكفاح في أي منصب يراد مني تولّيه، فلم أتلق أيّ ردّ كتابيّ، وبعد أسابيع من بعد يصل إلى مدينة براغ (أرزقي بوزيدة)، محامٍ من مدينة الجزائر التقيته في الماضي حيث كان يشغل منصبا هامًا في الحكومة المؤقتة، ليشعرني أنه كان يريد رؤيتي. بلطف وأدب يخبرني وبدون ذكر الأسماء على أنه على علم برسالتي وبما اقترحته في مسألة التنقل إلى تونس ؛ يرى قادة جبهة التحرير الوطني، يقول لي، أن "تواجدي بأوروبا يكون أجدى نفعا" أين يمكنني أحسن من أي مكان آخر وبالتسهيلات المتوفرة لديّ في وسائل الإعلام والملتقيات الدولية، أن أساهم في الدفاع عن القضية الجزائرية. في الواقع وجودي في تونس كان غير مرغوب فيه – وجود شيوعيّ معروف – والإجابة التي قدمت لي كانت مطابقة لموقف القادة الوطنيين حتى عند بداية الثورة. غير أنه في كون الأمر كان يتعلق بالمدير السابق لجريدة Alger républicain، وأن اسمي كان مشهورا إعلاميا – وحسب البعض بلا مناسبة تذكر – خلال السنوات الماضية، فكان يجب على الأقل التحلّي ببعض الدبلوماسية لإبلاغي هذا الرفض.

كنت في براغ ضيف جمعية الصحافيين التشيكوسلوفاكيين والمنظمة الدولية للصحافيين (OIJ) التي اختارتني سنة 1959 كفائز بالجائزة التي

تقدم كل سنة لواحد أو اثنين من رجال الصحافة بغرض تشريفهم. كنت لا زلت في سجن الجزائر في تلك الفترة وكانت (جيلبرت) هي التي استلمت في غيابي بباريس الشهادة التي تمّ منحها لي على أيدي جون موريس هريمان (Jean-Maurice Hermann) رئيس الـ (OIJ). كانت هذه المناسبة فرصة بالنسبة للصحافيين والمثقفين والمناضلين من مختلف المنظمات الفرنسية لإبراز معارضتهم المشتركة ضد مواصلة الحرب. كما دعيت (جيلبرت) أيضا لاستلام باسمي الخاص جائزة "Omegua" التي تمنح كل سنة من قبل حركات المقاومة الإيطالية. لم يكن النزاع الجزائري في تشيكوسلوفاكيا، كمثلها في بلدان أخرى في الشرق، يشغل الناس يوميا مثلما كان الشأن في فرنسا، لكن لم يكن هذا ليمنع من أن تطوراته كانت محل اهتمام كبير ؛ وكان الرأي العام في معظمه متعاطفا مع القضية الجزائرية التي كانت تجد مساندة كل البلدان الاشتراكية،حيث كان ينظر إليها كجزء من المعركة الكبرى من أجل تحرير الشعوب التي كانت لا زالت تحت نير وعبودية الاستعمار وضد التهديد الذي كان يشعر به الجميع باندلاع حرب عالمية جديدة مؤدية حتما إلى الدمّار النووي الشامل.

لم يكن اسمي مجهولا في تشيكوسلوفاكيا ولا في البلدان الأخرى في المعسكر الاشتراكي، لأن كتابي la Question، بقليل بعد طباعته باللغات الإنجليزية والإيطالية والهولندية واليابانية، تم ترجمته أيضا إلى التشيكية والألمانية والمجرية والرومانية والبولندية والروسية، وإلى مختلف اللغات في الإتحاد السوفييتي. كانت الإذاعات والتلفزيونات والجرائد وقد قامت بتقاريرها حول قضية أودان (Audin) ومحاكمة مدينة الجزائر وحول فراري من السجن في رانس. بمجرد وصولي وجدت نفسي محاصرا من قبل جيش من المراسلين الصحفيين الحّوا عليّ منحهم مقالا أو إجراء حوار أو المساهمة في حصة إذاعية أو تلفزيونية.

في مدينة براغ أو في براتيسلافا، موسكو، بودابست، برلين، صوفيا أو في غيرها من المدن، لم أكن بوسعي الوصول إلى إنهاء الردّ على أسئلة الصحافيين المحليين ومن الجهات المختلفة، حيث أغلبهم متفتح وطيب لكن اسلوب عملهم فيما لاحظته في البعض منهم على الأقل، يمكن وصفهم في الغرب بالمصورين تجار الصور واللقطات النادرة. حينما كنت في لينين غراد (Leningrad)، كاد أحد المخبرين الصحفيين كسر باب غرفتي في حين كنت أنا لا زلت لم أغيّر لباسي الذي أنام فيه، ليتبعني إلى غاية الحمام مدعيّا "وربحا للوقت" محاورتي في الوقت نفسه وأنا أحلق ذقني.

كنت أشارك أيضا في محاضرات وملتقيات مع العمال في المصانع، والمناجم، والمزارع الجماعية. كنت أكشف لهم عن أشياء جديدة بالنسبة لهم، كما كنت أنا نفسي أتعلم الكثير عن حياتهم وآمالهم وقناعتهم. وأسالهم أيضا عن فترة "تقديس الشخصية" لستالين الذي مات في شهر مارس 1953 ؛ لا في براغ ولا في موسكو وجدت محدثي يحبّون الإطالة في الموضوع كما وأنه بعد استيعاب دروس الماضي كان يجب يومها طي الصفحة. "تقديس" لم يتخلص منه الشيوعيّون الجزائريون (وأنا واحد منهم). وحتى وإن كانت جريدة "الجزائر الجمهورية" لم تتناوله أبدا بالمدح المغالي والصاخب كما كنا نقرؤه في جهات أخرى غداة اندلاع الثورة، فإن اسم "ستالين" كان باقيا مع ذلك ممجدا ؛ كانت هذه الشخصية تسجد - حتى بالنسبة للكثير من غير الشيوعيين - في نفس الوقت الانتصار على الفاشية والأمل في مجتمع جديد من شأنه تحرير الملايين من الناس من قيودهم وبوجه التحديد أولئك الذين لا يزالون يعيشون تحت وطأة الاستعمار.

تعرفت خلال هذه الأسفار على مناضلين عاشوا تطورات أحيانا مأساوية لفترة "التقديس" هذه، رجال كانت حياتهم كلها تشهد على قناعات ومبادئ راسخة وعلى نزاهة كبيرة وغالبا على بطوليّة كان لهم أن خدموا بها قضية

العمال المشتركة والمثل العليا للاشتراكية، أعرف من بينهم من عاشوا لمدة سنوات في المنفى أو في سجون نظام كانوا وقد كافحوا من أجله وساهموا في توطيده وكانوا يدافعون عنه دائما بنفس الحماس مقتنعين من أنه على الرغم من المشاكل الداخلية والغارات الخارجية، يمكن لهذا النظام نفسه أن يجد من القوة والقدرة على تصحيح نهجه المعتاد.

كنت بالطبع مولعا ومتحمسا بكل ما أسمعه وأكتشفه عن الحياة السوفييتية ؛ كان يعرض عليّ حضور حفلات موسيقية والذهاب إلى الأوبرا حيث أعجب بالجمهور الحاضر الذي كنت التقيته في الأروقة إلى جانب الفنانين المتألقين الذين كنت أتابعهم على خشبة المسرح. لا تحتاج إلى ملاحظات دقيقة لمعرفة كم هم مختلفون عن أولئك في القاعات الباريسية، عمال وموظفون من مدينة موسكو ممن لا يرون في سهرة في المسرح خرجة استثنائية، بنات من الفلاحات أتت من المزارع التعاونية (les Kolkhozes) وقد أخذن كل وقتهن في التزيّن قبل الدخول إلى القاعة.

كانت لي خرجة إلى أوزبكستان (Ouzbékistan)، ذهبت هناك لأرى بعينايّ ماذا فعلت الاشتراكية بهذا البلد، كبرى مواقع الحضارة العربية الإسلامية ومستعمرة قيصرية سابقة حيث الثقافة والتاريخ جعلاه قريبا إلى الجزائر. لم أخيّب في الحقيقة، فبالإضافة إلى الآثار العظيمة لسمرقند، أبهرتني أيضا الإنجازات الكبرى المحققة فيما يقرب الأربعين سنة في مجالات التربية والصحة والتهيئة العمرانية، والأكثر من ذلك ربما، علاقات الصداقة الجديدة والاحترام المتبادل مما تم توطيده ما بين المستعمِرين والمستعمَرين السابقين، وبين كل سكان هذا البلد مهما كانت أصولهم.

كنت في الحقيقة مصدوما وأنا أرى هذه الشوارع لبلد شرقيّ خالية من الأطفال بلباسهم الخرقة والرّثة يمدّون أيديهم للغير، هؤلاء السكان من الحضر والفلاحين يرتدون لباسا لائقا، هؤلاء المارّات السافرات من اللواتي نلتقي بهن أيضا في المسارح حيث تنظّم المشاهد المسرحية باللغة الوطنية.

كنت في كل لحظة أعقد مقارنات بين ما كنت أشاهده وما تركته في الجزائر المستعمرة. كذلك الكثير من الحقائق التي كانت تشهد عن التطور المذهل الذي تم إنجازه منذ ثورة أكتوبر التي يريد البعض محوها اليوم من الأذهان للحفاظ فقط – ولتسويدها أكثر – إلاّ على الجانب المظلم لماض في نفس الوقت مجيد ومأسوي.

الحراك الذي وجدته في مدينة براغ والذي كنت أعلم أنه لا يمكنني التواري عنه – بعد عديد من السنوات حيث كنت خارج النطاق – كان يغمرني بالنشوة ويمنعني من أخذ الوقت اللازم للتفكير بخصوص العاجل والآجل ؛ ففي هذه الحالة النفسية تم إخباري حيث كدّت لا أصدّق أنه يمكن لـ (جيلبرت) ولولدينا أن يلحقا بي في أقرب الآجال. سيكون وصولهم عن طريق القطار عبر ألمانيا مرفوقين بأحد المناضلين في الحزب الشيوعي الفرنسي المكلّف بالتنظيم العملي للسفر ولأمنهم. كنا وقتها عشية الاحتفال بعيد رأس السنة 1961 – السابع منذ الأخير الذي احتفلنا به سويّا بمدينة الجزائر. كان وقد مرّ ثلاثة أشهر منذ فراري من السجن عند استقبالي لهم على رصيف المحطة المركزية لمدينة براغ. كم من مرّة ولساعات مريعة في منزل التعذيب بالأبيار أو في برباروس في الوقت الذي كان المتطرفون يهددون باقتحام السجن، انتابتني الفكرة المثيرة على أنه ليس من الممكن أبدا أن نعود ونلتقي ؟ في خضم هذه الزوبعة حيث مئات الآلاف من الأرواح الأخرى كانت مرهونة، كم من مرة أيضا خطر على بال (جيلبرت) نفس الفكرة ؟

لحظات رائعة غير عادية بالنسبة لنا الاثنين ولودينا، لم يكن ابني (جون) يبلغ الثلاثة سنوات لمّا رأيته في المرة الأخيرة، فهو الآن في التاسعة من عمره ؛ أما (أندريه) الذي كنت ألمحه في سجن "الصحة" ثم في رانس، فكان يوشك أن يكمل سن الخامسة عشر إذ اندهشت وأنا أكتشفه شابا كبيرا ومحادثا ذا عقل ناضج. لكن هل كان يمكننا القول أننا تلاقينا حقيقة ؟

خصّتنا جمعية الصحافيين التشيكوسلوفاكيين باستقبال حارّ ثم تتكفل بإقامتنا بفندق أكثر راحة من ذاك الذي كنت أقيم فيه إلى ساعتها، الـ Place Hotel لم يكن ديكوره وفرشه وأثاثه وثريّاه المصنوعة من البلّور لبداية القرن وأجواؤه القديمة والأسلوب المتصنع للخدم، ليمنحنا الشعور - حتى ولو كنا نعلم أن إقامتنا هذه ليست إلا مؤقتة - أننا نعيش في عائلة واحدة. كانت (جيلبرت) تخشى أيضا أن ترى ولديها يألفان عادة قبيحة بأن يخدما هكذا من قبل عمال الفندق في أبسط الحاجيات لإرضاء "الرفقاء الغرباء ضيوف الجمهورية". اللحظات الحساسة كانت تلك التي كنا نذهب فيها لتناول الطعام في تلك القاعة المتألقة بالمرايا والفضيّات المزيّنة وتحت أعين الزبائن ممن كانوا يبتسمون لنا كما ولو كانوا يقولون لنا أنهم يعرفون من نحن. مرتان في اليوم ليصبح هذا بمثابة احتفالات لا تنتهي حتى أصبح (جون) يظهر وأنه يجد في ذلك متعته ويتمنى إطالتها على الرغم من ملاحظات (جيلبرت). كان المطبخ ونوع الأطعمة المقدمة رائعين ولائحة المطعم تمنحك الكثير من الاختيارات لأنواع الطعام. يبدأ الاحتجاج عندما يرى (جون) في كل مرة أنه ضروري، قبل أن يعيّن اختياره، قراءة لائحة الطعام من أولها إلى أخرها ليجد "بيفتيك بالبطاطا المقلية بالضرورة".

غير أنه وقد حدث سريعا إذ الأصدقاء الصحافيون الذين قدّموا لنا الضيافة وشعروا برغبتنا في حياة "عادية" يوفرون لنا شقة مؤثثة بضواحي براغ وفي شارع الـ Novy Hlioube Tyn، على بعد خمس وعشرين دقيقة عن وسط المدينة إذا ما أخذت الترام العتيق الذي كان الـ "brav-soldat chveik" يركبه من قبل في عهد الإمبراطورية النمساوية-المجرية، يقول أحد الأصدقاء التشيك مازحا. سيتم إذن تسجيل وليدنا بالمدرسة مع بعض العشرات من التلاميذ، بنين وبنات المقيمين بالخارج، حيث يعمل بها معلمون في معظمهم سوفييت.

وقبل حتى أن نتمكن من التعود على هذا الوضع الجديد، أخبر بأنه تم دعوتي للمشاركة و(جيلبرت) في المؤتمر الذي كانت تعقده المنظمة الدولية للصحافيين بـ la Havane في بداية السنة الجديدة 1962 التي ستكون مثلما كنا لا نفتئ نردده، سنة العودة إلى بلد مستقل لم نصل بعد إلى كيف يمكننا تخيّل مجرياته. ستكون (كوبا) بالنسبة لنا كمؤشر كاشف لجزائر المستقبل. بهذا الحلم نزلنا إلى la Havane، مفتورين بسبب هذا السفر الذي دام ثلاث وعشرين ساعة على متن "Britannia de la Cubana"، الخط الوحيد الذي كان يربط مرة واحدة في الأسبوع مدينة براغ وأوروبا الشرقية بكوبا، "أول بلد حرّ في قارة أمريكا"، بعد توقف بـ Shannon بايرلندا وآخر بـ Ganderبكندا مثلما كان يتم الإعلان عنه بشكل واضح في المطار.

رجعنا إلى براغ وقد مرّ شهر من فصل الشتاء، كان البرد والثلج والجليد والسماء المغيّمة، بعد الصيف الحار، أنها زادتنا شعورا أكثر وكأننا نعود من كوكب آخر لا يمكن لصوره أن تمحي من أذهاننا، ليس الأمر يتعلق فحسب بجمال الجزيرة، أو بأشجار الجوز الباسقة، أو بشواطئه الخلابة أو بمحيطه المخضوضر بقصب السكر، أو بأزقة وساحات مدينة سانتياغو ومدن أخرى مشرقة بأشعة الشمس، ومن ذلك إلى تزاوج أسبانيا مع إفريقيا، وأمريكا اللاتينية مع الغرب البعيد "Far West"، ولكن أيضا وبخاصة بشعب نشوان بالحرية لا يتوقف على الإطلاق يفتخر وينشد عاليا ثورته المظفرة. قال لي الكاتب الهايتي روني ديبستر (René Depestre) الذي خرج من بلاده فارّاً من النظام الدوفاليري (régime duvaliériste) ليقيم بـ la Havane بدعوة من صديقه الشاعر نيكولاس غيلان (Nicolas Guillèn)، أن الدم الإفريقي والهندي، وطبيعة ومناخ جزر الكاريبي يمنحون الاشتراكية في كوبا مذاقا جديدا، ودفعا لتفاؤل فياض جموح، ونوعا من التوابل ذا نكهة ورائحة لا يمكن إيجادهما في أيّ مكان آخر.

التقيت بفيدال كاسترو (Fidel Castro) وبشقيقه راوول (Raul) حينها وزيرا للدفاع، وبنونيز جيمانيز (Nounez Jimenez) مسؤول الإصلاح الزراعي، وبآخرين من الذين كافحوا وقاتلوا جميعا لقلب نظام باتيستا (Batista) الديكتاتوري الفاسد ومعه حماته الأمريكيين من أجل الحفاظ على بلد يبقى لشعبه ؛ لن يكون الحديث عن "الاشتراكية" إلاّ في وقت لاحق. هؤلاء الرجال الذين استعادوا وضعهم كمسؤولين عن مؤسسات جماعية زراعية وصناعية، كمعلمين وأساتذة، كاقتصاديين وإداريين .. كلّهم شمّروا على ساعد الجدّ والعمل لتجسيد آمالهم وطموحاتهم على أرض الواقع، مقتنعين أنه مهما كانت مصاعب المستقبل فإن كوبا، "البعيدة جداً عن الرّب والقريبة جدّاً من أمريكا" ستكون قادرة على مواصلة طريقها نحو الأمام.

كان يمكن للجزائر - بنفس السند الذي كانت تتلقاه الجزيرة من قبل الإتحاد السوفييتي ومن بلدان اشتراكية أخرى - أن تكون مستقبلا كوبا إفريقيا، فلم أكن لوحدي ممن فكر في ذلك. "بلدان أخويّان".. بعد استعادة استقلالهما وخلال فترتهما "الاشتراكية"، يقول ممثلو جبهة التحرير الوطني الكبار ؛ وبدلالة بليغة المعنى تكون أول زيارة رسمية إلى الخارج يقوم بها (أحمد بن بلّة) كرئيس للجمهورية الجزائرية باتجاه كوبا.

كانت الجزائر على أية حال، في حاجة إلى أشياء كثيرة تتعلمها من التجربة الكوبية، هذه الفكرة التي كان الكثير يتقاسمها معي، كانت تحثني على الإكثار من اللقاءات وجمع المراجع والمذكرات لإعداد تحقيق حول الجزيرة وثورتها ؛ كان لهذا المشروع المؤسس على يقيني التام في أن الاستقلال كان قريبا وفي عودتنا السريعة إلى مدينة الجزائر، أنه أثار لدى أصدقائي بعض البسمات الاستعجابية. ومع ذلك يظهر التحقيق في جريدة "الجزائر الجمهورية"، ثم لم يكن إلاّ بعد عشرة أشهر فقط (في أكتوبر 1962) ليتحوّل إلى كتاب تحت عنوان "Victorieuse Cuba" (كوبا المنتصرة) صدر بمقدمة (بوعلام خلفة) الذي تم تعيينه مديرا مشاركا بالجريدة.

بعد عودتي إلى براغ، وفي انتظار بفارغ الصبر لنتائج المحادثات التي كانت جارية في أيفيان (Evian) بين قادة جبهة التحرير الوطني والحكومة الفرنسية، لم أكن أقدّر مدى التعقيدات والمخاطر التي كان أصدقائي وأنا لنواجهها كذلك للتمكين من تقديم مساهمتنا إزاء الحدث الصعب المتمثل في ميلاد الجزائر الجديدة. الكل في الدوائر الرسمية سواء في باريس أو في الجزائر من بين المؤيدين للوضع الراهن الكولونيالي، كانوا لا يزالون يرفضون التنازل عن فكرة إحلال المفاوضات والسلم محلّ القمع والعنف. في أكتوبر 1961، وتحت قيادة رئيس بلدية باريس (Papon) وبإيعاز وتشجيع منه، يتهجم رجال شرطة باريس بحقد و وحشية عنصريين لم يعرف لهما مثيلا على الجزائريين المتظاهرين في الشوارع سلمياً للاحتجاج ضد حظر التجول الذي فرض عليهم، ليقابلوا بالضرب العنيف والتقتيل.. وحتى رميهم في نهر السين (Seine) ليموتوا غرقا، حيث وصل عدد الضحايا إلى ما يقرب المئتين. أسابيع قليلة قبل فتح المفاوضات لإحلال السلم، رجال (بابون) أنفسهم يقومون بعنف لا حدود له في فيفري 1962 بمترو (Charonne) بقمع مظاهرة باريسية نظمت للتنديد بجرائم الـ OAS، من قبل نقابات الكونفيديرالية العامة للعمل (CGT)، الكونفيديرالية الفرنسية للعمال المسحيين (CFTC)، الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا (UNEF)، الحزب الاشتراكي الموحد (PSU)، الحركة الجمهورية الشعبية (MRP)،الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF)، الشبيبة الشيوعية وحركة السلم.

أصبحت الأمور أكثر وضوحا بعد التوقيع في 19 مارس 1962 على اتفاقيات أيفيان وعلى وقف إطلاق النار ؛ على الرغم من غموضه، فإن الاتفاق المبرم جاء، وهو يعترف للجزائريين حقهم في الاستقلال، بنتائج إيجابية وانتصارا لأكثر من سبع سنين من الكفاح والتضحيات والآلام، وفاتحا صفحة جديدة في تاريخ الجزائر وفرنسا وفي العلاقات ما بين الشعبين. يوم مشرق حقا لكنه لم يكن يخفي المخاوف نحو المستقبل ؛ وقد تأكدت هذه

الأخيرة سريعا فيما كان يتعلق بمشاريع إعادة صدور الجريدة، وبالنسبة لي بإمكانيات العودة السريعة إلى الجزائر.

كان يلزمني أولا الحصول على ضمان أن العفو - أحد نقاط اتفاقيات السلم الذي سمح بإطلاق سراح كل المساجين الجزائريين - يشملني أنا أيضا، في حين أني كنت من الناحية القضائية متابعا دائما على أني فارّ من السجن يجب القبض عليه. فلم تجد شيئا تدخلات وتحركات ليو ماتراسو الذي كنت باتصال معه، لتسوية هذا الأمر في أقرب الآجال، غير أن السلطات الفرنسية صمّت أذانها هكذا مكرا لتعطيل التسوية الشرعية لحالتي إلى أبعد أمد ممكن وبالتالي الحيلولة دون عودتي المرتقبة إلى الجزائر.

أيام بعد التوقيع على اتفاقيات أيفيان، أشرت في ندوة صحفية تمّ عقدها في براغ جمعت العشرات من الصحفيين ومن بينهم العديد من المراسلين الأجانب، مجيبا على سؤال حول مشاريعي العاجلة أني كنت أحضّر نفسي للعودة إلى الجزائر، وناشدت كل المعاونين القدامى في الجريدة - من الذين خرجوا عن العمل السرّي، ومن السجون أو لا زالوا في المنفى - ليلتحق من بإمكانه ذلك بالجزائر في أقرب وقت لكي يساهموا في عملية إعادة إصدار جريدتنا اليومية.

أول ردّ فعل أتى من المسؤولين في جبهة التحرير الوطني المتواجدين بتونس، لكن ليس بغرض تقديم لنا يد المساعدة، إذ يوفدون إلى براغ صحفيا عرفته في مدينة الجزائر في الفترة التي تم توظيفه فيها كمحرّر بجريدة Egalité لسان حال حزب البيان لـ (فرحات عباس) ؛ فقد كلّف بإخباري عمّا كان يراه قادة الحكومة المؤقتة حول المشروع الذي عرضته، الذين كانوا يحضرون باضطراب لما بعد أيفيان ؛ على أن هؤلاء القادة خمّنوا أن الصحفي كان مساندا من قبل الحزب الشيوعي الجزائري (PCA) كما كانوا يعلمون أن إعادة ظهور جريدة Alger républicain ستكون مؤيدة من قبل مئات الآلاف من الجزائريين الذين لم ينسوا الدور الذي قامت به في الكفاح من أجل الحرية التي

تم استردادها أخيرا ؛ إذن فلم يقبلوا بأي ثمن. بدا لي مبعوث تونس غير مرتاح نوعا ما وهو يوفي ما عليه بقيامه بالمهمة التي وكّل بها وأيضا حينما قلت له أنه وعلى الرغم من هذا الخلاف المؤسف، أني جدّ متمسك بنية مواصلة هدف يتماشى وأمنيات معظم الجزائريين ومصالحهم. ولا أحد يبدو يفهم، قلت له، أن الجريدة الوحيدة التي عبّرت ودافعت عن مطمحهم إلى الاستقلال، والتي من أجل هذا منعت عن الصدور، وحيث معاونوها تلقوا أشد القمع، تبقى هكذا في بدء الاستقلال ملزمة الصمت في حين أن تلك الأوراق التي على طول السنوات كانت لا تتوقف في النداء إلى المواصلة في القمع الاستعماري وإلى رفض أي حوار مع الجزائريين يمكنها دون موانع مواصلة طبعها ونشرها.

كان يسمعني وهو يبتسم، كان يعيش في تونس منذ سنوات عديدة وكونه أحد المقربين إلى الجهاز القيادي لجبهة التحرير الوطني كان يعرف طبائع وأسرار أعضائه، و كل الدسائس، والنـزاعات، والطموحات المتناقضة للقادة وعشائرهم، الذين كانوا يتجابهون بشكل لا يكاد يظهر حيث المجارات والتنافس العنيف كانت تنتهي أحيانا إلى مأساة. ممارسات كان الملايين من الجزائريين ممن شهدوا ثورة التحرير يجهلونها تماما. لم نكن نعرف ونحن في سجن برباروس أو في سجن رانس عن قادة جبهة التحرير الوطني المقيمين بتونس أو بمكان آخر إلاّ تصريحاتهم التي كان يصلنا صداها بالمصادفة وبشكل ناقص ؛ ومع ذلك كانت كثيرة لتثمين الانفتاح السياسي ولإثبات الثقة التي منحوا إيّاها بالإجماع. ولا أي شخص من الناس كان يتصوّر أن أحدا من هؤلاء الرجال ومهما كانت مواقفه السياسية السابقة لاندلاع الثورة، يمكن أن يكون له طموح آخر غير خدمة قضية الاستقلال بكل قواه. سمعت العديد من أصدقائي الجدد من الذين وقفوا بقوة ضد الاحتلال لكنهم بقوا غير صالحين في مجالات أخرى من السياسة، يتكلمون عن وجوه بارزة في الحركة في عصمتهم بنفس الإجلال والثقة اللذين يمنحان للأنبياء.

كنت أتصور أن الأمور كانت اقل ليونة ممّا كانوا يظنون، وأنه كان بالضرورة داخل المجموعة القيادية توجهات سياسية وأيديولوجية مختلفة وصراعات مصالح التي بشكل أو بآخر ستتكشف يوما ما. إلا أن الذي كنت أستكره كلّية كان الوفاق العميق الموجود بين الكلّ لمنع أيّة وجهة نظر أخرى يتم التعبير عنها غير تلك الصادرة عن جبهة التحرير الوطني.

جهالتي هذه لهذه الحقيقة وسذاجتي هما اللتان جعلتا مبعوث الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) يبتسم وهو يلقي إليّ السمع ؛ ولمّا أجبته أنه من غير الممكن - سواء بالنسبة لي أو بالنسبة لأصدقائي - التخلّي عن فكرة إعادة إصدار الجريدة ، يشير عليّ بملاحظاته أنه من الواجب أخذ معارضة الأخوة في تونس لهذا المشروع بجديّة أكبر. وحتى يجعلني أستوعب جيّدا ماذا كان يعني ذلك، يكمل ملاحظته بتحذير كلّف من دون شك بتبليغي إيّاه أيضا في حالة ما إذا أبديت تحفظا في قبول الرسالة الموجّهة : "ألا تعلم؛ إن الاغتيالات السياسية ستبقى لمدة طويلة القاعدة المعمول بها لتسوية بعض المشاكل في إفريقيا ..".

قررت بالاتفاق مع (العربي بوهالي) عدم انتظار التسوية الرسمية - وغير المحتملة قبل مدة طويلة - لحالتي الشخصية من قبل السلطات الفرنسية والعودة إلى باريس للالتحاق بعدها إلى مدينة الجزائر دون الانشغال بمشكلة الحصول على رخصة شرعية. كان منتظرا أن ولدينا، (أنديه) و(جون) سيلتحقان مؤقتا بالمدرسة الدولية لمدينة Ivanovo التي تبعد بثلاثمئة كيلومتر عن مدينة موسكو. أنشئت هذه المؤسسة من قبل البلشفيين القدامى لاستقبال أبناء المناضلين ممن أجبرتهم الظروف السياسية - ثورات، حروب، العمل في السرية - العيش بعيدين عن عائلاتهم.

نلتقي (جيلبرت) وأنا بمدينة باريس ثم نتجه نحو مدينة مارسيليا حيث ألتحق من هناك إلى مدينة الجزائر أخيرا، أين ستجتمع كل العائلة حين

تتضح لنا الأمور فيها جيدا. كانت جيلبرت في طريق العودة وفي كل مرحلة من مراحلها المختلفة وفي لحظة افتراقنا وتحديدنا مكان ملاقاتنا القادمة، تقول لي من باب تمنياتها لي رحلة وحظ سعيدين بشكل ساخر ومطمئن : "فلا يقلق السيّد الفاضلص! فإن المشرفة على الأعمال تعرف الطريق".

كان (ليو ماتراسو) والأصدقاء أنفسهم في الحزب الشيوعي الفرنسي ينصحونني في باريس بالمثول أمام إدارة سجن رانس للاستسلام للعدالة. كان الكل يرى أنه لا يمكن في الأجواء الجديدة التي خلقتها اتفاقيات أيفيان أن يتجرّأ لحبسي وأن الحكومة ستسارع بإعطاء الصلاحيات الضرورية لأجد بلا تأخير حريتي وأسترد وجودي الشرعي في نفس الوقت.

وصلت إلى رانس بداية ظهر أحد أيام شهر ماي 1962 مرفوقا بـ(ألبير أوزولياس)، أحد منظمي عملية فراري من السجن. بينما ذهب رفيقي يجلس في مقهى قريب بشارع Jacques-Cartier في انتظار لما سيجري، أقرع أنا على الباب الرئيس، وبعد لحظات يفتح منظار الباب ليظهر وجه محمّر البشرة لصاحبه الحارس الذي كان لي دائما معه علاقات طيبة إلى درجة أنه جلب لي يوما قنينة لخمر التفاح من إنتاجه هو الذي كان لا يملّ يذكر محاسنه وأصرّ على أن يذيقني منه. ولمّا رآني هناك كاد يختنق اندهاشا. "آه! ماذا أرى، هذا أنت! ..".

مشهد جعله يتأتئ من شدة الانفعال وأعتقد من شدة السخط أيضا. يعديد غلق منظار الباب ويتركني بالخارج، لأعيد قرع الباب مرة أخرى مستطيلا الأمر، فيظهر ثانية قلقا كما تركته أولا. "ماذا تريد ؟" فاجأني بموقفه هذا لأقول له ما كان يجول في رأس لأنه ليس هو الذي أتجه إليه لأشرح لماذا أنا عدت إلى السجن. "الحرب انتهت ! حينما ذهبت من هنا لم يسعفني أخذ حاجياتي معي، فقد عدت لأخذها. ألا يمكنك إبلاغ المراقب العام أني أريد مقابلته ؟ " يتركني أنتظر أمام الباب ليعود لحظة من بعد، هذه

المرة هادئا ولطيفا تقريبا. ثم يصاحبني إلى مكتبه ؛ لم أجد ذاك الذي كان يمارس هذه الوظيفة عندما كنت في السجن وإنما نائبه الأصغر منه سنا تم ترقيته ليعوّضه.

كان واقفا إلى وراء طاولته، بابتسامة عريضة وقبل حتى أن أتلفظ بكلمة يرميني بألفاظ أراد منها التحية وهو يشير بيده إليّ كما وأنه يهنئ رياضيا منتصرا : " فرارك ! يا له من فرار.. حقا ! فأنت بطل !..".

ابتسمت خلسة لمجاملته إيّاي وأنا أتصور أنه من النادر أن يتلقى سجين فارّ تهان من لدن حضرة رئيس الحراس الذين استطاع هذا الأخير أن يغافلهم. ثم يعود سريعا إلى جادّة الأمور :

"أنت تعلم أن الأمر بالقبض عليك لا يزال ساري المفعول، فيلزمني إخطار القاضي أنك هنا ..".

شرحت له السبب الحقيقي لعودتي وطلبت منه أن يقوم بما هو ضروري لمساعدتي على تسوية وضعيتي، "صديق ينتظرني بالخارج وننوي ركب القطار إلى باريس هذا المساء، فيجب إذن الإسراع في الإجراء". ارتأيت إمكانية لهذا التوضيح أن يكون له وزن للإسراع بقرار المسؤولين السياسيين من الذين يمكنهم أن يكونوا حريصين على تجنيب الصحافة والإذاعات والتلفزيونات مساهمتها في خلق مشكل جديد بإعلامها الناس أنه تم مرة أخرى إيقافي ووضعي في السجن. يرجو مني إذن الانتظار في القاعة المجاورة في الوقت الذي كان يتصل مع مسؤوليه ويكلّف المراقب الذي فتح لي الباب بالذهاب لإحضار حاجياتي التي كنت أملكها في السجن : بعض الألبسة، أدوات خاصة بالحمام، الكثير من الرسائل، كراسات وبعض الكتب.

القضية التي كانت السلطات ترفض النظر فيها منذ عدّة أسابيع، ها هي الآن تحلّ في رمشة عين، إذ تصل برقية من وزارة العدل إلى قاضي (رانس)

الذي يمضي عند اللحظة نفسها " قرار بانتفاء وجه الدعوى ضدي فيما يتعلق بعملية الفرار من السجن". كانت هذه عبارات قرار القضاء التي ألغت بها وترفع عني في نفس الوقت الأمر بالقبض الذي صدر في حقي.

من الآن يمكنني التواجد وفق القانون في أيّ مكان، وثائق غير مزورة في الجيب، أركب القطار بسرور متجها نحو باريس برفقة (أوزولياس).

لم ألتحق مع ذلك بمدينة الجزائر، فقد كانت اعتداءات الـ (OAS)[1] تتصاعد والأيام تمرّ مقتربة بتاريخ أول جويلية الذي حدّد للقيام تحت مراقبة فرنسا بالاستفتاء حول تقرير المصير الذي حسب اتفاقيات أيفيان يسمح للجزائريين للإدلاء برأيهم حول مستقبل بلدهم، فجاء جوابهم صارخا جليّا : 99,72 ٪ من المنتخبين والمنتخبات يختارون الاستقلال. لكن جريدة "الجزائر الجمهورية" لم تزل لم تتمكن بعد لأن تظهر من جديد إذ كانت غائبة في هذا اليوم غير العادي. قبل ذلك، كان كريستيان فوشي (Christian Foucher) المندوب السامي لفرنسا، وقد أعلن أنه وكما هو منصوص عليه في اتفاقيات أيفيان " وفي إطار إعادة الحريات العامة وحتى يسمح تحضير الاستفتاء حول تقرير المصير، فقد تم رفع الرقابة التي كانت مسلطة على اليوميات والدوريّات المطبوعة بالجزائر" فكان لنا إذن أن نصدّق، على الأقل من الجانب الفرنسي، أنه لم يعد أي مانع يقف ضدنا للحيلولة دون إعادة إصدار الجريدة ؛ فكان التفاؤل مبالغا فيه.

بعد المعارضة التي أشعرتني بها الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) رسميا حينما كنت لا زلت بمدينة براغ، تقوم السلطات الفرنسية، وذلك حتى لا تبقى مدينة لأحد، لتعلن عن طريق قرار ممضي عن حاكم

(١) الـ (OAS)المنظمة السرية المسلحة: أنشئت بعد انقلاب أفريل 1961 من قبل الجنرالين صالان (Salan) و جوهند (Jouhand) وآخرين للدفاع عن "الجزائر فرنسية" ومواصلة الحرب ؛ كانت هذه المنظمة تضاعف من عمليات القتل والاعتداءات الإرهابية.

مدينة الجزائر لم يغادر منصبه بعد، أن جريدة "الجزائر الجمهورية" تبقى ممنوعة، فإن نشرها يثير الإخلال بالنظام العام. عبارات بدت لي "مستساغة" في وقت حيث الجرائد التي لازالت مستمرة في الصدور دون أن يكون هذا في نظر السلطات "إثارة للإخلال بالنظام العام" كانت بالأحرى تلك التي كان أصحابها بعد الانقلاب المجهض "لشرذمة من الجنرالات في تقاعد" (quarteron de généraux en retraite) - مقولة قالها دوغول - يصفقون للاعتداءات الإجرامية التي كانت تقوم بها الـ (OAS) ويشجعون متطرفي الحرب الذين كانوا يجرّونهم من وراء ظهورهم! في الحقيقة ذكرني هذا الإعلان بتلك الكلمة التي قالها الوزير المقيم روبير لاكوست (Lacoste Robert) بعد تنصيب غي مولي رئيسا للمجلس في فيفري 1956، ردّاً على مطلب من إدارة الجريدة لإعادة صدورها : "حتى ولو كنتم لا تطبعون فيها سوى الإنجيل - الكتاب المقدس - برواية جون، فإني سأمنع جريدتكم".

(عبد الرحمان فارس)[1] الذي كان لمدة طويلة يظهر بمظهر شبه المتمرّد والآن رئيس الجهاز التنفيذي المؤقت الذي أوكلت له مهمة السهر على التطبيق الحسن للقرارات المنبثقة عن اتفاقيات السلم قبل تسليم الحكم لسلطات الجزائر المستقلة، كان هو من جهته يجهل في نفس الوقت احتجاجي وطلبي المقابلة الذي صغته، كما نصحتني مصالحه الإدارية المقيمة بـ Rocher-Noir "بتحرير طلب بخط يدويّ ليتمّ النظر فيه"، شكل آخر من أشكال النفاق لتأكيد الإعلان الصادر عن السلطات الفرنسية قبل هذا. الحل الوحيد لجعل الأمور تتحرك هو اعتبار مختلف القرارات المانعة وكأنها لم تكن وجعل الكل، الحكومة الفرنسية، الجهاز التنفيذي المؤقت

---

1. عبد الرحمان فارس (1896 - 1985) من محاسيب الحكومة العامة المقرّبين ورئيس الجمعية العامة الجزائرية. بعد قطع علاقاته - بالشكل الرسمي على الأقل - مع الإدارة الكولونيالية يلتحق لخدمة جبهة التحرير الوطني.

لجبهة التحرير الوطني نفسه - حيث بدأ القادة يتصارعون علنا - أمام الأمر الواقع، بمعنى إعادة صدور الجريدة ؛ هذا ما عزمنا عليه أنا وأصدقائي الذين تم إطلاق سراحهم من السجون وعادوا إلى مدينة الجزائر وبقوا باتصال مع قادة الحزب الشيوعي الجزائري الذين توقف عملهم اليوم في السرية. كنت مقتنعا من أن العدد الأول للجريدة سيكون له ترحيب أكبر إلى درجة أنه يصعب على أي سلطة مهما كانت ألاّ تحسب له حسابه وتتحمّل علنا مسؤولية إصدار قرار منع جديد.

في مدينة مارسيليا حيث وصلت (جيلبرت) بعد حضور انطلاق ولدينا نحو Ivanovo، كنت أنتظر كما كان متوقعا كي يأخذ البحّارة الأصدقاء على عاتقهم مهمة ترحيلي في الباخرة سريا نحو مدينة الجزائر، لأنه كان من المخاطرة بمكان أن أنتقل حتى إليهم هكذا على المكشوف. لكن تارة لسبب وتارة لسبب آخر، سجّل الإبحار الموعود التأخر تلو التأخر حيث خلصت إلى التساؤل حول ما إذا كان حقيقة باستطاعتي مغادرة مارسيليا بالكيفية هذه. وفي أثناء ذلك، كان كل من (عبد الحميد بنزين) وجاك صالور (Jacques Salort) في مدينة الجزائر، اللذين تم اطلاق سراحهما من قريب، الأول من سجن Lambèse والثاني من سجن (Bannettes) بمارسيليا، يجتهدان في البحث عن السبل والوسائل العملية لبعث الجريدة من جديد. فقد كلّماني عن طريق الهاتف لإخباري أن مدير الـ SNEP - المؤسسة التي كانت تضمن طباعة جريدتنا قبل منعها من الظهور لسبع سنوات خلت - قد أشار عليهما أنه يمكنه القيام بعملية السحب شرط أن يوفّر له، مما كان جاهزا أصلا، مقويّات الرواسم للجريدة - طوابع أو قوالب من الورق المقوى التي يتم عليها صياغة الأشكال الموضوعة على أسطوانات التحبير للمطبعة - لأنه كان في حاجة إلى عدد كاف من العمال والوسائل الضرورية لإعداد في المكان عينه التركيب التيبوغرافي هذا العدد الأول ؛ وبعد ذلك سيرى كيف يمكن حل المشكل.

فقد كان عمال جريدة la Marseillaise، لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي الجهوي، أنهم هم الذين أنقذوا الموقف بقيامهم هذا العمل تضامنيا رافضين أخذ أي أجرة عليه. لم يكن من الأصدقاء ممن كان مهيّئا ومستعدا لكتابة المقالات سوى (نيكولاس زينتاتشي) وأنا ؛ أحد الطلبة الجزائريين كان قد أنهى دراسته بالإتحاد السوفييتي ويطمح لأن يصبح صحفيا، يقترح علينا مساعدتنا، غير أنه وبحكم فقدانه لكل تجربة لم يكن ذا نفع كبير. ومع ذلك فلم تكن هيئة التحرير لتطرح مشكلا أساسيا، فقد كانت الصفحتان – على جانبيهما من الوجه والظهر وبالحجم الكبير – يتم ملؤها بسرعة، كان الغرض منهما الإعلان بالخصوص لعلم القراء أن جريدة Alger républicain تعود إلى الساحة، وإخبارهم أن هدفها هو خدمة الجزائر الجديدة وأنها قبل كل شيء تعتمد عليهم لتقوية حضورها على الساحة ؛ لكن مثل هذا المسعى لقي معارضة لقوى خفية ولكن متمكنة فضلت عدم الجرأة للإفصاح عن الأسباب التي أدت بها إلى اتخاذ هذا الموقف.

المقال الافتتاحي الذي تم الموافقة عليه لتدشين السلسلة الأولى للجريدة هو أن يقدّم في نفس الوقت كنداء وكبرنامج عمل بالنسبة للجزائر وهي على عتبة نهضتها، عنوان يضرب بالبند العريض على الصفحة الأولى :

"متّحدين مثلما كنا خلال حرب التحرير الوطني، في الطليعة اليوم ونحن في الاستقلال من أجل بناء الجمهورية الجزائرية، من أجل الديمقراطية والعدل والتقدم !".

النص يثير قضية ما بامكان أن تكون عليه توجهات الجزائر وقراراتها الأوّلية الكبرى :

" جزائر تمحي آثار الاستعمار الأليمة، تسوّي بين الكل مهما كانت أصولهم في الحقوق والواجبات، تتقدم بجسارة في طريق الديمقراطية والعدالة

والتطوّر.. جزائر حيث الأراضي هي ملك أخيرا للفلاحين والعمال المزارعين، وحيث الثروات الأساسية تكون ملكا للشعب برمّته..".

كان التأكيد يتم على ضرورة التطبيق الواسع للديمقراطية واحترام تعددية الرأي : " هو طبيعي ومفيد أن يوجد اختلاف في الأفكار ويتم التعبير عنه، وفي النقاش الحر ما بين الوطنيين الذين جميعهم على السواء منشغلون على مصالح الوطن، يمكن تبلور أحسن الحلول للمشاكل المطروحة. وبأوسع قدر وبأكبر حرية يكون النقاش، بأكثر وضوح وجلاء تظهر لكل فرد المخاطر الواجب تجنبها والأهداف اللازم تحقيقها ؛ وبقدر ما هو التجنيد الشعبي واسع حول كل هذا، بقدر ما تكون السلطة الداخلية والخارجية للدولة الجزائرية الجديدة أكثر حزما وهيبة".

كنت أعلم أن هذا المقال لم يكن ليعجب أبدا أولئك الذين كان انشغالهم الوحيد، حتى قبل عودتهم إلى الجزائر، هو ضمان الحكم وممارسته دون غيرهم، فقد جاء شرح لبعض الأيديولوجيين أو المذهبيين ممن يؤيّدونهم أن "شعوب العالم الثالث لا يمكنها أن تسمح لنفسها الوصول إلى بحبوحة الديمقراطية"، لكن فإن أمكنهم "السماح لأنفسهم" الخوض في تصفية للحسابات الدموية بين فصائل متخاصمة فذلك لا يبدو يشغل بالهم أبدا. كانت الجريدة تؤكد على المعنى الذي كان من الواجب إعطاؤه لكلمة "الديمقرطية" : نظام يشرك بشكل كامل كل المواطنين في تسيير شؤون البلاد، وليس ذاك الذي يستعير تسميتها إلاّ بغرض إخفاء تسلطيّة الأغنياء القدامى والجدد.

كانت مقوّيات الرّواسم للعدد الأول جاهزة، وباتفاق مع (صالور) و(بنـزين) أرّخته بتاريخ الثلاثاء 17- الأربعاء 18 جويلية 1962، معتبرا أن العشرة أيام المتبقية إلى ذلك الحين كانت كافية لامكان صدور الجريدة في الوقت المحدد.

كان باق فقط إيصالها لهم، وكانت العملية أكثر تعقيدا ممّا كنت أتصوّر، فقد قام عمال جريدة "la Marseillaise" بتحضير احتياطا أربع مجموعات من هذه المقوّيات للرواسم مثلما طلبت منهم ذلك، الطرد الأول وضع في البريد، الثاني سلّم لمصالح الخطوط الجوية الفرنسية والثالث لمصالح الخطوط الجوية الجزائرية، الكل بعث مسجلا وعاجلا. ولا أحد من الطرود وصل إلى المرسل إليه، فقد "ضاعوا" أثناء الطريق أو على وجه الاحتمال تم انتشالها عند وصولها.

أما مصالح المراقبة (la censure) فكانت هي من جانبها على الأقل لا زالت مواصلة في حسن تسيير أمورها. كان إيمي بيتو (Aimé Pitous)، عامل بكهرباء وغاز الجزائر وأمين سابق لفرع للحزب الشيوعي الجزائري لضاحية حسين داي وأحد المطرودين يعود إلى أهله، يقبل بإخفاء الطرد الرابع والأخير داخل حقيبته، يبقى يؤمل وأن الجمارك في مدينة الجزائر لا يكونون أكثر فضولية ؛ يتصل بي (صالور) في المساء ليخبرني أن كل شيء تم بالشكل المنتظر وأن دفع الجريدة إلى الطبع الأول يمكنه أن يتم في تاريخه المحدّد، كما استعجلني بالدخول إلى مدينة الجزائر في أقرب وقت.

كان الإبحار السري الموعود لا يزال في الانتظار دون إمكاني معرفة متى يمكنه أن يكون، فقررت المجازفة بالالتحاق بالجزائر بطريقة شرعية، مرفوقا بصديق في حالة تعقد الأمور عند الوصول. أما (جيلبرت) فستصل لاحقا. كان من الفطنة ألاّ يتم السفر برفقة أحد.

أنزل أخيرا - ودون مشاكل - إلى مطار الـ Maison-Blanche الذي تعاد تسميته لاحقا بمطار "الدار البيضاء". لم آخذ بعين الاعتبار الاضطراب والفوضى الكبيرين اللذين يخلقهما التغيير الحاصل في نظام ما، حينما يوشك القديم بالزوال والثاني لا يزال لم يتنصب بعد. كان التفتيش العادي يبدو وأنه وضع إلا شكليّا، والمكلّف بمراقبة الوثائق الشخصية يرمي بنظراته الخفيفة على جواز سفري ليختمه دون طرح أي أسئلة.

هناك في البهو الواسع يوجد العديد من الأوروبيين حيث منهم العدد الكبير من الجنود، ممن أرعبتهم حملات الـ (OAS)، ينتظرون في صمت طائرتهم نحو فرنسا. كانوا يبدون مخيّبين وحزنين، أناس في قطيعة مع ماض سعيد وبلد هو بلدهم، كانوا جد مرتبطين به وها هم اليوم يغادرونه للأبد. في الاتجاه المعاكس، اتجاه الوصول، كان يوجد القليل من المسافرين نسبيّا. كان (بنزين) ينتظرني في بهو المطار، وجدته نحيفا وقد كبر في السنّ، بعد توقيفه أثناء الكفاح المسلح يتم اعتقاله في تلك المراكز الخاصة التي هيئت لأولئك الذين يلتحقون بالجماعات في جيش التحرير الوطني والذين، بعد القبض عليهم في المعارك، كانت لهم فرصة النجاة من الإعدامات دون محاكمة، في مركز الـ PAM المتميز بنظامه الوحشي. ثم يتم نقله إلى سجن Lambèse المركزي حيث كان يوجد العديد من السجناء من بين رفاقه القدامى وحيث الظروف على الرغم من الشتم والضرب، كانت مع ذلك أكثر تحملا منها في المعتقل (PAM).

النّهضة الصّاخبة

كان جاك صالور وجورج كاتوني الذي هو الآخر تم إطلاق سراحه من سجن Bannettes حديثا ينتظراني بمكتب (عبد الرحمان بوشامة)، المهندس المعماري الوحيد في البلد، وصديق قديم للجريدة. كان أيضا إلى جانب عضويته في الحزب الشيوعي الجزائري، منخرطا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الوقت الذي كانت فيه هذه الجمعية لا تزال تعدّ كتنظيم تقدّمي.

كان (جورج) محاسب الجريدة السابق الذي تقاسمت معه المبيت في عهد النشاط السري ثم ولمدة تقرب الثلاث سنوات نفس الزنزانة ذات الرقم 72 بسجن برباروس. منذ أيام الاعتقال أصبح (جورج) يبدو نحيف الجسم بعض الشيء ولكن بقي يحافظ على مظهره الحيويّ ذي الابتسامة والسرور الدائمين مما يوحي وكأنه طرد من ذاكرته كل تلك أصناف التعذيب التي مورست عليه على أيدي المظليين وسنوات الزنزانة التي تابعتها.

جورج لم يتغير .. هو نفسه نحيف الجسم حينما تركته بعد منع الجريدة عن الصدور .. هو نفسه هادئ ونشط ودقيق في عمله. كان على طاولة التعذيب، بعد اعتقاله في مارس 1957، لمّا طالب محاميه ميشال بريغي (Michel Bruguier) بمثوله عاجلا للمحاكمة التي جاء اسمه فيها، بينما كان

رئيس المحكمة يريد محاكمته غيابيا بعد ثبوت عدم حضوره ؛ تم اقتياد (صالور) إلى القاعة من قبل رجلين من الدّرك اللذين كانا يمسكان به، كان لا يمكنه الارتكاز على ساقيه ولا يستطيع الوقوف بالاعتماد على نفسه. كان وقد مرّ على عمليات الاستنطاق المشدّدة لمّا سقط وهو كله شباب مناضل بين أيدي شرطة حكومة Vichy .

كما شهد بعد انقلاب جوان 1965 أصناف أخرى للتعذيب والنكال من جديد وللمرة الثالثة في حياته، أما هذه المرة فكان جلاّدوه جزائريين الذين نسوا، إن لم نقل أنهم لم يعلموا بذلك قط، أن الجزائر المستقلة كانت فخورة كونها أول بلد يدين رسميا التعذيب ويدوّن منعه في الدستور.

لم يكن الظرف مناسبا للحديث عن كل هذه اللحظات المرعبة، فقد كان لكل واحد نصيب منها، الكلام عنها سيكون لاحقا إذا وسعنا الوقت لذلك ! أما الآن فيجب مباشرة العمل الجدّي بسرعة. أخبرني (جاك) والابتسامة على محيّاه أن إمكانياتنا المالية في حالة تسمح لنا مواجهة النفقات العاجلة وتضمن لنا المواصلة لبعض الوقت على الأقل ؛ هذه الأموال التي تم جمعها بفضل القروض والهبات التي كان يقدّمها القراء سابقا وبخاصة المبالغ التي كانت تدفع في حينها من قبل المودعين عندهم السابقين - حيث بقيت قائمة أسمائهم محفوظة بأعجوبة - من الذين لم يجدوا بأسا في دفع ما قيمته ثلاثة أشهر مسبقا عن كميات الجرائد التي سيتم توزيعها لديهم، كل هذا زاد من تعزيز خزينتنا.

تلقّى العدد الأول الذي تم طبعه بفضل مقوّيات الرّواسم الآتية من مارسيليا ترحيبا كبيرا حيث وصل عدد النسخ التي تم سحبها إلى ثمانين ألف، عدد لم يتم تسجيله قطّ في السابق ومع ذلك تبيّن أنه كان غير كاف، على الرغم من غياب مصالح النقل السريع في عملية التوزيع الذي حال دون انتشاره الواسع على مستوى مدينة الجزائر وضواحيها ؛ ولمّا كان لأول مرة

منذ ما يقرب السبع سنين أن يتم بعث هذه الجريدة في الأحياء الشعبية فقد جاءت ردّة الفعل مليئة بالفرح والسرور. كان بائعو الجرائد الصغار يجوبون شوارع المدينة وهم يلوّحون بجريدتنا معلنين بأعلى أصواتهم الخبر الجديد: "ها وجا Alger républicain انتعنا! - لقد عادت الينا جريدتنا- " كانت مجموعات تتكون في الشوارع وفي المقاهي حول قارئ متطوع هكذا لحضور هذه العودة المشابهة لأحد الأصدقاء عاد للظهور بعد سنوات الكفاح والسجن والمنفى. قامت أياد مجهولة بدءا من حسين داي إلى حيّ Saint-Eugène (الذي كان لا يزال يحتفظ بهذه التسمية إلى أن أصبح يسمى ببولوغين)، من حيّ Clos-Salembier (المدنية حاليا) إلى غاية الأبيار، من شوارع la Redoute (المرادية اليوم) إلى غاية القبة وفي كل ضواحي مدينة الجزائر، قامت بإلصاق الجريدة على الجدران بل وعلى جذوع الشجر التي طليت من يوم المطالبة بالاستقلال بالألوان الجزائرية - الأخضر والأبيض والأحمر - وآخرون في الأحياء الشعبية "بديار المحصول" و "بصالمبي" ألصقوا على مساحات الجدران وفي أماكن متفرقة صفحتي الجريدة الوحيدتين جنبا إلى جنب حتى يتسنى للسكان الفقراء قراءتهما أو تقرأ عليهم، فقد رأينا مشاهد عجيبة : حكى لنا أحد الأصدقاء أنه رأى بحيّ القصبة رجلا يظنّه من عمال الميناء بعدما اشترى الجريدة قبّل عليها ثم ضمّها إلى صدره وعيناه تذرفان دموعا. شهادات بعد روايتها لاحقا، لم يتم أخذها بعين الجدّ من قبل أولئك الذين لم تكن لهم القدرة على معرفة ماذا كانت تعني هذه الجريدة في أيام الاستعمار الحالكات.

لم يكن لديّ كثير من الوقت في غمار بهجة العودة هذه وأنا منهمك في معالجة العديد من الأمور العالقة لأن أعيد اكتشاف مدينة الجزائر كما يلزم، كنت أتجوّل في شوارعها وفي ساحاتها بنوع من الإغراء وشعور غريب لديّ أني ألقى نفسي ثانية في بلد كنت أعرفه حقّ المعرفة والذي مع ذلك لم يبق

كما عهدته هو نفسه، مررت بالشارع الذي كانت تطل عليه في السابق البوابة الضخمة المسمّرة بالنّحاس التي تم نسفها من قبل المتطرفين باستعمال مواد البستيك المتفجّرة، لم يتم تعويض الأبواب الحديدية التي نصّبناها هناك مؤقتا عند المدخل، فقد وجدتها وقد اعتراها بعض الصدأ. يكون آخر من استخدم هذه الأماكن، وهم المحرّرون التابعون لمظليي الـ "Bled"، أنهم هم أيضا لا يؤمنون في قرارة أنفسهم إلا بالمؤقت. كانت بعض بقايا الستائر الممزقة تظهر معلقة أو مشدودة إلى أقواس العقد التي كانت تنيف الشرفة. كان زجاج نوافذ قاعة التحرير وسخا مليئا بالغبار أو مكسّرا أو مشقوقا في بعضه، صور تمثل مدى الإهمال الذي تركت عليه البناية.

كان شارع Laferrière الذي يؤدي نزولا إلى غاية البحر تقريبا ويمتد نحو الأعلى صعودا إلى غاية Forum وإلى بنايات الحكومة العامة، يمثل قلب الجزائر الفرنسية، هنا حيث كان المتطرفون ينادون رافعين أصواتهم سخطا ضد غي مولي (Guy Mollet) ليرضخ لمطالبهم، هنا حيث عاشت مدينة الجزائر ساعات المظاهرات الصاخبة ليوم 13 ماي 1958 التي سمحت للجنرال (دو غول) اعتلاء سدّة الحكم، وأدّت إلى "أسبوع المتاريس" واستسلام Lagaillarde في جانفي 1960 وإلى انقلاب الجنرالات المجهض في أفريل 1961، هنا أيضا حيث كان نشطاء المنظمة السرية المسلحة (OAS) يقتلون الجزائريين غير الحذرين ممن كان يغامر بجهالة بتواجده في تلك الشوارع الأوروبية : بائعو أوراق اليانصيب الوطني، نساء منظفات، عمال، حمّالون ومسّاحو الأحذية ؛ كان لهؤلاء القتلة أنهم يخطئون أحيانا، ذات مرّة يتعرض رجلان من أصل مارتينكي، كان يعتقد أنهما عربيان، إلى طلقات رشاش لم تكن موجهة لهم ؛ ومرّة تقوم امرأة من على شرفة لشقة فاخرة بنهج Pasteur الذي يقطع شارع Laferrière إلى زاوية قائمة والذي تطل عليه مطبعة الـ SNEP، برمي المارة بالرصاص، وفي غمار غيظها وحقدها

تتخذ أحد رجال الـ (CRS) كهدف لها الذين وعلى غرار معظم الأوروبيين أصبحت تكرههم منذ أن شاركوا في قمع إحدى مظاهراتهم المنظمة من أجل "الجزائر فرنسية".

كانت الأعلام الوطنية المصنوعة على عجل ترفرف على النوافذ في كل شوارع المدينة، من Point-Pescade حتى Maison-Carrée، من أعالي الأبيار وحي القصبة إلى غاية واجهة البحر، وكذا على سطوح الأكواخ بحي محيّ الدين.

أراد كل واحد، بما هو فيه من فقر مدقع، أن يرفع مرفرفا علمه الشخصي، ليس احتفالا بالحرية المستردة بعد كثير من الآلام والأحزان فحسب، وإنما أيضا إشارة لإقناع الذات أن الكابوس قد انتهى دون رجعة وإشهارا لآماله الشخصية. كما كانت الأغاني، إلى ساعتها غير مسموحة، والنداءات والشعارات – يحيا الاستقلال ! تحيّا الجزائر! – التي كان يرددها شباب يجوبون أزقة حيّ القصبة جماعات مندفعة حماسا فياضا، تدوّي متعاكسة في خضم ضجة وضوضاء متصاعدتين لم يكن ليعلوها عند أوقات الصلاة إلاّ نداء المؤذنين الذين قاموا بتصيب على أعالي صوامع المساجد مكبّرات للصوت.

كان يقابل كل هذه الفرحة وهذا الابتهاج للجزائريين ضنى وانهيار من جانب الأوروبيين ؛ وتوقف التدفق والاندفاع نحو الموانئ والمطارات في النصف الأخير من شهر جوان 1962 التي كانت تشهد ما بين العشر إلى اثني عشرة سفرية يوميا، لكن نداءات جبهة التحرير الوطني، مثل نداء وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (أمحمد يزيد) الذي صدر من تونس في نوفمبر 1961، "متمنيا أن يبقى الأوروبيون في الجزائر ويتخذوها بلدا لهم"، لم تكن لتسمع ولن يكون لها إمكان لذلك من دون شك.

كان هؤلاء محيّرين أمام نهاية للحرب هي تتضاف الآن إلى أسوء كوابيسهم، مذعورين ومرعوبين إزاء التصعيد في العمليات الإرهابية للمنظمة السرية المسلحة (OAS) – كان في ليلة 5 مارس لوحدها فقط قد تم تفجير 125 شحنة من مادة البلاستيك المتفجرة من Saint-Eugène إلى حسين داي – واعين ربّما أيضا بالحقد العضال الذي ولّدته هذه الجرائم، الأمر الذي جعلهم غير قادرين على التفكير بموضوعية ليصبحوا – أو ليضحوا كما كانوا – فريسة الهلوسات الأكثر جنونية ؛ مثل تلك التي في الفلكور الكولونيالي كانت تستولي على نفسية "أصحاب التمدن والحضارة" إزاء "الأهالي الثائرين والمتعطشين إلى الانتقام"، وحيث لا تترك لأحد منهم قبل إتيان الساعة المقدرة للاستقلال سوى الهروب للنجاة بنفسه ؛ و إلى هذا دعاهم الكولونيل غارد (Gardes) الناطق الرسمي للمنظمة السرية، عبر حصة بثتها هذه الأخيرة عن طريق القرصنة ليقول لهم بلهجة مثيرة للقلق : "ارحلوا ! غادروا هذا البلد بأسرع ما يمكن !". كما ظهرت تعليمة أخرى أكثر غباءا وإجرامية تم الإعلان عنها بنفس الكيفية، جاءت لتقول : "اتركوا الجزائر للعرب كما وجدها الجيش الفرنسي سنة *1830*". أربعون مدرسة يتم حرقها في يومين. كنت أرى في جهات مختلفة وأنا أجوب المدينة بنايات عمومية متضررة جزئية بسبب الحرائق والانفجارات : مكتبة الجامعة في وسط المدينة، صندوق الضمان الاجتماعي البيمهني، شارع 8 نوفمبر 1942، مكاتب تحصيل الضرائب قرب قصر العدالة. كما بقي نزل المدينة مزدحما بالكومات وأنقاض البناء والجبس المتهدمة من الجدران بفعل انفجار شحنة ذات 130 كيلو غرام من مادة البلاستيك وضعت تحت الأرض لتنسف في نفس الوقت واجهة العمارة الجديدة تم بناؤها بالقرب من مقر الإدارة الحاكمة.

كما دفع البعض التهور والذعر للانضمام إلى أقاربهم أو إلى جيرانهم بغرض استئجار شاحنة وحشوها بما لا يمكنهم حمله : أجهزة المذياع،

طباخات، ثلاجات، مكنسات كهربائية، طاولات، كراسي، أرائك، مرايا، أسرة.. ثم يسرعون ليلقوا بالكل في البحر من على المرفأ أو في مكان آخر مناسب لهم ؛ هكذا غادر هؤلاء البلد "دون وأن يتركوا شيئا للعرب". وذهب بعضهم ممن كان لا يزال يحتفظ في رأسه حلمه في العودة إلى الجزائر ثانية، إلى إلصاق على أبواب منازلهم أوراقا عليها كتابة تحمل طابعا رسميا لمحافظة الشرطة المحلية تشهد أن للمنـزل سكانا سيعودون قريبا من "عطلتهم" : حماية تبدو وهمية ضدّ الآلاف من الأشخاص ممن هم على أبهة لتملك هذه المنازل الشاغرة بوضع الأيدي عليها، ممن سيتدفقون من أكواخهم وقراهم المدمّرة والمحتشدات حيث كان الجيش الفرنسي يحبسهم فيها.

كان يبدو من أن معظم مالكي الحيوانات الأليفة أهملوا هذه الأخيرة تاركين إيّاها تسرح في الشوارع دونما انتقال. كان المرء في حي باب الوادي يخشى على نفسه وهو يرى في شوارعه ليلا رهطا من الكلاب تهملج في قارعة الطريق في مجموعات مكونة من عشرة أو خمسة عشر أو عشرين، من كل نوع ومن كل جنس، تبحث بيأس ما تأكله في كمامات القمامة المتراكمة منذ أيام ويتناهشون بكل ضراوة على ما يجدونه من بقايا. كما كانت القطط تتواجد متكاثرة في كل مكان، تقفز من شرفة إلى أخرى تاركة وراءها صدى على مادة الزنك المغطيّة للسوق، وتستولي على بعض المساحات الخضراء كما وأنها كانت الأحقية لها دائما في ذلك.

فقد انتهى عمل "القالوفة" (Galoufa) – اسم أطلقه سكان مدينة الجزائر على العامل في البلدية الذي كان يقود عربة المحشر باحثا عن الحيوانات المتشردة للإمساك بها – هو أيضا ركب الباخرة و رحل.

كان البعض لا يزال يتساءل مترددا في قطع علاقاته مع الماضي، مع هذا البلد المشرق حيث كل شيء يربطه به، مع بعض الأصدقاء الجزائريين

القريبين من الذين كانوا يصرّون على بقائهم معهم : "لماذا أنتم ترحلون ؟ فالكل يعرفكم هنا .. أنتم لم تلحقوا أيّ أذى بأحد ؛ إلى أين تذهبون ؟ ابقوا، فأنتم بدياركم..".

لكن من ذا الذي كان يضمن المستقبل ؟ فالمجازر الجديدة المرتكبة في مدينة وهران كانت تزيد من مخاوفهم، حقيق وأن الجزائر أصبحت حرّة، لكنها لم تتحرر بعد من الخوف .. وبحزن وأسى شديدين يختارون الرحيل.

من الجانب الجزائري، كان صخب زغاريد النساء المرتفعة، والأغاني والشعارات، ومنبهات الصوت للسيارات تملأ شوارع المدينة ليل نهار. من جهة أخرى كان قلق عميق وقد بدا يظهر من خلال كلام الناس، قلق أفرزه وغذّاه المشهد المؤسف الذي كان يقدمه قادة الجبهة، هؤلاء بالأمس فقط أبطال وقدوة، وهم يتقاتلون اليوم بمجرد دخولهم الوطن المحرر والجريح أيضا وفريسة لكثير من المشاكل الخطيرة، من أجل الاستيلاء على الحكم محطمين بأيديهم هم خرافة الجبهة (FLN) المتماسكة والمتلاحمة على الدوام لا لشيء إلاّ لخدمة مصالح وطموحات الجزائر الجديدة.

أجبرت الأجواء الخطيرة التي خلقتها اعتداءات المتطرفين الآلاف من العمال للبقاء دون التنقل إلى مقر عملهم، مصانع وورشات تم غلقها منذ أشهر، تركت هكذا دون موارد ؛ لم نعد نجد لا أطباء ولا أدوية، كان المرضى والجرحى يملؤون العيادات التي تم فتحها مؤقتا وبطريقة ارتجالية في أماكن مختلفة طيلة أيام الرعب الذي كانت تصنعه المنظمة السرية المسلحة (OAS).

وانتهازا لفرصة غياب رجال الشرطة، كان اللصوص وسرّاق السيارات والسطو باستخدام الأسلحة وقطّاع الطرق المتنكرين غالبا بالزيّ العسكري المنظمين في صفوف للسطو على المنازل المهجورة ونهبها، أنهم زادوا في

شعور الناس بفقدان الأمن ؛ وكذا غادر العدد الكبير من التقنيين في أغلبهم من الأوروبيين مناصب عملهم أو على استعداد للقيام بذلك وكنا نتعجب لرؤية الماء لا يزال يسيل في الحنفيات، والمصابيح مشتعلة، والسكك الحديدية تشتغل، والهاتف غير معطل .. حتى ولو كانت الأعطاب كثيرة الوقوع. وهذا كله بفضل العمال الجزائريين الذين أحدثوا "المعجزة" حيث عرفوا رغم نقصهم للتجربة كيف يحافظون على الأهم وينوبون على الإطارات الغائبة.

في الوقت الذي كان فيه مثل هذا الوضع يتطلب عاجلا أن يوضع البلد على السكة ويساس من قبل إدارة مركزية تتمتع بثقة الشعب، لم يكن هنالك من سلطة رسمية لتسييره، بل كان الكثير من السلطات مما يبقى الإشكال نفسه. الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) يتم حلّها هكذا في الطبيعي بشكل شبه كلّي، حيث كان لرئيسها (بن يوسف بن خدة) في 3 جويلية أن سبق له دخول العاصمة منتصرا لكنه لم يعد معترفا به لدى قادة "جيش الحدود" وبالخصوص لدى القائد العقيد (هواري بومدين) الذي أراد (بن خدة) دون الوصول إلى ذلك إبعاده عن قيادة هذا الجيش؛ (أحمد بن بلة) يلتحق بـ (هواري بومدين) بمنطقة وهران حيث قام هذا الأخير بحشد وحدات جيش التحرير الوطني التي كانت لا زالت مستقرة إلى ساعتها. (فرحات عباس) و(أحمد فراسيس) و (أحمد بومنجل) ثم لاحقا (محمد خيضر) من الذين قطعوا علاقاتهم بالحكومة المؤقتة بعدما كانوا أعضاء فيها أو ساندوها، كانوا كلهم إلى جنب (بن بلة) و(بومدين) لمساندتهما في إنشاء "مكتب سياسي" يقدم هو أيضا على أساس أنه يمثل السلطة الشرعية الوحيدة.

في منطقة القبائل، وفي الولاية الثالثة حيث كانت مدينة تيزي وزو تمثل قلبها، كان مسؤولون آخرون وبالدرجة الأولى (كريم بلقاسم) وزير الحرب السابق في الحكومة المؤقتة، و(محمد بوضياف) - الذي اعتقل رفقة (بن بلة) وبقيا معا طيلة مدة الأسر في فرنسا بعد اختطاف الطائرة التي كانت

تقلهما سنة 1956 من قبل المصالح الفرنسية - وكذلك (حسين آيت أحمد) الذي سيبتعد زمنا معينا عن البلد، كان هؤلاء ينتقدون علنا وبعنف المكتب السياسي، ومع أنهم كانوا شكليا تابعين إلى ما تبقى من الحكومة المؤقتة السابقة لم يكونوا ليعترفوا في نهاية المطاف بسلطة أخرى غير سلطتهم. كان الشأن نفسه بالنسبة للمسؤولين في المنطقة الحرّة، مثل (عمر أوصديق) الذي تمت ترقيته بعد فترة قضاها في الكفاح المسلح إلى أمين للدولة في الحكومة المؤقتة، و(رابح زيرازي) - وهو المقدّم عز الدين -. وكذلك كان يتصرف قادة الولايات غالبا، كما وانهم لم يكونوا معنيين بتقديم أي تبريرات لأيّ كان. هذا وكان قادة الولاية الرابعة التي يمتد إقليمها إلى وسط مدينة الجزائر والمتيجة وإلى ما ورائهما ينكرون كل شرعية على قادة المنطقة الحرة، كما لم يكونوا يخفون أنهم يحضرون أنفسهم لدخول مدينة الجزائر بالقوة ؛ أما بالنسبة لقادة الولاية الثانية - في الشمال القسنطيني - فقد عارضوا صراحة الحكومة المؤقتة ونادوا بمساندتهم لـ (بن بلة) و (بومدين).

بقي التفسير السياسي لهذه الانقسامات غامضا كلية بالنسبة للأغلبية الساحقة من الجزائريين، فأما الأسباب فتتمثل في كون أنه حتى ولو كانوا كلهم مخلصين مع جبهة التحرير الوطني وأوفياء إزاء اختياراتها الثورية، فلا أحد من هؤلاء القادة قدم شروحات علنية تبيّن الدوافع والبواعث لهذه النزاعات العميقة التي تثير هؤلاء على هؤلاء، مكتفين برميّ المسؤولية على خصماء متهمين إيّاهم بعدم الانشغال إلا بمصالحهم الخاصة ! أو في أسوأ الحالات، قد سبق لهم السقوط في مغبة الخيانة.

خلال أسابيع معدودة سيجد البلد نفسه وهو من دون ربّان تتقاذفه الأمواج - سلطة الهيئة التنفيذية المؤقتة كانت لا شيء - على حافة الحرب الأهلية، والمواجهات المسلحة التي ستولّدها هذه الفوضى ستتسبب في مقتل المئات من المواطنين، الأمر الذي لن يتكلّم فيه بعدها.

بدأ الشيوعيّون الذين خرجوا عن العمل في السرية بإعادة تنظيم أنفسهم، بشارع Mozart في أعالي Belcourt وداخل محلّ وضعه أحد الأصدقاء تحت تصرفهم مؤقتا، ألتقي بـ (بشير حاج علي) و (صادق هجرس)، الأمينين الوطنيين للحزب اللذين كانا يؤديّان مسؤولياتهما داخل الجزائر طيلة الحرب، وبمسؤولين آخرين. كان الوضع لا يزال يملي عليهم اتخاذ الكثير من الحيطة، لأنهم لم يكونوا في مأمن عن محاولة اعتداء على أماكن تواجدهم أو حتى عن عدوان مباشر ضد أشخاصهم.

كنت وقد التقيت بـ (بشير) للمرة الأخيرة قبل ست سنوات تقريبا بمخبأ مؤقت هيئ لنا من أجل هذا اللقاء، حيث كان الدافع يستوجب منا قضاء ليلتنا فيه، الأمر الذي أدخلنا في محادثة حول من يتفضل بالنوم على السرير الوحيد الموجود في المخبأ بحيث كان كل واحد منا يصرّ على إيثار الآخر على نفسه وينام هو على بساط الأرض، أما الكلمة الأخيرة فكانت لي أخيرا.

كان على (بشير) أن يخرج في الصباح الباكر قبلي، حينما رأيته مرتديا لباسه وعلى وشك الخروج لم استطع منع نفسي لأقول له مبتسما أن ثيابه التي كانت عليه فضفاضة بأكبر مما يجب، وقبعته الرخوة التي أضفت عليه نوعا من الغرابة، وشاربه المكثف بإفراط، كل ذلك أعطاه مظهرا شبيها بضارب على الطبل من جنوب أمريكا، ليحمل الأمر بابتسامة غير مكترث كما وأنها مجاملة قدمتها له على جودة تنكره ؛ لم يكن (بشير) الوحيد في استعارة لباس بهذا التميّز غير العادي، فقد كان (أندريه موان) هو أيضا يخرج بلباس خاصّ بالعمل ذي اللون الأزرق، وعلى راسه كسكيت عمّال شركة غاز وكهرباء الجزائر (l'EGA) وبيده لفيفة من الأسلاك وأداة مشبك. لكن الوقت لم يكن يسعنا لإثارة مثل هذه الذكريات.

قام (بشير) و (صادق) المنشغلان بقلق بالوضع الراهن باتصالات مع قادة الفصائل المختلفة التي كانت تتنافس وتتخاصم عن الحكم لمعرفة وجهات

نظرها ومشاريعها وللضغط عليها حتى لا يخيبوا آمال الجزائريين في مبتغاهم المتمثل في إحقاق السلم، المطلب نفسه الذي أرادت جريدتنا حديثة العهد في ظهورها القانوني أن تساهم في إنجاحه ؛ لم يطبع إلى غايتها إلا عدد واحد منها وكان البعض من غير الأصدقاء يروّج إلى أنه لن يظهر اي عدد آخر بعد هذا أبدا، بالطبع وأن العوائق كانت تظهر منيعة حتى يمكننا تفنيد تكهنهم هذا.

ظهر لنا مدير المطبعة هكذا فجأة مشدودا بقلق وهو الذي كان جدّ متعاون معنا طالما أنه قبل بسحب العدد الأول، أما مصدر هذا القلق فيرجع إلى التقلبات التي كان يفرضها الوضع ومن دون شك أيضا إلى الضغوطات الخارجية التي كانت عليه. أليس من الخطر عليه شخصيا القيام بطبع جريدة لم يكن ظهورها مرغوبا فيه بالطبع لا لدى السلطات الفرنسية السابقة ولا لدى سلطات الجزائر الجديدة التي لا زالت إلى ساعتها مشتتة ؟ لن يقوم بهذا العمل، يقول أخيرا، إلا بشرط تقديم له وثيقة رسمية - "أي وثيقة لكن تكون مكتوبة بخط اليد" - ترخص طبع الجريدة.

لم أفهم من أي سلطة يمكننا الحصول عليها، فقد سبق لنا وقد علّمنا بالجواب التسويفي للهيئة التنفيذية المؤقتة، وحاولت رفقة (بنزين) هكذا سعيا لإيجاد حل للمرة الأخيرة. استقبلنا بـ Rocher-Noir موظف مهذب لكن لا يقدر على شيء، نائب (عبد الرحمن فارس) رئيس السلطة التنفيذية، ليخبرنا أنه لا يمكنه إعطاءنا جوابا ؛ فنتجه على جناح السرعة نحو مقر الحكومة العامة السابقة، كانت المكاتب خالية هناك يغطيها الغبار والأوراق والجرائد القديمة متناثرة في أنحائها، منظر يوحي أن مستخدميها الآخرين قد غادروا هذه العمارة الضخمة هربا دون أن يسعهم الوقت للالتفات إلى الوراء.

في مؤخرة الممشى الذي كان كبقية كل العمارة خاليا، كان (امحمد يزيد) - بصفته لا يزال وزيرا للأخبار في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية -

الذي تمكنا الوصول إليه، ينتظرنا هناك،كان يهمّ بالخروج جامعا بتوتر بعض الأوراق في محفظته قبل التحضير للالتحاق بمدينة تلمسان. كانت المقابلة وجيزة، فقد كان على علم بالمسعى الذي جئنا من أجله وبالقرار - المتخذ منذ مدة بتونس - الذي يجب أن يواجهنا به، لكنه فضّل أن يقوم بذلك بكل دبلوماسية. "من باب الصداقة والأخوة"، يطلب منا التخلي "في الوقت الحالي" عن فكرة إعادة صدور الجريدة. "أرجوكم! لا تقوموا بذلك، فأنتم ستزيدون من الفوضى بعملكم هذا! إذ الأمر معقد بما هو يكفي !".

"بالعكس، فإن نشر *Alger républicain* سيساعد على تجاوز هذا التعقيد!"، لم يكن لردّنا هذا له أي فرصة لجعله يغيّر من رأيه أو على الأقل يقبل بتسليمنا الرخصة التي نحتاجها والتي في أصلها تخالف قرارات الحكومة المؤقتة.

لم يبق لنا إلا باب واحد يمكننا طرقه : باب (عمّار محمّادي) الذي كان يشغل مهام مسؤول على المنطقة الحرّة، وكانت نهاية هذه المهام قريبة لأن أنصار الولاية الرابعة المعارضين كانوا يتأهبون لدخول المدينة، وكان الجانب الأكبر لهذا السبب أن فضّل مسؤولو المنطقة عدم إبداء معارضتهم المبدئية لإعادة صدور الجريدة ؛ بالعكس كما كان يتصور البعض منهم، مثل (عمر أوصديق) ذي النظرة شبه الميكيافلية على الدوامّ، فلن يكون أكثر سوءا من أن يجد قادة الولاية الرابعة - حيث كان بعضهم معروفا بحقده للشيوعيين خصوصا - في واجهتهم جريدة "الجزائر الجمهورية" ليتخلصوا منها عندما يدخلون العاصمة.

بعكس مشهد الإهمال الذي كان يميّز بناية الحكومة العامة السابقة، فإن حالة العمالة كانت تعطي مشهدا كعمارة تم اقتحامها من قبل حشد من الطالبين والملتمسين ؛ كان يجب إذن تخطّي وتعدّي أجساد الأشخاص الخامدين هناك على مستوى الأروقة، وتجنب عفس أقدام الناس المزدحمين

على مدرجات السلم من الذين كانوا يريدون المقابلة، وكذلك استعمال المرافق لفسح الطريق في هذه الزحمة إلى غاية مكتب عامل العمالة حيث تمكنت من الدخول أخيرا. يستقبلني هذا الأخير ببرود، إلا أن الاعتراض الوحيد هو أنه لم يكن لديه لا سكرتيرة ولا آلة كاتبة لنسخ موضوع طلبنا، ثم أسلّمه النص الذي حرّرته والذي جاء مؤكدا فيه، بالنسبة لمدير المطبعة، أنه لا وجود لمانع لإعادة صدور الجريدة ؛ ليقوم في جهة من جهات مكتبه ويسجل بريشته : "رأي بالموافقة "، ثم يمضي ويذهب للبحث في درجه الكبير من مكتبه من بين عشرين آخرين مشابهين عن الطابع الذي يليق ثم يختم به موافقته ويرجع لي الورقة قائلا بمظهر العبوس الذي أجبر على القيام بأمور تافهة بينما هو غارق في ملفات عاجلة : "يجب أن تشرح لمدير مطبعتك أن الاستعمار قد انتهى، وجريدة *Alger républicain* ليست بحاجة إلى رخصة حتى يعاد صدورها".

كنت جد مستعجل حتى أتمكن من التوضيح له أن الأمور تتكشف بأكثر تعقيد مما هي عليه.

يظهر العدد الثاني (السلسلة الجديدة) حاملا تاريخ 23 جويلية 1962، بمعنى بأقل من أسبوع بعد صدور العدد الأول ؛ لم يكن للجريدة عنوان خاص بها كالعادة إلاّ صندوق بريد يفتقر إلى مقر تابع إليه. كانت هيئة التحرير تتلخص في الواقع في (عبد الحميد بنـزين) و (نيكولاس زينتاتشي) وابنه (أنري)، كلهم الثلاثة "قدامى" في النضال وبعض المتطوعين مثل ماريليز بن هايم (Marylise Benhaim) – التي حينها معلمة كانت تقوم بسيارتها (2 CV) بمهمة عامل اتصال ما بين قيـادة الحـزب الشيوعي الجزائري و(هنري مايـو) في الكفاح المسلح. وكرسّامة وكاتبة، تعرف لاحقا تحت اسم مريم بان (Myriam Ben).

كتبت في هذا العدد الثاني الذي دشن مرحلة جديدة بالنسبة للجريدة، لأتحدث عن كل العوائق والمصاعب التي كان يجب تجاوزها وعن مشاكل

أخرى كان على العدد القليل من المناضلين مواجهتها من بين أفراد الفريق السابق لضمان صدور عادي ومنتظم للجريدة :

" لم تصل بعد جريدة "الجزائر الجمهورية" [...] مثلها مثل الجزائر نفسها لحل كل مشاكلها [...] لا تزال جريدتنا باقية دون مقر ودون مال متداول. فريقها ليس مكتملا في أعضائه وبعيدا عن المستوى المطلوب الذي يقتضيه الوضع من جريدة كبيرة. يجب ابتكار أو إعادة ابتكار كل وسائل النشر والنقل وإنشاء مصالح للإشهار وشبكة المراسلين والمودوعين عندهم. تبعث هكذا إذن "الجزائر الجمهورية" في وسط مليء بالمشاكل وبالإضافة إلى كل هذا فليست المشاكل الأخرى المالية بأقل شأنا من ذلك [...] ".

وصف دون الحقيقة ولا يتعرض بالتحليل للظروف الصعبة التي كان هذا الفريق المتواضع من حيث العدد يعمل فيها لصناعة صفحتي الجريدة وضمان نشرها. كانت الحاجة الأكثر استعجالا هي إيجاد مقر لأن القاعتين اللتين منحهما لنا (بوشامة) المهندس المعماري لإيواء هيئة التحرير والإدارة، كانتا جد ضيقتين إلى درجة أنهما لا تسمحان - حتى بالنسبة لتعدادنا الضئيل - بإعطاء الإمكانية لكل واحد منا لأن يعمل باستعمال الطاولة أو حتى الجلوس. كان (كاتب ياسين) الذي عاد على جناح السرعة لمّا علم أن الجريدة سيعاد نشرها من جديد وقد كتب مقالته واقفا باستعمال الآلة الكاتبة الوحيدة في المكان التي تمت استعارتها من (بوشامة) لتوضع على المدفأة. أما (زينتاتشي) مركب صفحات الجريدة، فقد قام دون استشارة أحد بإلحاق المطبخ الضيق للشقة إلى القاعة وصفّ أقلامه ومساطره على سطح المبقلة هناك الذي استعمله كمكتب له.

كانت العقبة الأخرى الأكبر تتمثل في بعد المطبعة، فعندما يتم الانتهاء من إنجاز النسخة كان يجب حملها إلى غاية ورشة الشركة الوطنية لمؤسسات الطباعة (SNEP)، ثم يتنقل أحد الأعضاء بنفسه إلى هناك للقيام بعمليات

التصحيح والتحقيق وتركيب الصفحات على رخامة الطبع. من جهة أخرى فلم تكن الشوارع آمنة ويستصح عدم المخاطرة بالخروج ليلا. فقد حدث لـ (ماريليز بن هايم) التي طلبت منها أن تتكفّل بنقل البرقيات من وكالة Presse-France - حيث المكاتب قريبة من المطبعة والتي قبل أعضاؤها إرسالنا الأسلاك المزدوجة التي لحقتنا - أنها وقعت في مخاصمة عدائية ذات مساء أثارتها مجموعة من الشباب اعتقدوا أنها متواطئة مع أعضاء المنظمة السرية المسلحة (OAS)، رغم الإساءة إليها وتعنيفها (إذ أن أحدهم شدّها من رقبتها) فقد نجحت مع ذلك أن تبيّن لهم أنها كانت تعمل لصالح جريدة "الجزائر الجمهورية"، والأشخاص أنفسهم من الذين كانوا للحظات من قبل يهددون بتصفية حسابهم معها، يعودون على أدراجهم ليقدموا لها اعتذاراتهم المتكررة ويقبلوا عليها مليمين إيّاها مع ذلك لتغافلها للحيطة اللازمة، ويعتزمون لأن يجعلوا من أنفسهم حرّاسا لها إلى غاية المكان المتجهة إليه.

كان الأمر ليكون أكثر بساطة لو أننا عدنا إلى مقرنا السابق، فقد كان باق دون أن يشغله أحد منذ الرحيل من البلد (du Bled)، وكانت جريدتنا لا تزال تعتبر دائما مستأجره الشرعي ؛ فقد قمت بزيارته بعد عودتي في الساعات الأولى من الصباح، كانت أبواب الطابق الأول التي تطلّ على المطبعة غير مغلقة ولاحظت ما عدا شابا جزائريا معوقا جالسا وحيدا متفرغا في قاعة التحرير الكبيرة، أنه لا أحد في الدار. عرّفته بنفسي ثم طلبت منه أن يخبرني ماذا يفعل هنا.

"قدمت من تونس، يقول لي. أرسلني الأخوة إلى هنا لأخبر كل من يأتي أن هذه البناية تم حجزها من قبل جبهة التحرير الوطني لتخصيصها لجريدة *El Moudjahid* ..".

استغربت لهذا .. ففي الوقت الذي لم يمر على استعادة الاستقلال إلا أيام معدودة، وأن البلاد كانت فريسة للفوضى بسبب رحيل الأوروبيين السريع،

وعرضة لصراعات الأخوة الدموية أحيانا بين الولايات والانشقاقات والانقسامات ما بين القادة الذين كانوا يضعون البلد على حافة الحرب الأهلية، كان الأمر المستعجل والمهم بالنسبة للبعض في تونس أن يقلقوا من "خطر" إعادة صدور جريدتنا الممكنة، ومن الإجراءات التي سيتم اتخاذها لجعلها ممكنة.

كان سهلا عليّ - إذ فكرت في ذلك لحظة - لأقول للشاب المبعوث بأن يخلي المكان ويخبر أولئك الذين أرسلوه أن "الجزائر الجمهورية" ستستعيد بشكل عادي مقرّها وأن لا نقاش بالنسبة لمسؤولي الجريدة أن يقبلوا بهذا القرار العدائي وغير الشرعي زيادة على ذلك. لكن هذا كان يمكن أن يحمل في ما معناه، قبل أن تستقر جريدة El Moudjahid نهائيا بمدينة الجزائر، أنه يفتح باب للعداء والخصومة مع إدارتها، الأمر الذي كان غير مستحب.

وبينما هي الأمور كذلك، كان فريقنا الصغير في الجهة الأخرى من نهج Pasteur بنزل Albert 1er بغرفة واقعة في الطابق الأول تم إخلاؤها من أثاثها لتعويضه بكراسي وطاولات جمعت من الطوابق الأخرى دون أن يتجرأ صاحب الفندق كلّه مشدوها ليحتج على تصرفنا هذا. لم تكن الغرفة التي كنا نشغلها أكثر اتساعا من شقة (بوشامة) - أين بقي (صالور) ومن كان يعينه لضمان الحد الأدنى من الخدمات الإدارية - لكن الفائدة الكبرى أنه أصبح يكفينا للوصول إلى المطبعة أن نقطع الشارع فقط ونتجنب بالتالي مخاطر التنقلات الليلية من باب الوادي.

أصبح الفندق الذي كان يشغل معظم طوابقه إلى غاية أيام "الجزائر فرنسية" ضباط وموظفون في مهامات مختلفة، أحد مراكز لقاء مبعوثيّ الجرائد الخواص ووكالات الأنباء جاؤوا من كل مكان ؛ فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور الجريدة لكتابة مقالاتهم ويقدرون بعين احترافية وبنوع من التعاطف مآثر وإقدام زملائهم هؤلاء في "الجزائر الجمهورية" من أجل

بعث هذه الجريدة من جديد. لمّا أوقفني أحدهم في البهو أو في السلم يطلب مني رأيي حول الوضع الراهن، لم يفته أن يسألني إن كان صدورها سيمكنه حقيقة الاستمرار و إن كنت أؤمن أننا نحن ذاتنا أصحاب الجريدة بامكاننا الصبر لمدة طويلة في مواكبة الوتيرة وتحمل الشروط التي تفرضها علينا الظروف. لم يلتقوا بأي أحد منا قط في المطاعم حيث كانوا يتواجدون ولا حتى في بعض الخانات الباقية مفتوحة، ليست هذه أماكننا التي نفضل التردد إليها والقليل من المال والوقت الذي كان بحوزتنا لم يكن ليسمح لنا إلاّ ببعض المشروبات الغازية والسندويتش الذي نلتهمه في المكان عينه.

أيام قليلة بعد وصولي من مدينة مرسيليا ليلا، مجهولون بزيّ موحد يحملون أسلحة - كما وأنهم يستعدون للهجوم -، يطرقون باب الشقة الصغيرة التي تركها أصدقاؤنا إلا مؤقتا تحت تصرف (عبد الحميد بنـزين) الذي اقترح عليّ أن أتقاسمها معه ؛ لم نكن نشعر بالأمن فيها، وباقتراح مني غادرناها عشية الحادثة. بعد عدم استجابة أحد لهم، يكسرون الباب غاضبين، فيدخلون ليجعلوا عاليها سافلها ثم وحسب أقوال أحد الجيران يغادرونها محدثين ضجة معبرين عن خيبتهم. بالطبع فقد نجونا .. نجونا (بنـزين) وأنا من محاولة اختطاف أحبطها رحيلنا الطارئ.

سمع في الليلة نفسها لصدور العدد الثاني للجريدة الذي تم إعداده كليّة بالجزائر، طلقات نارية لسلاح رشاش تتفرقع على واجهة الفندق إذ رأينا سنا برقها يتطاير من خلال زجاج نوافذ الغرفة التي كنا نشغلها وتساءلت لحظتها إن لم يكن هذا تكملة للإنذار الذي سبق وقد قدّم لي في مدينة براغ، من قبل الأشخاص أنفسهم.

"إنهم يطلقون النار علينا " يصرخ (زينتاتشي) - ولتمييزه عن ابنه كنا نناديه " le vieux Zannett " - الذي وقبل ساعة من الواقعة كان وقد جمع لمّا طلبت منه دفع الطاولة بعيدا عن النافذة المضيئة حيث كان هو يشكل من

ورائها هدفا كاملا ؛ فالرصاصة التي كادت تقتله إن لم يكن غيّر مكانه بقيت مركوزة في الحائط.

كان يجب الاختباء في قاعة الحمام حتى نتمكن تكملة العمل الذي بدأناه، حيث هناك المكان الوحيد الذي كان يبدو محميا نسبيًا، ثم إيصال النسخة إلى غاية الورشة من الجانب الآخر للشارع الذي كان يتعرض لطلقات نارية متقطعة. كان بهو قاعة التحرير القديمة الذي هيئته يشكل ملجأ آمنا ضد الطلقات، لكنه كان يفتقد إلى الإنارة الجيدة مما يصعب العمل فيه. مراسلو الصحف ينزلون إلى بهو الفندق ليعلقوا على الأحداث ؛ أظهر أحدهم رصاصة بعيار 9 ملم تهرست إلى رأس سريره وقال أنه عدّ سبعة وعشرين أثرا لطلقات على الأجنحة وحيطان الغرفة. فقد قرأت في عددها لشهر أوت لـ Lettres françaises الرواية الحقيقية، وإن جاءت متهوّسة نوعا ما، التي نقلها عن هذه الليلة مبعوثها الخاص الكاتب جون بيار شابرول (Chabrol Jean-Pierre) الذي كان هو أيضا حاضرا في فندق Albert 1er. "ليس لجريدة *Alger républicain* مقر تعمل فيه، وعملية التحرير تتم في غرفة فندق. تعرضت غرفة التحرير إلى طلقات نارية محكمة الليلة السابقة ممّا أدّى فريق الجريدة يفرّ مختبئا إلى الحمام حيث مواصلة التحرير، هذا جالس في المغطس، وذاك على حوض الإستبراء، وتصميم الجريدة التقني على المغسل. وهكذا تم العمل ليلحق بعدها إلى غاية المطبعة بعد قفزات احترازية متعاقبة، وقيام وانبطاح متلازمين .. على هذا المنوال تحت عملية تصحيح المسودات المطبعية الأخيرة وبالانبطاح إلى الأرض للتمكن من تجنب طلقات الرشاش النارية المتتالية. هكذا ليخرج هذا العدد مثله مثل الآخرين في الصباح الهادئ للمدينة. ما أغرب هؤلاء الصحافيين الذين جعل منهم أهداف للقتل وهم الذين لا تراهم يشكون إلا من نقصهم الورق للظهور في أربع أو ست صفحات - مثل منافسيهم الذين لم يمنعوا قط عن الظهور،

لا يزالون يواصلون ناجحين الجري وراء سلان (*Salan*) وشال (*Challe*) وغودار (*Godart*)، هم الصحفيون الذين يبذلون كل ما في وسعهم لصناعة عددهم اليومي، يجب أن يبقوا أحياء بعد كل جهد مضن ولا يريدون شيئا آخر طالما لديهم ضعفين أو ثلاثة أضعاف السطور التي سيكتبونها والمسودات لإعادة قراءتها".

كان كل عدد يخرج إلى الساحة يسجل انتصارا يعزّز مكانة ومصداقية الجريدة ويزدها قوة جديدة. كنا نرى كل يوم الرسائل تتهاطل على صندوق بريدنا بالعشرات للترحيب بعودتنا، أو لتقديم مساهمة مالية، أو اقتراح لإنشاء مركز للبيع، أو لتعيين مراسل في أحد الأحياء أو القرى. لم يكن سبب هذه الشعبية الواسعة التي لقتها الجريدة راجعا فحسب إلى كفاحها ونضالها السابقين وإلى الثقة التي تحيط بمنشطيها الذين عادت إمضاءاتهم إلى الظهور مرّة ثانية بعد سنوات من الصمت، ولكن أيضا - وبالدرجة الأولى من دون شك - إلى مواقفها السياسية. كما تابع موقفها الرافض للانحياز إلى النهج اللامسؤول لمختلف قادة الولايات أو للعشائرية وإبداء الاختيار ما بين القادة التارخيين الذين كانوا يتعاركون من أجل الحكم، أنها واجهت هؤلاء بالإرادة الشعبية التي كان يتم التعبير عنها في كل النقاشات والتي كانت تطالب منددة بالمواجهات الجارية بالعودة إلى السلم حتى يتسنى تناول المهام الكبرى المتعلقة بتنظيم البلد الذي عمّه الخراب.

وبأكثر بلاغة كان الأشخاص أنفسهم من الذين كنا نعرف أنهم يعارضون إعادة صدور الجريدة يحاولون اقناعنا أو إغراءنا أنه يجب علينا حتى نبقى أوفياء لاختياراتنا الديمقراطية أن نساند مجموعتهم هم دون كل الآخرين. وقد كان (بن يوسف بن خدة) - الرئيس السابق للحكومة المؤقتة المنقضية - وأن صرح في مدينة الجزائر أمام الشيوعيين أنه، وبعكس خصمائه، مع حرية التعبير بكل حزم. ومن وهران يقوم (محمد خيضر) الذي ضمّ صوته أسابيع

من بعد في إطار سلطات جبهة التحرير الوطني إلى الأصوات المطالبة بمنع الجريدة، بإبداء سخطه على الرقابة التي كان يفرضها عليه قادة الولاية الرابعة ؛ لأن هؤلاء كانوا يطمحون، بعدما أمكن لهم إبعاد قادة المنطقة الحرة، إلى التفرد بسلطتهم على مدينة الجزائر. كما كان لـ (محمد بوضياف) من تيزي وزو أنه ضاعف هو أيضا من نداءاته لمحاولة إقناعنا بالانضمام إلى صفوفه. "إنهم فاشيّون !فاشيّون !" يصرخ على سماعة الهاتف وهو يحدثني عن أولئك الذي يعارضهم.

ولا أحد من هؤلاء الذين كانوا يتناحرون، والأسباب عديدة، قام وقدّم تشكراته لمن راح يردد الشعار الذي تفجر عفويا في الشوارع والذي بسرعة البرق ينتشر في كل بلاد الجزائر : "سبع سنين بركات!" (يكفينا سبع سنوات آلاما !).

جعلنا من هذا الشعار – باللغة العربية لكن حروفه كتبت باللاتينية – مقالا ذا ثمانية أعمدة في الصفحة الأولى لتاريخ 30 أوت 1962. جاء المقال الرئيسي ليخطر وينبّه كل الخصماء بوضع السلاح جانبا، ويعظم من شأن الجزائريين الأبطال الذين نزلوا إلى الشوارع دون خوف من تعرضهم للرصاص المتطاير للحيلولة دون هؤلاء الخصماء الذين كانوا مستعدّين ليقتتلوا.

كانت العناوين الأخرى للأيام التي تلت من نفس الاهتمام مرسومة على كل عرض الصفحة : "بدأ الشعب يتحرك للوقوف دون قيام حرب أهلية!" وأيضا : "ليسكت صوت الرشاش !" إلى جانب هذا العنوان الفرعي : "يقوم سكان القصبة الذين تدخلوا معارضين إزاء عمليات تراشق بالرصاص ليوقفوا معركة بين الأخوة الأعداء..".

المثال المذكور تكرر أيضا في بوغاري، الأصنام (Orléans-ville)، المدية، أولاد ارهيو (Inkermann) وفي جهات أخرى. من جهته يدعو الإتحاد العام

للعمال الجزائريين (UGTA) أي المركزية النقابية، الذي تبنى مواقف الجريدة "العمال بمعارضة المواجهات بمظاهرات ضخمة" ؛ لم يكن هذا ليعجب رجالا تعوّدوا الحديث وإقرار القرارات "باسم الشعب" ولا يقدرون أبدا أن يقوم هذا الأخير ويسمع صوته إلا إذ كان ذلك لتأييدهم هم ومدحهم.

قررنا أن ننشر برنامج جبهة التحرير الوطني بكامله، المصادق عليه في مؤتمر طرابلس في جوان 1962، من قبل المجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA)، هذا البرنامج الذي عرف تحت اسم ميثاق طرابلس كان ذا أهمية أساسية لأنه يحدّد التوجهات المستقبلية للجزائر المستقلة، غير أنه بقي في الواقع مجهولا لدى الجزائريين ؛ فلم تكن المفارقة إلا جليّة، فإن الذين انتخبوا على مصادقته لم يقوموا بذلك إلاّ بضغط أفرزته ظروف معينة، فقد كان صعبا عليهم الإفصاح هكذا علنا عن التحفظات التي كانوا يخفونها إزاء نصّ بالأكثر أساسي وجوهري بحسب رغبتهم التي تنادي مثلا بأنه يجب أن يتم تطور الجزائر "في إطار عمليات التأميم يخطط لها بالضرورة ضمن منظور اشتراكي" أو الأسوأ من ذلك، الذي يحذّر من "مصالح ومطامع الطبقات البرجوازية والبيروقراطية".

بالطبع لم يكن الرجال المتخاصمون على الحكم - بما فيهم الذين انخرطوا بصدق إلى الأفكار الكبرى للبرنامج - متفقين مع ذلك حول نقطة : ليس من الضروري في الوقت الحالي إشراك "الشعب" - المنظور إليه ككتلة موحّدة وقوية - في هذه النزاعات الإيديولوجية والسياسية الأساسية، لم يكن هذا إلا ليساهم في "زيادة في الفوضى" حسب مقولة قالها (أمحمد يزيد) بمناسبة إعادة نشر الجريدة ؛ كنت أرى عكس ذلك مثل (بوعلام خلفة)، العائد من فرنسا أين شارك بعد فراره من سجن Caen في النشاطات الخارجية للحزب الشيوعي الجزائري، والذي أصبح اليوم بصفته مديرا مشاركا مشارك يقاسمني المسؤولية السياسية للجريدة، أنه بقدر ما يتم

الإسراع في تجاوز الخصومات الشخصية والعشائرية، بقدر ما يعجّل بالجزائريين ليكونوا مؤهلين لفهم الرهانات الحقيقية.

تم إذن اتخاذ قرار نشر نص طرابلس، كما جاء شرحه في مقدمة المقال "استجابة لأمنية كل الجزائريين الوطنيين الذين يتساءلون في خضم الاضطراب الكبير الذي أدخلت جبهة التحرير الوطني البلاد فيه حول المخرج لهذه الأزمة وحول النهج الذي يجب على الجزائر أن تنتهجه لبناء مستقبل أمة مستقلة".

لم يكن من الممكن أن مثل هذه المبادرة ستلقى رضا أولئك الذين طلبوا من دون جدوى مساندتنا للوقوف إلى جانبهم في مخاصماتهم، لكن سخطهم الذي أظهروه لم يمنع الجريدة من كسب شهرتها وتوسيع نشرها إذ كان يتراوح سحبها ما بين 80.000 إلى 100.000 نسخة ليستقر، بعد ظهور يوميات جبهة التحرير الوطني في منطقتي وهران وقسنطينة، عند العدد 65.000 إلى 70.000 بينما لم يكن le Peuple -"الشعب" في الطبعة العربية- لسان حال الجبهة الرسمي ليتجاوز الـ 15.000 إلى 20.000 نسخة.

تم حلّ المشاكل المادية للجريدة في وقت قياسيّ، فبأقل من شهر بعد معسكرنا في فندقAlbert 1er، أصبحنا نعمل في مقر واسع يقع بالقرب من وسط المدينة، بالطابق الأول من عمارة ذات شرفات تطل على شارع Baudin الذي سرعان ما أعيدت تسميته إلى شارع العقيد عميروش. لم يسبق قط لـ "الجزائر الجمهورية" أن قمعت بهذا الفضاء الواسع، ولم يعد يفكر فيه أبدا العودة إلى مقرنا السابق حيث أضحت قاعاته تبدو لنا جد ضيقة. وبسرعة كبيرة عاد التقسيم للصفحات إلى قواعده الماضية إذ تعززت هيئة التحرير بمعاونين جدد انخرطوا إلى مدرسة القدامى. كما جاء بعض المحترفين من الذين وصلوا من فرنسا مثل جاك كنابا (Jacques Kanapa) المخبر الصحفي - المصور السابق لجريدة l'Ecran français-، وجيروم فقار (Favard

Jérome) وألبير بودري (Albert Baudry) مركب صفحات الجريدة، اللذين تم استعارتهما بطلب من جريدة l'Humanité، جاء هؤلاء ليقدموا لنا مؤقتا يد المساعدة.

الانتشار الواسع الذي حققته الجريدة جعل منها اليوم أول أكبر يومية في الجزائر، ولأول مرة في تاريخها أصبحت الجريدة تسمح لنفسها بحكم الوفرة المالية أن تمنح لمعاونيها مرتبات، وإن كانت متواضعة، تفرق عن تلك الزهيدة - وعادة ما كانت تدفع بكثير من التأخر - التي كانت في فترة الاستعمار.

بالنسبة لهذه المسألة، فقد كان للروح النضالية التي كانت تحرك أعضاء الفريق المكوّن أنها جلعت من هؤلاء لا يتطلّعون راغبين لتلك الرواتب الشهرية -أحيانا ثلاثة أو أربعة أضعاف أكبر ممّا يؤجرون هم- التي كانت تمنح لإطارات الصحافة المكتوبة والإذاعة لجبهة التحرير الوطني.

لاحقا لمّا تطرق للحديث تحت ضغط القادة السياسيين الذين لم يتخلوا عن فكرة إسكات "الجزائر الجمهورية" وعن اندماج وانصهار هذه الأخيرة مع جريدة le Peuple وعن المساواة "من الفوق" في الرواتب التي تتبع ذلك، ظهر مشكل سياسي حقيقي ليعارض ذلك. في أثناء أحد الاجتماعات حيث أصبح الموضوع محل نقاش، عبّر (لخضر قايدي) إطار نقابي سابق كان يحظى باحترام الجميع ومسؤول عن الزاوية في الجريدة الخاصة بأمور المجتمع، عن شعوره الذي كان تتقاسمه معه كلّ هيئة التحرير : "كيف يمكنني أن أكتب أنه يلزم على العمال المزارعين أن يقتنعوا في الوقت الحالي بمرتباتهم الزهيدة إذا كنت أنا نفسي أتقاضى ست أو سبع مرات أكثر منهم ؟ لكن لم نصل بعد إلى هذا الحد والنقاش لن يفضي إلى أي نتيجة لأن انصهار الجريدتين لن يتم أبدا.

انتهى الصيف وبدأت هياكل الدولة الجديدة تأخذ شكلها، والمكتب السياسي المكوّن حول (أحمد بن بلة) و (هواري بومدين) ينتصر أخيرا على كل معارضيه ويقوم بدور الحكومة بالعاصمة. وعلى الرغم من الاختلافات المستمرة - بخاصة مع محمد بوضياف وحسين آيت أحمد - يقوم هذا المكتب بتوسيع من سلطته على كل الجزائر.

جرت الانتخابات على المجلس الوطني التأسيسي في سبتمبر 1962، حيث تم اختيار المترشحين من قبل القيادة الجديدة لجبهة التحرير الوطني او على أية حال بضمان منها دائما ؛ أكيد و أننا كنا نتمنى لو أن العملية تمت بطريقة ديمقراطية، لكن الأهم في كل هذا بعد الأزمة الخطيرة التي هزّت البلادّ، هو الخروج من حالة المؤقت والمواجهة السريعة للمشاكل العظيمة التي خلّفتها الحرب : أربعمئة آلف يتيم، خمسمئة ألف لاجئ يعودون من تونس والمغرب، مليونان من البطالين، الآلاف من القرى والمداشر مدمّرة، جزء كبير من ماشية البلد أهلكت، مئات الآلاف من الهكتارات لأراض صالحة بقيت مهملة.

يلبّي الناخبون والناخبات نداء السلطات الجديدة، وكان للمركزية النقابية (UGTA) والحزب الشيوعي الجزائري وجريدة "الجزائر الجمهورية" أن دعت هؤلاء الناخبين، بعيدا عن جبهة التحرير الوطني، أن يصوّتوا بقوة لصالح القوائم التي اقترحت عليهم على الرغم من التحفظات المبررة التي كان يثيرها نمط الاقتراع والاختيار السلطويّ للمترشحين.

كانت الأجواء الجديدة البهيجة التي أزالت الشعور المرّ بالخيبة الذي أثارته الأزمة، والحماس الفياض الذي رحّب بالتوجهات الرسمية الموافقة لآمال الشعب، تذكرني بالفترات الأولى للثورة الكوبية وتطري من رجاء كل من قاتلوا أن تفتح حرب التحرير الطريق أيضا إلى تحوّلات ثورية لصالح من يزحر في الفقر المدقع، وكذا بعيدا إلى إقامة مجتمع اشتراكيّ. تلقت

المراسيم الحكومية الأكثر أهمية مثل تلك التي صدرت في أكتوبر ونوفمبر 1962 التي تصرّح بأن الأراضي التي كان يملكها كبار الكولون سيتم توزيعها على العمال المزارعين الذين جدّوا وكدّوا مثل العبيد في أراض مغتصبة ملك أجدادهم، ترحيبا وارتياحا كبيرين.

وسيكون للجان التسيير الذاتي للعمال المنتخبين ديمقراطيا مسؤولية الإدارة الجماعية للمؤسسات. لم تأت هذه الإجراءات إلاّ لإعطاء الطابع القانوني لوضع في الحقيقة كان موجودا نتج عن مبادرة من العمال أنفسهم، لأن هؤلاء لم يكونوا لينتظروا نشر نصوص رسمية حتى يستولوا على أراض ومزارع هجرها كبار الملاّك وينظموا فيها حياتهم الجديدة. وفي مارس 1963، يصدر مرسوم بأحكام تتناول كل "الأملاك الشاغرة" (les biens vacants) ؛ ليتم الإعلان عن هذه القوانين رسميا من قبل الرئيس (بن بلة) في خطاب متلفز :

"كل المؤسسات ذات الطابع الصناعي أو التجاري أو الحرفي أو المالي أو المنجمي، كل الأراضي الزراعية والغابية، كل المحلاّت والعقارات أو قطع العقارات التي ثبت شغور في شأنها إلى تاريخ *22* مارس *1963* تعتبر نهائيا "أملاكا سائبة" وعليه يعود تسييرها وبصفة نهائية إلى العمال الجزائريين. وبدءا من اليوم ليس هناك من حديث عن "أملاك شاغرة" لكن عن مؤسسات وأراض للتسيير الذاتي".

نسينا أن نعدّ عددا خاصًا للإشارة إلى أهمية الحدث ؛ لاحظنا أن هذه القرارات التي تدفع الجزائر المستقلة للاعتماد بالدرجة الأولى على العمال وعلى الطبقات الأكثر فقرا، تم استلهامها مباشرة من برنامج مؤتمر طرابلس، الذي يحذر أيضا من المخاطر الجديدة التي بامكانها أن تظهر :

"تفيد تجربة بعض البلدان حديثة العهد باستقلالها أنه يمكن لطبقة اجتماعية ثرية أن تستولي على الحكم لصالحها ولوحدها فقط ؛ وبناء عليه

تحرم الشعب ثمار كفاحه ثم تتقطع عنه لتتحالف مع الامبرالية. وباسم الوحدة الوطنية التي تستغلها في الوقت المناسب، تدعي البرجوازية أنها تعمل لفائدة الشعب طالبة منه تأييدها[6].

لم يكن للمناضلين الشيوعيين ولكل الذين انفتحوا قليلا أو كثيرا على الماركسية في الحركة الوطنية، إلا ليفرحوا وهم يرون النظام الجديد يتبنى بعضا من أفكارهم واختياراتهم الأساسية. لكن جانبا آخر هاما من القضية ذا إمكانية كبيرة لإعادة النظر في كل شيء غاب عنهم : تتكون قيادة جبهة التحرير الوطني من عناصر ذات وجهات متباينة ؛ فالبعض يتظاهر بالانخراط الكلي إلى هذا التوجه الاشتراكي المعلن في النصوص والتصريحات الرسمية، بينما الواقع يقول عكس ذلك. فهم ينتظرون فقط الظروف المناسبة للاعتراف بذلك والتصرف بموجبه ؛ فلم يكن إلاّ بضغط منهم. حتى أصبح الحزب الشيوعي الجزائري رسميا محظورا في نوفمبر 1962.

زمن الأوهام والانطلاقة الجديدة

عدنا من جديد مطوّعين إلى صخب النشاط النضالي بقليل من الوقت ممّا كان لدينا في السابق حتى ننظر لأنفسنا ونعتني بها قليلا بعد سنوات من العمل في السرية والسجن والمنفى، والفرقة الممتد زمنها التي لم تكن لتتقطع فتراتها إلاّ ببعض الملاقاة الوجيزة بمدينة براغ. التحقت (جيلبرت) بمدينة الجزائر في الأيام الأولى من شهر أوت 1962 في الوقت الذي كانت الحياة لا زالت لم تعد إلى طبيعتها، أما ولدانا اللذان كانا لا يزالان يقيمان في المدرسة الداخلية بـ Ivanovo فلا يمكنهما الالتحاق بنا إلاّ بعد أن نتمكن من تسوية نهائيا مشكلتنا في السكن ونعرف في أي الظروف يمكننا تسجيلهما لمتابعة دراستهما. وفي انتظار ذلك يقوم باتيست بيريتو (Baptiste Peretto) الأمين السابق لنقابة عمال الميناء، بمنحنا شقة مؤثثة تركت شاغرة بعد رحيل إحدى قريبات زوجته، بالطابق الثالث بعمارة تقع بنهج Guillemin بباب الوادي. كان يبدو المنزل وأنه تم إفراغه عن آخره تقريبا من قبل سكانه الأوروبيين السابقين، إلا أنهم تركوا آثارا تشهد على الرعب الذي تملكهم أيام المنظمة السرية المسلحة (OAS) ولم يتحرّروا منه حتى عند رحيلهم؛ كذلك كان يشهد على ذلك قضيب من الخشب كبير مثبت في جانبيه إلى محاجن يستخدمونه عند أول الليل كدعامة ينصبونها إلى عرض الباب ترد عليهم أي اقتحام محتمل.

ناديت (جيلبرت) على الساعة الواحدة صباحا تقريبا بعد خروجي من مقر الجريدة، أيقظتها حتى تحضّر نفسها لنزول الطوابق وتفتح لي الباب لتنحية العارضة الثقيلة التي تسدّ المدخل. كانت الشقة التي كنا نسكنها بشارع la Redoute قبل الحرب لا زالت شاغرة، كانت (جيلبرت) وقد تركت مفاتيحها عند صديقة مناضلة من منطقة قسنطينة، التي تكون غادرت المكان لتلتجئ إلى العاصمة بعدما تم طردها من الشقة بقرار من سلطات المدينة، وقبل عودتنا بقليل غادرت المكان لكن لم يكن يبدو لنا من الفطنة الإقامة فيها، سيمكننا دون صعوبة إيجاد شقة أخرى في حي آخر من المدينة؛ وبالفعل، ونحن نبحث في شوارع الأبيار نلتقي بالصدفة مع زوجين أوروبيين كانا يتهيآن للرحيل فيقبلان كراءنا بيتهما الصغير ؛ كان يحتوي على أربع غرف ومقارنة بمنـزلنا السابق بدا لنا واسعا.

كان الشارع يحمل اسم الرقيب Rochoux الذي "خلّد" - لكن ليس طويلا - برفعه على l'Empereur-le Fort القريب جدا أول راية للغزاة المستعمرين. فقد أبهرنا رونق المنظر الشامل الذي اكتشفناه من خلال السطح الذي نصعد إليه باستعمال سلم صغير، ودون أن نتبادل أيّ كلمة نقرر الإقامة في هذا المنـزل.

كانت المدينة البيضاء تظهر تحت أعيننا ممتدة على طول ساحل البحر ذي اللون الأزرق إلى غاية الأفق، وناحية الشرق هناك بعيدا ترتسم السلسلة الجبلية ذات الضباب لمنطقة القبائل التي كانت على أبهة لاستقبال أولى الثلوج لتغطية قممها. وعند أول الليل يبدأ السهل والميناء الممتدان أمامنا مثل ديكور زاه يتلألأن ويومضان بأنوارهما المتألقة ؛ منظر ذو جمال باهر ونادر جدا إلى درجة أنه بدا لنا غير حقيقي. إنها العطية التي يقدمها لنا هذا البلد الذي وجدناه بعد فقدانه زمن القلق والإضراب والبعد.

في كل مرة يتجلى هذا الديكور الفاتن والساحر أمام عيني من خلال سطح المنـزل أو من على منعرج درب من الدروب، تعود بي ذاكرتي إلى سنوات

الشباب أين كنا نذهب (جيلبرت) وأنا للاحتفال في إحدى الأمسيات بأحد الانتصارات السياسية أو الصحفية إلى صعود المدرجات العريضة المؤدية إلى الحكومة العامة، كنا نتوقف في الأعالي لنتأمل la baie و أضواءها وتنفس هواء البحر .. فقط مسرورين أننا نعيش.. ونعيش معا فترة مميزة.

كانت الجزائر تتجه برمتها بحزم نحو المستقبل، إلى درجة أنه لم تعد تظهر تلك الأسابيع الدموية المعاشة غداة الاستقلال إلا ككبوس بعيد اندثر ؛ إذ ترى كل واحد يتشرف بنوع من الاستبشار والحبور بلبّ نداء المسؤولين هكذا "ليشمّر على ساعد الجد" ويساهم في بناء الوطن. وخلال أشهر أضحت الأراضي المهجورة محروثة، ثلاثة ملايين هكتار زرعت قمحا، كما شرع في بناء القرى المهدّمة والقضاء على البيوت القصديرية وحلّ مشاكل التمدرس والصحة والبطالة. ولإيقاف خطر الجفاف تم تفعيل على الميدان مخطط ضخم في عملية التشجير، وفي أجواء من العرس يخرج مئات الآلاف من الجزائريين والجزائريات بنية غرس شجرة لكل واحد منهم في أرض جرّدها ريح الجنوب وكلهم شعورا فياضا أنهم يعيدون لها الحياة من جديد.

ففي هذه الأجواء الإغتباطية دخلنا (جيلبرت) وأنا منزلنا الجديد الذي أصبح ملكا لنا، لم تكن عملية الترحيل معقدة، فقد تم وضع الثياب والفرش، وأواني المطبخ، والكتب والأسطوانات، والأثاث (طاولة، أربعة كراسي، خزانة، أسرّة، مذياع) داخل شاحنة صغيرة لأحد الأصدقاء ثم نقوم بنقل الكل إلى غاية حي الأبيار. أثار وصولنا بعض الاضطراب في الشارع، فمعظم السكان السابقين – في مجملهم أوروبيون – كانوا وقد حزموا أمتعتهم ورحلوا والباقون يحضّرون للقيام بذلك تاركين المكان للجزائريين ؛ وها هو أمرنا يثير الغرابة والتساؤل، زوجان أوروبيان وولداهما يأتون للإقامة بالحي، فقد كان للأمر مدعاة للحيرة بالنسبة لهؤلاء السكان حديثي العهد بهذا الحي الذين في معظمهم أميّون ذوو عائلات تميزها كثرة عدد أفرادها، حيّرهم حضورنا وبدا موقفهم منا متحفظا.

لم نقدّر جيدا مدى الفقر الذي كان يميز معظمهم ممن جاؤوا من المداشر المهدمة، وحتى ولو كانوا يسكنون منـزلا فاخرا استولوا عليه دون إذن أحد، فالكثير منهم فقراء لا يستطيعون دفع حتى فاتورة الكهرباء الباقية دون أن تقضي من قبل السكان السابقين، تراهم يستضيئون إلى شموع.

وكان لبعض جوانب سلوكنا - أمور لم نفكر فيها لحظة - أنها كانت تصدمهم وتزعجهم دون أن ننتبه إلى ذلك. ذات صباح خرجت (جيلبرت) لتتسوق عند بقال الحي، اشترت ثلاث زجاجات من الزيت وبينما هي تغادر الدكان، يشير طفل متواجد هناك لصاحبه قائلا له بلغة فرنسية وبصوت عال حتى تسمعه : " انظر! مثل الكولون ! .."

ما قامت بإنفاقه (جيلبرت) يعتبر من الكماليات بالنسبة لأولئك الذين يشترون نفس المنتوج بقيمة الربع أو النصف والسجائر بالوحدة. كنا في أعينهم نمثل جزءا من هؤلاء المحتلّين المستغلّين الذين تمكن البلد من التخلّص منهم، لم يكونوا يعرفونهم إلا من بعيد ولا يعلمون عن أخبارهم إلا أنهم أغنياء ومتعجرفون وأشرار، وكوننا نحن لم نرحل "مثل الآخرين " أمر يحيّرهم. لكن علاقتنا الطيبة مع الجميع والكلام الذي شاع في الحي حول من نكون حقيقة ساهما في تغيير الأجواء من حولنا. في البداية كان موقف جيراننا إلى الجنب باسم (فروخي) - من سكان المدينة القدامى، وكانوا لا يجهلون مشاركتنا في الكفاح - مختلفا، كنت أعرف أحد أقاربهم اسمه (مصطفى فروخي) عضو في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) ومفوّض لدى المجلس الجزائري، توفي على اثر حادث طائرة أثناء مهمة كلفته بها جبهة التحرير الوطني. تكونت بسرعة علاقات بيننا وبينهم والمثل الذي كانوا يقدمونه بالإضافة إلى وجود (العربي بوهالي) الذي وجد منـزلا يسكن فيه مقابلا لنا، ساهما في كسب ودّ سكان الحي. في يوم العيد مثلا أو في مناسبة حفل زفاف يطلبون مني -حيث لا أحد في الحي كان يملك آلة تصوير- المجيء عندهم

لالتقاط صور عن العروس وأمها وصديقاتها. وبحكم أن مسكننا هو الوحيد الذي بقي فيه هاتف غير معطل – تم قطع خطوط الشقق الأخرى بسبب عدم دفع الفاتورة – يطرق في كل مرة علينا للقيام بمكالمة. أطفال يأتوننا مبعوثين من قبل أوليائهم ليهدونا طبقا من الحلوى احتفالا بمناسبة سارة، ولاحظنا أن البعض منهم لا يقوم بذلك إلا عند الليل، كما وأن الذين يبعثونهم يريدون تجنب أن يقال عنهم أن علاقتهم معنا جد حميمية، كانوا يخشون الملاحظات الضاغنة لأحد الموظفين الساميين الذي لم يبخل على نفسه لتملكه لأفخر فيلا في الحي وتفرده الحق في الوقت نفسه في مَراقبة كل السكان والنظر إليهم من أعلى.

حدث ليس بالعظيم أثار فينا بعض القلق، أصبح ابننا (جون) يعيش معنا بعد إقامته مع جدته بمنطقة Avignon عند رجوعه مباشرة من Ivanovo، بينما بقي أخوه (أندريه) بالإتحاد السوفييتي في انتظار دخوله إلى الجامعة ؛ كان (جون) ذا الحادية عشر سنة تقريبا ومن عادته يخرج للعب مع أطفال الحيّ إلى غاية اليوم الذي عاد فيه إلى المنـزل بقلب مجروح : " أتعلمان ماذا قال لي محمد ؟ قال لي : الأوروبيون .. أنا أبصق عليهم، اليهود .. أبصق عليهم، الشيوعيّون ..أبصق عليهم ! لم إذن أنا هنا ؟

شرحنا له أن محمّدا لم يقم إلا بإعادة كلام سمعه هنا أو هناك وليس هذا ما يفكر فيه معظم الناس، وإنما هذا كله سيزول مع الجزائر الجديدة.

استغربت الأمر، فلم يحدث لي قط أن كنت شاهدا – ولا حتى عرضة – لأي شكل من أشكال الاعتداء أو السب ذي طابع عنصري على طول السنوات التي قضيتها في النضال أو خلال تواجدي بالسجن بين الجزائريين. هذه الشتيمة التي جاءت على لسان هذا الصبي جاءت لتذكر أن الأحكام المسبقة السابقة التي غذّاها و زاد من حدّتها النظام الاستعماري، لازالت لم تندثر وكان من الواجب السهر على الحيلولة دون تفاقم هذه الضغائن مثل الطفيليات منتهزة الظروف المواتية.

يصرّح قادة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (GPRA) من تونس أن "الثورة" - كانت هذه الكلمة أكثر استعمالا وتداولا مع مرور الوقت عوض "حرب التحرير الوطني" التي كانت مع ذلك أكثر تطابقا مع الواقع - لا يمكنها أن تكون إلا ديمقراطية، وأن كل أولئك الذين اختاروا الجزائر وطنا لهم سيجدون مكانهم فيه مهما كانت أصولهم ومعتقداتهم. وعند استعادة الاستقلال، يؤكد هؤلاء أنفسهم، سيتم اتخاذ كل الإجراءات لتجسيد هذه الوعود على أرض الواقع.

القرارات التي تبناها مؤتمر طرابلس من قبل أعلى هيئة في جبهة التحرير الوطني بالإضافة إلى الإجراءات والتدابير التي أفضت الشرعية عهد الاستقلال على امتلاك أراضي كبار الكولون وحجز الأملاك الشاغرة، وتنظيم لجان التسيير الذاتي للعمال في المؤسسات الزراعية والصناعية، والتعاطف الإيجابي المعلن مع كل حركات التحرر في العالم، وحسن الوفد للمناضلين الآتين من إفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية المجبرين على مغادرة بلدانهم، وإقامة علاقات الصداقة والتعاون مع الدول الاشتراكية، كل ذلك كان يعبر ويؤكد هذا الانفتاح مثلما كانت المظاهرات الجامعة لمئات الآلاف من المشاركين في احتفالات عيد الثورة لأول نوفمبر 1954 أو عيد العمال من أول ماي، أو أثناء استقبال الشخصيات الرمزية الكبيرة مثل فيدال كاسترو (Fidel Castro) وجمال عبد الناصر و زهو آنلي (Zhou Enlai)، تشهد على الانخراط العشبي مع التوجه السياسي المعلن الذي كان يعلو بمدينة الجزائر إلى مصفّ عاصمة العالم الثالث التقدمي والثوري.

كنت على استمرار ملاحقا ومحاطا من قبل عديد من زوار العالم أجمع، صحفيّون يريدون عقد حوارات، موفودون لأحزاب ولحركات التحرر، شرعيّون أو نشطون في السرية، كلهم فضوليّون لمعرفة وجهة نظرنا حول الوضع الداخلي وحول الآفاق الجديدة التي تنفتح على الجزائر. كان

السوفييت والمان الـ (RDA) والتشيكوسلوفاكيون والبلغار، الذين كانت تربطهم علاقات تعاون مع الجزائر، أكثر الوفود حضورا. لاحظت على العموم أنهم كانوا يثابرون على أفضلية تبيين والإعلاء من الجوانب الإيجابية التي كانت تؤكد ثقتهم بمستقبل الجزائر الاشتراكي.

كنت أستقبل ضيوفا أعلم أنهم يسافرون - كان ذلك سرا شائعا - بجوازات سفر جزائرية مزورة، يأتون إلى هنا طالبين عون الجزائر المتحررة في كفاحهم. هكذا من بين الكثير تعرفت على ألفارو كونال (Alvaro Cunhal) أمين الحزب الشيوعي البرتغالي الفارّ من سجن Salazar، وعلى مانوليس غليزوس (Manolis Glezos) بطل المقاومة اليونانية الذي تمكن في خضم وحشية النازيين من رفع علم اليونان على الـ Parthénon، وعلى سانتياغو كاريلو (Santiago Carillo) أمين الحزب الشيوعي الأسباني وأنريك ليستر (Enrique Lister) جنرال سابق بالجيش الجمهوري الأسباني اللذين غادرا أسبانيا تحت حكم فرنكو (Franco)، وعلى ميكاييل هارميل (Harmel Michael) والدكتور دادوو (Dadoo) عضوي المؤتمر الوطني الافريقي، وعلى قيادة الحزب الشيوعي لجنوب إفريقيا.

كما التقيت بشي غيفارا (Che guevara) الذي امتدت إقامته بالجزائر العاصمة إلى أسابيع. ذات مساء جاء في زيارة إلى جريدتنا وبقي معنا نحن هيئة التحرير المندهشين إلى ساعة متأخرة من الليل، الكل كان يستمع إليه بانفعال وانتباه شديدين كما وأنه كان يجسد الثورة الكوبية ذاتها منتظرين منه أن يكشف لنا عن أسرار انتصاره ؛ إلا أنه بدا عاديا بعيدا عن التمظّهر بإعطاء الدروس، فقد كان يجيب على أسئلتنا بكل بساطة والملفت للانتباه أنه كان هو بدوره يطرح علينا أسئلة كثيرة.

ومن حين إلى آخر يخرج بيده الرشيقة قنينة مزوّدة بشبه مضخة صغيرة يضعها في فمه ويضغ بها لمقاومة مرض الربو الذي كان يعاني منه. وعندما

آن وقت مغادرته لنا، يسلمه أحد أعضاء فريقنا صورة طالبا منه إمضاءه، يبتعد قليلا بموقف الحازم ليقول : "لست نجما من نجوم هوليوود، ولست من هواة من يوقّعون إمضاءاتهم للآخرين .." كثيرا ما أتذكر هذه الإجابة لمّا أصبحت صورته التي ترى اليوم في كل أنحاء العالم ويعاد طبعها بعشرات الملايين من النسخ على المعلقات الإعلانية والأقمصة، رمزا لشبيبة تواقة لمستقبل آخر، وأتصور أيضا كيف سيكون رأيه في هذا هو الذي كان يرفض كل تنازل أو الخفض من جناحه "لعظمة الشخصية".

الكل كان يتساءل مع ذلك عمّاذا كان يفعل (شي غيفارا) في الجزائر العاصمة وعمّا ينتظره من جبهة التحرير الوطني، لكن مثل هذه الأسئلة كانت تعتبر من الطابوهات التي يتجنب طرحها عليه والتي من جهة أخرى كان الجميع يعلم أنه لن يجيب عنها. علم لاحقا أن الجزائر العاصمة لم تكن بالنسبة له إلا مرحلة نحو إفريقيا العميقة في بحثه عن منطقة تناسب لتحقيق مشروعه الذي أسسه في خلق بؤرة أو مجمع لحرب العصابات ذا الطابع الثوري في القارة.

كان الأجانب ومن بينهم رجال ونساء التحقوا بالجزائر بعدما ناضلوا من أجل الاستقلال لمواصلة تقديمهم لها العون، وقد تسرعوا نوعا معا للإفصاح عن قناعتهم أن الجزائر قد تمت لها "انطلاقتها الأكيدة"، دون الاهتمام بالوجه الآخر، الأقل تألقا ذي الحقيقة التي تنطوي عليها الكثير من الجوانب التي تناقض الصورة التي يريد القادة تقديمها عنها. لو أن الأضواء سلطت بشكل جلّي على عملية التنصيب الرسمي بحضور الوزراء ولجان التسيير الذاتي الزراعية التي أنشئت في حماس من قبل العمال على أراضي كبار الكولون منزوعي الملكية، لما كان الحديث عن احتكار تم على يد طغمة من المضاربين والمحتالين من كل شالكة، احتكار واستيلاء على الآلاف من المزارع والمحلات التجارية والمطاعم والمؤسسات المهجورة من قبل

أصحابها الأوروبيين، ممّا تم احتلاله وحجزه وكراؤه وبيعه وإعادة بيعه بدون أي قانون أو شرعية، ومن دون أن تأبه أو تتدخل السلطات الجديدة.

لم يفت (بن بلة) أن ينتقد أولئك الذين كان يعني الاستقلال بالنسبة لهم سباقا نحو الكسب السريع والاحتيال، كنا ننتظر مع ذلك وبدون جدوى أن ينتقل النظام من الكلام إلى التطبيق الفعلي والحازم للوقوف ضد كبار المهربين ومحتكري "الأملاك الشاغرة"، أشخاص لم يكونوا يتواجدون في مجموعة "شهر مارس" (les martiens) فحسب - هكذا كانوا يلقبون لأنهم كانوا ينتظرون وقف إطلاق النار لشهر مارس 1962 ليتظاهروا على أنهم مقاومون و وطنيّون - وإنما أيضا في وسط جبهة التحرير الوطني، حتى أولئك من الذين أمكن لهم وأن كانوا مقاتلين حقيقيين وبواسل ؛ أقنعوا أنفسهم بكل بساطة وهم يرون الحرب تنتهي والاستقلال يسترد أنه حان لهم الوقت أن يهتموا بأنفسهم، تلك حالة نفسية مناقضة كلية مع روح التضحية وإنكار الذات التي كانت معروفة إبّان الحرب ضد المستعمر.

بعكس أولئك الذين استولوا على إقامات فخمة دون دفع أي دينار، كان (بن بلة) يرفض هذا النوع من الترقية، فقد كان يقيم ليس بعيدا عن الـ Palais d'Eté السابق حيث إقامة الحكام العامّين، بشقة متواضعة في فيلا Joly التي كان يستخدمها أيضا كمكتب له، كان مع ذلك يغض الطرف عن موقف أولئك الذين أضحى السباق والجري نحو كسب الثروات والبذخ أولى انشغالاتهم، كما وكأن فضحهم لم يكن إلا ليزيد من تعقيد الأمور.

كانت الجريدة تتلقى وتنشر العديد من الرسائل لأصحابها القراء الذين يتّهمون وبالدليل المستفيدين من الاختلاسات والموظفين أو المسؤولين الذين كانوا يحمونهم. وبعيدا كل البعد عن إبداء عرفانهم وتشكراتهم لمثل هذا العمل الذي يصبّ في الصالح العام، كان الوزراء يتملكهم الغضب والسخط لمّا توجّه أصابع الاتهام إلى من هم قريبون منهم. كنا (بنـزين)

و(خلفة) وأنا نتلقى مكالمات هاتفية تأتينا من شخصيات ذات مراتب عليا في الدولة يلوموننا بحدّة - مزودين أحيانا تدخلاتهم بتهديدات - لنشرنا هذا المقال أو ذاك حيث يتطرق بالعرض عن الترقيات غير القانونية وعن النصب والاحتيال؛ وكان من النادر جدا أن تجد من بين هؤلاء الذين يتدخلون بهذا الشكل أحدا يقدم تكذيبا كتابيا للاتهامات ضده أو يطلب مزيدا من المعلومات حول القضية، يرون فقط أن الكشف عن ذلك إنما هو مثير للاستنكار والصخب، كما وأن الشر والضرر ليسا في تفاقم السرقة والفساد بل في فضحهما والتنديد بهما. لم يكن من الصعب أن نفهم أن وجود جريدتنا نفسه لم يكن ليطاق بالنسبة لهؤلاء.

لم يكن (أحمد بن بلة) غافلا عمّا كانوا يقمون به من ضغوطات، فقد صرّح يوما من أن "الجزائر الجمهورية" هي جريدة "تشرف الجزائر"، لكن لم يكن من طبعه أن يتصادم هكذا علنا في هذا الشأن أو في آخر مع قوى ورجال كانوا له في جبهة التحرير الوطني معادين. كما كانوا كذلك بخصوص اختيارات ميثاق مؤتمر طرابلس والتوجه الديمقراطي الحقيقي. وفي إحدى فترات الأزمة، يقوم باستدعاء رئيس تحرير جريدتنا (عبد الحميد بنـزين) ليطلب منه إبلاغنا انتقاداته - اللاذعة للغاية - لما أسماه بـ "التشهير المطلق" و"السلبية" و"السفسطة" مشيرا ضمنيا بمنع الجريدة عن الصدور بلا قيد ولا شرط.

قمنا بعدها نحن الثلاثة بتفنيد هذه الاتهامات بشكل قطعي في رسالة مذكرين فيها إيّاه أن "الجزائر الجمهورية" تقدم "مساهمتها الصادقة لمساعدة الحكومة في مواجهة المشاكل الكبيرة التي تعارضها" كنا نرى "أنه كان من الممكن أن حكمنا لم يكن يتفق مع نظرة الحكومة حول الوسائل الأنجع في تحقيق مثلا وحدة الجزائريين وخلق الحماس الثوري والضروري للدفع به نحو الأمام"، ولكن لم نكن نتصور أن اقتراحاتنا هذه سيتم أخذها

بأي شكل من الأشكال على أنها "سلبية وديماغوجية"، ما كنا ندافع عنه هو وجود لصحافة "في خدمة الشعب .. وفي خدمة الحقيقة .." وذكرنا في سياق ذلك أن منع الجريدة الذي أشار إليه سيكون، إن قدر وحدث، "مساسا بالحريات وإجراءا مضراً للغاية باستقلال البلاد وبطموحاته إلى الاشتراكية وانزلاقا خطيرا يؤدي عبيدا عن الآفاق التي يطمح إليها".

لم يأت أيّ ردّ على رسالتنا، إلا أن (بن بلة) لم يظهر يكنّ لنا ضغينة حول هذا الإيضاح الذي بقي دون أن يعقبه جواب، كان لديّ شعور أن الحدث، على الرغم من الآراء المسبقة التي كان يحفظها عن الحزب الشيوعي الجزائري - كان يفضل مثلا أن يكون محادثه (بنـزين) الذي عرفه في الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) عوض (خلفة) أو أنا شخصيا- دعّم لديه وبصفة متناقضة احترامه للصراحة التي دافعنا بها عن قناعتنا.

قام أحد المخبرين الصحفيين بطرح سؤال عليه أثناء ندوة صحفية نظمت بطريقة ارتجالية بنادي الصنوبر بمدينة الجزائر بمناسبة المؤتمر الدولي الثالث للصحفيين، حول العلاقات التي كانت جبهة التحرير الوطني تجريها مع الشيوعيين وحول الأسباب التي أدت في نوفمبر 1962 إلى الحظر الرسمي للحزب ؛ قرار وقف ضده قادة الحزب الشيوعي الجزائري قبل حتى أن يتم الإعلان عنه، معتبرين أنه "ليس من الحكمة ولا من الواقعية أن يراد فرض بتعسف حزب واحد يناقض الحقائق الاجتماعية". وبينما قدمت جبهة التحرير الوطني نفسها كجبهة جامعة لكل القوى الوطنية، يجد (بن بلة) مسوغا آخر لما نسب للحزب الشيوعي الجزائري أنه خارج القانون : ومصلحة للثورة، لا يجب أن يكون في الجزائر إلاّ حزب واحد الذي هو جبهة التحرير الوطني نفسها. غير أنه، يضيف قائلا، لم يكن في الجزائر من كان يعادي الشيوعية ولن يكون ذلك في المستقبل. وحتى يعطى أكثر ثقلا لتأكديه هذا المصرّح أمام جمهور من الصحفيين في معظمهم جاؤوا من بلدان

اشتراكية، يتجه نحوي كما وأنه يريد مني إقراري له : "اطرحوا إذن السؤال على صديقي علاق .. ليس هو الذي سيناقضني .. ".

لم يكن الوضع محلا للمجادلة، إلاّ أن إجابتي كانت لتكون بالتأكيد مخالفة لما اقترحه وكان يعلم بذلك، يبقى أني أضحيت بعد الآن أبدو في نظر العديد من الصحفيين الأجانب أحد أفراد حاشية (بن بلة). كانوا يتصورون أنه كان لديّ اتصالات عادية معه مثل قادة الحزب الشيوعي الجزائري الآخرين، حتى ولو لم يعد لهذا الحزب وجود شرعي. مثل هذه النظرة للأشياء كانت بعيدة بالطبع عن الحقيقة وتزيد من تغذية الفكرة المغرية المشتركة لدى الكثير من مراسلي البلدان الاشتراكية التي تقول أن قوة الإتحاد السوفييتي بالإضافة إلى المعسكر الاشتراكي جعلت من أن معادة الشيوعية لا تفتئ تتراجع في العالم الثالث. فكرة تؤكد الأطروحة التي وسّع منها بعض الإيديولوجيين اقتفاء بأثر Nikita Khrouchtev، التي تقول أن البلدان التي تخلّصت من نير الاستعمار - والجزائر نفسها - تختار قطع أي علاقة تربطها بها مع الرأسمالية، كما سبق وأن حدث ذلك مع كوبا، لأن ذلك كان يعطي معنى للتاريخ ؛ لا يهم في الوقت الحالي، يقول هؤلاء، أن تبقى الشيوعية التي ينادي بها العديد من قاداتها، غامضة من حيث تعريفاتها ومبادئها أو تكون متناقضة فيما يتعلق بنقاط أساسية مع التحليل الماركسي، إنما المهم هو أنها تحدد اختيارا واضحا وهو "النهج اللارأسمالي" : مفهوم بقي غامضا حيث كان قادة الحزب الشيوعي الجزائري - و أنا شخصيا - نطلب من أولئك الذين يتخذونه مرجعا لهم تعريفا واضحا في المناسبات واللقاءات الدولية.

وعلى الرغم من حماس الملايين من سكان المدن والأرياف والقرى المستعدين للمساهمة بكل قواهم في بناء مجتمع جديد، كان البلد لا يزال يحتاج دائما إلى توجه سياسي واضح، فالخطأ كان من مسؤولية قيادة مزّقتها المصالح المتناقضة، وبالنسبة لبعض من أعضائها أنهم أضحوا قبل كل شيء

جدّ منشغلين ببقائهم في الحكم أطول مدة ممكنة وبوضعهم الشخصيّ أكثر من انشغالهم بالمصلحة العليا للبلاد.

كان هؤلاء الأشخاص أنفسهم ممن كانوا يحتمون غالبا تحت لباس الدين للوقوف معارضين أمام أفكار التقدم والقرارات التي بامكانها إحداث القطيعة مع العادات البالية ؛ كان (بن بلة) وهو المؤمن المنادي بإسلام متفتح ومعتدل، يخضع باسم الواقعية السياسية : "لن يوقع بي في مشكل مع الدين"، يقول كما وكأنه يريد تبرير موقف ميّال للغاية للزيادة من التنازلات أمام أولئك الذين لا زالت تسمية "الإسلاميين" لم تطلق عليهم بعد والذين ستتكشف سلوكاتهم الطائفية والإجرامية في السنوات اللاحقة. تم هكذا بمطلق الحق التصريح بأن الإسلام دين الدولة بينما لم يكن ذلك مطلبا شعبيا ولا واجبا سياسيا في بلد متفتح على التعددية الثقافية والدينية، بلد بامكانه على غرار تركيا والعراق أن يحتكم إلى دستور لائكيّ.

كانت مسألة تحديد الجنسية الجزائرية إحدى النتائج الطبيعية لهذا الاختيار، فكل سكان البلد ممن كانوا يدينون بدين الإسلام لهم الحق فيها، لكن دون الأوروبيين الذين كانوا يريدون أن يكونوا جزائريين ولا اليهود الذين كان أجدادهم يقطنون بالمغرب العربي منذ قرون. لم يكن الأمر يتعلق قطعا، يحاول من كان يتكلم باسم جبهة التحرير الوطني المرتبكين نوعا ما من القرار التعسفي شرح القضية، بأي نوع كان من التمييز العنصري، لكن بمجرد إجراء احترازي تم اتخاذه لمنع نشطاء ومناصريّ الـ (OAS) السابقين الخروج هكذا ببساطة برآء من جرائمهم المرتكبة ؛ ويكون سهلا على كل الآخرين ممن يرغبون في ذلك، الحصول على وثائق تشهد على أنهم جزائريون، تأكيد لم يجد أثره على أرض الواقع، فالعديد من أصدقائي من الأوروبيين واليهود ممن تعرض مع ذلك للقمع بسبب مشاركتهم في الكفاح التحرري، واجهتهم مشاكل بيروقراطية عديدة إلى درجة جعلتهم يتخلون

مجروحيّ القلب عن سعيهم للحصول على هذا الاعتراف ليعتزموا أخيرا مغادرة بلد يعتبرونه بلدهم، هذا البلد الذي يحكمه قادة لا يرغبون بقاءهم. كان يبدو جليا أنه وصلت تعليمات شبه رسمية إلى الموظفين لتثبيط عزيمة "طالبيّ الجنسية" وبخاصة إذا كانوا يعرفون من الشيوعيين، فقد كانت لي تجربة رفقة (جيلبرت) في هذا الخصوص. غير أنه وبقرار صادر "من فوق" نادر جدا، بطبيعة الحال تم إملاؤه لاعتبارات سياسية، يأتي الإعلان بالجريدة الرسمية على قبول منحنا الجنسية الجزائرية ضمن قائمة تحتوي عشرات الأسماء. و لكن لما كان الأمر يتعلق بوثائق الهوية وجواز السفر لولدينا الاثنين القاصرين، أشار إلينا رئيس المصلحة أنه لا يمكن تسليمها إيّاهما لأن صفة الجزائري المعترف بها في حق الأبوين منحت فقط اعتبارا "للخدمات المقدمة للجزائر" ولا يدخل في ذلك الأولاد.

تسببت بعض التصريحات الرسمية في خلق بعض الاضطراب لدى آخرين من سكان البلد، لم يكونوا لا أوروبيين ولا يهودا. وفي خطاب جاء في بعضه مرتجلا، يطلق (بن بلة) في حالة من الانفعالية تأكيدا خرج مدويًا على الأسماع وكأنه مجاهرة بالعقيدة المتبناة : "نحن عرب، عرب، عرب !" تكرار متصاعد يعطي أكثر قوة لهذا التصريح. وبمناسبة قدوم (جمال عبد الناصر) – رئيس الجمهورية العربية الموحدة الجديدة – صرّح بأن علم هذه الأخيرة حيث تلمع ثلاث نجوم ترمز إلى مصر وسوريا واليمن، سيرفرف في سماء بلدان أخرى عربية وأن "نجوما أخرى ستضاف إلى الثلاثة منها بخاصة نجم الجزائر". تصريحات تزيد من دغدغة المشاعر القديمة لأصحابها الداعين إلى وحدة البلاد العربية، والمدعّمة أيضا بتيار التعاطف القوي الذي كسبه (ناصر) بخصوص توجّهه السياسي، لكن لم تلق هذه التصريحات تأييد كل الجزائريين بالضرورة في أكثرهم متحفظون جدًا "لوحدة" مستقبلية مع بعض الدول التي كانت لازالت تركن ملزمة إلى بعض الإقطاعيين ذوي مطلق السلطة، أو شبه تابعة إلى القوى الغربية.

نوع من الأفق لم يكن إلا ليثير بعضا من التساؤلات في أوساط سكان القبائل ؛ مع كون هؤلاء واعين كلية بتشربهم وتشبعهم الثقافة العربية الإسلامية متلقين إيّاها كثراء يضاف إلى ثقافتهم عبر القرون، كانوا يريدون أيضا ان يحافظوا على أصولهم البربرية بانتمائهم إلى ثقافة ولغة دائما حيتان واللتين يرفضون تهميشهما أو إلى الأسوأ زوالهما المنظم.

قضية أخرى جديرة بإثارة الجدال والاختلافات، وهي وضع المرأة الجزائرية، القضية التي مرّت تحت الصمت أو التي لم تتلق من جانب القادة سوى إجابات تسويفية. نساء جزائريات سجلن حضورهن في الكفاح كعاملات اتصال ومجاهدات في جيش التحرير الوطني، وكن في الصفوف الأولى في المظاهرات من أجل الاستقلال، ومئات الآلاف من الأخريات اللواتي وبشجاعة وحزم خارقين يحللن للمحافظة على بيوتهم محلّ الزوج أو الأخ أو الأب من الذين التحقوا بالجبال وسقطوا تحت رصاص الجنود، أو فقدوا أو اعتقلوا. كان ناطقون باسم جبهة التحرير الوطني يشيدون بسرور دور المرأة الجزائرية خلال الحرب ويحيّون فيهن بطولتهن، لكن سرعان ما يتغيّرون مبدين تملّصهم وصمتهم حول مواقف محافظة مرتبطة بالتقاليد عند تناول على أرض الواقع المشاكل المتعلقة بتحررهن.

قامت في 8 مارس 1965، العيد العالمي للمرأة، عشرات الآلاف من نساء مدينة الجزائر من كل سن، بعضهن متحجبات وأخر سافرات، بالتظاهر في شوارع العاصمة حاملات رايات ويهتفن بالثورة التي تمنح للكل نساءا ورجالا نفس الحقوق ونفس الإمكانيات للعمل من أجل خدمة الجزائر ؛ لم يرد محررو وموظفو الجريدة إلا متابعة هذه المظاهرة تاركين لبعض الوقت عملهم للوقوف على الشرفات حيث من خلالها يمكنهم مشاهدة موكب المتظاهرات يجوب شارع عميروش، حيث يلمحون من بين الجموع أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم أو قريبات أخريات من اللواتي كن يطلقن وهن مارّات

زغاريد مدوية رمزا للصداقة، وردّا عليهن يقوم أعضاء "الجمهورية الجزائرية من على الشرفة بإعادة التحية الأخوية باتجاههن. كان ذلك لأول مرة حيث يتم تأكيد لمثل هذا الإقدام الأنثوي العظيم في شوارع العاصمة والكل - المتظاهرات ومن كان يتابعن من خلال النوافذ - بدا يعي فجأة أنه يعيش ويحضر حدثا استثنائيا جديدا وهامّا.

كانت وزارة الفلاحة تقع إلى الجانب الآخر من الشارع قبالة مقر الجريدة، ترك موظفوها أيضا مكاتبهم حتى يمكنهم مشاهدة جموع المتظاهرات المتدفقة، كان سلوكهم المتحفظ مختلفا بالنظر إلى الحماس الصاخب الذي ميّز موقف أعضاء جريدتنا من الحدث، فقد بدا عليهم الصمت لا يستجيبون إلى أي نداء، ولم يكونوا ليبدوا وجها عبوسا أكثر ممّا أبدوه لو أنهم كانوا يحضرون موكبا جنائزيا. لوحظ أنهم لم يكونوا ليقروا بحقيقة ما يشاهدونه حتى ولو كانت الإذاعات والصحف الرسمية لم تتحدث بعدها إلاّ عن إجماع حار أحاط بالتظاهرة.

وبعد أيام علمت أنه تم في حيّنا بالأبيار استدعاء بعض المسؤولات عن الحركة النسوية من قبل محافظ الشرطة المحلية ليتعرضن للتأنيب الشديد، فقد كان يرى هذا الأخير أن مشاركتهن في مظاهرة في الشارع يعدّ سلوكا غير لائق، وزيادة على ذلك مطالبهن ؛ وبأخذه بعين الاعتبار أو بتهاظره فعل ذلك، للهذر الذي كان يتردد جاريا عن "فجور" المتظاهرات، يهدد إحدى المنظمات بالعقوبة المتهمة زعما أنها تلفّظت، كما وصله، بشعار مخز يقول : "الرجال إلى المطبخ! (les hommes à la vaisselle !) ؛ نوع من السيطرة الذكورية، وبقدره مثيرا للسخرية التي ينطوي عليها يعكس هذا الموقف النظرة السلبية لموظفين من صفّه متمسكين برفض كل تغيير يمس المرأة، لكن لم يتم بذل أي مجهود ملموس على مستوى القمة لمحاربة مثل هذه الحالة النفسية بالصرامة اللازمة.

وعلى الرغم من ترقية عدد من النساء المتعلّمات إلى مناصب مسؤولة وإلى وظائف كانت إلى ساعتها ممنوعة عليهن، لم يكن رجال الحكم ميّالين إلى تشجيع معركة المرأة من أجل مساواة كاملة غير منقوصة. كان لهذا الموقف المتورّع حيث تتمثل الحجة في تجنب اصطدام العادات والتقاليد مع الدين، أنه قام بفتح الباب لإصدار بعد عشرين سنة تقريبا قانون للأسرة ذي مضمون رجعي على وجه الخصوص، يحجّر المرأة الجزائرية بالرغم من حقها في الانتخاب في حالة إلى الأبد قاصرة ويفضي الشرعية على نقصها من الناحية القانونية سواء على مستوى أسرتها -حيث يلزمها الطاعة الكاملة لأبيها أو لزوجها - أو على مستوى كل ميادين الحياة الاجتماعية.

كان تصور جبهة التحرير الوطني بخصوص مكانة ودور العمال والنقابات في المجتمع الجزائري يطرح مشكلا آخر مبرزا اختلافا أساسيا مع تصور المسؤولين السابقين الذين تكوّنوا - تحت ضغط الشيوعيين - في روح الطبقة النضالية، وكان همّ جبهة التحرير الوطني الأساسي هو التحكم بقوة في تنظيمات هؤلاء لمنع أي احتجاج عمّالي، كانوا يتصوّرون الوصول إلى ذلك بفرض رجال مسؤولين عليهم يتم اختيارهم وإقصاء أولئك الذين يحتمل فيهم الطعن في التعليمات الآتية من القمة، أي المناضلين الشيوعيين. كان هذا الرفض لحركة نقابية ممثلة للعمال حقيقة يترجم الخوف من رؤية توطيد وتعزيز تنظيم عمّالي مستقل عن الجهاز السياسي، تنظيم سيكون له حتما العمل للوقوف معارضا لطموحات ونزوات البرجوازية الجديدة. فقد كان (بن بلة) نفسه يتقاسم هذا الشعور القلق وحذّر مما أسماه بـ "العمّاليّة" (l'ouvriérisme)، بمعنى إرادة العمال المعلنة ليكونوا سادة نقاباتهم حتى يمكنهم القيام بدورتهم كاملا وبكل حرية.

يمكن للذي قرأ فرانتز فانون (Frantz Fanon) أن يعرف في هذا الحذر المبدئي إزاء العمّال تطبيق الأطروحة التي جاء تفصيلها في كتاب

"Les Damnés de la terre" (المعذبون في الأرض) والتي تقول أن "البروليتاريا -الطبقة الكادحة - في البلدان المستعمرة تمثل نواة الشعب المستعمر الأكثر تفضيلا لدى النظام الكولونيالي" بينما "وحدها طبقة الفلاحين هي الطبقة الثورية" نتيجة تخالف حكم الماركسيين الذين يرون، دون الإنقاص من قيمة طبقة الفلاحين في مساهمتها الأساسية في الكفاح التحرري، أن الطبقة العمّالية - وليس طبقة الفلاحين - هي الوحيدة المهتمة بدفع الثورة إلى غاية تحقيق أهدافها، بمعنى إلى غاية انتصار الاشتراكية ؛ وهذا ما ذكّر به شي غيفارا (Che Guevara) حيث قال أن "آفاق طبقة الفلاحين لا تتعدّى امتلاكها صفة النبوة".

بينما كان تبادل ومجابهة الأفكار والآراء مصدرا للثراء بالنسبة للجميع، ولا أيّ من مثل هذه المشاكل الأساسية طرح علنا للمناقشة : من كانوا يقودون البلاد لم يكن يهمهم تأسيس لمثل هذه المناقشات، فهو من السهل على هؤلاء ان يحكموا ويقرّروا بتسلطية في كل شيء.

يتم في 16 أفريل 1964، افتتاح المؤتمر الأول لجبهة التحرير الوطني بالجزائر العاصمة. كان (بن بلة) ومن بحاشيته من ذوي التوجّه الاشتراكي -البعض يفضلون أنفسهم قريبين من الماركسية ويقيمون علاقات طيبة مع الشيوعيين لكن دون أن تتعدى ذلك- يعلّقون آمالا كبيرة في جلساته ؛ فكان ينتظر من هذه الأخيرة أن تسمح بتحويل الجبهة إلى "حزب ثوريّ طلائعيّ" بمذهب وبرنامج يجتمع حولهما مناضلون منظمون ومحفّزون هدفهم هو أن تكون الجزائر اشتراكية. اعترف للمؤتمر على أنه كان حدثا تاريخيا راسما اختيار المجتمع الواضح والنهائي، و"الجزائر الجمهورية" تشير إلى أن النصوص المصادق عليها في ختام الجلسات - عرفت لاحقا تحت اسم ميثاق الجزائر- تؤكد التزام الجزائر الجديدة لهذا النهج.

بدا هذا التقدير على كل حال استعجاليا، فهو يستند إلى نصوص رسمية لكن لا يأخذ في الاعتبار الوضع الداخلي نفسه لجبهة التحرير الوطني. فقد

كان يجب التأكد لاحقا أن ميزان القوى لم يكن في كل هذا في صالح توجه ديمقراطي حقيقي ولا أيضا في صالح اختيار اشتراكي، حتى ولو كان التصفيق والتأييد اللذان تلقتهما خطابات (بن بلة) والقرارات الراديكالية التي خرج بها المؤتمر ليتركا الوهم يعاكس ذلك. كما هو مثير للتساؤل أيضا مسألة صفة التمثيلية للمفوضين المعيّنين من قبل الهيئات العليا ومن قبل (بن بلة) نفسه عوض أن يتم انتخابهم ديمقراطيا، وعلى الرغم من المجهودات المبذولة لإخفاء الانقسامات، إلا أن الانشقاقات القديمة كانت لا تزال مستمرة بين ممثلين لإقطاعيات جهوية، بين رؤساء عشائر ومجموعات تدافع عن مقاصد شخصية وبالنسبة للبعض عن طموحات طبقية لا تمت بصلة إلى مصالح البلاد. كان الإجماع الظاهر حول المؤتمر يخفي الضعف السياسي والتنظيمي لجبهة التحرير الوطني وعدم قدرتها على تحقيق الهدف المعلن والمتمثل في أن تتحول إلى حزب للعمال حقيقي وللفئات الأكثر فقرا، كما كان يخفي أيضا ضعف (بن بلة) نفسه حيث رهانات التوازن ما بين مختلف الفصائل المعيقة لتعزيز نظامه كانت تساعد على تفتته وتجزئته. ولكن لا شيء من هذه الحقائق كان يتم إطلاع الناس عليه، بالعكس فالذي كان يتم التصريح به ويعلن هو نجاح المؤتمر وأهمية القرارات ذات المنحى الثوري المصادق عليها وهذه النظرة للأشياء كانت هي المهيمنة دون تحفظ.

ففي هذا المنظور أيضا قرر قادة الحزب الشيوعي الجزائري - المحظور رسميا لكن مستمرا في نشاطه هذه المرة شبه السريّ - دعوة منخرطيه بالالتحاق فرديا بجبهة التحرير الوطني لتزويدها حسب مقولة أحد مسؤوليه، "بالروح النضالية والنشاط والتفاني في العمل المبذول خدمة لحزبهم السابق" هذا الحزب الذي كانوا يحضّرون أنفسهم للإعلان من طرف واحد عن حلّه الفعلي دون محادثات ولا اتفاقيات مسبقة مع جبهة التحرير

الوطني. تستند الاستدلالات إلى تجربة كوبا أين ذاب الحزب الشيوعي في حركة 26 جويلية لـ (فيدال كاسترو) وفي المجلس الثوري الحاكم – تشكيلة من الطلبة والمثقفين – حتى لا يكون إلا تنظيم ثوري واحد. أعرف جيدا تاريخ الثورة في كوبا حيث أسعفني الحظ أن أتحادث مع عديد من القادة والمناضلين، وهذا يمكنني إبراز ما يميّز البلدين، بعيدا عن الخطابات ممّا يميّز بالخصوص التزامهم وفعلهم بالأساس. ليست جبهة التحرير الوطني هي حركة 26 جويلية، ولا أحد من قاداتها كان (فيدال كاسترو) ولا الجزائر كانت كوبا ؛ يبدو من الخطأ الحديث عن "ثورة اشتراكية" في الجزائر في مرحلة لم تأت بعد.

ما دمت عضوا في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري الذي كان يجتمع في مكان سريّ ودون التشهير بقراراته المتخذة كونه محظورا رسميا، كنت لا أخفي تشككي وارتيابي حول التقييم المستخلص لكن المبالغ فيه تفاؤلا الذي كنت أسمعه يصاغ عن التقدم الجاري فقد أعلنت عدم موافقتي على حلّ الحزب المحضّر له. كان في نظري من الضروري على الجزائر أن تحافظ على حزب ثوري ماركسي حتى ولو كانت الظروف تمنع مؤقتا تطوره، وبالنظر إلى الوضع الذي كانت عليه البلاد، ولا يمكن لهذا أن يكون إلا الحزب الشيوعي الجزائري أيضا، الأمر الذي لا يلغي أبدا نوعا من التعاون الفعلي ولو بالضرورة صعبا مع جبهة التحرير الوطني.

كنت أتصور أنه كان بامكان الشيوعيين حتى ولو كان ممنوعا عليهم والمشاكل تحاصرهم ودون التخلي عن قناعتهم أن يحافظوا على بقاء تنظيمهم باجتهادهم في النضال داخل الجبهة كما كان الشأن خلال حرب التحرير وكما كان الشأن أيضا بالنسبة للكثير منهم. كان يبدو قرار حلّ الحزب مخاطرة كبيرة إذ تم اتخاذه بتسرع ودون مناقشات أو مشاورات بين أعضائه. فإذا كان قادة جبهة التحرير الوطني، كما كنت لاحظ أيضا،

يشتكون أحيانا لدى ضيوفهم الأجانب من موقف الحزب الشيوعي الجزائري المتمثل حينها في الدفاع عن حقه في الوجود وعن حريته في التعبير، فهؤلاء أنفسهم كانوا يرفضون تسليم بطاقات العضوية في الجبهة إلى العديد من الشيوعيين ممن كانوا يطلبونها، أمر حصريّ وشديد الاستثناء لا يليق الإعلان عنه، لكنه أذهل وأدهش الأعضاء والمسؤولين بداية من أمناء الحزب. النبذ نفسه الذي أقصى الشيوعيين من مناصب القيادة في النقابات وفي كل التنظيمات الشعبية الأخرى. هكذا يجد أنفسهم مناضلون تجندوا منذ سنوات في معركة ضد الاحتلال وحملوا السلاح وشهدوا المعتقلات والسجون والمنفى، بعيدين ومقصيين دونما تفسير. فقد أسعفني أنا الحظ مع ذلك لتلقي شيء من هذا القبيل في حييّ بالأبيار، حيث كان تفسيرا واضحا من قبل أحد قادة دائرة جبهة التحرير الوطني الذي قصدته في طلبي بطاقة الانخراط، وكان الجواب بـ "لا" دون تعليق ؛ فأوضحت له أنني خلال كل فترة الحرب وفي عهد لم يكن وجود لمثل هذه البطاقات وإلى غاية اللحظة التي أكلمه فيها، كنت دائما أعتبر نفسي عضوا في جبهة التحرير الوطني دون أن أتخلى عن انتمائي الشيوعي، فلماذا اليوم يرفض انخراطي ؟ بدا لي الرجل مرتبكا وهو يرد عليّ : "الإخوة في القيادة في الجزائر العاصمة طلبوا مني أن أعطيك هذا الجواب .." ثم أسأله : "ألم يخبروك بالسبب وهو أني شيوعي ؟

وبعد تردد كما وأنه كان يتحرر من واجب يزعجه يؤكد لي قائلا : "نعم وهو كذلك ..."

كانت التظاهرات المفتوحة والمتسترة المعادية للشيوعية في المؤتمر تتمركز حول مصير جريدة "الجزائر الجمهورية"، كان (بن بلة) وقد حضّر نفسه لذلك بسعيه تجنب المواجهة العلنية بين من يطالب بمنعها في الحال وبين من يخشى أن يكون مثل هذا الإجراء المعلن عنه بفجاءة غير مرغوب فيه

لدى الشعب أو أن يعود بالضرر على جبهة التحرير الوطني نفسها، فكان إذن من الواجب التعامل مع الأمر بروية ومرونة. ولسد الطريق أمام مقاصد المنادين العنيدين بمنع الجريدة سريعا، يقترح (بن بلة) بواسطة (بنـزين) الذي اختاره بنفسه "كملاحظ" رسمي يمثلنا في المؤتمر، بترقية جريدة "الجزائر الجمهورية" إلى صف ثاني يومية مركزية متحدثة باللغة الفرنسية تابعة لجبهة التحرير الوطني، والأخرى تبقى جريدة Le Peuple. وفي نفس الوقت كان يريد أن يقول أيضا أنه "لا شيء سيتغيّر" ولن يكون لأي ضغط أو تدخل عملهما بعد ذلك لفرض بعض التغيير أيّا كان شكله على جريدتنا. كان يجب الردّ بسرعة على اقتراحه كما كان يؤكد، لأن القضية كان يمكن لها في أي لحظة من اللحظات أن يتطرق إليها في المؤتمر وفي جلسة بكامل هيئاتها.

ولإحباط مناورات أولئك الذين كانوا يتمنون إقصاء جريدتنا، وبغياب إرادة واضحة من قبل (بن بلة) ليقف ضد هذا المسعى، لم يكن لنا من اختيار آخر نختاره سوى الانضمام إلى عرضه الذي قدمه. رفضه كان يعني إثارة لنزاع، الخسارة فيه مؤكدة يؤدي بنا إلى الحكم على أنفسنا بالصمت الأبدي. وجاء الهجوم المنتظر من قبل مفوّض من مدينة عنابة، الذي أبدا استنكاره الشديد والعنيف بخصوص صحيفة تتفلت عن رقابة جبهة التحرير الوطني وذات استقلالية تمسّ بمبدأ الحزب الواحد، حالة كان يجب الإسراع بتوقيفها بالإعلان عن منع ظهور الصحيفة ؛ ثم يتوقف الهجوم ليأخذ (بن بلة) الكلمة بعده ويعلن أن "الجزائر الجمهوية" تقبل أن تصبح لسان حال جبهة التحرير الوطني، فيعقبه تصفيقات حارّة لأصحابها المفوّضين، الأمر الذي كان يوحي بأن ثمة إجماعا وقع بينما كان هذا الهتاف الحماسي يخفي تناقضا، كان جزء من مجموع المؤتمرين يحيّون بهتافهم الحار نجاح الدور العظيم الذي قامت به الجريدة والذي يستمر مستميتا في مرحلة تاريخية جديدة، مرحلة وحدة كل القوى الثورية من أجل الاشتراكية. أما ما كان يهتف ويصفق له الآخرون

فكان القرار الذي جاء أخيرا لوضع تحت الوصاية طبعة يرون فيها تأثيرا مشؤوما وخطيرا. تقوم الجريدة في اليوم الموالي بعد المناقشات لتعلن وضعها القانوني الجديد في مقال افتتاحيتها حيث جاء العنوان "شرف ومسؤولية" ليلخص الرسالة التي تقول جريدة "الجزائر الجمهورية" انها استنتجتها من العرض الذي قدمه (بن بلة) وتم قبوله من قبل إدارتها وصادق عليه المؤتمر.

وبقدر ما كان الوقت يمرّ، كان التباين يظهر أكثر فأكثر وضوحا ما بين الخطابات المعلنة أثناء جلسات جبهة التحرير الوطني، والقرارات المصادق عليها، والإرادة الفعلية لقادة البلاد، أما الجريدة فقد وجدت نفسها محصورة في إطار وضعها الجديد كيومية رسمية، حتى ولو لم يتم فرض عليها اي أوامر أو توجيهات ذات طابع إلزامي، فكان محرروها وقد أودوا مكرهين أو عن غير وعيّ إلى نوع من الرقابة الذاتية لم يقبلها القراء، وسبب ذلك يرجع إلى تجنبهم التصادم مع أي تنظيم او وزير أو قائد معيّن. اصبح هؤلاء القراء يرون في الجريدة تراجعا في لذاعتها ونقدها وجسارتها. وكان الوضع غريبا ومحرجا أيضا بالنسبة لـ (خلفة) ولي أنا شخصيا : صرنا مديرين لجريدة أصبحت خاضعة لجبهة التحرير الوطني، لكن لا أحد منا تم قبوله بين صفوفها، وكذلك كان الأمر بالنسبة لـ (بنـزين) رئيس التحرير ومعظم أعضاء فريقنا، ضحايا النبذ والإقصاء غير المعترف بهما اللذين كانا يلحقان بالشيوعيين.

وعندما تم إثارة هذه المشاكل ما بين أعضاء الحزب الشيوعي للجزائري، ينضمّ هؤلاء إلى الفكرة المطمئنة القائلة بأنه لا يمكن لهذا الوضع الشائك أن يستمر، وكانت حالة المؤقت ما زالت مع ذلك قائمة والبعض يتساءل حول ما إذا كان هذا المؤقت لا يحضّر لمخرج آخر غير المخرج المرجو. وبعكس الضمانات المقدمة من قبل (بن بلة) على أنه لن يكون هنالك اي تغيير سيمس الجريدة لا من حيث موقعها ولا من حيث تسيير عملها، يتم اتخاذ قرار توحيد

ودمج جريدتي Alger républicain وLe Peuple في طبعة واحدة تحمل اسم El-Moudjahid لسان حال الجبهة المركزي؛ ومن أجل هذا قمنا بإبلاغ لجنة التوجيه التي عيّن (بن بلة) ممثليها من يساريي جبهة التحرير الوطني مثل (حسين زهوان) و (صالح لوانشي) و (محمد حربي). لم يكن الأمر يتعلق أبد بإسكات صوت لصحافيين مناضلين جعلوا من :"الجزائر الجمهورية" جريدة تجاوزت سمعتها الحدود، يتم إخبارنا، بل بالعكس إنما يراد لهم القيام بدور أكثر نجاعة أيضا في خدمة الجزائر والاشتراكية.

حتى ولو تم ذلك تقديمه بالورود، فإن الأمر كان يتعلق بفقدان عنوان لجريدة رمزية تمت برمجته، وينذر بتضييق قليل من الفضاء الذي كان لا يزال متروكا لحرية التعبير. ولا أحد من بين الباقين ضمن الفريق السابق للجريدة ولا حتى من بين الصحافيين الجدد كان يرتقب بسرور مواجهة هذا الأفق الذي فتحه هذا المشـروع، لكن لم يكن أبدا ممكنا معارضة ذلك لأن مثل هذا الموقف سيحمل على أنه رفض للمعاونة. البديل الوحيد الذي كان يمكن القيام به في محاولة للحفاظ على استمرارية الروح الوحدوية والنضالية للجريدة، هو التصرف بحنكة ونحن نحضر عملية الإدماج. سيدير اليومية الجديدة مديران، الأول باسم (بوعلام خلفة) الآتي من جريدة "الجزائر الجمهورية" والثاني باسم (عبد الرحمان بن حميدة) عضو مستخلف في اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني و وزير سابق للتربية الوطنية، كما عيّن (جاك صالور) في منصب نائب إداري، ويقترح عليّ أنا شخصيا منصب رئيس تحرير للوكالة الوطنية للأنباء الجزائرية (APS).

أثناء الاجتماع الذي تم عقده لإخبار فريقي الجريدتين عن التشكيلة المكوّنة لليومية الجديدة، يذكر (زهوان) اسم (خلفة) ليمنحه منصب مدير إداري ممّا يعني على عكس ما تم الاتفاق عليه إقصاؤه من الإدارة السياسية، وتأسيس نظام للمراتب في صالح (بن حميدة). يتم تقديم له الملاحظة حول

الأمر ليعتذر بعدها مشيرا إلى أن ذلك صدر خطأ ليس إلاّ، غير أن ذلك كشف بعض الشيء عن خبايا رسمية. وعلى الرغم من الضمانات التي كان يتم التأكيد عليها حول التوجّه الذي يمنح للجريدة التي ستصدر - والتي ستخضع أخيرا لما ستصير عليه جبهة التحرير الوطني نفسها - كنت أتساءل كيف سيكون حقيقة مستقبل المشروع، وقلقا في نفس الوقت إزاء الخلفيات التي كانت لدى قادة الجبهة وعاجلا إزاء النتائج التي سيتحصل عليها بعد تعايش يتم ما بين صحافيين ذوي تكوين وروح جد مختلفين.

كان من المنتظر أن يخرج العدد الأول لجريدة El-Moudjahid إلى الساحة يوم 5 جويلية - العيد الثالث لاسترجاع الاستقلال -، لكن خمسة عشر يوما من قبل وفي ليلة الـ 18 إلى 19 جوان 1965 يتم قلب نظام (بن بلة) رئيس الجمهورية المنتخب في سبتمبر 1963، من قبل العقيد (هواري بومدين) الذي يستولي على الحكم ؛ وفي نفس هذه الساعات يتم حجز جريدة "الجزائر الجمهورية"، ويحتلّ أفراد الجيش قاعات التحرير، وما دمنا لم نؤيد هذا الانقلاب السياسي بالشكل الذي يريده فاعلوه، يتم منع وحظر الجريدة بلا قيد و لا شرط ! هكذا للمرة الثالثة منذ تأسيسها بما يفوق الخمسة والعشرين سنة من قبل.

وبعدما قضي الأمر وأصبح منظمو الانقلاب السياسي يواجهون الحقيقة بكل ارتياح، يعلن هؤلاء حتى يخفوا قرار منع الجريدة الذي يعرفونه معاكسا لما يرجوه الشعب، أنه تمت عملية الدمج المنتظرة قبل تاريخها المحدد بقليل. لكن الأكذوبة لم تغالط أحدا، ولا أحد من الصحافيين أو العمال في جريدة "الجزائر الجمهورية" - ما عدا واحدا - قبل بالعرض الذي قدم للجميع والذي يدعو إلى الخضوع لخدمة القادة الجدد، فقد كان يكفي غياب إمضاءات وأسماء الأعضاء القدامى لجريدة "الجزائر الجمهورية" على سبيل (خلفة) و(بنـزين) وأنا شخصيا على صفحات الجريدة الجديدة أن يؤدي بالقراء دون الحاجة إلى شروحات مطولة إلى فهم ما الذي يجري.

كانت التساؤلات والمخاوف الكبرى على مشهد الأحداث الآني تنذر أن تطرح على المتآمرين في حالة ما إذا قوبل انقلابهم هذا بمعارضة جماهيرية واسعة، فقد كانوا واعين بذلك ومتخوفين أيضا من تنظيم مظاهرات شعبية بالعاصمة وبجهات أخرى من الوطن للمطالبة بعودة (بن بلة) ؛ وعلى الرغم من انضمام قادة الجيش إليهم بالإضافة إلى الشرطة ومصالح الأمن، كانوا كذلك يتوقعون إمكانية فشل الانقلاب وعليه اتخذوا كل الإجراءات اللازمة ليكونوا في مأمن عن كل مكروه ؛ فقد كانت طائرة قابعة بمطار الدار البيضاء مستعدة للإقلاع في أي وقت.

لكن و باستثناء بعض التجمعات بالعاصمة وبوهران التي تم تفريقها بعنف والصخب المدوي من أعالي سطوح المنازل باستعمال الأواني والضرب عليها بترديد "يحيا بن بلة.. يحيا بن بلة.. "، فقد كان احتجاج الشارع ضعيفا وسرعان ما هدأ. يظهر كما وأنه كان للخيبات المتراكمة منذ الاستقلال وللتحفظات المتزايدة، حتى ولو بقيت غير معلنة، اتجاه القادة و (بن بلة) نفسه - المؤيّد والمصفق له عشية الانقلاب والآن يوصف "بالمستبد" في الإذاعة والصحف الرسمية -، أنها جمّدت ردة الفعل الشعبية الواسعة التي حاول عبثا يساريّو جبهة التحرير الوطني والشيوعيّون استثارتها.

من جهة أخرى كانت الدبابات المنتشرة منذ فجر 19 جوان في الشوارع المؤدية إلى البريد المركزي الكبير "la Grande Poste" - التي اعتبرها المارّة بادئ الأمر كعناصر لديكور فيلم "معركة الجزائر" الذي أخرجه Gillo Pontecorvo - بمثابة الإنذار الواضح الموجه من قل الانقلابيين مستعملي القوة : سيكون الرد بعنف ضد كل محاولة لإبداء المعارضة.

كان للإبعاد العنيف في حق أول رئيس للدولة الجزائرية المستقلة أنه أزال الكثير من الأوهام ومن باب أولى أوهام (بن بلة) نفسه ؛ وبحكم اقتناعه من أن شعبيته ومهارته في الحفاظ على التوازن ما بين الفصائل المدنية

والعسكرية المتنافسة، وفي إيجاد التسويات مع الخصوم المعروفين والمتسترين، وفي تهدئة الاحتجاجات، ظن أن هذا كله سيجعله في مأمن عن المؤامرات والدسائس المحتملة، فلم يتخذ أية تدابير للوقاية من ذلك، انتشرت اشاعات في السرية حول ذلك لكن رفض أخذ هذا الأمر بعين الجد. هذا وقبل أيام من الإطاحة به يصرّح بنوع من المزاح أمام ضيوف أجانب وهو يقدّم لهم (هواري بومدين) الذي كان حينها وزيرا للدفاع، إذ يقول : "ها هو الرجل أمامكم الذي يتآمر ضدي"

وحتى عشية الانقلاب سبق له وأن صرّح أثناء لقاء مع الجمهور والصحافة بمدينة سيدي بلعباس، أن الجزائر ستواصل "ثورتها الاشتراكية بنظام وقيادة موحدين أكثر من ذي قبل، وعازمين أكثر من أي وقت مضى لمواجهة المؤامرات من أية جهة كانت وبخاصة المؤامرات الآتية من الخارج" فقد كان بالأحرى أنه داخل هذه "القيادة الموحّدة أكثر من ذي قبل" سيتم التحضير لإقصائه. كان (هواري بومدين) ومعاونو الرئيس القريبون منه جدا الصنّاع الرئيسيين لهذا الإقصاء بمساعدة كبار الشخصيات في جبهة التحرير الوطني والدولة ومنهم (عبد العزيز بوتفليقة) وزير الشؤون الخارجية الذي أراد (بن بلة) إبعاده عن منصبه، (أحمد مدغري) وزير الداخلية، (شريف بلقاسم) وزير الإعلام، (الطاهر زبيري) قائد الأركان للقوات المسلحة، (عبد القادر مولاي) أمين عام لدى وزارة الدفاع، (أحمد دريعة) قائد الأمن الوطني وآخرين.

الذي حدث لا يكشف عمى (بن بلة) فحسب وإنما أيضا ضعف جبهة التحرير الوطني في جوهرها، واستمرار الانقسامات والمجارات القديمة في وسطها عادة ما يتم إخفاؤها تحت غطاء الوحدة، وعدم قدرتها السياسية والميدانية في حشد وتنظيم بعد نهاية الحرب قوى التقدم الاجتماعي. كذلك كان لهذا الانقلاب أنه قضى على أوهام وآمال الشيوعيين حول إمكانيات

التحوّل السريع إلى "حزب طلائعي"، سند و وسيلة للعمال والفلاحين الفقراء، وحول جبهة للتحرير الوطني قامت بدور أساسي في الكفاح التحرري لكن حيث الغلبة الإيديولوجية والسياسية للبرجوازية والبرجوازية الصغيرة.

أظهرت الاستنتاجات المتسرعة التي أدت بقيادة الحزب الشيوعي الجزائري إلى اتخاذ قرار حلّ الحزب مدى غياب لتقدير صائب للظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في البلاد، وللتوازنات الموجودة داخل جبهة التحرير الوطني وجهاز الدولة التي لم تكن في صالح تغيير جذري للمجتمع.

بعد سقوط نظام (بن بلة) يتوحّد القادة الشيوعيون وأعضاء لجنة التوجيه في جبهة التحرير الوطني – من بينهم (حسين زهوان) و (محمد حربي) – للتنديد بعمل الانقلابيين الذين وصفوهم بأعداء الاختيار "الاشتراكي" الذي كان الرئيس الأسبق أول الدعاة إليه، ثم لينادوا كل أولئك الذين بقوا أوفياء لهذا الخط ليتحدّوا في حركة احتجاجية واسعة وحتى وإن كان غير مسموح لها النشاط، تحت اسم "منظمة المقاومة الشعبية" (ORP). هذه المنظمة التي خرجت منها تشكيلة سياسية جديدة ستحمل اسم حزب الطليعة الاشتراكية (PAGS).

كان يظهر مع ذلك من المؤكد أن جبهة التحرير الوطني لا تتحرك ساكنا في مجملها وأن معظم إطاراتها انظموا إلى المجموعة التي قامت بتدبير وتنفيذ عملية الانقلاب. سنرى لاحقا أن القراءة المقدمة لهذه الأحداث على أنها مواجهة ما بين القوى التقدمية الممثلة في شخص (بن بلة) والقوى الأخرى الممثلة في شخص (بومدين) المستعدة لرد الفعل، لم تكن في الواقع إلا معادلة مختزلة لحقيقة أكثر تعقيدا حيث التحليل يوجب بالأكثر النظر بتعقل واتزان قبل الدخول في هجوم جبهوي ضد النظام الجديد.

وحتى ولو كانت شخصيتهما وأسلوباهما التعاملي يتناقضان للغاية - (بن بلة) اندفاعي لكنه ودود ومحبوب لدى الشعب ومتحمس ؛ (بومدين) بارد ومتحفظ وهادئ لكنه دقيق ومنظم في عمله - فإن اختياريهما السياسي والإيديولوجي لا يختلفان في الجوهر.

من خلال سوابق (بومدين) والمناصب التي اعتلاها وكونه قريبا من إطارات الجيش لكنه باق أيضا منشغلا بالفئات الاجتماعية الأكثر حرمانا، كان على هذا الأخير مثله مثل (بن بلة) أن يضع في الحسبان عنصر جبهة التحرير الوطني حيث كانت تتعارض التوجهات والمصالح المختلفة بداخلها. و ضد المطامع نفسها للانبريالية سيوجّه كفاحه ونضاله مثل (بن بلة) لتأكيد استقلال البلاد والدفاع عن ثرواته وبخاصة عن بتروله وغازه اللذين قام بتأميمهما ؛ ومثله سيتكلم عن "الاشتراكية"، دون الوصول إلى التمييز الضروري بين أتباعها ومناصريها الحقيقيين وبين أولئك الذين لم يعتنقوها إلا بالكلام، ومثله أيضا سينجر للتعامل مع هؤلاء وأولئك.

كان للتصريحات المؤيدة والمبررة لتنصيب النظام الجديد وبخاصة تلك التي جاءت على لسان (قايد أحمد) أحد الناطقين باسم (بومدين) القائلة بأن الجزائر سيمكنها على الصعيد الدولي أن تجد "بالغرب" مكانتها الطبيعية التي أراد "المستبد" أن يبعدها عنها، أو تلك لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المرحّبة "بإقصاء نظام أناني وجائر مؤسس على القمع والظلم" بالإضافة إلى مناشدته لإسلام مبغض للأجانب وطائفي، كانت كل هذه التصريحات توحي فيما معناه أن الانقلاب السياسي - المدان في ذاته مبدئيا - يسجل تغييرا كليا في التوجه في صالح عناصر من اليمين.

كان للموقف الحاسم وللتسرع في التصرف لبعض مسؤولي كل من جبهة التحرير الوطني الباقين مرتبطين بـ (بن بلة)، والحزب الشيوعي الجزائري الذي أوقفت فجأة عملية حلّه بسبب الانقلاب، أنهما سيقدمان كذريعة

شهرين من بعد اندلاع عمليات القمع. لن يتردد النظام الجديد في استعمال ضد هؤلاء المعارضين أبشع الوسائل الموروثة في فترة الاستعمار بما فيها التعذيب.

الكثير من أصدقائي اتخذوا احتياطياتهم حتى لا يتم إيقافهم هكذا على غرة في مقر إقامتهم ؛ وكذلك كان الشأن بالنسبة لي حيث وجدت نفسي مجبرا على التخفي إذ اتفقت مع (لخضر قايدي) أمين سابق في النقابات ومناضل شيوعي سابق ومسؤول عن الزاوية الاجتماعية في الجريدة للإقامة في شقة شاغرة بشارع محمد الخامس – شارع Saint-Saons سابقا – التي كان من المنتظر أن يرحل إليها (جاك صالور) الإداري بالجريدة و زوجته (رولند). لم يتم إصلاح زجاج النوافذ الذي نسفته الانفجارات المرتكبة من قبل المنظمة السرية المسلحة (OAS) ثلاث سنوات من قبل، و كان منظر الشقة المؤثثة في عمومها – طاولة، ثلاثة أو أربعة كراسي، سريران يمكن طيّهما .. تركها ساكنها السابق – يرمي بانطباع حزين يشعرك بالإهمال، لكن المهم هو وجودنا مأمن نأوي إليه حتى ولو كان يبدو بدائيا وبالتأكيد ليس له إلا أن يكون مؤقتا.

وصلني في هذه الظروف بعد ثلاثة أسابيع تقريبا من حدوث الانقلاب وقبل أن يبدأ العمل القمعي المجاهر، خبر الاقتراح الذي قدم لي من قبل (بشير علي) و (صادق هجرس) أميني الحزب الشيوعي الجزائري للانطلاق نحو مدينة باريس ؛ ليلحق بي (علي بوخكجي) معلم في تقاعد وعضو في اللجنة المركزية الذي عرفته منذ سنة 1943 الفترة التي شاهدنا فيها معا مدرسة العمل السري للحزب. ثم يتبعنا لاحقا (عبد المجيد بن ناصر) أمين عام لشبيبة جبهة التحرير الوطني، و(منور مروش) من جريدة "المجاهد" الناطقة باللغة العربية. كانت مهمتنا العمل بالنهوض بالفرع الفرنسي لمنظمة المقاومة الشعبية في أوساط العمال الجزائريين الذين كانوا في أغلبيتهم

يستنكرون الانقلاب السياسي، وباسم حزب الطليعة الاشتراكية الذي قدّم نفسه كوريث للحزب الشيوعي الجزائري كان من واجبنا أيضا الحفاظ على الاتصال مع الحزب الشيوعي الفرنسي ومع مختلف الأحزاب الشيوعية والتقدمية لإخطارهم عن الوضع الجاري في الجزائر وعن أهداف تشكيلتنا الجديدة.

قبلت بالمهمة ولكن دون حماس في الواقع، لأن ذلك كان يعني بالنسبة لي مغادرة البلد دون معرفتي هل يمكنني العودة مرة أخرى أم لا. وبعد مدّة من ذلك أخبرت (جيلبرت) عن انشغالاتي حول الحاضر الذي نعيشه والمستقبل الآتي : "لا أعلم كيف سيكون غدا، لكني أتساءل اليوم هل يمكننا مواصلة العيش هنا" كان ذلك من دون شك أسوأ ما كان بامكانها سماعه إذ ظهر على وجهها واضحا.

وحتى وإن كانت جدّ واعية بالوضع السياسي الشائك لكن بتعرضها بدرجة أقل مني للضغوطات اليومية في عملها وفي نشاطاتها النضالية، كانت ترى في هذا الرحيل كقطيعة جاءت مريعة وحاولت بكل ما وسعني من جهد لأقنعها أن هذا هو القرار الوحيد الذي سيسمح لنا أخيرا الحفاظ على إمكانيات العمل الفعّال.

لم يعد ولدانا يعيشان معنا، فقد عاد (أندريه) إلى مدينة موسكو حيث سجل بكلية العلوم الرياضية بجامعة Lomonossov، أما (جون) فبقي عند جدته وخالته بجنوب فرنسا ؛ أما نحن - جيلبرت وأنا -، فقد كنا غير قادرين على القول وذكر متى يمكننا أن نلتقي ثانية.

سنغادر البلد وسيكون الموقف أكثر حزنا مما كان عليه في المرات السابقة، فكل ابتعاد عنه كان دائما يعتبر بالنسبة لنا بمثابة اقتلاع أليم دون أن نشك مع ذلك ولو لحظة أبدا من أن الطريق سيؤدي بنا مهما كانت

انحرافاته وتعرجاته إلى هذه الجزائر المستقلة أخيرا أين كنا نريد العيش. لم نفكر أبدا حتى في اللحظات الأكثر صعوبة لمّا كانت حياتنا مرهونة، في أنه بامكان حياتنا بعد نهاية الحرب وإحراز الاستقلال أن تكون في مكان آخر غير هذا البلد.

على الرغم من الخيبات التي عنيناها منذ عودتنا إلى مدينة الجزائر والمشاكل التي عرفها البلد بحثا عن مخرجه، والمضايقات والتعصبات المعترضة التي لم يكن يخطر على بالنا إلى أي انحرافات دموية كانت لتؤدي، فقد كان المهم بالنسبة لنا هو أن الجزائر كسرت قيود الاحتلال وأن الطريق باق مفتوحا لخوض غمار معارك وانتصارات جديدة.

كان الوقت يمرّ .. كنت لا زلت أنتظر إشارة ممن كان عليهم مساعدتي لمغادرة البلد في الوقت الذي ألقى (هواري بومدين) بتصريح هام جاء واضحا ليصحح الانطباع السيئ الذي تركته تصريحات (قايد أحمد) ذات المنحى "الأطلسي" لدى الحلفاء الأكثر قربة للبلد ؛ ليؤكد أن "السياسة الخارجية للجزائر لن تتغير في شيء، وأنه لن تكون المعاداة للشيوعية مصدر الهامي في اتخاذ قراراتي".

أخذا بنصيحة أصدقائي الذين كانوا يرون من أن السلطات تبدو لا تريد مناقضة تصريحات الرئيس الجديد هكذا بمنعي مغادرة البلد أو بتوقيفي، أتنقل في منتصف شهر جويلية إلى مطار الدار البيضاء ناويا الرحيل. يستغرق المكلّفون بالمراقبة وقتا طويلا معي وتصورت أنهم اتجهوا لطلب المشورة والإذن ممن هم في أعلى المراتب حتى يتبيّنوا أي إجراء يتخذونه بشأني وبقوا ينتظرون الجواب الذي جاءهم أخيرا. يقوم أحد رجال الشرطة بالختم على جواز سفري معبرا لي بابتسامته أنه يمكنني العبور إلى قاعة انتظار الطائرة ؛ ومن خلال نظرات المسافرين الموجهة إليّ فهمت أني كنت آخر من يركب الطائرة – التي كان الجميع يلعنها سرا لأنها تسببت في تأخير الكل.

وصلت في المساء إلى مسكن أهلي، فقد أثار فيهم وصولي هذا غير المنتظر فرحا ممزوجا بنوع من القلق، ليس من أجل المستقبل السياسي للجزائر وإنما من أجلي أنا وكل من معي، كيف ستكون حالنا في هذه المرحلة الجديدة من حياتنا. فقد كانت كل أسئلتهم تدور حول هذا المعنى، أما الباقي فكان يظهر لهم ثانويا.

تصل (جيلبرت) بعد شهرين من وصولي وتقول كم كانت تعيسة الأسابيع الأخيرة التي قضتها بمدينة الجزائر؛ كما كان متفقا عليه ولأسباب أمنية، كان عليها أن تغادر المنزل في سرية تامة وتحمل معها في اللحظات الأخيرة حزم الكتب والفرش والثياب وبعض الأشياء كان يجب نقلها. تكفل بعملية الشحن نحو باريس أحد الأصدقاء القدامى اسمه باتيست بيريتو (Baptiste Peretto)، فلم يكن الأمر يبدو انه رحيل بأتم المعنى، " المشرفة على الأعمال تعرف الطريق" لكن بعدّة متواضعة. كانت (جيلبرت) وقد حضّرت مفاتيح المنزل لتسلّمها إلى المصالح الخاصة بالأملاك الشاغرة للولاية، وهذا ما كانت تنص عليه القوانين الجديدة. لكن قبل أن تقوم بذلك، يقصدها عشية رحيلها أحد المسؤولين المحليين بجبهة التحرير الوطني الذي علم بسفرها الوشيك ليشير عليها انه من الأفضل أن تسلّمه هذه المفاتيح بنية الاستيلاء على المنزل لصالحه الخاص أو لصالح أحد أقربائه، أو أيضا الاستفادة من هذا الوضع لإهدائها للغير مقابل مبلغ للإيجار، الأمر الذي كان يعمل به للأسف، فتقول له (جيلبرت) أنها تفضل احترام القوانين وتذهب بنفسها إلى المصالح المعنية وتسلّمها المفاتيح.

كانت إحدى زياراتي الأولى في باريس قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي (PCF) التي كلّفت أن أعرض عليها الحالة التي كانت عليها الجزائر بعد الإطاحة بـ (بن بلة) وأطلعها عن النتائج التي خلصنا إليها. نددت جريدة l'Humanité بعملية الانقلاب بقوة غير أن قادة الحزب الشيوعي الجزائري،

مثلهم مثل آخرين في أحزاب شيوعية أخرى، لم يفهموا القصد من إنشاء منظمة للمقاومة الشعبية ومعها بالموازاة حزب الطليعة الاشتراكية بينما كانت أهداف هذين التنظيمين المعلنة (إطلاق سراح الرئيس المنتخب وعودته إلى مهامه، احترام الشرعية الدستورية والحفاظ على التوجّه الاشتراكي) نفسها متطابقة. أما الفرق كما كانوا يرون، بين حزب الطليعة الاشتراكية الذي يريد تقديم نفسه كحزب لمناضلين ذوي التزام وتنظيم، وبين منظمة المقاومة الشعبية (ORP) الغرض منها تجميع بشكل واضح كل من يستنكر الانقلاب السياسي، فسيكون صعب التمييز والإدراك لدى غير العارفين بالأمور السياسية.

كنت أشعر بالتأكيد أن والديك روشي (Waldeck Rochet) – الذي خلف موريس توريز (Maurice Thorrez) على رأس الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1964 – كان يتلقى الشروحات التي كنت أقدمها له بنوع من التشكيك والريبة، وإن كان يلقى إليّ السمع بانتباه ولطافة ؛ كما كان يظهر يشك في إمكانية إنشاء حركة شعبية كبيرة تنادي من أجل عودة (بن بلة) إلى الحكم في حين كان معظم الجزائريين لا يرون أي منفعة للتجنيد للدفاع عنه، مثلما كان يسألني فيما إذا لم يكن للجهود المبذولة من أجل تأسيس هذه المنظمة للمقاومة الشعبية أنها تأتي مناقضة لإنشاء بالموازاة حزب الطليعة الاشتراكية حيث ستكون الإطارات التي ستقوده في الجوهر من الحزب الشيوعي الجزائري باستثناء بعض المسؤولين المنتمين إلى اليسار الماركسي السابق لجبهة التحرير الوطني.

تعرفت عليه بمدينة الجزائر في الوقت الذي كان (دوغول) رئيسا للجنة الفرنسية للتحرير الوطني. رأى (والديك) في هذه الفترة عن قرب ماذا كان يعني الاستعمار، وبعد الاستقلال استمر باتباع تطور البلد باهتمام ؛ كان رجلا هادئا وذا حكمة ومتواضعا، يعرف كيف يستمع إلى محادثيه، كما كان

يحترس من الادعاء بتقديم "نصائحه" كمسؤول في "حزب كبير" لممثلين لحزب صغير، مثلما كان الشأن أحيانا مع مسؤولين آخرين.

قبل أشهر من عملية الانقلاب، كان البعض ممن كان في قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي وقد أبدا قلقه إزاء موقف الشيوعيين في علاقاتهم مع جبهة التحرير الوطني، موقف ينبئ وينذر بالاتجاه نحو حلّ ذاتي للحزب ؛ فاحترس هؤلاء بإبداء انشغالهم هذا صراحة خوفا من أن يظهروا يتدخلون في الأمور الداخلية الخاصة بالجزب الشيوعي الجزائري على الرغم من العلاقات الوثيقة الموجودة بين الحزبين. يفاجئني مع ذلك ليون فيكس (Feix Léon) يوما بتقديمي ملاحظة استوعبتها : "حلّ أي حزب يكون دائما سهلا، الصعب هو إيجاد وإعادة جمع القطع المترامية من بعدها، لكن هذه مشكلتكم أنتم وليس نحن ..".

وعلى أية حال فلن يبخل الحزب الشيوعي الفرنسي بتقديمه مساندته لنا كما لم تتخلف جريدة l'Humanité بفتحها أعمدتها لنا لمّا طلبنا من مسؤوليها ذلك ؛ وبفضل هذا التضامن استطاع المناضلون الآتون من الجزائر العاصمة أن يحلّوا بسرعة عديدا من مشاكلهم المادية. تقوم بعدها قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي بإرسالنا (جيلبرت) وأنا إلى بلدية Malakoff في الضاحية الجنوبية لمدينة باريس حيث كان ليو فيغيراس (Léo Figuéres) رئيسا عليها.

التقيت بـ (ليو فيغيراس) لأول مرة حينما كان لا يزال أمينا عاما للإتحاد الجمهوري للشبيبة الفرنسية (UJRF) كلّف أثناء الحرب في بداية صيف 1950 بمهمة السفر إلى الفيتنام لملاقاة هوو شي مين (Ho Chi Minh) ومقاتلي الـ Viet-minh. وكان بعد عودته محل متابعة بتهمة "التعاون مع العدو" ومطلوبا للمثول أمام المحكمة العسكرية التي تصدر في حقه غيابيا حكما بسبع سنوات مع الأعمال الشاقة ممّا أجبره على العمل في السرية إلى

غاية الشهور الأولى من سنة 1955. ولم يكن إلا في سنة 1957، بعد توقف المتابعات ضده حتى عاد للظهور إلى الساحة وإلى جانبه رينو سكولاري (Rino Scolari) الذي حكم عليه بالإعدام في عهد الاحتلال الألماني والفار من معتقل (Chateaubriant).[1]

كما تعرفت أيضا على جون كلافل (Jean Clavel) النائب الأول لـ (ليو فيغيراس)، كان (كلافل)، مثل ألبان ليشتي (Alban Liechti) الذي كان الأول في رفض حمل السلاح خلال حرب الجزائر، وقد شرح أسباب سلوكه هذا في رسالة مفتوحة إلى رئيس الجمهورية : لن يقاتل شعبا يكافح من أجل حريته ؛ هكذا ليدفع مثله مثل متمردين آخرين عدة سنين في السجن ثمنا لموقفه هذا. وبعد جرّه من سجن إلى سجن منذ 1957 وإلى غاية معتقل الأشغال الشاقة بالمراكز العقابية بالجنوب الجزائري، يتم إطلاق سراحه في ديسمبر 1959.

كنا في الحقيقة محاطين بما يثير الاطمئنان، فقد كانت كلمة "تضامن" تحمل كل معانيها مع أصدقاء من مثل هذا النوع ؛ لا أتذكر أني قوبلت برفض من قبل أي أحد منهم كان حينما أطلب مساعدة مرتبطة بالطبع بالعمل السياسي الذي كلنا كنا ملزمين به.

يعاد من جديد استدعاء (جوزات أرجاليس) التي صاحبتني بعد فراري من سجن رانس إلى الحدود السويسرية ثم دخولا إلى تشيكوسلوفاكيا ؛ تقبل دون تردد بالمهمة الخطيرة التي كلّفت بها المتمثلة في قيامها بدور عامل اتصال بين الجماعة التي أنتمي إليها وبين المناضلين النشطين في السرية بالجزائر العاصمة. كانت تنقل إليهم رسائلنا ووثائقنا وتحمل بالمقابل

---

(1) معتقل تم فتحه تحت الاحتلال الألماني وفي عهد حكومة Vichy. تم في هذا المركز بتاريخ 22 أكتوبر سنة 1941 قتل 27 مقاوما كلهم من الشيوعيين تقريبا رميا بالرصاص.

تقاريرهم إلينا، فكنا لا نرى من أسلوب آخر يمكننا إتباعه غير التزامنا بقواعد وطرق العمل في السرية ؛ فبهذه الطريقة أصبحت مختصا في فكّ رموز وشفرات النصوص - حيث تستلزم العملية استظهارها أولا من خلف حبر غير مرئي - وفي إنجاز أفلام كانت تحملها إلينا (جوزات) مخفية داخل أنابيب لمعجون الأسنان أو بين مجلدات الكتب. فقد كانت هذه المرأة تؤدي عملها بثقة عالية كما وأنها مسرورة بالقيام بالمهمات الخطيرة ولكن كانت دائما تخرج منها ناجحة بأعجوبة.

أدركت أن عددا من الأعضاء الدائمين والمأجورين من قبل جبهة التحرير الوطني بفرنسا لم يكن يميزهم شيء عن نظرائهم في الجزائر العاصمة الذين عاهدوا (هواري بومدين) بالإخلاص والوفاء له عند ساعته الأولى وهو يستولي على الحكم، بينما كانوا عشيتها يقرّظون ويمدحون (بن بلة). الكل تقريبا في فرنسا نددوا في أول الأمر بالانقلاب شاهدين نداءات المعارضين الموجهة إلى الانقلابيين باقية دون صدى، فكان انشغال هؤلاء الأول هو تجنب كل سلوك يمكنه إحراجهم شخصيا ويؤدي بهم إلى المخاطرة ببعض الإمتيازات التي أمكن لهم كسبها ؛ ودون أي انتظار ينضمون إلى معسكر المنتصرين.

تجد مجموعتنا مع ذلك سندا قويا وسط العمال المهاجرين من الذين التحقوا بالحزب الشيوعي الجزائري خلال حرب التحرير أو بعدها مباشرة. نجحنا في طبع ونشر مجلة بعنوان "Révolution socialiste" (الثورة الاشتراكية) التي جاءت في أساسها لتتناول النصوص والمقالات التي تم نشرها في الجزائر من قبل مناضلين مثل (صادق هجرس) و (بوعلام خلفة) و(عبد الحميد بنزين) استطاعوا الفرار بعد توقيفهم.

كانت بداية هجوم النظام المعلن ضد من بقي يحتج ويطعن في شرعيته في سبتمبر 1965؛ كان يوجد بين المقبوض عليهم، إلى جانب (حسين زهوان)

و(محمد حربي)، أعضاء سابقون في لجنة التوجيه لجبهة التحرير الوطني، قادة شيوعيون مثل (بشير حاج علي) الأمين الأول للحزب الشيوعي الجزائري، صحافيون وإطارات في جريدة "الجزائر الجمهورية" مثل (ويليام اسبورتيس)، (جيلبرت طالب)، (جاك صالور)، (أنري زانيتشي). وقامت جرائد جبهة التحرير الوطني الملهمة بأوامر أتتها من القمة بالكشف عن أسماء لعدد منهم من أصل أوروبي حيث يوجد من كان من بينهم غير معروف على سبيل (ارنو سبير) (Arnaud Spire) وجاك كنابا (Jacques Kanapa) اللذين جاءا يقدمان المعاونة لـ"الجزائر الجمهورية" وللجزائر الجديدة بعد الاستقلال. ويعد مغالاتهم التي أبدوها حول مواضيع مرتبطة بمعادة وكره الأجانب، يقوم الناطقون باسم النظام بمناشدة العمل الناجح الذي قامت به مصالح الأمن بالإطاحة بالنوايا السيئة لشبكة من المتآمرين الخطرين. كما تقوم جريدة El-Moudjahid بنشر على صفحة كاملة صورهم بعنوان أريد له أن يكون مصادما، صور أخذت في وقت سابق لـمّا تم استدعاؤهم من قبل مصالح الشرطة ؛ وجوه كدرة وشاحبة بلحي لم يعف عنها منذ عدّة أيام، كانت تمثل الصورة الكاملة لأعداء الجزائر الماكرين مرفوقة بنصوص مقابلة تؤكد ذلك. كان معظمهم وقد تعرض للتعذيب، كنت أرى أنه ليس هنالك ما هو أدعى للثورة من هذا. بقراءتي لاحقا الكتابات التي كانت تصلني عن أولئك الذين مسّهم هذا القمع بداية بما كتبه (بشير حاج علي) "l'Arbitraire" الكتاب الذي تم طبعه بمنشورات Editions de minuit وجدت نفسي أشعر بنوع من الاشمئزاز وأنا بذاكرتي تعود بي إلى ماض دنيء كان يظهر أنه يبعث من جديد. لكن باستثناء هذه المرة الحزب الشيوعي الفرنسي والمنظمات التي كانت تابعة له وبعض الشخصيات أمثال الكاتب روبير ميرل (Robert Merle) الذي تعرفت عليه حينما كان أستاذا مساعدا بجامعة الجزائر، ومادلين ريبيريو (Madeleine Rebérioux) الملتزمة دائما بالدفاع

عن حقوق الإنسان، وأنري دوزون (Henri J.Douzon) ومحامين آخرين ممن دافعوا عن أعضاء جبهة التحرير الوطني في المحاكم العسكرية، باستثناء كل هؤلاء، فقليل من الأصوات تم إسماعها للتنديد بالقمع الذي كان مسلطا على المناضلين الأكثر نزاهة والأكثر إخلاصا للبلد.

كانت فرنسا العميقة باقية صامتة أمام كل هذا كما وأنها كانت تريد أن تشيح بوجهها عن فترة من تاريخها تتعجل بوضعها في طي النسيان ؛ فقد كان حكام ومصالح رسمية معيّنة تجد دعما وسندا من معظم وسائل الإعلام يساعدونها على ذلك. ليس فحسب وأن الحديث أصبح مغيّبا بعد الآن عن الحرب الكولونيالية وعن الوسائل والأساليب التي تم استخدامها لإشعالها، لكن رجالا في الحكم يتظاهرون بأنهم لم يعد يهمهم الوضع بجزائر توقفت عن كونها "امتدادا لفرنسا"، مثلما وأنه كان يجب الإقرار على أنه لم يعد من كلام يقال بين البلدين.

كانت المسؤوليات التي اضطلعت بها تجبرني في الذهاب أحيانا إلى خارج فرنسا، إلى بلجيكا وانجلترا وإيطاليا وغالبا نحو البلدان الاشتراكية بخاصة إلى تشيكوسلوفاكيا أين قام حزب الطليعة الاشتراكية بفتح مكتب هناك يديره (العربي بوهالي) أكثر مسؤولي الحزب الشيوعي الجزائري أقدمية. فقد تمكن هذا الأخير من الفرار قبل أن يقبض عليه ليلتحق بمدينة براغ حيث سبق له وأن أقام فيها من قبل والتي كانت تناسب أكثر في سنوات الحرب الباردة من عاصمة أخرى غربية لإقامة ما يشبه نقطة التقاء والتواصل مع الأحزاب الشيوعية لشرق أوروبا والأخرى في البلدان العربية ومع حركات التحرر الوطني عبر العالم كله ؛ كانت اللقاءات التي كنت أحضرها بمدينة براغ وبالعواصم الأخرى جد مفيدة وثرية، كانت تسمح بتبادل المعلومات حول أوضاع الأحزاب المختلفة ومن أجل معرفة مواقفها الخاصة إزاء المشاكل الكبرى التي بدأت حينها تهز كيان الحركة الشيوعية

الأممية. كان قادة أحزاب البلدان الاشتراكية من الذين كانت تربطهم علاقات دبلوماسية مع الجزائر ويحرصون على المحافظة عليها - باسم الواقعية السياسية وبالتوهم بحصول تطور إيجابي (على الطريقة الكوبية) على مستوى قاداتها الجدد - يؤكدون على أنه ليست هي العلاقات مع حزب الطليعة التي تمنح لجبهة التحرير الوطني الحجّة لإحداث القطيعة معهم ؛ أخذنا بعين الاعتبار هذا الانشغال المبرر الذي كان يظهر لنا مع ذلك يحمل في أغلب الأحيان أبعادا مبالغا فيها.

كان الشيوعيون السوفيات الأكثر حذرا وحيطة الذين لم يكونوا يرفضون مع ذلك أية مساعدة عملية لأصدقائهم الجزائريين حتى ولو كانت هذه المساعدة تشكل خطرا لمّا يتعلق الأمر مثلا بنقل على متن إحدى سفنهم بعدما ترسو بميناء العاصمة الجزائرية أحد المناضلين كلّف بمهمة خارج البلاد. كما كانوا في نفس الوقت يكثرون في اتخاذهم الاحتياطيات - المثيرة للسخرية أحيانا - لتجنب كل حدث يمكنه خلق اصطدامات مع جبهة التحرير الوطني، والحالة هذه فكانت الجبهة تطالب بدورها على أن يقطع قادة البلدان الاشتراكية كل علاقاتهم التي كانت تربطهم إلى ساعتها مع رفاقهم الشيوعيين الجزائريين ؛ ودون القبول للخضوع كلية إلى مثل هذه المساومة التي يتقن لعبها القادة الوطنيّون، كان السوفيات جد حساسين مع ذلك. بعدما تم استقبال (صادق هجرس) أمين حزب الطليعة الاشتراكية من قبل مضيفيه بالعاصمة السوفيتية التي دخلها سرا من أجل إجراء محادثات رسمية مع الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتية، يخطره هؤلاء ويطلبون منه بإلحاح بعدم الخروج من الشقة التي وضعت تحت تصرفه إلا متنكرا حتى يبقى مجهولا لدى مقيم جزائري مشكوك في أمره يمكنه أن يتعرف عليه في أحد شوارع مدينة موسكو.

مهما كانت تحفظاتهم إزاء الخط المتبع لدى الحزب الشيوعي الجزائري، بقيت الأحزاب من الاتحاد السوفييتي وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والمجر، متمسكة دائما بموقف مبدئي يوجب بمد يد العون للأحزاب الصديقة الأجنبية حتى ولو كان هذا بامكانه أن يتسبب في خلق أضرار على سياساتهم الخاصة. موقف لم يقبل به ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Gorbachev) والرجال الذين كانوا يحيطون به ويعيدون فيه النظر بعد وصولهم إلى الحكم، البريسترويكا (la perestroika) - المقدمة كنظام للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي أو الـ aggiornamento المنتظر من قبل الشعب السوفييتي - بعواقبها الوخيمة المعتبرة ليس فحسب على الاتحاد السوفييتي نفسه وعلى الدول التي كانت تنتمي إلى ما كان لا يزال يسمى آنذاك بـ "المعسكر الاشتراكي" إنما أيضا على حلفائهم في العالم الثالث، وكذا لتصل عهد التيار الديمقراطي والثوري في العديد من البلدان; وحركة التحرر العالمية.

مشكلات شغلت حيزا كبيرا من حياتي تناولتها في كتب[1] أخرى والتي ربما ستكون لي الفرصة لإعادة تناولها بالتمحيص يوما ما لكن لا يمكنني هنا إلاّ التطرق إليها بسطحية فقط.

(1) ارجع إلى الكتابين :

- "Requiem pour l'Oncle Sam" (Messidor, Paris, 1991) .
- "Le Grand Bond en arrière" (Le Temps des cerises, Paris, 1997) .

خاتمة ..

ليست ربّما هي كذلك ..

كان الوقت يمرّ وأنا أتساءل عن المستقبل، في هذه الجزائر التي أفرغت شيئا فشيئا من سكانها الأوروبيين .. كيف يمكن ليكون غدا دور المناضلين الآتين من هذه الأقلية ؟

شجعت السياسة المحدودة لقادة جبهة التحرير الوطني التي كانت تراهن على التيارات الرجعية، على إقصاء هؤلاء الأوروبيين وعلى تهميشهم سياسيا على الرغم من التصريحات الظرفية. كنت أتساءل إن لم يكن بمقدور المسؤولين الشيوعيين من أصل أوروبيّ من الذين أعطوا كل قواهم من أجل تحرير الجزائر وأجبرتهم الظروف على مغادرة بلادهم، أن يخدموا مثلهم العليا بأحسن ما يمكن - ويأمل في جزائر حرة وديمقراطية أيضا - بممارسة النضال إلى جانب رفقائهم الفرنسيين.

فقد سبق لمن عرفت وتحاورت من بين الأقدام السوداء والأعضاء السابقين في الحزب الشيوعي الجزائري أنهم اختاروا في معظمهم جازمين الانخراط في الحزب الشيوعي الفرنسي.

"إذا حدث وأدت بي الظروف إلى أن أرحل الى كوبا أو إلى البرازيل، فأني سألتحق بالحزب الشيوعي الكوبي أو البرازيلي، يقول لي أحدهم، وأبقي جزائريا كما لا أتخلى عن كوني شيوعيا وأمميا، والمعركة العادلة يمكنها أن تحدث في أي مكان" .

ليست الأمور في الحياة تبدو بالبساطة التي قد يتصورها المرء، فلم يكن من الممكن أبدا على هؤلاء الرجال والنساء أن ينسوا الجزائر أو يغفلوا عنها ؛ الذي جرى فيها في الماضي وما سيجري مستقبلا سيستمر يخصّهم ما داموا على قيد الحياة، سيبقون مرتبطين بماض لم يسبق لأصدقائهم الفرنسيين أن عرفوه، لم تكن دائما تجاربهم السياسية وثقافتهم ومحفزاتهم و ردود أفعالهم هي نفسها لتلك عند مناضلي الحزب الشيوعي الفرنسي، إذ كانوا لا يزالون يعتبرون أنفسهم غرباء إنه الشعور نفسه الذي كان يأتي (جيلبرت) أحيانا التي انتهى بها الأمر وهي مقتنعة أنه ليس بامكانها البقاء خارج الفعل السياسي بفرنسا، إلى الانخراط بخلية بحي Malakoff أين تم استقبالهما بحفاوة كبيرة ؛ فقد طلب منها يوما أن تحكي لهم عن معركة الشيوعيين خلال سنوات الاحتلال الفرنسي وحرب التحرير، تلقّى عرضها اهتماما كبيرا لدى الحضور بل وعاشوا حكيها بانفعال، لكن عند نهاية الاجتماع يقوم أحد المسؤولين ليقترح عليها في انفراد بتجنب مستقبلا التطرق لمثل هذه الذكريات العنيفة التي يمكنها أن تتسبب في عزوف المنخرطين الجدد عن الانضمام إلى الحزب، هم الذين لم يعرفوا أي تحضير أو تدريب حتى يعيشوا مثل هذه المحن والتجارب ؛ اندهشت (جيلبرت) لملاحظة كهذه لكنها اكتشفت أنه كان يجب عليها في المستقبل الأخذ بعين الاعتبار أن هؤلاء الرفاق عاشوا تجربة مختلفة.

مرّت خمس سنوات منذ الإطاحة بـ (بن بلة)، كان لا يزال معتقلا غير أن تدابير القمع المتخذة ضد المناضلين الذين وقفوا ضد الانقلاب بدت وأنها خفت درجة حدّتها ؛ فقد تم إطلاق سراح معظم المسجونين وبقي عدد معين تحت الإقامة الجبرية في جهات مختلفة، لكن القرار دون أن يأتي مسجلا لأي تغيير في النهج السياسي ولا حتى الإعلان عن الالتزام باحترام حرية التعبير والتنظيم فيما يخص الشيوعيين وأولئك الذين عارضوا الانقلاب، إلا أنه

خفّف من الأجواء قليلا. صدر هذا تابعا لاختيارات ايجابية - كتأميم المحروقات مثلا - التي رحّب بها كثيرا المناضلون الباقون متمسكين بخياراتهم الكبرى المتمثلة في النهج التقدمي وفي معاداة الانبريالية، على الرغم من معارضتهم لجوانب أخرى للسياسة البومدينية.

سبق منذ مدة طويلة أن أخبرت رفاقي الجزائريين عن قراري في التخلي عن مسؤوليتي التي كنت أضطلع بها في حزب الطليعة الاشتراكية، إيمانا مني أني سأكون بعد الآن أكثر نفعا بانضمامي إلى الحزب الشيوعي الفرنسي. كان متفقا أني لن أقوم بذلك إلا بعد أن يتضح الوضع ويتحسن في الجزائر وأن الشيوعيين يجدون فيها كل حريتهم أو بالأقل بعض الامكانيات في التحرك والنشاط، حتى ولو بقيت هذه الأخيرة تتم في السرية أو فيما يشبهها. فجاءت اللحظة لوضع هذا المشروع محل التنفيذ لأجد نفسي مبكرا منضما إلى فريق جريدة L'Humanité. شغلت منصب أمين عام تحت إدارة رولون لوروي (Roland Leroy)، دون التخلي مع ذلك عن عمل الكتابة. لكن في جانفي 1973، الفترة التي التحقت فيها بالجريدة - التي غادرتها في أفريل 1981- كان إتيان فاجون (Etienne Fajon) هو من يشغل منصب مدير، عرفته منذ فيفري 1943، كان أحد أساتذتي في أول مدرسة لإطارات الحزب الشيوعي الجزائري في العمل السري بعد ما تم إطلاق سراحه من سجن Maison-Carrée حيث اعتقل رفقة ستة وعشرين نائبا. كنت أشعر بارتياح وأنا أعمل وسط هيئة للتحرير من بينهم بعض الصحافيين أمثال إيفاس مورو (Yves Moreau) المسؤول على صفحة السياسة الأجنبية، مادلين ريفو (Madeleine Riffaud) بطلة من بطلات المقاومة، روبير لمبوت (Lambotte Robert) ممن كان يتابع منذ مدة شؤون الجزائر وآخرون من الرجال والنساء من جيلي، ليسلوا من عالمنا اليوم، ممن عرفوا الكفاح المسلح مثل روني أندريو (René Andrieu) أو السجون أو المنفى مثل جون ميرو (Jean Mérot)،

جورج بوفار (Georges Bouvard)، مارسل فيريي (Marcel Veyrier)، بيار دوران (Pierre Durand) الذين أصبحت تربطني معهم قربة وطيدة ؛ والصداقة التي كنت أكنّها للبعض منهم بالخصوص (جون ميرو) و(جور بوفار)، كانت تتعمق أكثر لمّا يبديان مثلي عدم موافقتهم للتوجه الجديد للحزب الشيوعي الفرنسي - توجه ازداد تأكيدا لاحقا إلى أن سمي "بالطفرة" - الذي بات يظهر لنا ليس فحسب كتخلّ عن مبادئ نفسها لتنظيم ينادي بمرجعية ماركسية، وإنما أيضا كتنازل انتهازي بل وانتحاري بالنسبة لحزب ثوري". وكان أيضا من بينهم بيار جوان (Pierre Juin) - الذي كان مسؤولا على الصفحة الثقافية للجريدة لمدة عشرين سنة قبل أن نصبح معا مسؤولين عن الأمانة العامة - الذي لم تنقطع علاقات الصداقة بيني وبينه.

كان هنالك سبب آخر جعلني أبدي تحفظاتي إزاء سياسة الحزب الشيوعي الفرنسي، ففي بداية سنوات 1970 فسدت العلاقات فجأة ما بين الشيوعيين الجزائريين والشيوعيين الفرنسيين التي كانت إلى ساعتها تطبعها حرارة استثنائية ؛ ويقطعها كل علاقة تربطها مع حزب الطليعة الاشتراكية دون تقديم أي تفسير وحتى لا يكون من محادث آخر بعد الآن سوى جبهة التحرير الوطني والضرب صفحا عن الحقائق، تقوم إدارة الحزب الشيوعي الفرنسي لتلك الفترة بتقديم إلى منخرطيها صورة خاطئة عن جزائر "تخدم الاشتراكية" تحت قيادة جبهة للتحرير الوطني قوية، حسب نفس التحليل، بالثقة التي منحها إيّاها أغلبية الشعب الجزائري. وجاءت بعدها فترة حيث ستشهد الجزائر آنذاك تحت رئاسة (الشاذلي بن جديد) سنوات ميّزها بالخصوص ذلك القمع الهمجي الذي قوبل به الاحتجاج الشعبي - في أكتوبر 1988 حيث سقط بما يقرب خمسمئة متظاهر في أغلبهم شباب برصاص رجال الشرطة وأفراد الجيش في شوارع العاصمة- قبل أن تزول الأوهام .. وتصحّح الأحكام .. وتعود العلاقات من جديد بين الشيوعيين لكلا البلدين.

بالموازاة مع العمل الذي كنت أتابعه مع جريدة L'Humanité، أخذت على نفسي مهمة طباعة تاريخ عن حرب الجزائر، كتاب ذو تأليف جماعيّ يشترك فيه إلى جانب (جيلبرت) وأنا شخصيا وبنفس الحماس الذي لدينا كل من آنري دوزون (Henri J. Douzon) أستاذ في الحقوق الذي كان أحد المدافعين عن جبهة التحرير الوطني وعن الشيوعيين خلال الحرب، وبيار هوديكي (Pierre Haudiquer) أستاذ وعارف متميّز لكل الجوانب العسكرية والسياسية للنزاع، وجاك دو بونيس (Jacques de Bonis) وجون فرير (Jean Freire) كلاهما صحفيّان تابعا يوميا خلال سنوات تقلبات وظروف الحرب. غادرت (جيلبرت) المكتبة التي كانت تديرها في الضاحية الباريسية حتى تتفرغ لمهمة إدارة العمل المرتبط بالتوثيق والحوارات والبحث في الأرشيف وعن الشهادات الجزائرية والفرنسية، الذي يتطلبه المشروع.

يصدر إذن المؤلف "La Guerre d'Algérie" (حرب الجزائر) في ثلاثة أجزاء، الذي تلقى ترحيبا واسعا. وباستثناء بعض "المختصين" ممن يتصرفون بدافع الأحكام المسبقة والمعاداة للشيوعية بخاصة، فكان لمعظم الذين علّقوا على صدور هذه الكتب أنهم رأوا فيها مساهمة كبيرة تضاف إلى المجهودات المبذولة لكسر جدار الصمت والجهل الذي كان لا يزال منذ نهاية الحرب يمنع الفرنسيين من معرفة حقيقة أسباب ثورة الجزائريين وطبيعة هذه الحرب والأساليب التي انتهجت في قيامها. لا تخصص الكتب المدرسية - في فرنسا- إلا جزءا ضئيلا من مساحتها "لأحداث الجزائر" مما يعني بالنسبة لأجيال من الثانويين أبناء المجندين الجدد الملقى بهم وسط نيران الحرب، أنه لم يكن هنالك من حرب "حقيقية" وقعت وإنما "عمليات لحفظ الأمن" ليس إلاّ، حسب اللغة الرسمية.

انتهى المطاف بعمليات العفو المتتابعة من (دوغول) إلى (ميتيران) إلى حماية كاملة للجلادين والمجرمين القتلة إلى درجة أنه لم يعد ثمة من

اندهاش رؤية هؤلاء يهاجمون ويتابعون الصحفيين والمخرجين السينمائيين في المحاكم من الذين يتجرؤون التطرق إلى جرائمهم أو الكشف عنها. فقد شاركت في هذه المحاكمات بدعوة من هيئة الدفاع، حيث كان القضاة يعطون الحق بتحيّز للجلادين "المفترى عليهم زورا" ويدينون أولئك الذين كانت لهم الجرأة في الدفاع عن الحقيقة، دون أن يثير هذا كله ضجة تذكر ؛ فحسب القانون لم يكن هنالك وجود لا لحرب ولا لجرائم ولا لهمجيات ارتكبت في حق الجزائريين. كان يجب انتظار سنة 1999، - بعد خمس وأربعين سنة منذ اندلاع الثورة- حتى تعترف الجمهورية أن المواجهات التي جنّد لها أكثر من مليونين من الشباب لمدة سبع سنين ونصف، وتسببت في موت بما يقرب خمسة وعشرين ألفا من أفراد الجيش الفرنسي ومئات الآلاف من الجزائريين رجالا ونساء وأطفالا، وفي تهديم الآلاف من القرى والمداشر، يمكن تسميتها "حربا". وعلى الرغم من هذا الاعتراف بعد عشرات السنين من الصمت المتصنّع، كان لا يزال باقيا صعبا على الشهود ومؤلفي الكتب ومخرجي الأفلام أن يزيلوا الغطاء عن وجهها الحقيقي.

أكيد وأنه لم يكن يتجرأ لمنع إعادة طباعة كتب - ومنها - La Question تم منعها أو حجزها قبل سنوات، لكنه كان ثمة إرادة سياسية تريد أن تقف للحيلولة دون أن تنتشر مثل هذه الكتب على مستوى واسع في وسط المجتمع. كانت الأفلام النادرة المتناولة للحرب الكولونيالية - تلك مثلا لروني فوتيي (René Vautier) وفيلمه بعنوان "Avoir vingt ans dans les Aurès"، والآخر لأندري غازوت (André Gazut) المبرمج في التلفزة السويسرية سنة 1972، في سلسلة "Destins" الذي يحكي معركة الجنرال بولرديار (Bollardière) ضد التعذيب - ضحية نفس الرقابة المانعة.

يتم سنة 1977 أي خمس عشرة سنة بعد نهاية الحرب، عرض فيلم لورانت بنيمان (Laurent Heynemann) المستلهمة قصته من كتاب "La Question" في

بعض القاعات : لم ينل هذا الفيلم في بداياته الأولى انتشارا كبيرا على الرغم من الخاصيات والميزات الحسنة التي أكدها النقاد والاهتمام الذي أثاره، وبحجة وقوع بعض الأحداث تسبب فيها بعض من زراع القلاقل من اليمين المتطرف أثناء عرضه الأول في إحدى القاعات، يقرر عدد من محافظي المقاطعات منع عرضه بلا قيد ولا شرط على مستوى مقاطعتهم مدّعين أن هذا الفيلم "ذو طابع يثير الإخلال بالنظام العام"؛ وبتحريض من مراكز عليا يرى معظم مديري قاعات السينما من الحذر والفطنة تجنب برمجته. وبعد مرور سنوات يمكن أخيرا لهذا الفيلم أن يعرض في مختلف قاعات السينما والفن، في الثانويات والجامعات، وفي ساعة متأخرة في إحدى القنوات التلفزيونية.

كانت المعركة من أجل الحقيقة التي أريد لها الطمس والتي هي بليغة الأهمية سواء بالنسبة للفرنسيين أو الجزائريين، لا زالت بعيدة لأن تكون قد اكتملت. ولم يكن إلا في منعرج القرن وبقوة مذهلة لسيل بقي طويلا مصدودا حتى تصدع أخيرا هذه الحقيقة مدوّية للكشف عن بصائر الملايين من الرجال والنساء من الذين صدّقوا أو أرادوا تصديق القادة السياسيين والعسكريين الذين كانوا يصرحون بسلامة الطوّيّة أنهم في مباحثة عن تهدئة إنسانية وأن الذين كانوا يتهمونهم بتشجيع ممارسة التعذيب والإعدام بدون محاكمة إنما مغرضون متلهفون للافتراء على فرنسا وجيشها.

كما أتى من هنا وهناك اتهامات وشهادات لأصحابها من الجزائريين والجزائريات أو من العسكريين ممن كان يتألم بذكريات ماض بقيت مكبوتة بداخلهم، ليأخذوا أخيرا الكلمة ليفصحوا بمجد وشرف عمّا كانوا شهودا عليه بينما يشعر الجلادون السابقون المقلّدون في الرتب العليا والحائزين على أوسمة الجمهورية أنهم مطالبون بتبرير مواقفهم نحو كل هذا. وكان للجنرال ماسيو الذي قام بالتغطية والتستر على كل الجرائم المرتكبة تحت قيادته خلال معركة الجزائر. بما فيها الإعدام بدون محاكمة المصرح بها

كمليات انتحار أو فرار وفقدان في حق أصحابها، وأن رجع واعترف أن ممارسة التعذيب كانت حقيقة موجودة ويصرح وهو على مشارف الموت تقريبا في حوار ظهر فيه صاحبه وأنه يتوب من ذنوبه أن "التعذيب لم يكن ضروريا" و "أنه يمكن في أوقات الحرب الاستغناء عنه" وفي الأخير "فإنه يؤسفه وهو يفكر في الجزائر". كانت هذه المرة الأولى التي يؤكد فيها بعد تردد كبير من دون شك، مسؤول عسكري في أعلى الرتب شهادات لمئات الضحايا على أيدي الجلادين، والشهود والصحافيين والكتاب المؤلفين إلى ساعتها مدانين بحجة الطعن في اتهاماتهم.

كان يجب مجيء التصريحات الفاضحة لجنرال آخر باسم بول أوساريس (Paul-Louis Aussaresse) أكبر المختصين وتقنيي عمليات الاستنطاق المشدّدة والقتلة من الذين كانوا يجرمون خلال معركة الجزائر، حتى يشعر المسؤولون السياسيون السامون في البلاد " جاك شيراك (Jacques Chirac) رئيس الجمهورية وليونال جوسبان (Lionel Jospin) رئيس الحكومة، أنه أصبح لزاما عليهم كسر جدار الصمت ليعبروا بدورهم عن تأثرهم وسخطهم لما يخالجهم ؛ فيجيبون النداء المعلن من قبل اثني عشرة شخصية [1] معروفين بوقوفهم ضد الحرب الكولونيالية وطرقها المنتهجة. جاء في هذا النص أنه مطلوب منهم باسم فرنسا التنديد علنا ورسميا بممارسة التعذيب. فقد كان لهذا النداء الذي تم نشره في جريدة L'Humanité بتاريخ 31 أكتوبر

---

(1)انري علاق (Henri Alleg)، جوزات اودان (Josette Audin)، سيمون بولرديار (Simone de Bollardière)، نيكول دريفوس (Nicole Dreyfus)، نوال فافروفيار (Favrelière Noël)، جيزال حليمي (Gisèle Halimi)، البان ليشتي (Alban Liechti)، مادلين ريبيريو (Rébérioux Madeleine)، لورانت شوارتز (Laurent Schwartz)، جيرمان تيليون (Germaine Tillion)، جون بيار فيرنان (Jean-Pierre Vernant)، بيار فيدا ناكي (Pierre Vidal-Naquet)، كان هؤلاء الممضين على «نداء الإثني عشر»

- ارجع إلى شارل سيلفستر :

"Charles Sylvestre : "La torture aux aveux" Editions Au diable Vauvert, 2004

2000 انعكاسات كبيرة، لكن لم يكن ذلك إلاّ مرحلة أولى على مسار طريق طويل لازال يستوجب قطعه طالما أن النظام لم يقدم إجابات على الأسئلة الأساسية المطروحة عليه والتي لا زالت عالقة.

شهور من بعد يتم لأول مرة استدعاء جلاّد مجرم للوقوف أمام العدالة، إنه الجنرال أوساريس (Aussarres) نفسه ؛ ليس للإجابة عن عمليات التعذيب المسلطة على المساجين وقضية الإعدامات دون محاكمة التي كان مسؤولا عنها، لكن من أجل "تمجيده" لهذه العمليات ذاتها الذي جاء ذكره في كتابه وفي الحوارات التي تمت مع فلورانس بوجي (Florence Beaugé) من جريدة Le Monde، ليعرف هكذا قراؤه أنه وإلى جانب الجرائم المرتكبة بكل برودة دم التي شارك فيها شخصيا ويعترف بذلك، يتبجح ويتفاخر كونه هو بذاته، وبمساعدة اثنين من صف الضباط، قام بعملية شنق (العربي بن مهيدي) أحد المسؤولين الكبار في جبهة التحرير الوطني، ثم التستر وراء الادعاء أن الرجل مات منتحرا. وبنفس الاستخفاف والوقاحة يعلن مسؤوليته عن إعدام (علي بومنجل)، الجريمة التي قدمت آنذاك من قبل المصالح الرسمية لمدينة الجزائر وباريس على أنها عملية انتحار أخرى. لكن حينما سئل عن مصير موريس أودان الذي قبض عليه وعذب من قبل المظليين بأمر منه، بقي مثل (ماسيو) من قبله مصرا على صمته ومغضا الطرف لما قامت (سيمون دو بولرديار) أرملة الجنرال تنذره أثناء المحاكمة بقول الحقيقة التي لا يمكنه أنه لم يكن يعرفها.

جاءت العقوبة التي سلطت عليه – غرامة مالية ليتبعها بعدها طلب رسمي بشطب اسمه من صف فيلق الشرف – تافهة ولا معنى لها بالنظر إلى وحشية الجرائم المرتكبة، فلا تقل على كونها رمزية. أصبح أكثر فأكثر صعبا بعد الآن، على الرغم من محاولات متفرقة هنا وهناك لبعض ممن يحنّون إلى "الإمبراطورية" من المدنيين والعسكريين – من بينهم بعض المئات من

الضباط السامين - مراجعة التاريخ برفض وإنكار شهادات يتعذر دحضها. لكن الذين كانوا يحكمون سيبقون مصرّين على عدم الاعتراف، كما سبق وأن قاموا بذلك لمدة قرن ونصف من الزمن فيما يتعلق بسياسة الاستعباد، أن النظام الكولونيالي الذي كان يغذي الشر، كان هو في ذاته جريمة ضد الإنسانية يجب إدانته على هذا الأساس.

غالبا ما كان يحدث لي - ولا يزال الشأن كذلك - وأن أطلب للذهاب للإجابة عن أسئلة التلاميذ في الثانويات والإكماليات على حقيقة النظام الكولونيالي والحروب الاستعمارية. كان الاهتمام الكبير الذي لقيته لدى هؤلاء الشباب حول ما كنت أكشفه لهم، يؤثر في العمق وكنت أشعر كم كان مفيدا لأساعدهم ليس فحسب في معرفة ماض كان لهم مخفيا، وإنما أيضا أن يحتاطوا من الأكاذيب الهالكة، وأحذرهم من مستقبل يمكنه دائما مثلما يجري في العراق أو في جهات أخرى من العالم، أن يأتي باعثا ثانية للرعب والهول.

الجزائر العاصمة، فيفري 2002

وجدت نفسي في هذه البناية التي كانت في السابق مقر جريدة Alger républicain، هذا الصرح المبني على النمط المعماري الأسباني- البربري الذي كان السوّاح غالبا ما يظنّونه وهم يمرون من أمامه على أنه مسجد، ويتساءلون لماذا تم بناؤه هنا في وسط المدينة الأوروبية على شارع laferrière بالقرب من البريد المركزي ومن نصب أموات حرب 1914-1918. كانت الصومعة وأقواس العقد في شرفته، والثريّات المصنوعة من البلّور المعلقة إلى سقف البهو الذي في المدخل، والنقوشات الخزفية التي على الجدران، والآيات القرآنية التي تم نقشها على المعجون المرمري .. تذكر بديكور قصر الحمراء بغرناطة وتغري وتغالط من يتأمله.

كنا هنا على مقربة من منتصف الليل، في مجموع اثني عشر من "الناجين" من الذين ناديناهم نحن الثلاثة (بوعلام خلفة) و (عبد الحميد بنزين) وأنا، للمساهمة في تأليف كتاب : "la Grande Aventure d'Alger républicain" - المغامرة الكبرى لجريدة "الجزائر الجمهورية". زيادة إلى نحن الثلاثة كان هناك لخضر قايدي (Lakhdar Kaidi) لوسات حاج علي (Hadj Ali Lucette)، عمر هراوة (Omar Herraoua)، دونيز وروني دوفالي (Duvalet

Denise et René)، مصطفى قايد (Mustapha Kaid)، جون بيار سعيد (Jean-Pierre Said)، محمد رابح (Mohamed Rabah)، فانسون إيفورا (Vincent Ivora)، عيسى بيوض (Aissa Baiod).

اثنا عشر من "القدامى" ممن طبعتهم المحن في السنوات الخالية حيث كان لنا موعد لنلتقي هنا بعد خمسين سنة للحديث عن ماض مشترك كما طلب منا جون بيار ليدو (Jean-Pierre Liedo) الذي كان يصوّر فيلما تدور أحداثه بالمناسبة حول هذا الحلم الذي كان حلمنا نحن .. حلم عن بلد جديد وحر ينفتح على التعايش الأخوي بين كل أبنائه ؛ فقد اختار هذه الساعة غير المناسبة للعمل حتى يجد أجواء الجد والنشاط الليلية للصحافيين ولكن أيضا لتجنب الجموع الفضولية التي بمجرد ما ترى الكاميرا تأتي متطلعة حول ما يجري في وضح النهار في أحد الأماكن من الجزائر العاصمة.

كان البهو هادئا وشبه مظلم، كنا نخفض من أصواتنا ونحن نتكلم كما وكأننا نقوم بذلك في مكان يجب احترامه أو كأن أرواح رفقائنا تنساب من حولنا، هذه الأرواح التي سقطت برصاص الجيش الفرنسي أو برصاص مجرميّ الـ (OAS). وجدنا قاعة التحرير التي كانت في السابق حية بأضوائها المنيرة وبالنشاط والحيوية اللذين كانا يعمّانها إلى غاية أن يأتي دور الآلة الطابعة - التي هي تصدأ الآن في السرداب- التي تقوم بمهمة إخراج الجريدة، وجدناها تبدو مظلمة، هادئة، خاوية، مهجورة، مليئة بالغبار .. وكنت أخالني أسمع أصواتا وضحكات ترددها الحيطان المصفرة كصدى مخنوق .. النفس الذي خمد لرفاقي الذين رحلوا عنا.

تجاوزت مع زوجتي (جيلبرت) سن الثمانين، وكان أولئك الذين بقوا على قيد الحياة والذين يحيطون بي أو مثل آخرين من الذين ألتقي بهم أثناء سفري عبر البلاد، من العاصمة إلى عنابة أو من قسنطينة إلى الونزة، ومن شرشال

إلى وهران، كان هؤلاء يقاربونني في السن أو يكبرونني قليلا .. ونفس التساؤلات بقيت تطرح على ضمائرهم. هل يمكنهم .. هل يمكننا القول أننا راضون على المشوار الذي قطعناه منذ شبابنا على طول سنوات عديدة وعلى الإرث الذي سنتركه وراءنا ؟

لم يكن بامكان النظرة التي كنا مع هؤلاء وأولئك نلقيها على هذا العالم الذي كنا نتأهب لمغادرته لتسعدنا ؛ فقد عشنا لحظات مجيدة وعظيمة أين تم الانتصار على الفاشية وتحرير مئات الملايين من البشر من نير الاستعمار، كما شهدنا حماس وبهجة الجزائر المستقلة وحلمنا من موسكو إلى هافانا، من بيكين إلى جوهانسبورغ ومن مدينة الجزائر إلى باريس وبرلين .. حلمنا أن يتحوّل أملنا في مستقبل أخيرا إنساني، إلى حقيقة نراها تحت أعيننا. كانت التطورات الهائلة التي سبق إنجازها ترضينا في حين أن المسيرة نحو الهدف المتبع كانت تتطلب الكثيرة من الصبر والجلد وأن الرجوع إلى الوراء لم يكن أبدا ممكنا حتى ولو كان بامكان بعض العوائق الطارئة لتعطل من هذه المسيرة بعض الشيء.

كنا نتحدث عن كل هذا وعن الأحداث التي طرأت وأدت بنا إلى حقائق مرّة : انهيار الاتحاد السوفييتي (URSS) والبلدان الاشتراكية، القضاء المبرمج على كل إنجازاته على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي .. لفتح مجال الانتقام لقوى الماضي ولدحض الأحزاب الشيوعية القوية وصعود القوى الرجعية في أوروبا، واغتصاب الحكم في معظم البلدان الإفريقية من قبل ديكتاتوريات فاسدة في خدمة أسياد قدامى أو جدد، والغطرسة الأمريكية بقوتها العظمى المؤكدة على إرادتها في الهيمنة على العالم والناقلة للحرب والموت والدمار إلى أي مكان حيث تتجرأ الشعوب معارضتها أو مقاومتها.

كما كان أيضا للإرهاب الأصولي في هذا البلد الحيوي والقريب الذي كنا نحب ولا يمكننا أبدا التخلي عن حبه، أنه زرع الحقد والموت لمدة عشرية كاملة متسببا في سقوط عشرات الآلاف من الضحايا . وعلى بعد مئة متر عن بهو مقر جريدة "الجزائر الجمهورية" حيث كنا مجتمعين، تنفجر قنبلة في سوق قريبة تسببت شظاياها في جرح بما يقرب عشرة أشخاص، هكذا لنقتنع أن القتلة لم يتقبلوا هزيمتهم بعد.

ففي هذا الحاضر الدموي وفي المستقبل الصعب الذي كان ينتظر من سيأتي بعدنا كان رفاقي وأنا معهم نفكر ونحن نلتقي في هذه الليلة في البهو المظلم لجريدة "الجزائر الجمهورية" المليئة بالذكريات.

لكني لاحظت بإمعان أنه ولا أحد منا - كثيرا ما كنت مع (جيلبرت) نتحدث عن هذا الأمر- رضي لنفسه بأن يكون عرضة للإحباط والتشاؤم والهزيمة التي يريد المنتصرون المؤقتون زرعها في عالم اليوم، ولا حتى للندم على التزامه قضيتنا وهو في ريعان الشباب. بالعكس فقد كانوا سعداء وهم يرون في جزائر ممزقة جريدة "الجزائر الجمهورية" - بروح قتاليتها المعهودة كالماضي - تدوي مجددا وأولئك الذين تحملوا مسؤولية إعادة إصدارها يتجرؤون بقوة وشجاعة لتأكيد إخلاصهم ووفائهم لاختيارات الجريدة المعروفة على الدوام.

كلاّ باطل من قال بـ "نهاية التاريخ" .. مثلما أنه ليس بنهاية العالم بعد هزيمة (سبارتاكوس) أو بلدية باريس. ففي كل القارات حمل الكثير من الرجال والنساء المشعل وسيحملونه أيضا عاليا منتصرين .. وبأكثر قوة وتجربة ووحدة ووعيا من أولئك الذين سبقوهم، وكلهم حزما وثقة بمستقبلهم.

كانت المسيرة لا زالت باقية غير مكتملة، إنما كانت تظهر نهايتها أكثر بعدا .. وأكثر ألما .. وأكثر صعوبة للوصول إليها مما كنا نتصور ؛ لكننا كنا

نعلم أيضا أنه لم يكن بامكاننا أبدا التخلي أو التنازل عمّا كان دائما باق وسيبقى أول غاية نعيش من أجلها : مواصلة الكفاح مع الملايين من الناس .. كفاح المستغلين الطويل، والمضطهدين و"المعذبين في الأرض" .. من أجل أن يولد أخيرا عالم آخر جديد .. عالم الحرية الحقة .. والأخوة الحقة.

الجزائر العاصمة، فيفري 2002

الفهرس

طبع هذا الكتاب في سبتمبر 2007
بمطابع دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين، رقم 6، 16012، الجزائر.
الهاتف : 11 / 10 79 54 021 الفاكس : 77 72 54 021
الموقع الإلكتروني : www.casbahéditions.net
البريد الإلكتروني : casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2007.

هنري علاق

مذكرات جزائرية

ذكريات الكفاح والآمال

ارتبط اسم هنري علاق بكتابه *La Question* (الاستنطاق). هذا الكتاب الذي منع عند صدوره لتناوله من منطلق الشاهد قضية التعذيب إبّان حرب التحرير، كان سببا في قلب وتغيير الرأي العام الذي سمح بعدها بإنهاء الحرب.

لكن هنري علاق هو قبل كل شيء فاعل وشاهد بارع على طول المسيرة الطويلة نحو الاستقلال. يدخل الجزائر سنة 1939 وسرعان ما يعشق هذه المدينة التي تصبح مدينته، حية ومتنوعة، ليثور بعدها ضد النظام الكولونيالي ويلتزم بالقضية بصفته صحافيا بجريدة *Alger Républicain* ثم مناضلا بالحزب الشيوعي الجزائري.

يعود بالكشف والعرض من خلال هذه المذكرات حول سنوات الكفاح : العمل في السرية تحت نظام Vichy، العلاقات الصعبة والمتوترة ما بين الحزب الشيوعي الجزائري (PCA) وجبهة التحرير الوطني (FLN)، معركة الجزائر، الاعتداءات الإجرامية، الإعدامات دون محاكمة، ظروف اعتقاله، التعذيب، السجن، الفرار ...

وطالما أن حياة هنري علاق ستبقى مرتبطة بعمق بالمأساة الجزائرية لمدة تفوق ربع القرن، فإن هذا الكتاب المتميز والنادر ضروري جدّا لمن أراد أن يفهم هذه الصفحات المظلمة والمحرقة لتاريخنا ...

«ليست هذه الشهادة [...] مهداة للجزائريين الذين عاشوا "سنوات الجمر" فحسب، فهي تخاطب كل "الرجال ذوي الإرادة الحسنة" من الذين يتساءلون حول المستقبل في هذا العصر الراهن المضطرب الذي نعيشه، ويرفضون الخضوع أمام الفكر الأوحد، ودولة المال، والقوة المباغتة، و... والتعصبية، والأنانية والتهكمية والقيم المغالطة المقدمة بكل نفاق كتعاليم ... يحاول أسياد العالم الحاليّون فرضها كقواعد سلوكية وحياتية عالمية ».

(مقطع من مقدمة الطبعة ال...





ردمك: 9-664-64-9961-978

دار القصبة للنشر